

الخزي

سالتيكوف شيدرين

♦ المؤلف: سالتيكوف شيدرين

♦ العنوان: الخزي - أنشودة رعوية معاصرة

♦ ترجمة: يوسف نبيل

♦ الطبعة: الأولى 2023

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٢ / ٢٣٨٦٠

الترقيم الدولي: ISBN :

978 - 977-765 - 357 - 2

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٢٧٨٧ ٠١١١١٦٠

سالتيكوف شيدرين

الخزي

أنشودة رعوية معاصرة

ترجمة

يوسف نبيل

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:

Современная идиллия
Михаил Евграфович Салтыков-Щедрин
All rights reserved.

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2023

إهداء المترجم

إلى د. تحسين رزاق عزيز
امتناناً و عرفاناً بكل ما صنعه من أجلي.

مقدمة المترجم

بدأت فكرة روايتنا هذه بقصة قصيرة كتبها شيدرین، شكّلت بعد ذلك الفصل الأول من هذه الرواية في عام ١٨٧٧. كتب شيدرین هذه القصة ليملاً بها فجوة ظهرت في جريدة «أوراق وطنية» إثر منع الرقابة لإحدى قصصه.

في أعداد مارس وأبريل واصل شيدرین حكايات أبطاله، وتعمقت الفكرة لتتطرق إلى ماذا يمكن أن يفعل المثقفون لينالوا الموثوقية السياسية من جانب النظام الحاكم. تتبعت الرواية محاولات تهربهم من مناقشة أي قضايا اجتماعية أو سياسية، أو حتى التفكير فيها، ثم تطور الأمر ليصل إلى انخراطهم في أمور لا أخلاقية وإجرامية.

سالتيكوف شيدرین (١٨٢٦-١٨٨٩): واحد من عمالقة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر. اشتهر برواياته الساخرة ذات الطابع السياسي، مثل: السادة آل جولوفوف - قصة مدينة. رسمت أعماله لوحة جريئة لروسيا بعد إلغاء نظام القنانة، ورصدت أهم مظاهر الحياة الاجتماعية الروسية في الريف والمدينة على السواء. طوّر شيدرین شكل الرواية الروسية، ووصل بسخريته السوداء إلى آفاق يختلط فيها الواقع بالفانتازيا. هو الوريث الشرعي لنيقولاي جوجول. يُعتبر شيدرین بوجه

عام أحد المجددين الكبار في شكل الرواية الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

كتب شيدرین هذه الرواية على مدار سنوات؛ بدأها في عام ١٨٧٧ وأنهاها في ١٨٨٣. أدى صعود المشاعر الثورية في عام ١٨٧٩ - ١٨٨١، والذي انتهى باغتيال الإسكندر الثاني، إلى إجبار الكاتب على ترك الفكرة حتى عام ١٨٨٢، وعندما صار موضوع الانتهازية في عصر الرجعية السياسية ذا أهمية خاصة، عاود الكتابة مجددًا حتى أنهاها في ١٨٨٣.

حظرت الرقابة الفصل الرابع من الرواية، وأثار مشهد محاكمة الأسماك استياء الرقابة أيضًا وحذرت الكاتب أكثر من مرة، واضطر إلى استخدام كل مهاراته الرمزية ليحاول تخطي الحظر.

هذا المشهد تحديدًا أثار إعجاب ليف تولستوي بقوة حيث قال في حوار له مع ج. أ. روسانوف:

«تحول الحديث إلى شيدرین. سألني تولستوي: «هل قرأت روايته: أنشودة رعوية معاصرة؟ هل تذكر مشهد محاكمة أسماك القويون؟». أجبته: «نعم، أتذكره». قال تولستوي: «مشهد فائن!». وذكرني باقتباس آخر عن شيدرین يتحدث فيه عن المتبطلين، وخلص تولستوي إلى: «إنه يكتب جيدًا. يا للأسلوب الأصيل الذي طوّره!». قلت له: «الأمر ذاته مع دوستوفسكي حيث طوّر أسلوبًا أصيلًا خاصًا به». اعترض تولستوي قائلاً: «لا، لدى شيدرین أسلوب رائع، وهو أسلوب شعبي بحت وملتقن، في حين أن أسلوب دوستوفسكي يتسم بشيء ما مصطنع ومتكلف».

قد يكون عنوان الرواية مرتبطاً برواية كتبها الكاتب الروسي «أفيناريوس» تحت العنوان ذاته، وقد انتقدها شيدرین بحدة، لكن العنوان هنا في رواية شيدرین يكتسب دلالة ساخرة عميقة. المعنى الأصلي للأنشودة الرعوية: «قصيدة قصيرة تتغنى بوصف الحياة الريفية والرومانسية».

بالرغم من الفواصل الزمنية والبدء في كتابة العمل بشكل غير متوقع لسد فجوة في جريدة، فإن العمل في صورته الأخيرة اكتسب شكلاً عضوياً متكاملًا.

عند الحديث عن الرواية، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر شيدرین في الرواية المعاصرة. سعى شيدرین في هذه الرواية إلى تجسيد الإمكانيات الكامنة في هذا الجنس الأدبي الذي كتب عنه كناقذ في مقالاته. أعلن شيدرین طوال فترة السبعينيات استنفاد الرواية التي تأسست على فكرة العلاقات الأسرية والمشكلات النفسية الحميمة وعلاقات الحب... إلخ. يغيب كل هذا في روايتنا هذه إلى حد كبير. أراد شيدرین توسيع نطاق الرواية الروسية بسبب التغيرات الجذرية التي طرأت على العالم الحديث.

لكن شيدرین اعتمد في تحديثه لشكل الرواية على تقاليد الشكل الملحمي الذي يجمع بين المغامرة والعوامل الاجتماعية والنفسية، ويُعرض كل ذلك في رحلة تُدكّرنا بأعمال ثربانتس وجوجول وديكنز. في إحدى مقالاته شدّد شيدرین على المهمة التي حددها جوجول للأدب المعاصر: «اقتحام البطل لجميع الطبقات الاجتماعية».

على مدار عقد كامل ظل شيدرین يُطوّر هيكله الروائي، وأتاح له الشكل الذي استخدمه في روايتنا هذه، والمكوّن من قطع مستقلة عديدة، إلى أن تغطي مادته، التي قد تبدو غير متجانسة للوهلة الأولى، طبقات الواقع المختلفة، كما تسمح بالتطوير الهزلي للشخصيات والظروف على السواء.

عكست الرواية كل تناقضات الهيكل الاجتماعي لروسيا في فترة ما بعد إلغاء قانون القنانة. كانت الحكومة تبحث عن مخرج من الأزمة من خلال إجراءات طارئة قاسية، وأحياناً اضطرت إلى تقديم بعض التنازلات. لكن الظروف التاريخية التي كان من الممكن أن تضمن نجاح الهجوم الثوري لم تتوفر في البلاد. لم تنتج عن اغتيال ألكسندر الثاني (١ مارس ١٨٨١) أي نتائج إيجابية للثوار، مما أدى إلى استنفاد قوتهم مؤقتاً. صُدّت الموجة الثورية. في ٢٩ أبريل ١٨٨١، نشر ألكسندر الثالث بيانه الذي كرّس لحقبة قاسية من الاستبداد.

انتشر السخط بين الناس بسبب الفساد السياسي الهائل، وتزايد خوف القوى البرجوازية النبيلة من احتمالات الثورة وخيبة أمل واسعة النطاق. خلقت الأزمة حالة سخط شديدة، كما نشأت بعض المنظمات السرية الرجعية بشبكاتها الخاصة للقضاء على الثوار والجواسيس والمحرّضين.

هذه هي الخلفية السياسية العامة التي دارت أحداث الرواية في نطاقها. لكن مع كل ثراء النص السياسي، فإن روايتنا هذه لا تمثل مجرد

استجابة مباشرة لمسار الأحداث التي نشأت في أثناء العمل عليها. لا تمثل الرواية بانوراما للقوى والأحداث الاجتماعية وحسب، الفكرة العميقة في الرواية هي دراما ضحالة الشخصية البشرية، وانقراض الأفكار، وإفقار الحياة تحت نير الرجعية.

يمر بطلا الرواية بجميع مراحل تضاؤل التفكير ليملكهما الغضب في النهاية، ويشعران بعذاب الخزي المستيقظ من سباته.

صمّم شيدرین روايته فنيًا بصورة تتيح له فضح عبثية النظام الاجتماعي الحديث، وتدمير الأوهام الاجتماعية المنتشرة في هذه الفترة. إذا كانت حبكة العمل قد خرجت عن نطاق الحبكة التقليدية، فهذا طبيعي من الناحية الفنية في أدب شيدرین. كل أعمال الكاتب تقريبًا عبارة عن نص كبير يحتوي على مشاهد كثيرة ومتنوعة ذات علاقات داخلية وخارجية وثيقة، بعكس ما يبدو من الوهلة الأولى. دائمًا ما يكون موضوع أعماله هو الحياة الاجتماعية في روسيا.

يُطوّر شيدرین حبكتة ليصل إلى موضوع الخزي والحاجة إلى إيقاظ الضمير العام. يظهر الخزي هنا في الرواية في الحلم (بالمعنى المباشر)، لكن مقاطعة هذا الحلم الكابوسي، الذي يعادل الواقع، تتطلب من الشخصيات أن تستيقظ أخيرًا وتتخلى عن كل الأوهام. لإيقاظ الأبطال من النوم في الرواية معنى رمزي إيدانًا ببداية قيامتهم الأخلاقية.

هذه إحدى روائع شيدرین المنسية. قدّم شيدرین في عمله هذا شكلاً مبتكرًا للرواية الروسية في النصف الثاني من القرن

التاسع عشر. تصل آفاق الكوميديا والسخرية في الرواية إلى حدود
الفانتازيا، بل وتتجاوزها، ويختلط عالم الحقيقة والخيال في مشاهد
سياسية ساخرة تُعد من أفضل المشاهد التي كُتبت في أدب القرن
التاسع عشر بأكمله.

ناموا! لن ينام الله بدلاً عنكم!
جوكونفسكي

- ١ -

ذات يوم عرج عليّ ألكسي ستيبانيتش مولشانين وقال: «لا بد من
الانتظار يا عزيزي!». تعجبت بالطبع، فمnd أن وعيت لنفسي وأنا لا
أفعل شيئاً سوى الانتظار.

كل شبابي، بل وحياتي بأكملها تبددت في هذه الكلمة، والآن
يبرز لي أحدهم ويصل إلى استنتاج مفاده أنه يتعين عليّ أن أهدئ من
حماستي فيما يتعلق بكل شيء!

قلت له متعجباً:

- عذراً يا ألكسي ستيبانيتش! ما تقوله يبدو لي لغزاً حقاً!

- اعتبره لغزاً أو غير ذلك، هذا لا يهم، ولكن نصيحتي لك هي أن
تنتظر!

- ماذا تريد أن تقول بذلك؟

- روسي ولا تفهم الروسية؟ أمركم عجيب أيها السادة! الانتظار
يعني أن تتكيف وأن تتمكن من الصمت في الوقت المناسب. انس شيئاً

ما ولا تفكر فيما تفكر فيه عادة، وافعل شيئاً غير ما تفعله عادة؛ مثلاً تمش طويلاً ولف السجائر واكتب خطابات إلى أقاربك، وفي المساء العب الورق أو فكر في سيبيريا. هذا ما تعنيه كلمة «انتظار».

- ماذا تقول يا ألكسي ستيبانيتش! ولماذا أفعل ذلك؟

- لا وقت لدي للشرح يا صديقي. عليّ أن أذهب سريعاً إلى الحي. لا يمكن للمرء أن يشرح شيئاً لمن لا يريد أن يفهم. نحن روس، وعلينا أن نفهم مثل هذه الأمور. في كل الأحوال لقد أدت واجبي وحذرتك، والأمر متروك لك، سواء اتبعت نصيحتي أم لم تتبعها.

بعد أن قال لي ذلك صافحني ألكسي ستيبانيتش بلطف وتوارى عن نظري. ألمني بشدة هذا الظهور والاختفاء المفاجئين. بدا لي أن ما يقوله يعني أنه لم يكن عليّ أن آتي إلى هنا، ولكني أتيت. في كل الأحوال سأقلل من خطورة الأمر بتقليل فترة وجودي هنا بقدر الإمكان.

الأمر كذلك حقاً، حتى إنه لم يصافحني عند انصرافه مصافحة جيدة، بل مد لي يده وحسب وكأنه يقول: «أنا مستعد لتقديم يد العون لك، ولكن حان الوقت لتفهم يا عزيزي أن معارفك للأسف الشديد لا يتحلون بكل هذه الشفقة!». لا يمكنني أن أؤكد بالطبع أن هذا ما فكر فيه عن وعي، لكنه شعر بذلك غريزياً، وهذا الشعور تحديداً هو ما جعله يسرع بهذه الطريقة التي أدهشتني، ولا يساورني أدنى شك في ذلك.

هرعت كعادتي إلى جلوموف. تحرقت بفارغ الصبر لأخبره عن هذه المحادثة الغريبة حتى نستطيع، بالتباحث معاً، أن نصل إلى قرار مناسب ونرسم خطة عمل إذا تطلب الأمر. لكنني وجدت جلوموف

كما لو أنه تنبأ سابقاً بفكرة ألكسي ستيبانيتش؛ وجدته يُفرغ المكتب بعناية من الأوراق والكتب كما يفعل حينما يشعر أنها تشوش أفكاره، ويجلس وقد فرغ المكان أمامه، ويحشو السجائر. سألته:

- ماذا تفعل؟

- اخترت الأمر المناسب لأشغل به نفسي بحسب الظروف. بعد أن نهضت من نومي في الصباح لعبت الورق، والآن أحشو السجائر.

- هل تتصور أن ألكسي ستيبانيتش عرج عليّ لنوّه ونصحني بالأمر ذاته؟

- هذا ما توقعته. اجلس وخذ بعض هذه الأصداف واشغل نفسك بها.

- فلتشرح لي الأمر أولاً.

- ماذا قال لك ألكسي ستيبانيتش؟

- لم يقل شيئاً بصورة مباشرة. جاء إليّ واستدار وانصرف. قال لي إنه عليّ أن أنتظر.

- غريب أمرك! قال لك انتظر. انتظر تعني انتظر! فعَل الأمر ذاته معي وقال «جلوموف! عليك يا أخي أن تنتظر. اشتر بعض التبغ والأصداف واسترح». ولم يفسر شيئاً. يمكنني بالطبع أن أفهم أي شيء يمثل تعدياً على الكلمة الروسية «انتظر».

- عذراً! ألم تنتظر حتى الآن؟ فيمَ مرت حياتنا إذن إلا في إكراه ذاتي مستمر؟ انتظار ثم انتظار!

- تبين إذن أننا انتظرنا جيداً بأحد المعاني، ولكن بالنسبة إلى المقياس الروسي علينا أن نتظر المزيد، وربما غداً لا يكون انتظارنا هذا كافياً بالنسبة إلى المقياس الروسي، ويتوجب علينا المزيد من الانتظار. عسى ألا تنفجر! مع ذلك يا للكلمات الخاملة التي سنقولها! دعنا نفكر كيف يمكننا أن نقضي هذه العطلة معاً. إذا قضيناها معاً فستكون أكثر متعة.

بادئ ذي بدء قررنا أنني سأذهب إلى جلوموف مساءً وأنا سنقضي ليلتنا معاً وعندما نستيقظ في الغد سنبدأ الانتظار، ولن نفرق حتى يُنهك هذا الفراغ نفسه!

ذهبنا إلى الفراش في الحادية عشرة، كما لو أننا سنستيقظ غداً مبكراً للحضور القداس. ظللنا حتى الساعة الثانية ننتقل من موضوع إلى آخر، من دون أن نحكم حكماً سابقاً على شيء من ناحية، ومن دون أن نحرم أنفسنا من ناحية أخرى من التفكير في حدود المعقول. بالرغم من أن المحادثات التي أجريناها انتهت كلها تقريباً بعبارة «علينا الانتظار» فإننا على كل حال واسينا أنفسنا بأن هذه الكلمات أتت هذه المرة نتيجة تبادل الأفكار الحر والموقف الذهني الحر تجاه الواقع، وأن إرادتنا لم تُنتزع منا، فعلى سبيل المثال إذا كنا سنشرب كأساً فودكا أو ثلاث كؤوس، فلن يمنعنا أحد من أن نعبر عن أنفسنا قائلين: «أيها السادة! أخيراً حقاً...».

لكننا اجتمعنا الآن لهذا السبب تحديداً، لنبدأ الانتظار، من دون مناقشة، ومن دون انخراط في البحث، ومن دون أن نسأل لماذا ولا

كيف، حتى تحين اللحظة التي يستحلفنا فيها ألكسي ستيبانيتش ويقول:
«هيا... لنذهب نحن الثلاثة!».

لم يؤاتني النوم، وأخذ جلوموف هو الآخر يتقلب على جانبه،
ولكن كان للانضباط أثره بحيث راودت الواحد فينا الأفكار ذاتها التي
تراود من يتعين عليهم الاستيقاظ غدًا لحضور قداس مبكر.

- جلوموف! ألم تنم بعد؟

- لا، وأنت؟

- لا أستطيع النوم.

- ألا تشعل شمعة رجاء؟

- انتظر! قد يؤاتينا النوم.

مرت ساعة ونصف أخرى ولم أستطع النوم. أشعلنا شمعة ونهضنا
وجلس كل منا قبالة الآخر. أخذنا ننظر وننظر في لا شيء وأخيرًا شعرنا
بالارتباك. قال جلوموف:

- لحظة! سأذهب إلى النضد. أظن أن لدي هناك قطعتي لحم
الخنزير.

- اذهب من فضلك.

نفض جلوموف حذاءه وظللت جالسًا أنصت. دخل مكتبته ثم
الردهة ثم انعطف إلى حجرة تناول الطعام. أنصت أكثر! المفتاح يدور
في القفل والأطباق تصر، وها هو عائد.

عندما يقرر المرء أن ينتظر يصير كل شيء مثيرًا بالنسبة إليه؛ تُصقل

قدرته على الملاحظة إلى حد الاستبصار وتأتية الأفكار بغزارة. قال جلوموف:

- ها هو لحم الخنزير وها هي الفودكا. لنأكل!

- هممم! لحم خنزير! حسناً أن يتناول المرء قطعة صغيرة منه حتى يتمكن من النوم بشكل أفضل. وأنت يا جلوموف، هل فكرت من قبل في كيف يصير لحم الخنزير لحم خنزير؟

- في البداية كان الخنزير ثم ذبحوه وسلخوه وملّحوه وعلّقوه، وهكذا صار لحم خنزير.

- لا أقصد ذلك. أقصد لمن هذا الخنزير؟ من علفه وجهزه؟ ولماذا انفصل عنه؟ ولماذا نأكله الآن نحن من لم نطعمه؟

- لقد انخرطنا في حديث فارغ، ولكن حسناً... قيل لك أن تنتظر، فلتنتظر إذن!

- جلوموف! أود أن أقول كلمة صغيرة.

- لا صغيرة ولا كبيرة! هذه هي الحكاية وما فيها. كُل ونَم، وإليك بعض الفودكا إذا أردت أن تحاصر خيالك.

ملأنا الكأسين، وتحسنت الأمور فعلاً بطريقة ما. بدا الأمر وكأن سحابة ضبابية أحاطت برأسي وسرى الدفء في كل مفاصلي. التففت بالذئار وصمتُ. الصمت عمل كبير بالطبع وهو عملية عقلية كاملة؛ خاصة إذا وضعنا في الاعتبار نتيجته العملية. نظرًا لأن النتيجة المتوقعة في مثل هذه الحالة تلخصت في كلمة «نوم»، استسلمت للصمت

وأبعدت عنه بقوة كل ما يمكن أن يُعكّر صفوه. حاولت ألا أغير وضع جسدي، وحاربت كل ومضة فكرة أتتني بومضة مضادة للفكر تتعارض في الغالب مع أي شيء، حتى إني تلوت على نفسي قصصًا كاملة. لن أعرض هنا محتوى هذه الحكايات، فربما تغريني مثل هذه الرغبة بما يتجاوز حدودي المتواضعة، ولكن بصراحة تأسست كل هذه الحكايات على كلمة «انتظر!».

في النهاية قلت له بصوت ناعس تمامًا:

- نعم يا أخي، بالنسبة إلى لحم الخنزير فهذا موضوع مختلف تمامًا.

قال جلوموف وهو نائم تقريبًا: «موضوع!». وبعد ذلك اكتنف الضباب رأسي تمامًا.

استيقظنا مبكرًا إلى حد كبير (في التاسعة)، لكن ليس مبكرًا كفاية لحضور قداس مبكر. بدأت الحديث قائلاً:

- ولكن على أي حال بطرسبرج ليست مدينة ملائمة لإقامة قداسات مبكرة.

أجابني جلوموف:

- ستذهب إلى قداس مبكر حينما تحل اللحظة المناسبة، ولكن ليس هذا هو المهم الآن. سأعد مشروبًا ساخنًا. أشرب قهوة أم شايًا؟ فكرت في الأمر. عادة أشرب شايًا، ولكن كل شيء الآن غير عادي حتى إني أردت شيئًا مميزًا. فكرت إذن في أن أشرب قهوة!

- قهوة يا أخي.

قلتُها صائِحًا حتَّى إنِّي ضربت على فخذي بسرور.

أُعدَّت القهوة. سكبناها في كأس وشربنا، ثم سكبناها بطريقة أخرى وشربنا، ثم شربناها مرَّة ثالثة ومعها قشدة وخبز دافئ. سألته:

- هل هذا الخبز من متجر فيليبوف؟

- نعم من عند فيليبوف.

- يُقال إن لديه صراصير كثيرة في مخبزه.

- الإشاعات كثيرة عندنا. خبز لذيذ. لا تتدخل فيما لا يعينك!

قالها جلوموف عابسًا إلى حد ما، كما لو أنه شعر أن لساني سيبدأ في التحدث بلا توقف.

- ولكن يا جلوموف، هل فكرت يومًا في أن هذا الكالاتش^(١)...

- كالاتش؟

- حسنًا، إليك سلسلة نسبه: في البداية يوجد هذا القمح تحديدًا

في صندوق خزين من يملكه، ثم يجلب الرجل المحراث ويضغط عليه بصدره و...

- كنت أعرف ذلك فعلاً لكنني نسيتَه. الآن أعرف أمرًا واحدًا؛ أننا

نشرب القهوة ومعها الكالاتش، وأنصحك بأن تكتفي بمعرفة ذلك.

- جلوموف! أريد أن أقول لك كلمة صغيرة. لن يضرنا شيء إذا

(١) نوع من الخبز الأبيض.

تحدثنا قليلاً، بل على العكس، ربما يساعد ذلك على مرور الوقت بدرجة أسرع.

- أعرف ذلك، لكن لا يلزم أن نفكر هكذا. لقد أخذنا على عاتقنا إتمام هذا العمل البطولي، ويجب أن نتمّه. فُلْتُنْه قهوتك ولتنتزه. تذكر أننا سنحظى بنزهة مبتدلة!

في الحادية عشرة خرجنا من المنزل وسرنا في شارع ليتيني حتى وصلنا إلى بناية المحكمة. قلت:

- هنا محكمتنا البارة يا أخي.

تنهد جلوموف قائلاً:

- نعم، المحكمة يا أخي.

- إذا تحررنا الحقيقة فسنقول إنه سيحل وقت تصير فيه محاكمنا...

- اكبح لسانك! المحكمة رائعة! لا تتدخل فيما لا يعينك! ما أروع العمارة هنا! بناية صلبة وثمة ساحة في الداخل. لا يوجد ما هو أفضل من ذلك.

- نعم يا صديقي. تبدو رائعة اليوم حقاً! يُقال إن هناك أيضاً بوفيه طعام في بناية المحكمة، أهذا صحيح؟

- نعم، هناك بوفيه طعام.

- ألا تعرف بماذا يشتهر؟

- يمكنك أن تشرب فيه كأس فودكا. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- يقدمون الكفتة وشرائح اللحم، بل ويقدمون طعامًا لائقًا جدًا حتى للمدعى عليهم.

- مدهش! مدهش حقًا! نل العدالة واشرب فودكا! كل شيء ممكن.

- لا تثرثر كثيرًا! لنذهب إلى شارع فورشتادسكايا!

سرنا في شارع فورشتادسكايا حتى وصلنا إلى بيت أوفسيانينكوف. صحت في دهشة:

- كان عمودًا غريبًا حقًا؛ وصل إلى السماء وفجأة سقط! مع ذلك أعتقد أنه ليس عبثًا أن تسمح العناية الإلهية بهذه المشاهد بين الحين والآخر.

- ليس من شأن عقولنا أن تفكر يا أخي في السبب الذي يجعل العناية الإلهية تسمح بمثل هذه المشاهد. لكن لا شك في صحة عقوبة أوفسيانينكوف. لقد قرأت ذلك في الصحف ومن ثم يمكنني التحدث بحرية عن الأمر.

- ولكن لماذا لا نتذكر الطرق التي تسلكها العناية الإلهية بينما يحدث الأمر؟

- لأننا لا نعرف هذه الطرق. هذا هو السبب. سرّ يا أخي! في نهاية شارع فورشتادسكايا سنجد حانة.

سرنا إلى هناك وإذا برجل يخرج من الحانة بمعطف ممزق وملامح وجهه معذبة يصيح متمايلًا: «انتظري أيتها الجميلة وأظهري

يدك البيضاء!». قلت:

- لذلك يُنصح بالانتظار!

- لأن هناك حدًا لكل شيء.

- يا للمسكين!

- من؟ هذا السكير؟

- نعم. أي حزن مرير يتطلبه الأمر كي يغلي ما في صدره هكذا!

لكن جلوموف قاطعني بغناؤه: «انتظري أيتها الجميلة وأظهري يدك البيضاء!». ثم واصل حديثه قائلاً:

- أنا لا أذكرك بالأمر حتى تلزم الصمت الآن تحديداً، لكنني أفعل ذلك لأنك إذا لم تكبح جماح نفسك، فلن تستطيع أن تكبح لسانك بين الحين والآخر. إننا في حاجة إلى التحمل والتدريب. نحن مصابون بالفجور السلافي ولا نريد أن نفهم سبب كل البذاءة التي تحدث حولنا، حتى إننا نتسامح مع ضعفاتنا في كل خطوة نخطوها. ربما لم نجرؤ على التحدث عن الأمر علانية في الشارع، لكننا مضينا إلى الزاوية وأطلقنا ألسنتنا قليلاً. من الواضح أن السلطة تريد ذلك، لذا عليك أن تسيطر على نفسك، حتى إذا قيل لك «انتظري!» تتمكن من الانتظار في أي مكان وفي كل مكان، وتفعل ذلك من كل قلبك وبكل استعداد. هكذا هو الأمر! حتى عندما تنفرد بنفسك عليك بالانتظار! لن تشعر بقدرة حضارية على ضبط النفس إلا حينما تفعل ذلك.

كان عليّ أن أتنق مع جلوموف. في الواقع يصعب على الروسي أن

يضبط نفسه إلى حد ما بحيث يتصرف بالقدر ذاته من ضبط النفس في أي زمان ومكان. إذا أراد أن يحقق ذلك يواجه عدوين خطيرين: المخيلة القادرة على خلق مجموعة متنوعة من النماذج الفنية على الفور، والقلب الحساس المستعد للانفتاح أمام أول انطباع يلتقي به. تفاجئه الظروف دائماً ولذلك يذوي في لحظة ثم يزدهر في أخرى، يذوب في تعبيرات الحب والإخلاص في لحظة، ويلعن ويرفع صوته في لحظة أخرى بكلمات لا يمكننا كتابتها هنا، لكنها تهمنا بقدر أو بآخر. لكنه على أي حال لا يعرف كيف يُبقي فكره وحديثه داخل حدود معينة، بل يميل إلى الغموض ويلجأ إلى الالتفاف. اقرأوا أي دعوة قضائية وستقتنعون بذلك من دون صعوبة. لن تجدوا روسياً واحداً يجيب عن سؤال مثل «أين كنت في الساعة الفلانية؟» ببساطة قائلاً: «كنت في المكان الفلاني»، بل لا بد أن يسكب روحه كلها. سيبدأ بالوالدين ثم يستعرض كل معارفه الذين يعرف أسماءهم ثم يقول عن نفسه إنه بائس، وأخيراً عندما يكررون على أسماعه سؤال «أين كنت في الساعة الفلانية؟» يجيب بأنه كان في المكان الفلاني، لكنه سيضيف بالطبع أنه التقى هناك بفلان وفلان واتفقنا على أن نفعل كذا؛ باختصار تكفي أتفه مناسبة لتوقد مخيلته بحيث يرسم لوحة كاملة على الفور.

في ضوء كل هذه الاعتبارات قررت أن أكبح جماح نفسي. استدرنا في صمت بامتداد حديقة تافريتشسكي ثم إلى اليمين على طول الجسر وتوقفنا قبالة قصر تافريتشسكي. ذبت تلقائياً أمام المنظر. ومضت أمامي

ظلال يكاترينا وبوتيومكين ودير جافين^(٢) حتى إني شعرت بأرواحهم.
صحّت:

- هنا تحوم روح أمير تافريدا العظيم.

- نعم يا أخي، لقد عاش في هذا المكان.

- وماذا تبقى منه؟ ما الذي حدث لسحابة التألق والمجد والقوة
التي أحاطت به؟ بضع عشرات من الطُرف في مجلة «العصور القديمة
الروسية» تلعب فيها سمكة حفش الدور الرئيس. هناك أُطلقت الألعاب
النارية الشهيرة، ومن هذه الشرفة نظر حشد من رجال الحاشية الملكية
الغارقين في الذهب إلى العرض، وتعالَت من بُعد أصوات حشود بأعداد
لم يسبق لأحد أن سمع بها بأنشودة «فليتجد السيد الرب في صهيون»
على خلفية دوي المدافع. أين ذهب كل ذلك؟

تملكني انفعال وانتصبت وأنشدت:

كان التابوت حيث كانت المؤن

حيث كانت المأدبة تعالى النحيب

نوّحوا أمام شاهد القبر

والموت الشاحب ينظر إلى الجميع

ينظر إلى الجميع...

- لا أتذكر المزيد، ولكن أليس رائعاً؟

(٢) إمبراطورة قديمة لروسيا - أحد رجالات الدولة الروسية القديمة - واحد من أعظم شعراء
روسيا.

ثَبَّطْ جلوموف عزيمتي قائلاً:

- رائع، رائع! كل ما في الأمر أن هذا مقطع من أنشودة موت
ميشيرسكي، ومن ثم لا علاقة له ببوتيومكين.

- الأمر سيان. هذه قصيدة لديرجافين يروق لي ترديدها دائماً.
يكاترينا! ديرجافين! يا لها من أسماء يا صديقي! يصعب أن يجد المرء
توليفات كهذه كثيراً في التاريخ.

كرر جلوموف من خلفي: «آل أورلوف! بوتيومكين! روميانتسيف!
سوفوروف!» ثم انتصب وتلا هذا البيت:

يخلق المارد في زوبعة نصف الليل

وينعكس ظل حاجبه ويخرج الغبار من صفيره

- ثم دميتريف وأخيراً زوبوف، وكل من استطاع ديرجافين العجوز
أن يجامله بأبياته!

في ظل تدفق هذه المشاعر الرائعة أخذنا نردد أبيات ديرجافين،
ولكن يا للعجب! لم نتذكر شيئاً منها سوى:

نمد الفلاح بالخبز

يأكل حساء الملفوف الجيد ويشرب الجعة

صحت مندهشاً من اللوحة التي رسمها ديرجافين في أبياته:

- نعم يا أخي، كان هناك مثل هذا الفلاح فعلاً.

بالرغم من الكبح الذي كان جلوموف يكبحه لنفسه فإنه ارتأى ألا

يطفئ حماستي وقال بنبرة متعاطفة تقريباً:

- نعم يا أخي.

- كان... كل شيء كان (واصلت في دهشة) وكان هناك حساء ملفوف طيب! تصور! حساء ملفوف جيد!

- يمكنني أن أتصور ولكن على أي حال لا يسعني إلا أن أقول الآتي: يمكنك أن تُعجب بالماضي، ولكن لا يمكنك أن تجعل الإعجاب بالماضي ذريعة لتسيء تفسير الأمر؛ أقصد أن يجعلك تلوم الحاضر!

كان عليّ أن أوافقه بالطبع على ملاحظته هذه. يجب أن نُسر بدرجة معقولة؛ أقصد لا ينبغي في أي حال من الأحوال أن نُركّز على أمر واحد فقط، بل يتوزع تركيزنا على أكبر عدد من الأمور. لن يؤدي ذلك إلى أن تكون البهجة أكثر اعتدالاً بل ستتألق الجوانب كافة بالتساوي، وستتبرر كل النقاط بالتساوي. فَهَمَّ شعراء العصر القديم ذلك بدقة شديدة، ومن ثم قدموا كل المجاملات الممكنة للجميع من دون أن يتحدثوا عن شخص واحد حصراً ومن دون أن يسيئوا لأحد.

استدردنا للخلف، ووصلنا إلى شارع بيسكوف، وعندما مررنا بأحد المنازل الخشبية الصغيرة ذات الطابق الواحد قلت:

- في هذا المنزل تحديداً وُلد المراقب كراسوفسكي!

- أنكذب؟

في الحقيقة لقد كذبت، ولكن نظراً لأن المدة التي توجب عليّ الانتظار فيها غير محددة كان عليّ إذن أن أقضي الوقت بطريقة ما. لذلك

لم يقتصر الأمر على أنني لم أعترف بكذبي، بل أصررت على موقفني.
- أحدثك صدقًا. لقد أخبرني تريباشكين بذلك. لقد كف عن
صفحات التسلية وعكف الآن على الأبحاث التاريخية. يأمل أن ينال
وسام يوفاروف. لقد وُلِدَ هنا! هنا تحديدًا!

وقفنا وتعجبنا وتذكرنا كيف ظل المرحوم يشعر طوال حياته بألم
في معدته، وأخيرًا طوحنا بذراعينا ومضينا إلى شارع ليخوفكا. لفترة
طويلة لم يلفت انتباهي شيء ولكن فجأة وقعت عيني على منزل مألوف
لي. قلت:

- في هذا المنزل تنعقد اجتماعات البليوجرافيين.
- متى؟

- يجتمعون ليلاً وفي أقصى درجات السرية، فهم يخشون الشرطة.
- البليوجرافيون؟

- نعم يا أخي، البليوجرافيون. الإنسانية جمعاء بشكل عام تـ...
- هل حضرت هذه الاجتماعات من قبل؟

- مرتين. في وجودي خضعت قصيدة بوشكين «الshal الأسود»
للتحليل. لقد أرادوا أن يصدروها في جزأين مع التعليقات.
- كم كان الانتظار ليبدو رائعًا في هذا المكان! لو كنت قد سكنت
هناك لقضيت الوقت كله هناك عن طيب خاطر.

- نعم كان الأمر ليبدو رائعًا. في حضوري حللوا أول بيتين فقط من
القصيدة. كما ترى نقرأ عادة: «أنظر صامتًا إلى الشال الأسود ويعذب

الحزن روعي الباردة»، كما طبعوا الأبيات الأخيرة «ويتجرأ الحزن على روعي الناعمة...»، وهكذا توقفوا في ارتباك وتشكلت ثلاثة أحزاب.

- ألم يقدموا العشاء؟

- نعم، لم يقدموا العشاء، وعند نهاية الاجتماع قال صاحب البيت: «لقد وقعت يدي أيها السادة على شيء نادر! اللوحة الوحيدة من مسرحية المفتش العام لجوجل التي صُوِّرَ فيها كاتب رواية «الأنفس الميتة» بثُلُول على أنفه!».

- وماذا في ذلك؟

- انتبه الجميع بالطبع. أحضرها واندفعوا لرؤيتها. كانت صورة لجوجل جالس وعلى طرف أنفه ثُلُول. هنا بدأ الخلاف: في أي عصر التُقِطت هذه الصورة؟ تساءلوا عما إذا كانت هناك إشارات إلى اللوحة في أوراق الأكاديمي الراحل بوجودين، ثم بدأوا يضايقون صاحب البيت بأسئلتهم: كم دفعت لقاء هذه الصورة؟ أجابهم: خمنوا! ثم قرأوا قائمة كاملة وموثوقة لأعمال جريجوري دانييلفسكي ثم تفرقوا.

- هكذا هي الحياة يا صديقي.

- حسنًا. لكنهم يا أخي مراقبون أيضًا. ما إن انصرفنا حتى قلت، الأمر يستحق ذلك حقًا، فثمة شرطي في كل مناسبة. هنا انطلقت صافرات الإنذار حتى قلت في نفسي أنا الإنسان الخاطيء: ماذا لو أن «الشال الأسود» مجرد ذريعة!

بينما نحن منخرطان في هذا الحديث وصلنا إلى شارع نيفسكي

من دون أن ندري، ولم أفشل في توجيه جسدي كله إلى محطة نيكولايفسكايا وقلت: «كل هذا نتيجة فضول القرن التاسع عشر». وبعد أن وصلت إلى شارع ناديجدينسكايا قلت: «كانوا يطلقون على هذا الشارع سابقاً «شيستي لافوتشني»، وكان يصل بين شارعي كيروتشنايا وإيطالياينسكايا، لكنهم مدوه الآن إلى نيفسكي، وكل هذا هو الآخر نتيجة فضول القرن التاسع عشر».

عندما وصلنا إلى متاجر فيليوف تذكرت الأفكار التي عبرت عنها لتوّي عن أرغفة خبز فيليوف، بل وضحكت مما قلته، فكيف يمكنني أن أتحدث بعدم النضج الوطني هذا؟! استدرت صوب جلوموف وقلت:

- أتذكر محادثتنا التي أجريناها عن أرغفة خبز فيليوف؟

- لست أنا من تحدثت عنها، بل أنت.

- نعم، أنا، ولكن يا للصبيانية التي تحدثت بها! ما الذي يشغلني بمن ينتج الدقيق وكيف يصنعونه؟ فلأتناول رغيف الكالاتشي وحسب. أقول الآن فلتجعلني ثرياً ولن أتفوه بمثل هذه الحماقات مجدداً.

- رائع! هذه هي الطريقة التي سنقطع بها كل يوم من خمسة عشر إلى عشرين فرسناً^(٣)، وبذلك سنصمت تماماً في غضون عشرة أيام مثلاً.

لكن عندما وصلنا إلى ميدان مسرح ألكسندريسكي انفعلت أرواحنا مجدداً وتذكرنا دير جافين العجوز وأنشدنا:

(٣) مقياس روسي للطول يصل إلى ١,١ كم.

الأميرة المباركة

قبيلة القرغيز

حيث الحكمة التي لا تُضاهى

صحت، مشيرًا إلى قاعدة التمثال:

- ها هو!

- هنا معبد ثالبا وملبومين.

قالها جلوموف مشيرًا إلى مسرح ألكسندريسكي.

- وإلى جواره معبد موموس!

- وقبالته فندق بيل فيو.

كنا سعيدين جدًا حيث اندمجنا بكل شيء حتى إننا قررنا بدافع
الآنفسد هذه الحالة المزاجية الرائعة أن نُبعد أنظارنا عن المقر السابق
لبايماكوف^(٤) لأن هذا المشهد كان ليغرنا في الكآبة من دون أدنى شك.

عندما مررنا بالقرب من المكتبة العامة، نويت أن أتوقف وأقول
بضع كلمات مؤثرة عن سخافة العلوم، ولكن جلوموف نظر إليّ بتجهم
حتى إني حثت الخطي تلقائيًا، وكل ما استطعت قوله هو هذه المقدمة
المختصرة وحسب: «هنا خزانة كنوز العقل البشري!».

عند متاجر ميلبوتين استراحت أعيننا وأنفسنا حيث البرتقال
واليوسفي والكمثرى والعنب والتفاح. تصور منظر الفراولة! إنه شهر

(٤) ربما الإشارة إلى فيودور بايماكوف، وهو صحفي وناشر وصاحب مكتب مصرفي شهير أعلن
إفلاسه في نهاية ١٨٧٦.

فبراير وقد ابيضت آذان الحوذية من البرودة في الخارج، وهنا في هذا المتجر الصغير المشبع بروائح الصيف في أوجه! يا للأصوات المرحية والحنونة التي تطايرت إلينا من هناك في كل مرة يُفتح فيها باب المتجر. كيف انجذبت فجأة إلى هناك في الغرف الضيقة الخلفية في هذا الجو الرطب المشبع بالروائح حيث الأرائك المشمعة، وحيث لا يمكن للمرء أن يجد مكانًا واحدًا هناك إلا وقد بصق أحدهم فيه! تعال واستلق وضع قدميك على الأريكة وأحط نفسك بالمحار واشرب النبيذ وانتظر في هذا المكان!

غمغم جلوموف كما لو أنه خمن أفكاري: «نعم، الانتظار جيد هنا». لكننا رسمنا خطتنا سابقًا. صحيح أننا تعهدنا بتمضية الوقت، حتى وإن كان بلا فائدة، ولكن بجدية أيضًا بقدر الإمكان. لقد فهمنا أن أي مزيج من الرعونة لا بد وأن يجعل العقل في حالة هزل، وأن الانتقال الجاد مما هو فارغ إلى ما هو أجرد هو وحده ما يمكن أن يقوّي الإنسان وبعده لهذه المأثرة الحقيقية المتمثلة في نيته أن ينتظر. لذلك قررنا -من دون أن نغصب أنفسنا على ذلك- أن نبعد أعيننا عن هذا المنظر المغوي ونتوجه إلى الأدميرالية.

سرنا صامتين وكأن روائح البقالة قد سحقتنا وقد بدت الروائح تفوح حتى من ثنيات معاطفنا. وصلنا إلى ميدان الأدميرالية من دون أن نوجه انتباهنا إلى تمثال باركلي دي تولي أو كوتوزوف، ولا إلى مطعم دومينيك حيث تزاحمت عند أبوابه بعض الشخصيات الباهتة، ولا وجهنا انتباهنا إلى نُزُل بوريلي وتاهيتي المرحية، وهناك شعرنا مجددًا

بضرورة أن نقول بضع كلمات مؤثرة.

- حتى وقت قريب كانوا يعرضون المسرحيات في عيد الماسلينيتسا^(٥) وأسبوع الآلام، وفي أيام محددة كانوا يأتون بفتيات المعاهد في عربات تجرها الخيل. الآن يحدث كل ذلك بالفعل في حديقة تساريتسني. لقد شيدوا هنا هذه الساحة بتمويل وعون مجلس المدينة. جلوموف، أترى هذه الساحة؟

- أراها، وأنت، هل تراها؟

- أراها. أود أن أقول إن هذه الساحة تكبر أكثر فأكثر كل عام. في البداية فور أن زرعوها كانت هذه الأشجار، ثم ماتت أشجار كثيرة منها في العام الأول. بعد ذلك، ومع تطور رعاية مجلس المدينة، استبدلوا أشجارًا جديدة بالقديمة، كما نمت الأشجار القديمة التي استطاعت أن تنجو وصارت أروع. في الوقت الحاضر يمكن لأي من المارة، إذا لم يعانٍ من السمّة المفرطة، أن يستريح هنا تحت ظلها، ولكن من المؤكد أنه لا يفعل ذلك شتاء. جلوموف! هل أتحدث بطريقة صحيحة؟

- صحيحة تمامًا.

- الآن بعد أن أدينا واجبنا حيال ميدان الأدميرالية وأشدنا برعاية مجلس المدينة فلنمضِ إلى هدف رحلتنا النهائي كما حددنا ليومنا هذا!

(٥) أسبوع الرفاع أو عيد الماسلينيتسا أو أسبوع السمن هو احتفال روسي سلافي، يرجع تاريخه إلى عصر الوثنية السلافية. وقد اعتبرت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أسبوع المرافع من أعيادها، حيث إن هذا الأسبوع يأتي مباشرة قبل الصوم الأرثوذكسي الكبير.

سرنا إلى ميدان سيناتسكايا^(٦) وتوقفنا في صمت مهيب أمام تمثال بطرس الأكبر. تذكرت قصيدة بوشكين «الفارس النحاسي»، وبمناسبة ذلك خطرت ببالي كلمات البروفيسور موروشكين^(٧) عن بطرس: «ولكن هذا الإنسان العظيم لم يتسم بضعفاتنا! لم يكن يعرف أننا من جسد ودم. كان عظيمًا وقويًا، بينما نحن ولدنا ضعفاء وهزلي، وكنا في حاجة إلى قوانين بشرية مشتركة».^(٨)

كررت هذه الكلمات الرائعة ووافقني جلوموف كلية. ثم ألقينا نظرة وداع على بناية ميدان سيناتسكايا حيث قال ياكوف دولجوروكوف^(٩) الحقيقة ذات مرة، ونظرًا لأن برنامج نزهة اليوم قد استنفد وقد تملكنا الإرهاق، استقللنا عربة سكك حديدية يجرها جواد^(١٠) وتوجهنا في أمان إلى شارع ليتينايا.

كانت الساعة قد بلغت بالفعل الرابعة عندما عدنا إلى المنزل، ومن ثم تبقت أمامنا ساعة قبل العشاء. ذهب جلوموف إلى المطبخ لإصدار الأوامر، وأعطاني حافظة التبغ وعلبة أصدا ف ومحارات وقال:

(٦) ميدان مجلس الشيوخ، المعروف سابقًا باسم ميدان ديكامبريستس من عشرينيات القرن الماضي إلى عام ٢٠٠٨، وميدان بطرس من ١٧٨٢ إلى ١٩٢٥، هو ميدان في بطرسبرج.

(٧) رجل قانون وأستاذ في جامعة موسكو ومستشار للدولة.

(٨) كلمة بعنوان «عن القانون والحاجة إلى المزيد من تطويره» للبروفيسور موروشكين الأستاذ بجامعة موسكو.

(٩) مفوض ودبلوماسي.

(١٠) نوع قديم من وسائل النقل العام استُخدمت على نطاق واسع قبل نقل السكك الحديدية إلى البحر البخاري أو الحراري أو الكهربائي أو الكابلي. وكان أكثر مجالات تطبيق ركوب الخيل شيوعًا هو الانتقال داخل المدن.

– اشغل نفسك!

أخيرًا قدموا لنا الغداء. لم أتناول طعامًا من قبل بهذه اللذة، وذلك لعدة أسباب؛ أولاً: لم نضطر من قبل إلى تأدية كل هذه التمارين البدنية قبل الغداء. ثانيًا: تناولنا طعامنا في حرية من دون أن نشغل أنفسنا بأي اعتبارات سياسية ولا حزن ولا استغراق قاتل في التفكير، متذكرين بقوة أنه لا يتوجب علينا أن نفعل شيئًا الآن سوى تناول الطعام. لذلك مضغنا كل قطعة طعام بشكل صحيح، ومن ثم وصلت القطع إلى المعدة في أشكال تتفق تمامًا مع متطلبات علم الطب. بالنسبة إلى المقبلات قدموا لنا سلمون أبيض مقددًا وكافيًا من نوعية ممتازة، وبالنسبة إلى الغداء قدموا لنا حساء الملفوف مع لحم صدر البقر ثم سمك الحفش ثم طيهوج محمر مجلوب مباشرة من سيبيريا، وأخيرًا قدموا لنا كمبوت فاكهة فرنسية، وغني عن القول أنه مع كل تغيير للطعام كنا نتحدث حديثًا ملائمًا للظروف.

قديمًا كتب الجد كريلوف^(١١) حكاية «الكاتب والسارق» وأثبت فيها أنه يجب إعطاء الأفضلية للسارق على الكاتب، وقد وصلت هذه الحقيقة إلى بلاطنا حتى إنه منذ أقدم الأزمنة لم يشك أحد في أنها حقيقة لا تقبل الجدل. في وقت لاحق كتب الجد كريلوف حكاية أخرى بعنوان «الفلاحون الثلاثة»، وقد أثبت فيها حقيقة أخرى مفادها أنه في أثناء تناول الطعام لا يجب على الناس أن ينخرطوا في أي حديث سوى

(١١) إيفان أندريفيتش كريلوف: كاتب قصص أسطورية روسي شهير تأسست أغلب أساطيره مبنية على أساطير إيسوب وأساطير لافونتين، لكن لاحقًا كتب أساطير بنفسه ذات طابع شعري.

الذي ينبع من تناول الطعام نفسه إذا جاز التعبير. لقد أهملنا هذه الحقيقة لمدة طويلة، ولكن عندما أوضحت لنا هذه النظرية وهذا التطبيق أن اللغة البشرية ليست سوى أداة للتعبير عن دناءة الإنسان، كان علينا أن نعترف بأن حصافة الجدد كريولوف لم تضلله بتاتاً.

تناولنا طعامنا بإحكام وأجرينا حديثاً محكماً أيضاً عن الطعام. مع تقدم عملية تناول الطعام انكشفت لنا آفاق مذهلة لم نرتب فيها قط. اعتدت أن أشتري اللحم البقري من متجر يُدعى «متجر زاوية الشارع»، بينما اعتاد جلوموف شراء اللحم البقري من سوق كروجلي. اعتدت شراء السمك من زقاق تشيرنيشيف، بينما اعتاد جلوموف شراءه من ساحة ميتني. اعتدت شراء الإوز البري من أول متجر أصادفه ويكون معلقاً على أبوابه أرنب مجمّد، بينما جلوموف يشتريه من مستودع ما قريب من بوابة شليسيلبورجسكي. تكشف سوء إدارتي بدرجة فاضحة حتى إنني قلت في نفسي على الفور إنه لا يمكنني تدبر أمري بعد ذلك من دون إجراء إصلاحات جذرية. قلت:

- تصور يا صديقي، اتضح وفقاً لهذا الحساب أنني أبدد يومياً نصف روبل على الأقل! كم بددت إذن من أنصاف الروبلات على مدار نصف عام؟

- المجموع ثلاثمائة وخمسة وستون من أنصاف الروبلات، أي مائة واثنان وستون روبلاً وخمسون كوبيكاً.

- دعنا الآن نمضي إلى ما هو أبعد من ذلك. لقد مر أكثر من ثلاثين عاماً منذ أن تخرجت في المدرسة، وطوال هذه المدة -مع فواصل

قصيرة- وأنا أدير منزلي كاملاً. لو كنت قد جمعت كل أنصاف الروبلات هذه، فكم من المال كان من الممكن أن يكون في حوزتي الآن؟

- ١٨٢٥ مضروبة في ثلاثة: المجموع ٥٤٧٥ روبلاً.

- هذا إذا حسبت المبلغ من دون أي فوائد. كان بإمكانني توفير هذا المبلغ. لكن لنفترض أنني لم أكن لأقدم هذا المبلغ من دون أي ضمانات يدوية. بالرغم من ذلك كان بإمكانني استخدام هذه المدخرات لشراء ديمقس^(١٢) بفوائد وسندات مالية بخصومات، وبشكل عام كان بإمكانني أن أنفذ بعض المعاملات المالية القانونية. في هذه الحالة سنجد الحساب مختلفاً تماماً.

- نعم يا أخي، لقد أوضحت لي الأمر تماماً.

- لاحظ أيضاً أن مؤنكم ممتازة، بينما مؤني متوسطة المستوى. فلنأخذ مثلاً بسمك الحفش: هل الأفضل سمكك أم سمكي؟

- لا، سأطلب غداً لحم خنزير مدخنًا، وسأجعلهم يقدمونه دافئًا على الطاولة ودعنا نرى ماذا سنفعل بعد ذلك.

- من أين تشتري لحم الخنزير المدخن؟

- خمّن!

- من عند شبيس أم من عند لوديكنيس؟

- من زقاق موتشنوي.

- حقاً ذلك؟

(١٢) نوع من الحرير.

باختصار خيبة أمل أعقبت خيبة أمل، ولكن علاوة على ذلك ظهرت بوادر أمل في تصحيح الوضع، وفي الحقيقة كان هذا أمراً ثميناً جداً. من المعروف منذ زمن طويل أن الجوانب المظلمة وحدها لا يمكنها أن ترضي أحداً من دون أن تُخَفَّفَ بجوانب أخرى مشرقة، أو إذا افتقرنا إلى هذه الجوانب المشرقة نخففها بالخداع السامي! على سبيل المثال، الشخص الذي يتألف غداؤه من تيوريا^(١٣) وماء سيشعر بالرضا الكامل إذا تصور أنه سيتناول حساء ملفوف دهنيًا تطفو فيه قطعة دهنية من اللحم البقري.

إلا أنني لم أعبر عن هذه الأفكار لأن جلوموف كان سيوبخني عليها بالتأكيد. أنا نفسي أعترف بأنني لم أقصد أي مغزى سياسي من خلف هذه الأفكار، ولذلك سعدت جداً عندما قطع جلوموف تيارها بدعوته لي إلى مكتبه حيث كانت رائحة معطرة مخمرة مذهلة في انتظارنا.

كانت الساعة السادسة والنصف عندما نهضنا من على الطاولة. جلسنا قبالة بعضنا على مقاعد وثيرة ودخنا نوعية ممتازة. شربنا ببطء وتمعن كؤوس ما بعد الغداء مليئة بسائل ذهبي. كنا في حال جيدة. لن أقول إن هذا كان حلمًا، ولكن بدا لي أنه غفوة رائقة كضباب خفيف هبط من مكان ما بالأعلى وهز الجسد المنهك بسبب تأدية قدر غير معتاد من التمرين. بعد أن أغلقنا جفوننا المنهكة انغمسنا صامتين في تأمل داخلي، وأحياناً كنا نرتجف في صمت. أخيراً خرجت أنة من صدر جلوموف؛ الأمر الذي أعادني فوراً إلى شعوري بالواقع من حولي.

(١٣) طبق رخيص من خبز مغموس في كفاس (مشروب سلافي مخمر رخيص) أو ماء.

- كدت أن أغفويا أخي.

تعجب، وصاح فورًا بصوت عالٍ: «عليك بماء سلترس»^(١٤)
ولتغتسل!«.

شربنا زجاجتي ماء سلترس ثم اغتسلنا وشعرنا مجددًا بالإنعاش
والبهجة كما لو أننا أنهينا لتونا قداسا مبكرًا واجتمعنا لنقضي اليوم على
الطريقة المسيحية.

كانت الساعة الثامنة والنصف تقريبًا عندما ارتدى كلانا قفطانه
وبدأنا نلعب الورق. نحن لاعبان يتسمان بالقدر ذاته من المهارة تقريبًا
ولكن جلوموف لا ينتبه للعب، بينما أُنْتَبِه. لذلك يبدو لي اللعب ممتعًا
جداً. يغضب جلوموف ولا يحسب الورق جيداً، بل يريد أن يخمن الورق
مباشرة، ويصير في وضع مؤسف، وأنا أستغل ذلك بالطبع وأسجل عليه
الغرامات. في النهاية أفوز دائماً لكن هذا لا يغضب جلوموف. أحياناً
يستغرق كلانا في الضحك عندما يحدث شيء غير معتاد؛ مثلاً نفاذ
شكل من أشكال ورق اللعب الأربعة أو ظهور ملكة القلوب فجأة بعد
ظهور الملك، ولكن لم يحدث قط أن بدت لعبتنا بهذه المتعة التي بدت
بها هذه المرة، وذلك لأسباب عديدة؛ أولاً: سكب جلوموف كوباً من
الشاي على غطاء المائدة. ثانياً: حصلت على ثلاث أوراق آس (A)^(١٥)

(١٤) علامة تجارية ألمانية من المياه المعدنية الطبيعية يتم الحصول عليها من الآبار في منطقة
سلتريس في هيس.

(١٥) اختصار لكلمة Ace والتي تعني الرقم واحد ويطلق عليه الأَص أو الأكّة، وهو أقوى ورقة
موجودة في ورق اللعب.

وحققت فوزاً ساحقاً. منذ زمن طويل لم نقهقه بهذه الطريقة.

انتهينا من لعب الورق في الحادية عشرة ومضينا إلى الفراش كما فعلنا في الليلة السابقة. قبل النوم قال لي جلوموف:
- يبدو يا أخي أن الانتظار ليس صعباً كما بدا لنا للوهلة الأولى،
أليس كذلك؟

استعدت إلى ذاكرتي أحداث اليوم ولم أجد بإنصاف ما يجعلني
أعارض حديث جلوموف.

في واقع الأمر هدأت كل المشاعر والأفكار في داخلي، أو يمكنني
القول إنها انضبطت حتى إني في هذه الليلة لم أتقلب على فراشي. ما
إن استلقيت حتى شعرت أن رأسي ثقيل كما لو أنه امتلأ بالرصاص. يا
لاختلاف ساعات هذه الليلة عن ساعات الليلة الماضية!

في اليوم التالي استيقظت في الثامنة صباحاً، وأول ما خطر على
ذهني كان شكري لمانح كل النعم على التجديد الذي حدث فيّ.



قال جلوموف الحقيقة، ليس عليك في البداية سوى الانشغال بنفسك وسيأتي كل شيء آخر من تلقاء ذاته. حافظنا تمامًا على تأدية التمرينات الجسدية، واستطعنا في غضون فترة قليلة ترويض أنفسنا حتى إننا لم نعد نشعر حيال التخمة بسوى الاشمئزاز. لم نعد نبالي بالعلم أو الفن، ولم نعد نتبع الاكتشافات والاختراعات، ولم نعد نقلّب في الكتب ونحضر اجتماعات الجمعية التربوية ونتعاطف مع السلاف ولا الترك، كما نسينا تمامًا كل ما يتعلق بمكماهون^(١٦). حتى قراءة الصحف صارت أمرًا ثقيلًا على أنفسنا.

ظللنا نجوب سان بطرسبرج كما اعتدنا، ولكن عند مرورنا بالتمثيل التي أجبرت قلوبنا سابقًا على الخفقان بشدة لم نعد نشعر بشيء من شأنه أن يجبرنا على الانفعال بشدة. توجهنا في البداية إلى سوق كروجلي وسألنا عن أي أخبار جديدة، وتوجهنا من هناك إلى ساحة ميتني وصحنا في غضب تقريبًا متسائلين: متى سيأتون بسمك البيلورييتسا^(١٧)؟ صرنا محبوبين من قبل كل المطاعم كما لو أننا أقاربهم لعدة أسباب؛ أولاً: لأننا نختار أفضل القطع من دون مساومة. ثانيًا، وهذا هو السبب الرئيس:

(١٦) عسكري وسياسي فرنسي.

(١٧) أحد أنواع أسماك المياه العذبة الموجودة في عائلة Salmonidae.

لأننا استطعنا إطلاق أحكام صحيحة على كل ما يتعلق بالطعام. أثارت أحكامنا الصحيحة هذه إعجاب أصحاب المطاعم والعاملين فيها على السواء. قالوا لنا في كل مكان:

- الأعلى ليس ما اشتريتما، ولا داعي لتمني أمر كهذا، فالأعلى من كل النقود هو الحب والنصيحة والكلمة الحسنة.

وفقاً لطريقة الحياة هذه تطور مظهرنا أيضاً؛ صرنا ننظر ببلادة ومن دون تمييز، ولم نعد قادرين على نطق بضع كلمات متتالية وإلا شعرنا بضيق تنفس، كما صرنا نبرز شفاهنا ونحر كها بطريقة سخيفة كما لو أننا سنمض ألسنتنا. لذلك لم يفاجئني قول أحد المارة المجهولين ذات مرة لنا في أثناء عبوره بنا: ها هما حيوانان حسنا النية يسيران!

حتى ألكسي ستيبانيتش مولتشانين وجد أننا فقنا التوقعات.

عرج عليّ ذات مساء، وكنا جالسين بصحبة محقق من جيراننا نلعب الورق، وعيوننا منتفخة من الدهون إلى درجة أننا لم نلاحظ كيف ينظر المحقق إلى أوراقنا. ربما لاحظنا ولكن الكسل مرتسم على الوجه، كما أن حثّه على إبعاد نظره سيكون مضيعة للوقت. سيان الأمر، وربما نختلس النظر نحن أيضاً إلى أوراقه في المستقبل.

تحدث ألكسي ستيبانيتش قائلاً: «أنتم متغطسون أيها السادة، حتى إنكم لا تنظرون إلى الرجل العجوز!» ثم قطع حديثه فجأة.

ينظر ولا يصدق عينيه. الغرفة مليئة بالدخان وخائقة، وفي الزاوية، على الطاولة، هناك مقبلات وفودكا ولا تبدو علينا أي ملامح إنسانية.

ننهض بصعوبة من على مقاعدنا ونحرق إلى لا شيء ونلوك شفاهنا. علاوة على كل ما سبق ثمة رجل غير عادي جالس، يرتدي معطفًا مستعملًا ذا أزرار فاتحة اللون وبنطالًا مهترئًا عليه أشكال مربعات وياقة قطنية تبرز من تحت سترته. نظراته زائغة وبقايا لحم مدخن على شاربته وكذلك تلمع عليه قطرات فودكا كالندى.

إلا أن ألكسي ستيبانيتش جلس. لاحظت كيف رفع المحقق الأوراق إلى شفثيه في أثناء توزيعها وخذش بها شاربته وتفحص ورقة الأص، أوقفه العجوز مولتشانين من دون أي رسميات قائلاً: «عندما تأخذ الأوراق يجدر بك ألا تمسك بها شاربك»، ثم أضاف: «آه يا ناس! آه يا ناس!».

حاول جلوموف أن يبرر فعلته وهو يكاد يختنق من المجهود:

– إنه أحياناً... دائماً...

بسبب هذا التعبير تحديداً «أحياناً... دائماً» وهذه الياقات وهذا العنق أذكر أنني مررت بموقف محدد مع هذا المدعو «زاجوريتسكي». عندما تبين في أثناء الحوار أن المحقق لديه عشر من دون ورقة رابحة غضب ألكسي ستيبانيتش بشدة وطلب إعادة توزيع الورق؛ الأمر الذي وافق عليه المحقق بسرور بعد أن قال:

– إذا كان هذا يسعدك فأنا مستعد أن أتخلى عن خمس عشرة وأضمن النتيجة ذاتها!

هذا ما حدث. عندما وزع الورق مجدداً تبين أن ورقه مميز للغاية

إلى درجة أنه لم يستطع منع نفسه من الصياح بسعادة: «يا لها من لعبة!». لم يحتج الكسي ستيبانيتش مجددًا، وظل يتململ طوال نصف ساعة بعد أن قال: «آه أيها الإخوة! آه أيها الإخوة! كم كنتم بارعين!». منذ هذا الوقت توقفنا عن زيارة آل مولتشانين، وبدلاً منها ازداد تشبثنا كل يوم أكثر فأكثر بلقاء المحقق الذي كان يتملقنا، من المؤكد أن التوازن السياسي يتطلب من يستطيعون رفرفة العين ومضغ الشفاه. قال: «هذا ما تحتاجان إليه تحديداً، فالأمر على هذه الحال؛ إذا كان الإنسان جاهلاً فعليه أن يعمل، وإذا كان مثقفاً فعليه أن يتنزه ويأكل، وإلا ستحدث ثورة!».

بشكل عام صار هذا الإنسان مكسباً كبيراً لنا. لم يكن رابطنا الوحيد بعالم الأحياء من حولنا وحسب، بل ضمن لنا القدرة على أن ننظر من دون خوف إلى عين المستقبل ما دامت حياتنا تتدفق أمام عينيه، وكان جلوموف بين الحين والآخر يُذكره قائلاً: «اعتنِ بنا يا أخي! اعتنِ بنا!». - حتى اليوم كان السؤال المطروح: هل ستصل الثورة سريعاً إلى منطقة ليتيني أم لا؟ أقول لكم: أبداً لن يحدث ذلك، وسنظل نلعب الورق كل مساء.

هكذا طمأننا، وتديلاً على صدقه تحدث بصراحة؛ قال إنه سبَّ رؤساءه واعترف أنه تعرض للضرب أكثر من مرة في أثناء أدائه لواجبه. أما أروع شيء فهو أننا لم نعرف اسمه الأول واسم عائلته، ليس هذا وحسب، بل إننا لم نجد حتى أي ضرورة لمعرفة. بالمصادفة البحتة

ناداه جلوموف ذات مرة «كشيشيتسيولسكي»^(١٨)، والعجيب أنه رد عليه فور أن سمع الاسم. حتى تعارفنا به لم يكن عادياً. كنت أتنزه ذات مرة في ساحة منزلنا وسمعته يسأل البواب: «هل ستحدث ثورة قريباً في شقة رقم ٤؟»، وكان هذا هو رقم شقتي. ما إن سمعته حتى جذبته من الياقة وقلت له: «انظر!».

منذ هذه اللحظة صار يلازمنا ولا يفارقنا إلا عندما يمضي إلى عمله في قسم^(١٩) الشرطة للنوم، أو إلى مطعم دومينيك في أوقات الصباح للعب البلياردو قائلاً إن هذا اللعب يُعتبر سياسة داخلية ضرورية.

لقد كان كاذباً رائعاً، وإن لم يكن مضحكاً. لكن نظراً لأننا كنا في حالة حسن نية يصير فيها الطعام العقلي الحقيقي منفراً، صار الكذب بالنسبة إلينا بديلاً عنه. كان أصله محيراً بالنسبة إلينا على وجه خاص. اليوم يتظاهر أنه سليل سيدة بولندية نبيلة تمتلك ضياعاً لا حصر لها، وغداً يتظاهر أنه ابن غير شرعي لنبيل ودبلوماسي بولندي عابث كتب كتاباً بعنوان «*La verite sur la Russie, par un diplomate*»^(٢٠) ويضيف كشيشيتسيولسكي «لهذا هو موجود!». عندما اعترض جلوموف بصراحته المعهودة قائلاً: «أعتقد ببساطة أنك مع...» لم ينكر ولكنه انتقل بعجلة شديدة بأكاذيبه إلى موضوعات أخرى. كان يتفاخر بعمله المؤقت في قسم الشرطة حتى يبت مجلس الشيوخ في

(١٨) غالب الظن لا يوجد اسم كهذا في الروسية.

(١٩) المفردة الروسية المستخدمة تشير إلى شرطة الحي أو القطاع، ويبدو من السياق القادم أن رجال الشرطة يعيشون هناك أيضاً أحياناً.

(٢٠) حقيقة روسيا يوضحها دبلوماسي. (بالفرنسية)

أمر ضيعته، وبالرغم من أنهم يسمونه محققاً فإن وظيفته بشكل دقيق هي وظيفة دبلوماسيّة، ولذلك يرى أنه توجب عليهم بالأحرى أن يطلقوا عليه «دبلوماسياً في قسم الشرطة»، كما أكد أنه هرب في ١٨٦٣ إلى الغابة^(٢١)، لكنه مع ذلك ظل دائماً في صف الحق، كما أكد أن أسلافه ظلوا يمسكون بيد روسيا قائلاً: «وكيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك؟!». أحياناً كان يستغرق في التفكير وي طرح سؤالاً:

– ما رأيكم أيها السادة، هل الله موجود؟

– ماذا بك يا بهيمة؟

– أفترض أنه غير موجود حتى الآن.

لكن لم يكن لمثل هذه التلفيقات أن تهزمننا. صحيح أن غريزتنا لا تزال تشير إلى أنه في مثل هذا الخطاب ما يوجب ضربه (ولحسن الحظ لن أتحمّل مسؤولية من جراء فعل ذلك)، لكننا لم نشعر بحماسة داخلية لفعل ذلك. هذه الحماسة الداخلية هي التي تجبر المرء على أن يمد يده ويسحق فك جاره باسم معتقداته العزيزة.

أكرر أننا غفلنا تماماً عن حقيقة أنه طبقاً للخطة الأصلية فإن حالة حسن النية كانت مؤقتة وحسب ما دام يتوجب علينا الانتظار. لم نعد ننتظر، بل تحولنا عن طريقه تدريجياً، وقد فعلنا ذلك إلى درجة أننا لم نعد نفكر إلا في موقف القسم تجاهنا. عندما أخبرنا صديقنا المحقق ذات مرة أن شخصاً يدعى إيفان تيموفيتش (ومن الواضح أنه شخصية

(٢١) في يناير ١٨٦٣ حدثت انتفاضة بولندية ضد السيطرة الروسية على جزء من أراضيهم، وقد قمعها القيصر بقوة.

مهمة في القسم) قال عنا صباح اليوم: «أتضرع إلى الله كل يوم أن تكون بقية المواطنين لديّ حسنة النية مثلهما»، قلنا ربما يحدث بسهولة يوماً ما أن يدعونا لشرب الشاي، وظللنا طوال اليوم نسلك بفخر كمن يمنحونهم الفودكا طوال مدة العرض.

فعلاً حدث بعد ذلك سريعاً ما جعلنا نقتنع بأن كشييشيتسيولسكي لم يخدعنا. كنا نتمشى ذات مرة في الشارع وفجأة وجدنا إيفان تيموفيتش يقترب للقائنا. أردنا تلقائياً أن نتقل إلى الجانب الآخر من الطريق، ولكن سعادته أشار إلينا بإصبعه كي لا نخجل. قال وهو يقدم لنا إصبعيه اللتين كان يقلب بهما لتوّه في أقرب سلة قمامة: «مساءً... كأس شاي... أنتظركم... في القسم». قال ذلك وتوجه بسرور مجدداً إلى أقرب مقلب قمامة.

بعودتنا إلى المنزل أجرينا محادثة طويلة وقلقة عن كأس الشاي هذه الذي دُعينا إليه. من جانبٍ تشرّفنا بهذه الدعوة كتعبير عن ثقّتهم بنا، ومن جانبٍ آخر فرّضت علينا الدعوة واجبات أخرى. ثمة أسئلة كثيرة مطروحة علينا الآن، مثل: بأي رداء نذهب إلى هناك؟ هل نرتدي معطف سهرة أم معطفاً قصيراً أم مبدلاً؟ ما الذي سيجبرونا على فعله؛ الرقص الروسي والغناء لأمنا روسيا على ضفاف الفولجا أم أنهم سيجبرونا على إجراء حديث عن خلود الروح من منظور المجلس الكنسي، أم أنهم سيضعون ببساطة أمامنا زجاجة فودكا ويقولون لنا: اشربا يا حسني النية؟!

تبين بالطبع أن محققنا هو اكتشاف ثمين في حالتنا هذه. قال لنا: «ستكون هناك فودكا بالطبع. صحيح أنها لن تكون من النوع الممتاز الذي في وطني، لكنها ستكون على أي حال. قد لا يجبرونكما على

الغناء لكنهم سيختبرون أفكاركما، وسيحققون ذلك بإجراء حوار فلسفي معكما. ربما بعد ذلك يأمرونكما بالرقص، فإيفان تيموفيتش لديه ابنة، وهي فتاة جميلة حقًا».

أخيرًا حل المساء وتوجهنا إلى هناك. أتذكر أنني ارتديت وقتها قفازات بيضاء، ولسبب ما بدا لي أنه يستحيل أن أذهب لحضور الحفل من دون قفازات مغسولة وبها ثقب، وهذا ما فعلته! من جانب جلودوف فقد قرر أيضًا أن يرتدي معطف سهرة، لكنه لم يرتد معطفه، بل ذهب إلى أحد مكاتب الرهونات من معارفه وطلب من هناك أقدم المعاطف. قال لي:

- وفقًا لقواعد اللياقة سيتوجب على المرء أن يرتدي معطف سهرة مسروقًا، ولكن نظرًا لأن كلينا لم يصل بعد إلى مرحلة السرقة (ستكون هذه هي المرحلة النهائية التي تتوج نشاطنا) فستكون المرة الأولى إذن التي لا يفرضون فيها رسومًا على أناس أتوا إليهم بثياب مرهونة!

استقبلنا إيفان تيموفيتش بكل وُد، وشعر بالإطراء قبل كل شيء من أننا خاطبناه بـ«سعادتك» في أثناء إلقاء التحية. اقتادنا إلى غرفة الاستقبال حيث كانت زوجته وابنته، وسيدات عديدات من أسر شرطية يغازلهن شباب شرطيون كثيرون (وعرفت بعد ذلك أنهم من «جمعية أوراق الشب (J) الذهبية»^(٢٢)، يُطلق سراحهم من السجون في حالة الاحتياج إلى راقصين).

(٢٢) جمعية إجرامية عملت في الإمبراطورية الروسية في الفترة من ١٨٧١-١٨٧٥ بهدف سرقة الممتلكات من خلال الإغواء والتزوير والخداع. اسمها مستوحى من كتاب: The Adventures of Rocambole - J في ورق اللعب اختصارًا لكلمة Jack، والتي تعني الرجل أو صاحب ويطلق عليها اسم الشب.

استقبلتنا ابنة صاحب المنزل بمرح قائلة: «سيُسر بابا بلقائكما للغاية»، والتفتت إليّ وأضافت: «أريد أن أرقص معك أول رقصة كادريل!». قال صاحب المنزل بلطف: «هذا إذا لم يمنعكما إنذار حريق!». .

بعد أداء طقوس التقديم ذهبنا إلى المكتب حيث قدموا لنا على الفور كأس الشاي مخففاً إلى نصفه بالفودكا (ولاحظنا بسرور أن من يحمل الصينية هو كشييشيتسيولسكي. كان عدد الضيوف كبيراً. جلس المبعجلان منهم: الناسخ بروديتوف وملاحظ الحريق مولودكين، على الأريكة، أما الأصغر شأنًا فجلسوا إلى الطاولة. من بين الأصغر شأنًا كان صف الضابط ديرجونوف يرتدي كتافته ذات علامة السيف.

تبين أن كشييشيتسيولسكي لم يخدعنا. ما إن جلسنا حتى اختبر بروديتوف ومولودكين (بتوجيه من إيفان تيموفيتش بالطبع) طريقة تفكيرنا وأجريا حواراً فلسفياً. في البداية طرحا سؤالاً عن خلود الروح، وأجريا الحوار بمهارة شديدة ليبدو كما لو أنه قد بدأ قبل وصولنا، وأنا نشارك فيه بمحض الصدفة. أكد بروديتوف أن الروح الإنسانية خالدة فعلاً وعارضه مولودكين، لكن بدا واضحاً أنه اصطنع هذه المعارضة وحسب لأن الأدلة التي ساقها تدليلاً على وجهة نظره كانت تافهة. قال:

- لم أر أي روح، وما لا أراه لا أعرفه.

أصر بروديتوف على رأيه قائلاً:

- صحيح أنني لم أرها لكني أعرفها. الروح ليست شيئاً نعرفه برؤيته، فأَي شخص يمكنه أن يفعل ذلك، لكن المسألة هي أن غير

المرئي متضمن تمامًا في المرئي. ما رأيكما في هذه المسألة؟ (هكذا
وجه الحديث بمهارة إلينا)

كانت لحظة حاسمة، وأعترف أنني وجلت. قضيت وقتًا طويلًا في إطلاق الأحكام المتعلقة بالطعام حتى إن مفهوم الروح صار بالنسبة إليّ غريبًا تمامًا. بدأت في محاولة الفهم: الروح... الخلود... ماذا يعني ذلك؟ للأسف لم أستطع أن أتذكر شيئًا عدا أمر واحد... نعم، كان شيء ما... في مكان ما... لحسن الحظ تذكر جلوموف شيئًا ما ومن ثم سارع لإنفاذي. قال:

- إذا أردنا أن نحل هذه الإشكالية بصورة صحيحة تمامًا، فسيكون من الضروري قبل كل شيء أن نتوجه إلى المصادر. أقصد تحديدًا إذا وضعنا في اعتبارنا مجموعة من القوانين أو مرجعًا يمكننا بموجبه أن نعتبر الروح خالدة، فسيكون من الضروري حينها بالطبع أن نسلك بحسب ذلك، ولكن إذا لم نجد في القوانين ولا في التوصيات تعليمات مباشرة بخصوص ذلك، فأرى ضرورة أن ننتظر المزيد من التعليمات حيال هذا الموضوع.

كان جوابًا دبلوماسيًا. لم يحسم جلوموف الأمر به لكنه استطاع بمكر شديد أن يُبعد الفخاخ المنصوبة، ووضع الصيادون أنفسهم في وضع مربك. أخبرهم أن يعودوا إلى المصادر وإذا وجدوا فيها تعليمات بخصوص الأمر، فليسلخوا بحسبها! وإذا حدث العكس فليحذروا عمليات البحث التي قد يجدون مستقبلًا أنها حدثت في وقت غير ملائم.

بالرغم من أنه حصَّن نفسه لكن حيلة جلوموف دفعت الجميع إلى الإعجاب بها. الصيادون أنفسهم صفقوا لها وسعد إيفان تيموفيتش للغاية، حتى إنه ربت على كتف جلوموف وقال له:

- أنت حذق يا أخي!

- رائع يا سيد (واصل بروديتنوف اختباره) والآن أريد أن أعرف رأيك في موضوع آخر. أي نظام تعليمي من النظامين الموجودين الآن تراه أصلح للشباب في ظل ظروف الوقت الراهن؟

وضَّح مولودكين من تلقاء نفسه:

- يقصد أيهما نُفضِّل: الكلاسيكي أم الواقعي؟

وجمت مجدداً، لكن جلوموف وجد الإجابة ثانية. قال:

- أعتزف لكم بصراحة أيها السادة أنني لا أفهم حتى سؤالكم. أنا لا أعرف نظامين تعليميين، بل أعرف واحداً وحسب. بوسعنا أن نُعبّر عن هذا النظام الواحد بالكلمات القليلة الآتية: نلهم الشباب من دون أن نثقل كاهلهم بمعارف زائدة، بأن هدف السكان ودورهم يتمثلان قطعاً في استعدادهم لتنفيذ أوامر السلطات! إذا كانت هذه الوصفات كلاسيكية، يجب أن يكون التنفيذ كلاسيكياً، وإذا كانت الوصفات واقعية، يجب أن يكون تنفيذها واقعياً هو أيضاً. هذا هو الأمر وحسب، ومن ثم ليست هناك أي أنساق كلاسيكية ولا واقعية، وأنا لا أعتزف بها! تعالت صيحات التهاني «برافو! برافو!» من كل جانب. صفق مسؤول القسم، وصافحنا بروديتنوف، وابتهج صف الضابط بشدة

حتى إنه ركض إلى جلوموف وطلب منه أن يكون الأب الروحي لوليدته الحديث.

هكذا، وبفضل براءة جلوموف اجتزنا الاختبار بنجاح وأوقعنا الصيادين أنفسهم في الفخ. وضعوا حينها الفودكا على الطاولة وصنع صاحب البيت نخبًا في صحتنا بعد أن قال:

- إذا سألتني مأمور القسم نفسه الآن: إيفان تيموفيف: «مَنْ مِنْ هؤلاء السكان الموجودين في هذا الحي يمكن الاعتماد عليهم في حالة الطوارئ؟»، فسأجيب عن سؤاله إجابة يمكنني أن أقدمها أمام الرب في يوم الدينونة: «ها هما!».

بعد ذلك ذهبنا مجددًا إلى غرفة الاستقبال، ومضت الأمور على النحو المعتاد. أعطوني ورقة لعب «شايب كوبة»^(٢٣) مع قطعة تفاح من القرم، ووعدوني بقطعة نقانق إذا تبين في نهاية الحفل أن مناديل جميع الضيوف سليمة. بعد ذلك، وبناء على طلب السيدات جلس النقيب إلى البيانو وأنشد «فليتجد»، وفي النهاية، بعد أن هز جسده كاملاً، انتقل إلى إيقاع سريع وصاح بصوت لا يبدو كصوته:

هنا في وهج الحماسة الحربية

اللورد بالميسترون^(٢٤)

(٢٣) الكوبة في أوراق اللعب هي شكل القلب.

(٢٤) سياسي بريطاني. بدأ حياته كمصمم أزياء ورجل فكاهي في مقاهي لندن، ثم تمكّن لاحقًا من تولي منصب وزير الخارجية البريطاني في ثلاث مناسبات وخدم مرتين كرئيس وزراء. أثر تأثيرًا كبيرًا في توسيع دائرة بريطانيا الدبلوماسية الخارجية.

يُقَسَّم روسيا على الخريطة

بسببته

قال جلوموف:

- أغنية رائعة. ستمر قرون ولن يعفو الزمن عليها.

ورد صاحب المنزل:

- جيدة... جيدة ولكن في رأيي صحيحة «أورا^(٢٥)» الروسية أفضل كثيراً. أحب هذه الموسيقى لدرجة يبدو لي فيها أنه ليس هناك ما هو أعذب منها.

أخيراً بدأوا الرقص. جلس واحد من جمعية المحتالين على البيانو وبدأ يعزف كادريل. لكن في اللحظة التي رافقت فيها ابنة سيد البيت في الرقص أطلق إنذار الحريق وقال سيد البيت: «مرحباً بكم في الحريق أيها السادة!»، ثم توجه إلى أكبر صف الضابط ديرجونوف قائلاً: «ويُشرّفني أن أرسل جمعية «ورق الولد الذهبية» إلى السجن وأحبسهم!».

بشكل عام نجح هذا الشتاء بدرجة غير عادية بالنسبة إلينا. تتابع الحفلات والأمسيات واحدة تلو الأخرى، وعلاوة على ذلك أعدت فطائر عيد الشفيع وأقيمت أعداد كبيرة من حفلات العماد، فزوجات رجال الشرطة يلدن كل دقيقة. استمتعنا كثيراً، ولم يقتصر الأمر على حيناً وحده بل شاركنا في أفراح جميع الأحياء والقطاعات. نجح بدرجة

(٢٥) صيحة تُعبّر عن الفرح والبهجة والاحتفال.

خاصة حفل القطاع الثالث من الأدميرالية حيث شارك سكان ميدان مجلس الشيوخ جميعهم بكل إبداعاتهم. بالرغم من أن إنذار الحرائق كان يعكر فرحتنا أحياناً، فإننا تدريجياً اعتدنا هذه الظاهرة واعتاد رجال الإطفاء تأدية عملهم، بينما نكمل رقصنا كما لو أن شيئاً لم يحدث!

جلبت هذه الحياة المشتتة النفع لي ولجلوموف حيث أبهجتنا وملأتنا بالحيوية. نظرًا لأننا انغمسنا بشدة في الملذات التي تحققت باستهلاك كل مواردنا الغذائية، شعرنا بالثقل، وفي الآن ذاته اكتسبت ملامحنا نظرة بليدة وحزينة بعض الشيء، مما قد يدفع الآخرين إلى تفسيرات غير ملائمة. أضربنا ذلك، بل وشل جهودنا الرامية إلى إبداء حسن نياتنا إلى حد كبير. في هذا الوقت كانت النظرة البليدة تلعب دوراً مهماً في الحياة الإنسانية، فقد كانت تشير إلى عدم الرضا عن النظام الحالي والميل إلى زعزعة الأسس الراسخة. صحيح لم يكن هناك نواب عموميون بعد، وبالتالي لم تندلع اضطرابات كثيرة، ومع ذلك توفرت في الأحياء سلسلة متتالية من مأموري الأقسام اعتادوا التحديق من دون كلل إلى الأشخاص ذوي الوجوه البليدة. لذلك إذا لم يكن الهمود الجسدي والحموضة المعوية سببين كافيين للتنصب على أصحابها؛ إلا أنهما شكلا في كل الأحوال سبباً وجيهاً لإثارة شكوك وأسئلة ذات طبيعة حساسة للغاية.

حاولت طوال حياتي تجنب هذه الشكوك والأسئلة. فضلت دائماً الاستجابات المباشرة عليها، ليس لاحتمالية أن أكون هدف تنصت ومراقبة، ولكن لأنني عدو كل وضع ضبابي، وعلى عكس المثل المعروف

أجد أن الشجار الجيد لا يزال أفضل من السلام السيئ. حتى عندما تُنقل جريمة حقاً ضميري وتصرخ إرادتي الشريرة -إذا جاز التعبير- من أجل التأثير، لا أخشى عقاب القانون بقدر خوفاً من هيئة المدعي العام وهو يقترب مني. في هذه اللحظات أود أن أقول له إنني لا أخشى المحكمة بل نظرت الباردة. لا تدفعني صواعق العدالة إلى اليأس، بل يدفعني إلى ذلك أنك لا تصارحني. أرعد عليّ، وادعُ أن ينصب على رأسي انتقام السماء، ولكن قل لي ما الذي فعلته وأزعجك. انزع الشراك التي اصطدت بها وجودي! وضح لي مادة العقوبات التي تنطبق على وضعي الرسمي في هذه الدراما الجنائية التي تتطور بلا نهاية، والتي -من فرط هوسك- تشمل كل فروع الصناعة البشرية؛ بداية من السرقة والنهب، وصولاً إلى زعزعة الأسس وإنهاء المدفوعات على الحساب الجاري وإخفاء الأوراق المقرر تخزينها!

إذا فكرت بهذه الطريقة عندما أشعر بالذنب حقاً، فمن المفهوم كيف يثير اشمئزازي الآن كل وضع ملتبس في الوقت الذي اعترفت فيه بنفسى بأنني بريء تماماً أمام الله والناس. لحسن الحظ سرعان ما أخرجني معارف جدد من مجال الطعام الكئيب هذا الذي انغمست فيه كلية. أدركت أن النيات الحسنة الحقيقية لا تتمثل وحسب في تغذية جسدك حتى تصل إلى الوزن المطلوب، بل في أن تُقدم للآخرين مثلاً يحتذون به. اتسع أفقي من دون أن أدري، وابتهجت روحي، ونمت بجسدٍ لا يخجل من المجتمع. ليس ذلك وحسب، بل وينشد التواصل معه. النظرة البليدة التي أضفت على منظري هيئة المتآمر تلاشت

كلية. قضيت مع جلوموف فترات صباح كاملة في زيارات، وتوجب عليّ أحياناً في هذه الزيارات أن أفارق حي قازان عبر نهر أوختا، كما أجريت محادثات تافهة مع كتبة الشرطة وصف الضباط، وكانت أحياناً عن موضوعات لم أتجرأ من قبل على التفكير فيها إلا بعد أتيقن من أن أحداً لا يتنصت على الأبواب. غازلت أيضاً سيدات من بيوت شرطية، والتواضع وحده هو ما يمنعني من الاعتراف بأنني أوقعت كثيرات منهن في حبال الخطيئة. باختصار، انتقلت من عالم النيات الحسنة لصغيري الشأن إلى عالم النيات الحسنة للمقاتلين، واكتسبت أخيراً ثقة بنفسى إلى حد أن صار بوسعى أن أقسم وألعن بحرية كاملة، وفي ثقة كاملة. إن أكثر المراقبات البوليسية يقظة لن ترى أي عيب في ذلك عدا الطيش الذي يتسم به أي إنسان مهذب.

انتهت مشكلة الصمت الذي ظل حتى وقت قريب يضطهدنا، وحدث ذلك بأكثر الطرق إرضاءً. صرنا ثرثارين إلى أقصى درجة، ولكن حواراتنا كانت بدائية واتسمت بهذه السمة التي تُذكر المرء بأجواء بيوت الدعارة. تَمَثَّلَ المحتوى الرئيس لحواراتنا في الآتي؛ أولاً: العبث تجاه ما يتعلق بالرؤساء والدساتير. ثانياً: النساء، ولكن ليست النساء أنفسهن، بل استدارتهن وإيماءتهن الخاصة.

فعلنا كل ما يفعله الشباب الأندال الدنيويون الذين يشعرون كأنهم في حفلة صيد: استأجرنا عربات الترويكاً^(٢٦)، واشترينا الحلوى وباقات الزهور، وكذبنا وتبجحنا وتباهينا، وركبنا بجوار الحوذية،

(٢٦) عربية روسية تجرها ثلاثة خيول.

وألقينا القصائد المثيرة. أعجب الجميع بنا وقالوا: من الواضح تمامًا
الآن أنهم أناس حسنو النية لا يعذبهم خوف ولا تثقلهم ضمائرهم!
أخيرًا ذات صباح رائع، وقد وصل شعورنا بالرضا -إذا جاز
التعبير- حتى حلوقنا، زارنا إيفان تيموفيتش بنفسه في شقتي.

أعترف أن صاحب المقام الرفيع قد أجبرني على انتظار هذه
الزيارة طويلًا. مر شهران كاملان بعد الحفل الأول في القسم، ويبدو
أنه نسي حتى وجود قواعد لياقة في عالمنا هذا. زارنا الجميع بالفعل
عدة مرات؛ الكتبة الخاصون بكبار الضباط والنقباء ومعاوني الأقسام
وكبار صف الضباط؛ جميعهم شربوا الفودكا وأبدوا إعجابهم بالكافيار
والسلمون وسألوا عما إذا كانت ترجمات لبول دي كوك^(٢٧) متوفرة أم
لا. إيفان تيموفيتش وحده هو من امتنع عن التقارب النهائي بنا لسبب
غامض. رأيناه كثيرًا من النافذة وهو ينظم الأمور في فناء منزلنا ويتابع
ما يتعلق بتنظيف المكان من مياه الصرف الصحي، بل وكيف يثير
متعمدًا ضجيجًا ليلفت الانتباه إليه، لكنه كان يكتفي بأن يحيينا بحركة
من ذراعه ثم ينغمس مجددًا فيما يتعلق بمياه المجاري. استأننا من ذلك
بعض الشيء وأجبرنا على الاستغراق في التفكير: هل ماضينا حقًا مُثقل
بالجرائم إلى درجة أن نياتنا الحسنة الحالية لا يمكنها محوه؟ أعربت
لجلوموف عن شكوكي:

- لقد عبثنا طوال حياتنا كثيرًا.

(٢٧) كاتب مسرحي وروائي فرنسي

وافقني قائلاً:

- نعم يا أخي، لا يمكن أن تُنسى مثل هذه الأفعال سريعاً.

هكذا بدأنا في تحليل ماضينا، وكدنا نختنق من فرط الهلع. يا إلهي! ما الذي لم نفعله؟! البهجة بإلغاء القناة^(٢٨) والفرح القلبي بعمل لجان الزمستفو^(٢٩) والآمال المشرقة التي أثارها نشر المواثيق القضائية الجديدة، والشعور بالنصر الناجم عن إلغاء الرقابة الأولية واقتصارها على من لا يستطيعون البعد عن الفحش بسبب ضعفهم البشري. باختصار وجدنا كل المخاطر وكل أسباب عدم الثقة وسوء النيات، وكل التهديدات، وكل ما يقوّض ويهز ويدمر! ولم نجد أي شيء مما يشيّد ويُدعّم ويؤكد ويملاً قلوب كل رؤساء الأقسام بفرحة تهز القلب. صحت في يأس:

- بهذه الطريقة لن نستطيع تبييض صفحتنا مهما بذلنا من جهد.

ردد جلوموف من خلفي كالصدى:

- وأنا مثلك.

- اسمع! من كان بوسعه أن يعرف ذلك؟ لقد بدت هذه الأمور في

(٢٨) أعلن القيصر ألكسندر الثاني يوم ٣ مارس ١٨٦١ نهاية نظام القناة (العبودية) الذي انتشر بالإمبراطورية الروسية على مدار قرون، وقد سمح هذا النظام بامتلاك الفلاحين وممارسة العقوبات الجسدية وغيرها من المظالم. اغتيل القيصر ألكسندر الثاني في مارس ١٨٨١ واشتدت القبضة الأمنية على يد خليفته الذي نحى كل التحسينات الليبرالية التي أجراها سلفه بعيداً، وحكم البلاد بيد من حديد.

(٢٩) لجان حكم ذاتي في القرى تأسست ضمن سلسلة الإصلاحات التي أجراها القيصر ألكسندر الثاني.

حينها تُشَيِّد وتُدعِّم وتؤكد، وفجأة يحدث انقلاب.

- ما بدا أماننا كان قليلاً. كان علينا أن نوسع آفاق تفكيرنا.

- لكن حينها كانوا يكافئون بالرتب والدرجات على ذلك!

- ولا يزال من الممكن أن تُمنح الرتب بل ويمكن أن نعلن عن تعاطفنا أيضًا... كل شيء ممكن ولكن مع تحفظ صغير يا صديقي العزيز! مع تحفظ صغير! كيف يسلك الأذكى؟ إذا قالوا تعاطفوا فلتعاطف، ولكن في الوقت ذاته علينا أن نضيف إلى ذلك أنهم إذا أمرونا أن نغير طريقة تفكيرنا حيال موضوع معين، فعلينا ألا نرفض. هكذا يسلك الأذكى الذين ينالون الرتب والدرجات، سواء أعربوا عن تعاطفهم أو عن عدمه. إنهم مستعدون دائماً لنيل الرتب.

في اللحظة التي أنهى فيها جلوموف كلماته اليائسة رن الجرس في غرفة الاستقبال. توجهنا إلى الباب بشعور من يعانق هدية حلوة، ويا للفرحة! وجدنا إيفان تيموفيتش بنفسه واقفاً أمامنا!

- إيفان تيموفيتش! سعادتك؟ أنت؟

- شخصياً؟ وماذا بعد ذلك؟ هل تعبنا من الانتظار؟ هاها!

- نعم، في الحقيقة بدأت - كما ترون سعادتك - الشكوك تساورنا.

- استغرقنا في التفكير! هاها! حسناً، فلا يمكن أيها الصديق أن آتي هكذا سريعاً. أحياناً ألاحظ أن المرء يتحسن، ولكن إذا القليل فيه لا يزال... فحينها لا أتعجل وأنتظر. من ناحية الملاطفة سألاطف ولكن لن أفرط في الملاطفة. لكن إذا تأكدت في الوقت المناسب أنه لم يتبقَّ

في الشخص أمامي أي شيء سيء، فحينها سأذهب للقائه. كونا بخير يا صديقي!

قال الكلمات الأخيرة بحرارة يندر ظهورها على وجهٍ مُلزم بمراقبة القتال في الشوارع الجليدية، ثم ربت على أيدينا ودخل الشقة.

- لديكما شقة جيدة ومريحة للغاية. هل تعيشان معاً؟

تمتم جلوموف بصوت يتألم قلب صاحبه بشدة بسبب عيشه في حي لا يقع تحت إشراف إيفان تيموفيتش:

- لا، أنا من حي روجدستفنسكايا.

طمأنه إيفان تيموفيتش قائلاً:

- يا إلهي الكريم! سوف ينتقل أمرك إليّ في النهاية.

ثم التفت إليّ وأضاف بسرور:

- أليست لديك فودكا يا عزيزي؟

- بالطبع لدي يا إيفان تيموفيتش! أتريد نبیذاً؟ لدي نوع لافيت

ولدي شيري. يا إلهي!

- لا، أريد كأس فودكا وقطعة خبز أسود مملحة وحسب. ألوم

نفسي الآن لأنني لم آتي إلى مسكنك من قبل. قلت في نفسي: دعه يصحح أموره ولا تثقل عليه. أقول لك بصراحة إن مسكنك نظيف حقاً.

جلس على الأريكة ونظر إلى الغرفة نظرة مشرقة، ولكن فجأة عبس

وجهه حين لاحظ كتاباً في ركن ما بعيد.

- إنه تقويم عام.

قلتها وهرعت لأحضر أداة الجريمة.

- حقًا؟ أعترف أن الكتاب أثار شكوكي.

- لا يا إيفان تيموفيتش، منذ زمن بعيد ونحن فيما يتعلق بهذا الأمر

قد...

- رائع ما فعلتماه! الكتب! آه مما تحويه! ما الأجمل من أن يعيش

الإنسان معافى ويستمتع بالمسرات؟ الجهلة لا يقرأون الكتب، فهل

منعهم ذلك من العيش؟

أكد جلوموف:

- لا، بل يعيشون، والمتعلمون هم من يُحاكمون.

تفضل إيفان تيموفيتش بالرد ببعض المحاباة:

- ليسوا جميعهم. بعضهم بسطاء ويقرأون بحكمة.

- لكنهم يُحاكمون على أي حال، وإذا لم يُحاكموا بوصفهم

متهمين يشاركون في المحاكمات بوصفهم شهودًا. عفوًا، ولكن أليس

من الرائع أن يشهد المرء في المحاكمة؟

- وأي روعة! الشيء الأول: لا يرغب المرء في سلوك هذا الطريق

الطويل والصعب، والشيء الثاني: كيف ستشهد؟! في بعض الأحيان

تشهد شهادة لا تجعلك قادرًا على العودة إلى منزلك! آه من ذنوبنا! آه

من الذنوب!

تنهد إيفان تيموفيتش، وسكب الفودكا من الكأس إلى فمه وقال:

- كونا بخير يا صديقي! لقد فهمتكما الآن... فهمتكما جيداً.

وقفنا قبالة متأثرين وانتظرنا ما سيحدث. واصل هو حديثه:

- أريد أن أتحدث معكما حديثاً قلبياً. أردت ذلك منذ فترة طويلة، ولكن... أنتما ذكيان. اليوم ظهر هذا الفحش في كل مكان. الجميع يشعرون بعدم الكفاية، ويريدون... يريدون ماذا؟ قولاً لي أنتما، ماذا يريد الجميع؟

كنت على وشك أن أضع يدي على قلبي وأقول إن الجميع يشعرون بالاكْتفاء ولا ينقصهم شيء، وكنت سأقسم على ذلك، ولكن لحسن الحظ أشار لي إيفان تيموفيتش بيده أن دوري في الحديث لم يأت بعد، وأنه يريد أن يكمل حديثه.

- في بعض الأحيان تعتقد... تعتقد، ولكن ماذا تعتقد؟ تفهم شيئاً وتذكر شيئاً آخر وتقول: كل شيء موجود لدينا. أنتما ذكيان حقاً وتعرفان الأمر بأنفسكما. عشتما من قبل حياة، كيف أصفها الآن؟ حياة سيئة! عشتما حياة مسعورة، أو باختصار يمكنني أن أقول إنكما عشتما بدناءة. من الواضح بالطبع أنكما لم تستمتعا بها، فمن يمدح المرء على حياته السيئة! الآن أصلحتما حياتكما وتعيشان في سلام ولطف ورخاء، لذلك أسألكما: هل أزعجكما أي شخص؟ ها؟ ماذا؟ هل هناك فعلاً شخص؟

- وحق الله نـ...

- حسناً، ولكن السلطة تشعر بالقلق. الدناءة في كل مكان. حتى

المستشارون السريون الآن موضع شك. ليست هناك راحة للحظة واحدة، لا في النهار ولا في الليل. فلتقارنا بين كيف عاش قسم شرطة الحي وكيف يعيش الآن! سابقًا كانت لدينا مشكلة واحدة... حرائق! أما الآن!

- نعم، الأمر صعب عليك.

- عليّ؟ قولاً لي: هل تعرفان ما هي السياسة الداخلية؟ ها؟ كل ثقل هذه السياسة الداخلية نحمله على كاهلنا الآن.

- أووف!

- ثقلها على أكتافنا وعلى أكتاف صف الضباط. كانت لدينا مؤخرًا قضية في القسم. يأتي إلينا شخص في الثالثة بعد منتصف الليل كنت أراقبه من قبل، ويقول: «أريد تغيير شكل الحكومة!». بالطبع وُضعت الأيدي على كتفي خادم الله هذا، وقد أتى إلى المكان المناسب كما يقولون. وإذا بلجنة كاملة تأتي إلينا في اليوم التالي واستدعوه وسألوه: كيف ذلك؟ لماذا؟ من هم المتواطئون معك؟ أما هذا المارق فبماذا أجاب في رأيكما؟ قال: «نعم، أنا أريد تغيير شكل يافطة^(٣٠) محطة رييسنكايا - بولجوفكسايا للسكك الحديدية!».

- يا له من مهزار!

- أردت حينها أيها السادة أن أضحك وأضحك. أيقظوني في الثالثة بعد منتصف الليل من أجله. بعد ساعتين تقريبًا من ذلك كنت قد

(٣٠) هناك تشابه لفظي كبير في الروسية بين كلمة: يافطة - حكومة.

كتبت تقارير إلى كل الجهات المختصة. بعد ذلك، وبمجرد ما غصت في النوم وبدأ الحلم أيقظوني مجددًا. قالوا إن مظاهرات اندلعت في بيت دعاة! وبعدها حوذي ترك البرودة تلسع أنفه، فأخذوا يفركونه، وعليّ أن أكتب تقريرًا بالطبع! هكذا انقضى الليل بطوله.

- فعل ذلك وأفلت من العقاب؟

- وماذا أفعل به؟ صفعته مرتين، ثم توجب عليّ أن أقدم له نصف زجاجة خمر من أجل إقرار السلام العالمي!

- أووف!

- إيفان تيموفيتش! هل استطعنا أن...؟

- بل قل إنكما استطعتما تمامًا. أرى أن الأمر من الماضي، بل أرى جيدًا نيتكما الراسخة، ولكن مر زمن كنتما فيه أيها السيدان ماكرين تمامًا. آه أيها السيدان! حقًا كنتما ماكرين!

ابتسم إيفان تيموفيتش وهددنا بإصبعه.

- استأجرتما شقة وتواريان في الأركان، ولا تزوران أحدًا ولا تستقبلان أحدًا، وتعتقدان أن أحدًا لن يكتشف شيئًا بهذه الطريقة. آه! آه!

وأخذ يهز رأسه بلطف لدرجة أننا فرحنا من حقيقة أننا ماكران! لا نزور أحدًا ولا نستقبل أحدًا، وفي هذا الوقت حاول فقط أن تفتح فمك أمام هذين السفاحين ولتنظر ماذا سيفعلان. امتدحنا إيفان تيموفيتش:

- لكنني أذكى منكما، ولا يقتصر الأمر على أنني أعرف كل خطواتكما، بل أعرف أيضًا كل كلمة تقولانها وكل فكرة تفكران

فيها... لقد عرفت كل شيء. أتعرفان؟ لو زاد الأمر قليلاً فقط... أكثر من ذلك بقليل وحسب لوقعتما في المتاعب.

بالرغم من أن إيفان تيموفيتش تحدث بصورة الماضي فإن قلبي كاد يتوقف هلعاً. ها هي معرفة الشرطة الكلية التي ظلت طوال حياتي تُشكّل كل أفعالي، وأنا الساذج لم أشك في شيء. عشت وعشت، ولم أزر أحداً ولم أستقبل ضيوفاً، ولم أدرك ما الذي تعرضت له. يقول لو زاد الأمر قليلاً وحسب لوقعت في المتاعب! لقد أثارني جداً التفكير في هذا الخطر إلى حد أنني حلمت حلم يقظة بأنهم آتون وسيأخذون كل شيء. صحت مُعذّباً:

- هل نحن حقاً...؟

- كل هذا كان، كان وحسب، ولا شيء يوجب استعادة الماضي، ولستما في حاجة إلى تبرير أنفسكما.

تدخل جلوموف ليساندني قائلاً:

- نعم، ولكن عسى أن تأخذ السلطات جهودنا الأخيرة في الاعتبار وأن تعتبرها بمثابة تكفير عن أخطاء الماضي التي تورطنا فيها من جانب بسبب قلة العقل، ومن جانب آخر بسبب النماذج السيئة التي احتدينا بها.

- لا حديث عن الماضي الآن! كل شيء قد نسي. **Pardon!** (قال إيفان تيموفيتش ذلك، ومد ذراعه كما فعل جراتسياني في أوبرا

إيرناني^(٣١) حينما قال جملة الشهيرة **perdono tutti!** (أسامح الجميع!) أنتما الآن كما لو وُلدتما من جديد. هكذا ينظرون إليكما الآن، وقد تحدثت معكما يا صديقي. وداعًا، ولا تعذبكما الشكوك. إذا قلت لكما **Pardon** فهذا يعني أن تأملا خيرًا.

- إلى أين تمضي سريعًا هكذا يا إيفان تيموفيتش؟ وماذا عن النبيذ؟
- سنشرب النبيذ فيما بعد. سنشربه بحرية يومًا ما. أما الآن فلن أرفض الفودكا.

قال ذلك وسكب الفودكا في فمه ثانية وأخذ يمص لسانه. بعد ذلك قال ببعض التردد:

- ولكن لديّ مسألة أود أن أحدثكما بخصوصها. هو أمر مثير ومهم جدًّا بالنسبة إليّ، ولكن لا، الأفضل أن نؤجل الحديث عن الأمر إلى وقت آخر.

- لماذا؟ اصنع معروفًا وتحدث.

- كما رأيتم، لديّ هنا...

بدا الأمر كما لو أن إيفان تيموفيتش قد لمس هنا أمرًا لا يستطيع كتمانها، وفجأة احمر خجلًا. تمتم:

- لا، لا، لا. الأفضل أن نؤجل الحديث إلى مرة أخرى. في هذه الأثناء يمكنكما أن تفكرا يا صديقي. اختبرا مشاعركما! تحققا من

(٣١) دراما من أربعة أعمال لفيردي.

عزمكما! هل يمكنكما أن تُرضيا السلطات؟ إذا عرفتما ماذا بوسعكما
أن تفعلنا، فحينها سـ...

قال إيفان تيموفيتش الكلمات الأخيرة وهو في مدخل الشقة ولم
نستطع أن نجعله ينتظر، وسرعان ما حيانا بذراعه وتوارى خلف الباب.
نظر أحدهما إلى الآخر في حيرة. ماذا أيضًا في انتظارنا؟ ما الجديد
الذي سيطلبونا به؟ منذ ما لا يزيد على دقيقة كنا مبتهجين ومطمئنين،
وفجأة نجد لغزًا جديدًا يحل علينا ويُندرنا بكارثة.



عاد جلوموف أولاً إلى رشده وقال:

- يبدو يا أخي أنه يُعدُّنا لنصير دبلوماسيين شرطين.

أعترف أن الفكرة ذاتها خطرت على ذهني، لكنني شعرت بمرارة شديدة من التفكير في الحاجة إلى مثل هذا الدليل الجديد على نياتنا الحسنة، حتى إنني وجدتني ألجأ إلى افتراض آخر بسرور محتمل هو الآخر. قلت:

- أظن الأمر ببساطة هو أنه مثل أب محب لأولاده، يريد أن يُسلم أحدنا قلب ابنته ويدها.

- إمام! وهل سيسعدك هذا؟

- لا أقول إنه سيسعدني ولكن يلزم أن أستقر يوماً ما. إذا نظرت إلى الزواج من منظور حفظ الذات فربما لن يجد المرء زوجة أفضل منها. فكّر في الأمر! كل أسرتك ستكون في قسم الحي! سيكون لديك الخال مولودكين والعم برودينتوف، وحتى ديرجونوف، كبير صف الضباط، سيكون بمثابة ابن عمك أو ابن خالك.

- أنت تسعى إذن إلى أن تكون العريس!

- أَيْغُضِبُكَ هَذَا؟ العرائس غيرها كثيرات في الشرطة. ستجد ابنة مساعد الغفير قد صارت في سن العروس هي الأخرى. الآن تشيح بظهرك كما لو أنك لم تسعَ من قبل لنيل ابنة مساعد الخفير.

لكن جلوموف ظل في صمته الكثيب حيال هذا العرض. من الواضح أن فكرة مصاهرة مساعد الخفير لم تضحكه. عاد إلى فكرته الأولى:

- ماذا لو طرح علينا أن نكون محققين سرين؟

- لماذا تعتقد هذا؟

- لا أعتقد هذا، ولكن أولاً: لن يضرنا تصويره. ثانياً: لقد اشتكى كشييشيتسيولسكي مؤخراً. أنا لا أقول كلاماً لا أساس له.

قلت بحسم كامل:

- الأمر بحسب رغبتك. في هذه الحالة سأدّعي المرض.

- لا يصلح هذا ليكون سبباً للرفض لأن المرء لا يظل مريضاً طوال قرن! لن يصدقوا وسيرسلوا طبيباً من عندهم وسيكون الأمر أسوأ. لا. أظن أن أفضل شيء في هذه الحالة هو الهروب إلى خارج البلاد. هل لا تزال لديك شهادات استرداد^(٣٢)؟

- كيف أقولها لك؟ قليلة جداً.

(٣٢) شهادات ائتمان حكومية ظهرت بعد إلغاء القنانة تُهيئ عملية انتقال الأراضي إلى ملكية الفلاح. إلى أن يدفع الفلاح الفدية يظل يدفع ثمن استخدام أراضي المُلّاك من خلال السخرة والمستحقات، وأُطلق على هذا النوع من الفلاحين «المدينين مؤقتاً». بموجب هذه الشهادات إذن يحق للنبيّل أن ينال ما يقرب من ٥٪ من الفلاح كضريبة على الأرض التي يعمل فيها.

- بوسعي أن أرى الحضيض الذي سنصل إليه. الأمر سيئ يا أخي.
انشغلنا طوال حياتنا بالجمال وقطف زهور المتعة والآن الشيطان وحده
يعرف ماذا حدث. لا شيء لدينا!

- بل لديّ يا صديقي. لديّ عقار ثابت يُسمى بروبيلفانايّا^(٣٣). لا
هو بالضيق ولا قرية ولا أرض قاحلة. إنه أرض، ولكن يمكن على أي
حال بيعها سريعاً.

- هراء يا أخي! مَنْ في حاجة إلى بروبيلفانايّا هذه؟

- لا يا عزيزي، حتى الآن يوجد أناس يحتاجون إليها. قد يبدو
الأمر غريباً ونسألك: لماذا؟ من سيحتاج إليها؟ وبالرغم من ذلك تجد
شخصاً يريدّها.

- من سيعطيك ١٥ كوبيكاً؟ اسمع! قل لي بحسم: بماذا ستجيبه
إذا حاول استمالة كل واحد منا على حدة؟

ارتجفت. لم يكن الأمر أنني شعرت فجأة بمذاق العمل كمحقق
سري، لكن تصوّر المحنة التي سأمرّ بها في حالة الرفض عذّبني حتى
وجدتني أرتجف تلقائياً. علاوة على ذلك بدا لي شغف جلوموف
بالتخمين في غير محله. بالطبع يجب التكهّن وحساب كل شيء في
الحياة، ولكن بعض الأشياء خفية إلى حد أنه يمكنك أن تخمن كما
تشاء، بل وتفكر فيها طوال حياتك، وستظل رغم كل ذلك عصية على
التكهّن بها. ما الذي نتحدث عنه هنا إذن؟ توصلت قائلًا:

- جلوموف! عزيزي! دعنا لا نتحدث عن هذا الموضوع.

(٣٣) الكلمة مشتقة من كلمة روسية بمعنى مبصوق عليها، أو مغطاة بالبصاق.

- حسنًا، لن نتحدث عنه. لكن أمرًا واحدًا عليّ قوله. فلْتُعِن نفسك بكل ما لديك من حيلة. قُل إن عمّتك ماتت وإن لديك شؤونًا تتطلب حضورك في بروبليفا نايا، فلترفض! ليس حسنًا أن تصير محققًا سرّيًا يا صديقي. في أسوأ الأحوال يمكننا أن نساfer إلى بروبليفا نايا وننتظر هناك حتى ينسونا. ماذا سوف نأكل هناك؟

- أرأف بي! الكتاكيت والدجاج في المنزل، والطيهوج في الغابات والسمك في الأنهار، ولدينا اللبن والبيض، وفي الصيف نأكل الفطر والتوت، ومؤخرًا قدموا لنا هناك سمكًا مملحًا، فهم في كل الأحوال من هناك.

- حسنًا، سندبر أمورنا هناك بطريقة ما. من الأفضل أن تقضم الأرض عن أن... أتذكر كيف حكى كشيبيشيتسيولسكي مؤخرًا عن معاملتهم لهم في أثناء لعب البلياردو في الحانة؟ لكن الصباح أحكم من المساء، وفي أثناء ذلك فلتنظر إلى جدول أعمالنا ولتقل لي أين سنستمتع اليوم.

اندفعنا بحماسة جديدة إلى دوامة الملذات بهدف واحد؛ أن ننسى اللقاء المرتقب بإيفان تيموفيتش، لكن شيئًا قوَّض وجودنا بالفعل. فكرة أنه سيتصل بنا ويعرض علينا شيئًا غير مسبوق، ونتيجة لذلك ربما أضطر إلى حبس نفسي في بروبليفا نايا، فكرة مريعة وقد تبعثني في كل خطوة وأجبرتني على التعثر في أثناء رقصات الكادريل. عندما رأت السيدات شرودي نظرن إليّ بألم وظنن أنني عاشق. سمعت طوال الوقت سؤالهن: «ما لون الشعر الذي تفضله يا سيد؛ الأشقر أم الأسمر؟».

أخيرًا حانت اللحظة الراهية. جاءنا كشييشيتسيولسكي في الصباح الباكر وأعلن أن السيد رئيس قسم شرطة الحي يريدني شخصيًا بخصوص أمر مهم وشخصي بالنسبة إليه. سألته بفضول: «ألا تعرف بخصوص ماذا؟». لكن كشييشيتسيولسكي لم يُجب بسوى الهراء؛ الأمر الذي جعلني أدرك مدى سوء التعامل مع أناس لا يمكنني التأكد قطعًا مما إذا كانوا يكذبون أم لا. بدأ إجابته بأن رئيسه ورث أرضًا بورًا في مقاطعة بوفينيتسكي، نوى أن يجعلها مهرًا لابنته (ومضت في رأسي فكرة: إممم، بدلًا من بروبليفانايا واحدة، ستصير اثنتين)، ثم انتقل إلى أمر آخر قائلاً إنهم انهمكوا منذ الصباح في تنظيف أرضية القسم وأيقوناته، وإن زوجة مدير قسم شرطة الحي ذهبت بالأمس إلى الحائكة في شارع سلونوفايا وحجزت غرفة في فندق مونتو لابنتها. هنا ابتسم كشييشيتسيولسكي بمكر، ناظرًا إليَّ بارتياح. سألته:

- ولماذا لم يستدع جلوموف؟

- وكيف يمكن أن يستدعي كلاكما؟

قال جلوموف بلهجة تعليمية: «يجب أن نقول «كليكما» لا «كلاكما» يا سيد كشييشيتسيولسكي»، والتفت صوبي وقال مقطوعًا من قصيدة روسلان:

ستجلب السماء لكم السعادة يا أطفال

- امضِ يا أخي في سلام الله، وليمنحك الله سؤال قلبك.

أقسم إنني كنت بعيدًا تمامًا عن تصور هذا العرض المذهل الذي كان في انتظاري!

عندما وصلت إلى القسم، وجدت إيفان تيموفيتش يذرع غرفته ذهابًا وإيابًا في انفعال شديد. لا بد أنه أدرك بنفسه أن المحنة التي يُعدها لاختبار نيأتي الحسنة تتجاوز حدود كل ما يسمح به قانون قمع الجرائم ومنعها. ربما كنوع من تخفيف الإجراءات المزمع اتخاذها أعد على الطاولة مقبلات لائقة وزجاجة نبيذ من نوع رينسكي. صاح وقد أمسكني من ذراعي بقلق، كأنه خشي أن أنسل من بين يديه:

- ها هو حمدًا لله! أأكل باليتشكا^(٣٤)؟ سمكًا أبيض مدخنًا؟ كل شيء جاهز! آه! نسيت أن أقدم سمكًا أبيض! من هناك؟ هاتوا سمكًا أبيض بسرعة!

- شكرًا لك. لقد أكلت لتوي، ولا بد أنك مشغول. هل تريدني في أمر ما؟

- نعم هناك أمر! أمر! (هكذا ظل يتمتم) ويا له من أمر! أطلب منك خدمة يا صديقي. إنها خدمة من النوع الذي يقولون عنه يستمر حتى الموت! هكذا هي الخدمة التي أطلبها منك!

أربكتني هذه البداية نوعًا ما. واصل حديثه بعصبية:

- نعم، نعم، نعم. لقد أبقيت الأمر طويلًا في نفسي. منذ فترة طويلة وأنا أعتزم أن... حتى في الوقت الذي كنت تؤدي فيه أفعالًا بغیضة...

(٣٤) اللحوم المدخنة أو المجففة من الجزء الفقري من سمك الحفش وأسماك السلمون الكبيرة.

حتى وقتها... من زمن طويل وأنا أبحث عن الشخص المناسب لهذا العمل.

أخذ ينظر إليّ من رأسي حتى قدمي، كما لو أنه يريد التأكد من أنني الشخص المناسب الذي حلم به. بعد أن انتهى من تفحصي قال:

- فلتعدني أنك ستنفذ طلبي!

- إيفان تيموفيتش! هل يمكن أن تظل لديك أي شكوك بعد كل ما حدث؟

- نعم، نعم، أفهم أنك متحمس للغاية. أفهم ذلك. حسنًا، هذا هو الأمر يا صديقي. دعنا نطرق صلب الموضوع مباشرة فأنا مشغول جدًا. لقد بدأوا يكسرون الجليد في إرتيل^(٣٥)، ومن ثم علينا أن نتولى الأمر. هناك سيناتور يعيش هناك، وبحسب المراقبة يبدو أنه يسلك سلوكًا سيئًا. حسنًا، سأشرح لك. لدي صديق، ويا له من صديق! يا له من صديق!

ظهر عليه الضعف وركز نظره عليّ كمن ينتظر عونًا. شجّعته متسائلًا:

- حسنًا، ماذا عن هذا الصديق؟

- كل ما في الأمر أن لدي صديقًا. باختصار هو بارامانوف التاجر. ولديه... ماذا أقول؟ أأقول يريد أن يزوّج فتاته زواجًا زائفًا؟ أستوافقني؟
(صاح في وجهي فجأة)

(٣٥) تعبير يقصد به: بدأوا يشيرون الاضطرابات.

ارتبكت وقلت:

- عذرًا، أوافقك بالطبع تمامًا إذا...

- هكذا هو الأمر بالضبط: إذا... هذا الزواج الزائف في حد ذاته هو انتهاك، ولكن «إذا...» بحسب الظروف يا صديقي وقد يتغير القانون، وهكذا يُعبر صاحبنا نائب المأمور عن رأيه. أنت ماذا؟ أتريد أن تقول شيئًا؟

- لا. لا أريد أن أقول شيئًا. أقول أيضًا إن القانون قد يتغير بحسب الظروف. هذا صحيح!

- هذا ما أقوله. لدى السيد بارامانوف فتاة واحدة صغيرة، ولكنها مثقفة! لقد درست في مدرسة داخلية. (تلعثم مجددًا وأغمض عينيهِ في حرج وسأل) ألا تود أن تتزوجها مثل هذا الزواج الوهمي؟ (طرح السؤال سريعًا كمن يتخلص من عبء ثَقِيل على نفسه).

للأسف لا يمكنني القول إنني لم أفهم سؤاله. لا، لا يقتصر الأمر على أنني فهمته، لكنني شعرت أيضًا بدق في صدغي. شعرت في الآن ذاته أن نوعًا من الاضطهاد يتملكني ويقيّد مشاعري، ويمنعها من التحول إلى سخط، بل وإزاء أكثر أسوأ الإساءات يُخضع مشاعري لغريزة حفظ الذات.

لاحظ إيفان تيموفيتش بحذر تنافر المشاعر هذا. من جانب أشعر بدق في صدغي، ومن جانب آخر يتعطش قلبي إلى إثبات حسن النية. هكذا وجدتنني أطرح سؤالًا بدلًا من الإجابة:

- ولكن لماذا أنا تحديدًا؟

لم يرَ في ردي شيئًا يدعو إلى التوقف عن الحوار، بل إنه أقبل عليه بقدر أكبر من القوة. قال بنبرة تشجيع ولطف:

- اسمع يا صديقي! إذا كنت قلقًا بشأن المكافأة فلا تشغل بالك. بارامانوف لن يتركك الآن ولا في المستقبل.

انهارت أعصابي تمامًا. حاولت أن أتصور أو أعثر على شيء ما. نظرت في عجز إلى جلادي وتمتعت:

- اسمح لي. يما يتعلق بالزواج، الحقيقة أنني فيما يتعلق بذلك لا أعرف ما إذا كان بالإمكان أن أوصف بأني شخصية مسؤولة حقًا أم لا. أقسم لو أن شيشكوفسكي^(٣٦) بنفسه حل محل إيفان تيموفيتش لتأثر بمظهري وقال في نفسه: «هذا إنسان وصل حسن نيته إلى حدود يصير بعدها أي اختبار لها أمرًا محفوظًا بالمخاطر». وما إن يدرك ذلك حتى يتركني في سلام آملًا أن تتفهم السلطة جيدًا سبب ترددي وألا تعتبره على الإطلاق معارضة لها. لكن يبدو أن الأمر مع إيفان تيموفيتش لم يتعلق بالدولة على الإطلاق، ولذلك رأى أن بوسعه أن يمضي قدمًا. هَذَاني قائلًا:

- لن يُطلب منك يا صديقي أي شيء من هذا القبيل. اذهب إلى الكنيسة (ستجد لدى الحائك روتش زوجًا من القماش الناعم لهذه

(٣٦) رئيس الشرطة السياسية الروسية لمدة ٣٠ عامًا منذ (١٧٦٤) وكان مستشارًا مقربًا ليكاترينا الثانية.

المناسبة) ستدور حول المنجلية^(٣٧) ثلاث مرات ثم تتقبل التهاني من الطاهي زافيتايف وينتهي الأمر؛ تذهب إلى اتجاه وهي إلى اتجاه آخر، ويتم الأمر بلطف ونبل.

بعد أن رسم أمامي هذه اللوحة لا بد أنه انتظر أن أعرب عن موافقتي، لكنني صمت. واصل محاولة إغوائي قائلاً:

- بالنسبة إلى المكافأة التي ستحددها، فستلقى نصفها قبل الزفاف والنصف الآخر بعده. إذا أردت مزيداً من الطمأنينة يمكنك أن تفعل الآتي: قُصّ النقود الورقية إلى نصفين؛ تأخذ النصف ويبقى النصف الآخر مع بارامانوف، وبعد انتهاء مراسم الزواج يصير النصفان معك.

سمعت هذا الحديث وظننت أن كل ذلك يُهيأ لي تحت تأثير النوم. طاردتني مشاعر معقدة بشكل رهيب. أردت أن أحمي إعلاني عن حسنة النية، وفي الآن ذاته قلت لنفسني: لا. لن أجعلهم يجبروني على الدوران حول المنجلية. لن أتركهم يفعلوا بي ذلك. من هنا تملكنتي سلسلة كاملة من الهلاوس تعدني بالخلاص بشكل فائق ومعجزي. قلت في نفسي: سيُصاب إيفان تيموفيتش بسكتة دماغية وستلاشى كل هذه الحكاية والزواج الوهمي كالدخان. سينهار السقف على رأس إيفان تيموفيتش ولن أصاب بضرر، وستلاشى كل شيء.

ما أنقذني كان أمراً خارقاً فعلاً. في اللحظة ذاتها التي نشدت فيها الخلاص في هذه الهلاوس دخل وجه جديد الغرفة، وإذا بي أصرخ

(٣٧) تشبه طاولة يوضع عليها الكتاب المقدس في الكنيسة.

عند رؤيته بكل قوة صدري الذي تنفس الصعداء: «إيفان تيموفيتش! ها هو!».

نعم، كان هو المخلص والشخصية الملائمة التي لا يمكن في وجودها إلا أن نطرح سؤالاً واحداً فقط: هل سيوافق على السعر؟ أو لنُصِّغ الأمر بعبارة أخرى: كان المحامي بالالايكين^(٣٨).

نظرت إليه بإعجاب بالرغم من أنه تغير بدرجة كبيرة تغيراً ليس في صالحي، حيث قطع رحلات طويلة في عالم الاعتدال والدقة. مشيته سريعة كما كانت، كما تسلل إلى حركاته نوع من الخفة، لكن المشاغل المنهكة أثرت عليه بوضوح وألقت بظلالها على وجهه. لن أقول إن بالالايكين بدا مسخاً أو أشعث أو حتى ظهرت عليه أمارات أضرار خارجية لكن ملامحه -بغض النظر عن الاغتسال والنظافة- تبدو كأنها ليست في مكانها المناسب هنا، بل يتوجب أن توجد في بيت دعارة. إيفان تيموفيتش نفسه بدا وكأنه قد استنار بدخول بالالايكين. صاح بارتباك فاتحاً ذراعيه:

- السيد بالالايكا! ها أنا ونحن هنا وهو هنا! السيد بالالايكا! آه منك! أتود تناول المقبلات؟ أشرب كأساً سريعاً؟

- لا يا عزيزي^(٣٩). سأنصرف سريعاً. أنا على عجلة من أمري يا مُلّاكي. على عجلة. الأمر كالاتي: لديّ دعوة ضد أحدهم هنا ويجب أن أهاجمه.

(٣٨) الاسم مشتق من الآلة الموسيقية الروسية الشهيرة: بالالايكا، وهي تشبه الأكورديون.

(٣٩) بالفرنسية.

- بكل سرور. لك مرادك حتى لو كان الشخص مهماً. حالاً! الآن!
آه منك! آه منك! في كل الأحوال تبدو وكأنك صغرت عمراً. التف!
اصنع معروفاً ودعني أراك!

- لا أستطيع يا روعي، لا أستطيع! أنا في عجلة من أمري لمشاهدة
السباق. كل شيء موضح في هذه الورقة، والآن وداعاً!

- انتظر! كنا نتحدث عنك الآن. لا أقصد تحدثنا ولكن شعرنا
أننا... احتجنا إليك وها أنت أمامنا! اسمع: أحتاج إليك في أمر.

أخرج بالالايكين كرونومتر^(٤٠) من جيبه ونظر إلى الساعة وقال:

- لديّ بعض الوقت الفارغ. يمكنني أن أوفر ثلاث دقائق بالضبط.
يبدأ السباق في الثالثة، والساعة الآن الثالثة إلا خمس دقائق، والطريق
يستغرق دقيقتين. نعم، لديّ ثلاث دقائق بالضبط. حسناً يا سيد، ما
الأمر؟

- قل لي، هل تنفذ كل أنواع الأوامر؟

- نعم. ماذا أيضاً؟

- أيمكنك أن تتزوج؟

- بحسب الأمر.

- ليس على نفقتك بل مأمورية تُكَلَّف بها.

- أستطيع...
.....

(٤٠) أداة لقياس الزمن بدقة بالغة.

- كما ترى إذن، لديّ رفيق، ولديه واحدة... رفيقة!

- عشيقة؟

- قل ما تشاء. إنه يرغب في أن يكون الأمر قانونيًا، ويُسجل في السجل الرعوي^(٤١) وما إلى ذلك؛ باختصار يود أن يتم الأمر كما يجب، وفي الآن ذاته تكون هي...

- بكل سرور يا صديقي. بكل سرور.

- حسنًا يا سيد، كم تتقاضى مقابل ذلك؟ إنها تجيد الفرنسية يا أخي!

- إممم! قبل أن أجيب عن هذا السؤال أقترح من جانبي سؤالًا آخر: من هو هذا الهالك الذي يتم من أجله كل ذلك؟

- حدد أولاً المبلغ!

- لا، أخبرني أولاً من هو، ثم سأقول لك المبلغ المطلوب، لأن الأمر إذا كان سيتم مثلًا من أجل صاحب متجرك الصغير فسنضيع وقتنا سدى. لن أؤنس نفسي من أجل شخص مثله مهما كان الثمن.

تردد إيفان تيموفيتش. من الواضح أنه خشي فقدان العمولة التي كان من المقرر أن ينالها، فمن الممكن أن تضيع عليه إذا توجه بالالايكين مباشرة إلى بارامانوف من دون وساطته. لكن بعدما استغرق في التفكير لبرهة بسيطة حسم أمره.

- أونوفري بيتروفيتش بارامانوف. هل سمعت عنه؟

(٤١) سجل كنسي يُدون فيه الزواج والمعمودية والدفن.

كذب بالالايكين قائلاً:

- لعبت معه الورق مؤخراً. كنت أنا وبارامانوف وفاليليف
سيدور كوندراتيتش وبوبكوف جيراسيم فوميتش وجينيرالوف فيودور
كوزميتش.

- حسناً، ما رأيك؟

- من الناحية العملية طورنا القاعدة الآتية: إذا كان الأمر صحيحاً
أتقاضى ١٠٪ من ثمن الطلب، وإذا كان الأمر محفوفاً بالمخاطر يكون
بحسب الاتفاق.

- غريب أنت! كيف ستُقدّر سعر امرأة إذن؟

- كيف أقولها؟ بحسب الحلة والشقة، وأن تكون مصنوعة جيداً
ولائقة! لن أقبل بأقل من عشرين ألفاً سنوياً، وستكون صفقة جيدة.
بالوضع في الاعتبار أن التاجر بارامانوف صراف، ومع مثل هؤلاء
السادة أتقاضى الضعف مقابل مثل هذا الانحراف، أفترض إذن أن
المبلغ المطلوب في هذه الحالة سيرتفع إلى أربعين ألفاً.

- ربما!

- لنمضِ قدماً في الأمر. بالنسبة إلى الملكيات غير السائلة فتُقيّم
بحسب مجموع دخل العشرة أعوام، وبالنسبة إلى الأموال السائلة؛
على سبيل المثال: الأثاث واللوحات والأعمال الفنية، يتولى الخبراء
تقييمها. هل ما أقوله صحيح؟

- نعم، يبدو الأمر هنا...

- عذراً، سوف نتحدث لاحقاً عن ذلك. بالنسبة إلى الفتاة التي يدور الحديث عنها: من الواضح أنها تُعتبر ملكية سائلة، ولكن علاوة على ذلك مزودة بعلامات لم تحددها القوانين بشكل مباشر. لذلك من الضروري عند تقييم مثل هذه الملكية اللجوء إلى طريقة مختلفة قليلاً أكثر ملاءمة مع طبيعة هذه المنقولات. إذا لجأنا مثلاً إلى طريقة مختلطة؛ من جانب يمكننا أن نلجأ إلى الخبرة، ومن جانب آخر لا نتجاهل تعقيد مبدأ الدخل كل عشرة أعوام. إذا فعلنا ذلك فسنصل إلى نتيجة مُرضية بدرجة كافية، وهي الآتي تحديداً: من حيث الخبرة أفضل حَكَم هو السيد بارامانوف نفسه الذي ينفق أكثر من أربعين ألفاً على مثل هذه المنقولات، ومن ثم يمكنه أن يحدد الدخل السنوي المصروف معها.

- الصواب أن تقول: الدخل السنوي المصروف «عليها» لا «معها».

- معها أم عليها، لن نتجادل بشأن الكلمات. بتحديد مبلغ أربعين ألفاً كقاعدة لعملياتنا الإضافية، وضربه في عشرة، سنحدد بالتالي قيمة المنقولات بأربعمائة ألف. الآن دعنا نمضي قدماً في الأمر. كان بإمكاننا أن نعتبر هذا المبلغ البالغ أربعمائة ألف روبل صحيحاً لو اقتصر الأمر على قائمة واحدة، ولكن - كما هو معروف - يجب أن تتبع هذه القائمة بعض المزايدات. لا يمكننا بالطبع أن نعرف السعر الذي ستصل إليه المزايدات، ولكن لن نخطئ تقريباً لو قلنا إنه يجب أن يتضاعف. من ثم سنجد أن الرسوم المطلوبة تحدد نفسها بنفسها؛ أي ٨٠ ألفاً، وبأرقام تقريبية يصل المبلغ إلى مائة ألف روبل.

استمعت إليه بفارغ الصبر، ولكن عندما ذكر رقم مائة ألف، أعترف

أن ركبتني ارتجفتنا. قلت له «خذ خمسين!» من دون أن أفهم ما الذي جعلني أقترح هذا المبلغ بعينه وليس أي مبلغ آخر. لكنه لم يتفضل بإلقاء ولو نظرة عليّ. قال ناظرًا إلى ساعته:

- لقد تأخرت بالفعل دقيقة كاملة. وداعًا! رجاء ضع شروطي في الاعتبار إذا وجدت أنها غير مجحفة.

ظل إيفان تيموفيتش ثابتًا في مكانه كما لو أنه قد احترق. فيما يتعلق بي، فقد أوشكت على اليأس لأن حديث بالالايكين المفتقر إلى الاتساق سيعيد دفعة الطلب إليّ بلا شك. لكن هذا اليأس تحديدًا هو الذي ضاعف قوتي عشرة أضعاف، ومنح لساني بلاغة تشبه بلاغة المحامين ومنح أفكاره قوة على الإقناع لم تمتلكها من قبل. صحت:

- إيفان تيموفيتش! فكّر جيدًا! هذا عمل... هذا عمل في كل الأحوال ولا يمكن تنفيذه بثمان بخس.

لكن يبدو أنه لم يسمعني وتمتم: «هذا يتناول الأمر كعمل جاد بينما الآخر يحسبه من أجل مسرته». وفجأة التفت إليّ قائلاً:

- وماذا عنك؟ ما المكافأة التي تطلبها؟ (شابت سؤاله ابتسامة مريرة، ثم أضاف) لن تكفيك مائتا ألف، أليس كذلك؟

لكنني في هذه اللحظة تحديدًا أثبت وجودي. قلت له:

- أتوسل إليك أن تسمعني جيدًا. لقد عرفتنني واختبرتني منذ فترة طويلة. أنت تعرف جيدًا ما إذا كنت حريصًا على أداء خدمة للمصالح العام أم أنني غير مستعد لها. ليست النقود هي ما تهمني في الأمر لأن

لديّ بالفعل ثروة مضمونة من والدَي. أما ما يتعلق بمشاعري فيمكنني أن أعبر عنه في كلمتين: أنا مستعد! لكن هل سيكون ضميري صافيًا من ناحية أن أستولي على رزق بالالايكين الذي يمكن أن يضمن له حياة كريمة طوال حياته؟ إنه فقير يا إيفان تيموفيتش! بالرغم من قوله إنه ينال أكثر من خمسين ألفًا في السنة من عمله كمحامٍ لكنه يكذب في هذا الأمر. هل يمكن أن يُعهد بأي قضايا جادة إلى... إلى بالالايكين؟ حتى السباق الذي أشار إليه لتوّه، هل يمكننا أن نصدق وجوده؟ لا وألف لا! صدقني، بالرغم من أناقته فإنه يغرق في كل لحظة أكثر فأكثر في مستنقع يشكل حي تاراسوفكا قاعه. تدليلاً على كلامي (تناولت الورقة التي تركها بالالايكين على الطاولة وقرأت) «في حالة استرداد مائة روبل من التاجر ليا إزيسون...»، هل فهمت الآن الأمر الذي ذهب إليه؟ هل فهمت كم هو في أمس الحاجة إلى أي سمسة ضخمة مثل الفرصة المعروضة عليه من التاجر بارامانوف؟

لزم إيفان تيموفيتش الصمت، لكنني ربحت استماعه إليّ. بدت لي نظرتة المثبّنة عليّ وكأنها تقول: «استمر في حديثك!». من الواضح طبعًا قدر الفرحة التي تلت هذه الدعوة الصامتة. قلت:

- من ناحية أخرى لست أنت من سيدفع المال. طلب بالالايكين بالطبع سعرًا غير معقول، لكنني على قناعة بأنه في هذه اللحظة تحديدًا يشعر بندم شديد ويلعن ويسبب شغفه البائس بالتباهي. استدعه وستجد أنه سيصل بالمبلغ فورًا إلى عشرة آلاف، وربما ألفان! لا بد أنه نسي الآن أن لسانه أفلت وقال: مائة ألف. لماذا طلب مائة ألف، وليس مائتين أو

مليوناً؟ ألا يعود ذلك إلى أن رقم مائة مسجّل في إيصال غرامة التاجر إزيلسون؟ لا يمكنني بالطبع أن أوكد ذلك لكنني أعتقد أن لتخميني أساساً صلباً. لو جلب إليك ورقة أخرى بغرامة مقدارها روبلان، فستجده يقلل طلبه إلى ألفين. لكن حتى لو وصل المبلغ أخيراً، ولنقل مثلاً: عشرة آلاف، فهو ليس مبلغاً كبيراً حقاً مقابل هذه المأمورية، ويا لها من مأمورية! ماذا ستفعل في النهاية؟ هل يُعقل أن تكون أموال التاجر بارامانوف عزيزة على قلبك إلى درجة أن تحرم إنساناً فقيراً من إمكانية تعديل أحواله؟

تحدثت طويلاً وبلهجة مقنعة وشُدّه إيفان تيموفيتش من وجهة نرائجي، فلم يتوقع مني مثل هذه الصراحة الجريئة. مثل كل جبابرة العالم، أُحيط بجدار كثيف من المتملقين والمنافقين الذين لا يسمحون إلا نادراً بوصول كلمة الحق إلى أذنيه.

قال:

- أنت محق! (وأخيراً ربت على يدي بدرجة خاصة من الإخلاص) بالرغم من أننا لم نتعود على سماع الحقيقة، فإنه يلزم أن أعترف أن ذلك أحياناً لا يكون مفيداً لنا. أشكرك! لم أقضِ منذ فترة طويلة وقتاً مفيداً كذلك الذي قضيته صباح اليوم!

طرت إلى المنزل من دون أن أشعر بساقي، وما إن دخلت الشقة حتى ارتميت على ذراعي جلوموف. حكيت له كل شيء، والموقف المريع الذي وجدت نفسي فيه، وكيف هب لنجدتي فجأة شخص غير منتظر. اختتمت حديثي بقولي:

- أيمكنك أن تصدق أي اختبار يعده لنياتنا الحسنة؟
- يبدو الأمر كذلك حقًا، ولكن انتظر! هل قلت إن بالالايكين
سيقتاضى عشرة آلاف؟
- وكيف لا يأخذها يا عزيزي!
شرعت أقول له بحماسة إنه يستحيل على بالالايكين ألا يأخذ هذا
المبلغ، وإنه في حالة الرفض سيهلك، فلا يمكن لأحد أن يجمع عشرة
آلاف هكذا من لا شيء في ظل انخفاض قيمة الأوراق المالية. فجأة
في خضم توقدي في أثناء سوقي للأدلة شعرت كأني أحترق. صرخت
بصوت لا يبدو كصوتي:
- جلوموف! بالالايكا متزوج ولديه ثمانية أطفال.

* * *

شرعنا على الفور في فحص الحالة الاجتماعية لبالالايكين، وفي اليوم التالي، بمساعدة كشييشيتسيولسكي، تلقينا التقرير الآتي:

«بالالايكين (اسم العائلة مجهول) محامٌ يعيش في القطاع الثاني من منطقة الأدميرالية في المنزل السابق لزونديرمان عند تقاطع زقاق فونارني وقناة يكاترينا. يكتب الالتماسات ويقدم الشكاوى وطلبات الاستئناف، وبشكل عام يقدم جميع أنواع الأوراق، حتى غير المنصوص عليها في القوانين. بطريقة ما يكتب أبيات التهاني لملصقات الباعة الجائلين وبوابي النوادي، كما يكتب أبياتًا شعرية لمسرح يجاريوف ويكتب أبجديات وبروفات الطباعة وخطابات حب أيضًا (بأبيات شعرية ومن دونها) لشخصيات لم تكمل تعليمها في المؤسسات التعليمية. علاوة على ذلك يُكلّف بالبحث عن عرسان وعرائس، ويتابع ما يُنشر في الصحف عن الكلاب المفقودة ويتولى تنفيذ الإجراءات اللازمة للعثور على المفقود منها، ويرتب الشروط الضرورية لتسوية حالات الطلاق بطريقة مُرضية. لم يُلاحظ أي شيء يستحق التوبيخ بخصوصه في الدعايات والإعلانات. متزوج ولديه ثمانى بنات. لا تملك الزوجة أي وسيلة لتوفر بها رزقها أو رزق أسرتها (التي تتضمن أيضًا جدة عجوزًا

في الثمانين) باستثناء بعض أعمال الحياكة البسيطة التي تحصل منها على دخل ضئيل. تعيش هذه الأسرة في أقصى درجات الفقر في قرية كوزيمين بالقرب من تسارسكوي، وتتلقى من بالالايكين إعانة لا تتجاوز عشرة روبلات شهرياً».

يمكنكم تخيل صدمتي من هذا التقرير! قلت لجلوموف:

- افعل ما تريد، ولكنني لن أقترن بأي طريقة بفتاة التاجر بارامانوف هذه. في أسوأ الأحوال سأشير إليك بوصفك أجدر مني بهذه الزيجة. عارضني بهدوء:

- انتظر ولا تفقد عقلك! هذه ليست نهاية المطاف. بالالايكين متزوج، وهذا أمر لا شك فيه بالطبع، ولكن ألا تشعر أن ثمة سرّاً؟ أنا متيقن من أن هذا السر سيمكّننا من الخروج من هذا المأزق بشرف.

- ولكن... سر بالالايكين هذا لا يهمني في شيء. أمر واحد واضح بالنسبة إليّ فيما يتعلق بهذا الشأن: بالالايكين متزوج!

- اصنع معروفاً واهداً. أولاً: يمكننا باستغلال الفاقة التي تعيش فيها زوجة بالالايكين إقناعها بمكافأة جيدة في حالة الطلاق الرسمي. ثانياً: إذا لم نتمكن من ذلك يمكننا أن نقنع بالالايكين بالزواج، حتى مع وجود زوجة أخرى على قيد الحياة. باختصار من الضروري قبل أي شيء آخر أن نحدد هدفاً يتمثل في تزويج بالالايكا بأي ثمن من فتاة التاجر بارامانوف هذه، ثم نمضي بشجاعة صوب تحقيق هذا الهدف.

شئت أم أبيت كان عليّ أن أتفق مع جلوموف. وضعنا سريراً خطة لحملتنا، وفي اليوم التالي شرعنا في تنفيذها؛ توجهنا إلى قرية كوزمين. لكن المعلومات التي حصلنا عليها في البداية كانت من النوع الذي يستحيل استخلاص أي نتيجة عملية منه، فقد تبين الآتي:

١- زوجة بالالايكين غارقة حتى أذنيها في غرام زوجها ولا تريد بأي ثمن (عرض جلوموف ٢٥ روبلاً) أن تسمع ما يتعلق بترتيب وضع لائق يتمثل في «الطلاق».

٢- بالالايكين يخفي أمر زواجه بحرص. لا أحد في الأسرة يعرف أنه محام يتقاضى راتباً محترماً من قصائد التهاني التي يكتبها لبوابي النوادي. كل من الزوجة والجدّة العجوز تظن أنه يعمل في فندق.

٣- يعرج بالالايكين على كوزمين مرة واحدة أسبوعياً، في أيام السبت، ودائماً في حلة خادم الفندق. تبتهج الأسرة ويجلب بالالايكين لبناته كعكاً بالعسل ولزوجته كمثرى منقوعة، وللجدّة العجوز ثمن لتر فودكا بعصير البرتقال المر. الأسرة كلها على قناعة صلبة بأنها أغراض مسروقة من الفندق.

قالت لنا الجدّة العجوز: «يقول إن التجار يعطونه هذه الأغراض. أين الشاي؟»، وتضيف الابنة: «وهذا يعني أنه من الصعب أن يعيش المرء وسطهم في ظل هذه الظروف من دون خطيئة. يظلون طوال اليوم يتسكعون في المطابخ والمتاجر، يرون هذا وذاك، فكيف يمكن للمرء أن يصون نفسه هناك؟».

كل هذا لم يكن مشجعاً، لكن جلوموف لم يفقد الأمل. قال:

«لا يهم، سندعها لحالها وستدبر أمرنا من دونها. على الأقل الآن لن نتخط، وسنلجأ مباشرة إلى الضرب على وتر تعدد الزوجات!».

باختصار، أجبرنا الخطر على أن ننسى تمامًا أنه علينا أن «نتنظر» وحسب، وغرقنا تمامًا في لجة الحقيقة حسنة النية. أقبلنا بكل إخلاص على العمل بنشاط والمراوغة، وبشكل عام على كل الأفعال المتصلة بالملاحة الآمنة في بحر الحياة.

بمرور بضعة أيام، في الحادية عشرة صباحًا، توجهنا إلى زقاق فونارني حيث كنا نعرف منزل زونديرمان هناك منذ أعوام الصبا، ولم نجد صعوبة في العثور على شقة بالالايكين. أعترف أن قلبي ارتجف بشدة عندما اقتربنا من الباب المثبتة عليه لوحة مكتوب عليها: «بالالايكين - محام^(٤٢)». واأسفاه! في الأيام الخوالي عاشت هنا داريا سيميونوفنا كوباريغا (ونسُميها بالعامية كوباريخا) بصحبة ست طالبات صغيرات ينادونها: «ماما».

كانت داريا سيميونوفنا أرملة معلم اللغة اللاتينية الذي خلط للأسف بين صيغة المصدر والسويين^(٤٣)، واعتبروه بسبب ذلك خائنًا وحاكموه بأمر السلطات. مات من دون أن يستطيع تبرئة نفسه من الاتهامات، وقد أثَّرت هذه المصيبة التي حلت عليه على أرملة. حرموها من المعاش التقاعدي. وجدت نفسها من دون أي مورد رزق، ومن ثم أملت في بيع كتاب القواعد اللاتينية الذي أعده زوجها والذي

(٤٢) بالفرنسية في الأصل.

(٤٣) السويين في اللاتينية هو صيغة فعل ثابتة تستخدم لأغراض معينة وتختلف عن مصدر الفعل.

زينت شقته بنسخ لا حصر لها منه في انتظار قرار المحكمة، ولكن وا أسفاه! لم يرأف بها القدر. لم تجعلها المحكمة تنتظر قرارها طويلاً، وتضمّن القرار: «بالرغم من مسؤولية المعلم كوباريث عن انتشار الخلط بين صيغة المصدر والسويين بين الشباب؛ الأمر الذي يعمل على زعزعة أسس قواعد اللغة اللاتينية ويوجب إرسال المعلم إلى مكان بعيد بعض الشيء، ونظرًا لأنه مات ويستحيل تنفيذ أي حكم عليه، تقضي المحكمة بحرق كتب قواعد اللغة اللاتينية التي ألفها، في حضور معلمي اللغة اللاتينية من كلتا العاصمتين^(٤٤)». حزنّت وكمدت الأرملة الفقيرة وتشاورت مع بناتها الطبيات، وفجأة توصلت إلى حل. افتتحت مدرسة داخلية للبنات، ولكن قطعاً من دون تعليم لغات أجنبية. كانت داريا سيميونوفنا امرأة مرحة ومضيافة، ولذلك كان الجانب التربوي في مدرستها الداخلية ضعيفاً، واقتصر على الأخلاق الحميدة والسلوك الاجتماعي. في كل مساء، وحتى ساعات الفجر الأولى تهيمن الفوضى على الشقة. يعزف عازف البيانو على آلات كلافيكورد^(٤٥) قديمة، ويرقص الشباب ويدخنون التبغ ويشربون الجعة والفودكا، وأحياناً الشامبانيا. من حين لآخر تندلع بعض المعارك أيضاً، ولكن مضيعة المنزل تتحلى باللباقة الكافية لتجعل من يخوضون قتالاً يهدأون على الفور مع أول إشارة من جانبها ويذهبون لشرب الجعة. في أيام السبت فقط وعشية الأعياد الكبرى يُفتح باب شقة المعلمة كوباريثا

(٤٤) موسكو - بطرسبرج.

(٤٥) الجد الأكبر لآلة البيانو.

لأقرب المعارف وحسب. في هذه الأمسيات تُضاء مصابيح الغرف وترق قلوب الطالبات ويتنهeden، وتقول داريا سيميونوفنا بورع: «أعيش حياة مبهجة لكنني أذكر الله دائماً!».

منذ خمسة عشر عاماً ماتت داريا سيميونوفنا بعد أن احتفلت بالذكرى الخامسة والعشرين لنشاطها التربوي، حتى ولو في غياب لغات أجنبية. رحلت العجوز في هدوء على مقعدها المتحرك الكبير الذي لم تكن تفارقه في الفترة الأخيرة. ماتت على أصوات نغمات البيانو التي صحبتها حتى العالم الآخر. أتذكر أننا كنا نرقص بلا مبالاة، وقد انطلقت سداة قنينة بقوة في إحدى الزوايا، وعلا صوت طقطقة، فنظرنا وإذا بها لم تعد موجودة! يقولون إنها نالت هبة الاستبصار قبل موتها وتنبأت بأن بالالايكين سيقيم في شقتها.

بطبيعة الحال قبل أن نقرع الجرس توقفنا أمام هذا الباب وغرقنا في سرب كامل من الذكريات. قطع جلوموف الصمت أولاً:

- أهنا... كان؟

- نعم يا صديقي. هنا.

- أتذكر عازف البيانو إيفان إيفانيتش؟

- أذكره تماماً كأنه حي يرزق يقف أمامي الآن.

- أتتصور أنه كان رب أسرة؟ حضرت عماد أطفاله وكان كيسينخ

عرباً، وعلى حد ما أتذكر قدّم لنا يومها شماندكوخين^(٤٦).

(٤٦) كمكة تنزية.

- هل تتذكر ستريكوز؟

- وكيف لا أتذكره! أول راقصي المازوركا^(٤٧) في أمسيات داريا سيميونوفنا. لقد تربى هنا في هذه الشقة! والآن قد صار مستشارًا سرّيًا يحضر اجتماعات اللجان ولا يمكن ليد أن تطوله!

- تصور أنني التقيت به ذات يوم في شارع نيفسكي وخطرت على بالي حينها كوباريخا، فقلت له: أتذكرها؟ وجدته فجأة قد ينشد الأبيات التالية: «على النبيل أن يتزين... عقل سليم وقلب مستنير»، ولم يذكر كوباريخا بكلمة واحدة. الآن ينشغل بنفسه!

- نعم يا أخي، لقد تخرج الكثيرون في مدرسة داريا سيميونوفنا وهم الآن... أنا وأنت فقط من...

مددت يدي تلقائيًا وضغطت زر الجرس. رن صوت جرس كئيب ومرتعج مختلف تمامًا عن صوت الجرس المرح والمنتصر والمشرق الذي كان يرن هنا يومًا ما. فتح لنا أحد شهود الزور الذين ذكرناهم سابقًا من القطاع الثاني من الأدميرالية، وقال إن علينا الانتظار لأن السيد بالالايكين مشغول في هذه اللحظة مع عملائه.

دخلنا غرفة الاستقبال والحزن يكتنف قلوبنا. في هذه الغرفة الموجودة عند الزاوية، والمطلّة على زقاق فونارني وقناة يكاترينوفكا ماتت كوباريخا الطيبة التي لا تُنسى! هنا بالضبط، عند هذا الحائط رأينا آلات الكلافيكورد القديمة المحطمة، وعلى طول الجدران الأخرى

(٤٧) رقصة بولندية.

كانت المقاعد والأرائك المنجدة ببعض المواد الرخيصة والملطخة، وكانت الطاولات في الزوايا والرفوف التي تدفقت من خلفها الجعة، وفي المنتصف كنا نرقص. اندفعت إلى ذهني لوحات من الماضي، واحدة تلو الأخرى، في تمام حيويتها. صحت، وقد نسيت نفسي مع تيار الذكريات هذا: «داريا سيميونوفنا، هل أنتِ هنا؟».

للأسف لم يُجب صوت واحد عن صرختي القلبية. بدت غرفة الاستقبال التي كنا فيها باردة ولا مبالية، واتسمت زخارفها بالبساطة الصارمة التي لم تتفق على الإطلاق مع وظيفة إعداد الترتيبات اللازمة لحالات الطلاق. أعترف أن احتشام مقر بالالايكا أذهلني. كنت في انتظار رؤية شيء يشبه شقة محظية متوسطة المستوى، وفجأة وجدتني في مسكن خادم متواضع لشميس^(٤٨) يدرك جيدًا أنه كلما قلت المشاحنات في مسكنه تدعّمت سمعته كمحامٍ جاد.

انتصبت في المنتصف طاولة من خشب البلوط، وعليها أعمال مختارة لبيلو مترجمة للروسية لتسلية الزبائن، وبامتداد الحوائط الثلاثة تراصت المقاعد المصنوعة من خشب البلوط القوي ذات الظهور العالية مفرّقة بشكل فني، وشغلت مكتبة ضخمة الحائط الرابع، لكنها لم تحتوِ في واقع الأمر على شيء سوى «المجموعة الكاملة لقوانين الإمبراطورية الروسية». من الواضح أن هذه الغرفة انطبعت في ذهن بالالايكين، وأراد أن يدهش مخيلة العميل بها، وفي الآن ذاته يُلمّح إلى أن أي سوء سلوك سيلاحق على أساس صلب من هذه القوانين

(٤٨) إلهة يونانية قديمة. وصفت بأنها «الموعظة الحسنة»، وتجسّد للأمر الإلهي وللقانون والعرف.

الموجودة في الكتب المتراصة في المكتبة. لا شيء فيها زائد أو عديم القيمة أو حتى يُذكرنا بالزنا وشهادة الزور أو يندفع أمام العين. في الزاوية فقط لاح بيانو مستخدم مستهلك إلى حد كبير تفوح منه رائحة داريا سيميونوفنا. هذا البيانو - كما عرفت لاحقاً - أهدها لبالالا يكين مدين متعثر امتناناً لمساعدته في إخفاء ممتلكاته، وفي وقت فراغه من الحنث باليمين كان بالالا يكين يختار بمساعدة هذا البيانو المقاطع التي يؤلفها لمسرح يوجاريوف. مع ذلك أسعدني هذا البيانو حتى إنني هرعت إليه، ولولا أن منعني جلوموف، لكنت عزفت عليه حتماً الموسيقى الأولى لرقصة الكادريل على لحن «تشيجيك»^(٤٩)... تشيجيك... أين كنت؟» الذي كان يتردد بين هذه الحوائط في أيام شبابي.

من الواضح أن جلوموف هو الآخر لم يكن في انتظار موقف كهذا، لكن الموقف لم يذهله بقدر ما أذهلني، بل بالأحرى بدا كما لو أنه لا يصدق عينيه. مص شفثيه وتنشق الهواء، وأخذ يفتش المكان بشكل عام حتى وجد في النهاية مراده. قال لي هامساً: «يفوح بالرائحة!». بدأت أتشق الهواء أنا أيضاً.

- داريا سيميونوفنا... هي! كانت تستخدم هذه العطور عندما تستقبل الضيوف!

بدأت أتذكر... وفجأة تذكرت إلى حد أن ملأت الحمرة وجهي.

- جلوموف! عزيزي! هذه الروائح... إنها حية! إنها هنا! داريا سيميونوفنا! هل أنت هنا؟

(٤٩) اسم لعبة طفولية على شكل عصا قصيرة.

هكذا صحت وقد أخرجني التعجب عن طوري.
ما إن عدت لرشدي حتى دفع جلوموف مرفقي وأشار لي بعينه إلى
العميلين الجالسين في الغرفة في انتظار بالالايكين.

لغرابة القدر ذكّرني مظهر هذين العميلين بالماضي الذي جعل
الكآبة تكتنف قلبي. كان أحدهما مسنّاً وله ملامح أب نبيل قادم من بيت
دعارة. كانت السمّة المهيمنة على الوجه هي احترام الذات بلا شك،
ولكن في الوقت نفسه بدا من المؤكد أنه في مكان ما في هذا الوجه
عُلِّقت تسعيرة خاصة (لا تراها سوى عين العقل) توضح قيمة التعويض
مقابل كل فعل فاسد، بداية من أثقلها وانتهاء بصفعة خفيفة على الوجه.
بدا لي أنني رأيت هذا الشخص في مكان ما وفي وقت ما، وكلما حدقت
إليه ازداد يقيني بأنني رأيته في هذا المنزل تحديداً.

قلت لنفسي: «نعم، هذا هو! ولكن من هو؟». بدا ضعيفاً وواهناً،
يرتسم على وجهه الظلم والاضطهاد، ومعطفه... آه! يا له من معطف!
أخضر ذو مرفقين مهترئين وأزرار فاتحة اللون، ومن الواضح أنه
مُحَاك من فيتسموندير^(٥٠)، بقي بعد موت صاحبه المستشار من مرض
البواسير. «أما هذا فمختلف تماماً! ممتلئ الجسد، يرتدي ثياباً وحذاءً
جيدين! ماذا يحتاج إلى غير ذلك؟ هو ما عليه بالرغم من حقيقة أنه يبدو
كعملة خمسة كوبيكات نحاسية مصكوكة بقوة».

(٥٠) رداء رسمي للموظفين في الدولة الروسية قبل عام ١٩١٧.

كان العميل الآخر شابًا، أحمر اللون كالسرطان، ولا وجود لأي منابت شعر على وجهه، ولهذا بدا عاريًا تمامًا. لقد ذكّرني بجورجينكا (وهو الآن عضو في مجلس الدولة وفارس) الذي بالرغم من عدم مشاركته في الماضي في الحفلات التي أقيمت في هذه الردهة، اعتاد الظهور في ساعة معينة مندفعًا من غرفه الداخلية، لاهثًا، مسرعًا بخجل عبر الردهة، ولسبب ما تصيح فيه الريبات: جورجينكا! جورجينكا! هل أبليت حسنًا في الاختبار؟

بعد ربع ساعة من الانتظار سمعنا ضجيجًا خلف الباب المؤدي إلى مكتب بالالايكين، وتبع ذلك خروج عجوز تخطو بثقل ويحتك فستانها بالأرض، وكان من الواضح أنها من أصل شرقي. بدا وجهها شديد الشحوب لدرجة أنه بدا من بعيد وكأنه قناع، وما سهّل هذا الانطباع هو أنفها الجورجي الكبير والمعقوف وعيناها السوداوان اللتان تبدوان زجاجيتين في محجريهما. لقد رأيت هذه المرأة أيضًا في مكان ما ووقت ما، ولقد رأيتني هي أيضًا، لكن كلينا لم يفكر بالطبع في محاولة شرح الظروف التي تعارفنا فيها. توجهت ببطء، مستندة إلى ذراع بالالايكين (وقد دعاها الأميرة، لكن بإمكانني أن أقسم بتر ذراعي بأنه التقطها من جسر فوزنيسينكي) إلى باب الخروج، ولكن عند مرورها بالمكتبة توقفت كما لو أنها قد ذهلت بعظمتها. سألت بالالايكين، مشيرة بإصبعها النحيلة إلى كعوب الكتب:

- أقرأت جميعها؟

- يا أميرة؟!

صاح كما لو أنه مندهش من إمكانية طرح سؤال كهذا عليه.

- حسنًا، كن بصحة جيدة!

بعدما ودّع بالالايكين المرأة العجوز توجه إلينا أولاً. بدا لطيفًا بدرجة غير عادية في مبذل المحامين الطويل الذي ارتداه. حددته السترة المخملية السوداء ببراعة، وأظهرت بيان الكتان بقوة. فرق رأسه بعناية شديدة إلى درجة أنه كان بوسع المرء أن يعتقد أن نحائًا يمشط له شعره. أما الوجه الذي استراح طوال الليل من جروح الأمس فقد ارتسم عليه الود والاستعداد لإرضاء العميل مهما طلب. كان سرواله مثاليًا، ولكن الأهم من كل ذلك هو أن كل جزء من وجهه، بل وحتى من جسده، فاح بروائح بدت كما لو أنه قد استحم لتوّه في مياه قناة يكاترينا. ذكرنا بلبائنا عند إيفان تيموفيتش، وأعرب عن أمله في أن نُشرّفه بتناول الإفطار معه.

- في خلال ربع ساعة سأكون في خدمتكما أيها السيدان^(٥١)، أما الآن، فهل تسمحان لي؟

أضاف العبارة الأخيرة مشيرًا إلى عميليه الجالسين في انتظاره. بدأ حديثه متوجّهًا إلى الشاب:

- حسنًا يا سيد. هل كان لرسالتنا تأثير؟

- نعم يا سيد بالالايكين، لقد أثّرت رسالتنا، ولكن لا يسعنا القول إنه تأثير مشجع.

- كيف؟

(٥١) بالفرنسية في الأصل.

- هذا هو الجواب يا سيد.

تناول بالالايكين الجواب وقرأ بصوت عالٍ: «وإذا ضايقتني أيها الجرو مرة أخرى»...

- إممم. الجواب بالطبع ليس مشجعاً، ولكن من ناحية أخرى قلب المرأة، أي قلب هو؟! سنكتب خطاباً جديداً أيها الشاب. هذا كل شيء.

- فلتضمّنه أبياتاً شعرية يا سيد بالالايكين!

- يمكننا أن نستشهد بفيكتور هوجو، وليكن مثلاً:

يا فتتي استمعي إليّ

هنا العاشق يصرخ وينشد^(٥٢)

ما رأيك؟

- جيدة يا سيدي، لكنها لا تعرف الفرنسية.

- لا يهم، وأنت أيضاً لا تعرف الفرنسية ولكنك قلت: «جيدة». الإبهام كما تعلم سيجعل مخيلتها تتقد! حتى اليونانيون الوثنيون كان لديهم معبد للإله المجهول، وهذا يعني وجود احتياج إلى ذلك في الإنسان. بالمناسبة، يمكنني أيضاً أن أستشهد بأبيات روسية، مثل:

تجاعيد شعرها ساحرة

تجاعيد شعرها بريق ورائحة

تجاعيد شعرها حلقات، تجاعيد شعرها ثعابين

(٥٢) بالفرنسية في الأصل.

تجاعيد شعرها شلال مياه مخملية

جيدة؟ تعالَ غداً، وستكون جاهزة. السعر...

رفع بالالايكين يده اليمنى وأشار بأصابعه الخمس، وأضاف
بصرامة: روبلات!

- ألا يمكن أن تصنع لي خصمًا يا سيد بالالايكين؟ بحق الله!
لقد أعطتني ماما العشرة روبلات الشهرية كلها، وقد أنفقتها كلها على
السجائر وما إلى ذلك يا سيدي.

- مستحيل أيها الشاب. تريد أن تنجح مع النساء وتستكثر إنفاق
خمسة روبلات! أوف! أوف! أوف! إذا أعطتك ماما نقودًا قليلة، فعليك
أن تضيف أنت إليها. اعمل! أعطِ دروسًا وأثر الشباب! أكرر: غداً
سيكون الخطاب جاهزًا. إلى اللقاء أيها الظافر!

مد بالالايكين إصبعين للشباب إيذانًا بانتهاء اللقاء، وتناولهما
الشاب بوقار. توجه بعدها بالالايكين إلى العميل العجوز:
- حسنًا، دورك الآن.

- منذ خمسة أعوام وزوجتي تنشد المتعة في كل مكان.
هكذا بدأ الأب النليل، ثم توقف فجأة وكأنه في انتظار أن يقول
بالالايكين كلمة ما مسيئة.

إلا أن بالالايكين ضبط نفسه، وخرجت فقط من بين أسنانه
«هممم!». لكن هذا الصوت أثر تأثيرًا مذهلاً. لم أكن أتذكر ثم
تذكرت. نعم، هذا هو! أكّدت لنفسني أنه هو الشخص الذي يرتدي

معطفاً لمستشار راحل. حتى أتيقن من مشاعري نظرت إلى جلودف،
ولاحظت من دون أي صعوبة أن اضطرابه لا يقل عن اضطرابي. همس
في أذني وهو يصدمني صدمة خفيفة بمرفقه في جانبي: «هو!». في هذه
الأثناء واصل الأب النبيل حديثه بعد أن تيقن أن أحداً من الحاضرين لا
ينوي أن يصفعه ولو صفقة خفيفة:

- لدى زوجتي مكتب عام للقروض، وأنا محرر مستقل في جريدة
كراسا ديميدروفنا التي تخدم الآراء السياسية والأدبية ليجاريوف
وما لا فييف. للأسف جريدتنا غير معفاة من إشراف الرقابة العامة، وفي
الآن ذاته بحكم تخصصها تقع تحت إشراف لجنة التخلص من مياه
صرف العاصمة بطرسبرج. لم يمر عام على عملي كمحرر إلا وحدثت
النتائج الآتية، أولاً: فقدت عقلي مرتين من التدخلات المستمرة. ثانياً:
أصبت برعاش الرأس من الارتجاج اليومي المتكرر. هذه من واجبات
محرر صحيفة مستقل!

ألقي هذا الخطاب التمهيدي باضطراب شديد حتى إن صوته قد بح
في نهايته. أخفض رأسه في حزن، ونظر بعين واحدة ليري ما إذا تملك
أياً من الحاضرين رغبة في رفع دعوى للتعويض. لكن بالرغم من أننا
أدركنا أن الوقت قد حان للتقدم، تأثرنا بشدة بحكايته عن بلايا المحرر
المستقل؛ الأمر الذي دفعنا إلى تأجيل هذه المأثرة إلى الوقت الملائم.

- الحقيقة أنني مقابل هذه المصاعب أستمتع أيضاً ببعض المسرات،
وهي تحديداً: ١- لدي تصريح دخول مجاني صيفاً إلى حديقة ديميدوف،
وفي أسبوع الرفاع وفي أسبوع الآلام يحق لي أن أقضي اليوم كله في

سقائف يجاريوف ومالافيف. ٢- يحق لي أيضًا أن أذهب مرتين في الأسبوع إلى سبع حانات؛ خاصة التي أوصت بها جريدتنا للجمهور الأكثر تبجيلًا، وذلك لقذارة مطابخها وتآكل القصدير من أطباقها، وفي كل مرة من المراتين يحق لي تناول كأس فودكا وطبق سولانكا^(٥٣). ٣- يحق لي سنويًا أن أبيت ليلتي مجانًا في أي نزل مسافرين. أخيرًا ٤- يمكنني أن أتواجد بحرية في غرف قضاة الصلح في أثناء المحاكمة، لكنني أترك لكم أيها السادة الأعزاء أن تحكموا بأنفسكم: ما قيمة كل هذه الامتيازات مقارنة بالواجبات المذكورة سابقًا؟

أحنى رأسه مجددًا، ولكن كل ما قاله نضح بالحقيقة التي لم نفكر فيها؛ ألا وهي أنه توجب علينا، لسنا نحن فقط، بل وبالألايين أيضًا، أن نعجل بمقاطعة ذكرياته والدخول عاجلاً في صلب الموضوع.

بعد استراحة قصيرة واصل حديثه:

- أنال خمسة وعشرين روبلاً شهريًا. لن أجادل في الأمر فالراتب جيد. لكن رجاء ضعوا في اعتباركم الآتي: ١- بحكم تربيتي صارت احتياجاتي كبيرة. ٢- المنتجات الغذائية تزداد سعرًا كل يوم أكثر فأكثر حتى إن كأس خمر نظيفة الآن تكلف المرء عشرة كوبيكات بدلًا من خمسة كما كانت سابقًا، وينتج عن ذلك أنه يستحيل عليّ حتى التفكير في شرائح اللحم.

قاطعته قائلاً:

(٥٣) حساء روسي سميك ذو مذاق حار وحامض.

- لكن اسمح لي! لقد قلت بنفسك إن لديك الحق في تناول كأسى فودكا يومياً وطبق سولانكا. يبدو لي أن من في منزلتك ...

- أبدو لك هذا يا سيد؟ قل لي بأمانة: أيمكن للإنسان أن يشبع ويرتوي يومياً من طبق سولانكا وحسب مطهو من مواد غامضة يصعب هضمها، وكأسى فودكا لا يملأهما النادل عن قصد حتى حافتيها؟
شاب صوته صدق مرير جعلني أصمت تلقائياً.

- بحسب تربيتي، لا يكفيني كأسا فودكا وطبق سولانكا واحد، بل عشرون كأساً وعشرة أطباق سولانكا، وبل قد لا يكفيني كل ذلك! آه أيها الشاب! آه أيها الشاب! يا لتهور أحكامك! (ظل الأب النبيل يهز رأسه بصرامة وتوجيه تجاهي في أثناء قوله ذلك) وكيف حالك يا سيدي العزيز بعد أن تلقيت تعليمك هذا؟

قاطعته بالالايكين، ولا بد أنه فعل ذلك بدافع إنقاذه من تلقي المزيد من توبيخات العجوز الذي ظهرت على وجهه التسعيرة تلقائياً حتى صار بإمكانني من دون أي صعوبة أن أقرأ على وجهه: «مقابل الإهانة اللفظية مع عتاب على نقص الأخلاق وكذلك عدم الالتزام بالقواعد المسيحية: ٢٠ كوبيكاً». لكن الأب النبيل لم يهدأ سريعاً. واصل حديثه قائلاً:

- إلى جانب ذلك أنا عاشق للمتعة. أحب مربى البرتقال والبرقوق المجفف والزبيب، وبالرغم من انخراطي في مفاوضات مع التاجر يليسييف حتى يسمح لي بالدخول إلى متاجره مجاناً وتجربة المنتجات، رفض رفضاً قاطعاً. بعد مفاوضات شبيهة مع التاجر سموروف قرر أن

يسمح لي بتناول تفاحة واحدة معيوبة يوميًا. (التفت إليّ فجأة) لذا
برأيك يا سيدي العزيز هل يكفي ذلك؟

لم يكن في يدي شيء. أخرجت من جيبى عملة عشرين كوبيكًا
(التسعيرة) ووضعتها على الطاولة، ومن هناك تلاشت في لحظة في
جيب العجوز.

- شكرًا لك يا سيد. هذا قليل لكنني لست جائعًا. أنا شهواني، ومن
ثم أتمتع بمذاق خاص للمأكولات الشهية بوجه عام والفتيات بوجه
خاص. فكما تعرف لديهن...

بدا العجوز كأنه يختنق وارتجف كل كيانه. تجمدنا في أماكننا
تحسبًا لاندلاع نوبة من نوبات البهجة المفاجئة التي تملك الشيوخ
أحيانًا عندما يُستثارون، لكن الأمر اقتصر معه على عطسة. من الواضح
أن العطسة كانت الشكل الوحيد الذي يُعبر به عن علاقته بالجمال
والذي ظل باقيا فيه في هذا العمر المتقدم.

- باختصار يستحيل بأي شكل من الأشكال أن يتجنب المرء
التضحية بروبل أو اثنين أسبوعيًا على ما يجلب المتعة. نظرًا لأن
زوجتي تمنع عني خمسة عشر روبلاً شهريًا من أجل الطعام والشقة
(حتى إذا لم أتناول الغداء في المنزل مطلقًا)، لا يتبقى لدي إذن أكثر
من خمسة روبلات شهريًا. هل يمكنك أن تفترض يا سيدي العزيز أن
يرضى شخص نبيل عن ذلك؛ خاصة في ضوء العادات الراسخة التي
يرتّب بموجبها كل المحررين المستقلين تناول الغداء مرة شهريًا في

حانة «ستاري بكين»^(٥٤) احتفالاً بخلاصهم المعجزي من الأخطار التي تهددهم على مدار الشهر؟

أجابه بالالايكين:

- بالتأكيد لا. هل يمكن لزوجتك، بوصفها القائمة على صندوق القروض العام، ألا تطالبك بنفقة الزوجة المطلقة؟

- فيما يتعلق بالمجال الذي تنفق فيه زوجتي أموالها فسأنتطرق إليه لاحقاً. الآن يمكنني القول إن الزواج بالشكل الذي أنا فيه يفرض عليّ واجبات ثقيلة، ولا يمنحني أي حقوق. لكن هذا لا يكفي أيها السادة الأعزاء! بالرغم من عدم وجود أي تأثير لي على توجه الجريدة التي أحررها، فإني أعاني من كل البلايا التي تمر بها. على سبيل المثال، بإصرار السيد مالايفيف نشرت عرضاً للدستور التركي، وأدى ذلك إلى تعرض الصحيفة لأضرار جسيمة، وحُصِم من راتب أحد أيامي ١٥ كوبيكاً. احكموا بأنفسكم أي رجّة أخلاقية جلبتها لي هذه الكارثة، ناهيك عن الدّين غير المسدد، والبالغ ثلاثة روبلات وخمسين كوبيكاً، الذي غرقت فيه وتصر زوجتي كل يوم على أن أعيده لها.

لكن ما إن نطق هذه الكلمات حتى أخرج جلوموف من جيبه ثلاثة روبلات ونصف بدافع الكرم، ووضعها على الطاولة.

- شكراً لك أيها الشاب المحترم! أشكر بالأكثر لأنه كان بوسعك أن تسجل هذا الدين عليّ ولكنك بدافع من سماحة قلبك لم تفعل ذلك.

(٥٤) الاسم يعني: بكين القديمة.

لنعد الآن إلى الحكاية. يمكنكم بالطبع أن تفترضوا من كل ما حكيته سابقاً أيها السادة الكرام أن وضع محرر الجريدة المستقل لا يمكن أن يثير حسد أي شخص، لذلك لن تتعجبوا إذا قررت -بالرغم من خطورة ذلك- أن ألبأ إلى بعض الوسائل الثانوية التي تساعدني في الحصول على ثياب لائقة لمنصبي كمحرر وتلبي نفقات التمثيل الرسمي. هذه هي الوسائل الثانوية وحسب.

وصفع بيده القذرة خده اليمنى... يا لها من معجزة! التسعيرة التي كنا نراها حتى هذه اللحظة بعين العقل وحسب (مرة واحدة أُلقيت نظرة خاطفة عليها) استنارت فجأة حتى استطعنا أن نقرأ بوضوح:

تسعيرة

مقابل الإهانة اللفظية مع عتاب على نقص الأخلاق وكذلك عدم الالتزام بالقواعد المسيحية: ٢٠ كوبيكاً.

الأمر السابق بإضافة سباب الوالدين: ٥٠ كوبيكاً.

الأمر ذاته مع رفع اليد ولكن من دون ضرب: روبل واحد.

نقر الأنف أو تلطيخ الشفاه: روبل واحد.

صفعة بسيطة على الوجه: روبل ونصف.

صفعة على الوجه تترك عليه آثار الأصابع: روبل و٧٥ كوبيكاً.

توجيه ضربة إلى الوجه تُحدث نزيفاً أو جرحاً في الأنف أو

الحاجبين أو الشفتين... إلخ: ثلاثة روبلات.

الأمر ذاته ولكن بالحذاء: ثلاثة روبلات ونصف.

تلطيخ الوجه بالقطران أو الشحم أو العجين: أربعة روبلات.

الأمر ذاته ولكن مع مواد محظور استخدامها: خمسة روبلات.

استخدام مواد غذائية تسبب الغثيان: ستة روبلات.

الجلد على انفراد حتى ٢٠ جلدة وما لا يقل عن عشر جلدات: عشرة روبلات.

مقابل كل جلدة بعد العشرين: روبل إضافي.

الأمر ذاته في وجود شهود: ٢٠ روبلاً.

مقابل كل جلدة بعد العشرين في وجود شهود: روبلان.

كسر في الضلوع: ٣٠ روبلاً.

ضربة على الرأس تسبب في إحداث كسر فيه: ٥٠ روبلاً.

ملاحظة ١: لا يُسمح بتأتا بالإهانة بالسوط أو القبط أو جذوع الأشجار أو أطر البوابات.

ملاحظة ٢: بالمثل يُحرّم اقتلاع العين أو قضم الأنف أو قطع الذراع أو الساق أو نزع الرأس أو ما شابه. بالنسبة إلى كل هذه الأضرار تحدد المحكمة قيمة التعويض، وبعد إلقاء الاتهامات وخطب الدفاع، وبعد اجتماع المحلفين في غرفة المداولة، يُحكّم بالبراءة على المتهم.

توجه إلينا عندما اقتنع بأننا حظينا بالوقت الكافي للتفكير فيما قرأناه:

- تبدو الرسوم غير ثقيلة، أليس كذلك؟

سارعت لطمأنته قائلاً:

- ليست كذلك وحسب، بل يمكننا أن نقول إنها معتدلة بدرجة مغوية. عذراً، يُكَلَّفُ الوفاء الكامل بهذه التسعيرة ١٣٧ روبلاً، فهل قليل هو عدد الأثرياء في عالمنا هذا ممن يبددون مثل هذا المبلغ على لا شيء لإرضاء أنفسهم وحسب؟!!

- كان هناك مثل هؤلاء الأشخاص فعلاً (قالها بفخر ثم أضاف سريعاً بمرارة) كان هناك يا سيدي مثل هؤلاء الأشخاص حينما كان الروبل لدينا لا يزال يحظى بالثقة في الأسواق الخارجية.

- لكن من المحتمل أن تسعيرتك كانت في هذا الوقت أرخص نسبياً، أليس كذلك؟

- الأمر يا سيدي العزيز ليس كذلك! يا للأسف! يتزايد الاستعداد لتلقي الإهانات كل يوم أكثر فأكثر، وعلى النقيض من ذلك تتناقص عقوبات الإهانات بالنسبة ذاتها.

- ولكن في كل الأحوال لو تسمح لي، أنا وبخته سريعاً على عدم الالتزام بالقواعد المسيحية ووضعت عملة عشرين كوبيكاً على الطاولة.

أضاف جلوموف وهو ينافسني:

- فيما يتعلق بي أجد أن الشيء الأكثر لفتاً للنظر في تسعيرتك هو التدرج الصارم في الغرامات. لذلك بالرغم من أنني لا أريد أن أذكر

والديك بالطبع، أرجو منك أن تفكر فيما ستفعل لو ذكرتهما. لذلك سأدفع خمسين كوبيكًا.

تردد بالالايكين من جانبه، ولكن من دون توجيه أي ضربات، ثم حسب ثلاثة أرباع روبل. بهذه الطريقة، وفي أقل من دقيقة، ومن دون إثارة أي اضطرابات، نال العجوز الطيب روبلاً وخمسة وأربعين كوبيكًا فضيًا؛ الأمر الذي أنعشه تمامًا. قال بمرح، وكانت رغبته واضحة في ألا يظل مدينًا لنا بهذا الدين:

— حسنًا يا سادة! انظروا الآن إلى هذا المبلغ الصغير!

حرك خده اليسرى ورأينا بدهشة جديدة أن سطورًا مطبوعة بدأت تظهر عليه فورًا، وتمكنا في غضون دقيقة من قراءة هذا الإعلان الغريب:

كراسا ديميدروفنا

«الصحيفة عبارة عن بالوعة حسية تصدر في أيام المعارك العامة. منذ وقت طويل وثمة احتياج لدى الجمهور إلى معلومات مفصلة عن المعارك التي تدور في العاصمة المحلية، ولكن في الوقت نفسه لا يوجد من يُرضي هذه الرغبة العادلة إرضاءً كاملاً، وهناك من يحجبها بتأملات فلسفية غير ضرورية. بهدف سد هذه الفجوة أصدرنا جريدتنا هذه آمليين أن يُقدَّر الجمهور جهودنا ولا يستكثر أن يدفع ثلاثة روبلات سنويًا يتمكن بموجبها من قراءة مادة متنوعة تمامًا، وعلاوة على ذلك لا تحوي أي شيء صادم. لن نذكر هنا أسماء المتعاونين معنا، ولكننا

سنعلن بفخر واضح أن غالبية الأدباء قد وعدونا بمساعدتهم الخيرية؛
وجدير هنا بالذكر أن السيد زيت الشهير قد وعدنا بنشر أعماله الخليفة
معنا حصرياً. بشكل مماثل لا نحمل على عاتقنا الالتزام بأي قضايا
واسعة ومثالية، بل سنضع نصب أعيننا هدفاً واحداً؛ إشباع شهية القارئ.
ستقدم جريدتنا قراءة وافرة ومتنوعة في الأقسام التالية:

١- أخبار عن العراك في الأماكن العامة، مع سرد مفصل لكل
الإجراءات التي اتُخذت من بداية الأمر وحتى نهايته. سنرسل أكثر
مراسلينا موهبة إلى أماكن العراك على حساب الجريدة.

٢- مراجعة أدبية لكل ما يحدث في حديقة ديميدوف وسقائف
يجاريوف ومالافيف. سترأس السيد زيت هذا القسم.

٣- عناوين أفضل المومسات، مع سيرة ذاتية مختصرة ومعلومات
جذابة عنهن. سننشر هذه العروض التقديمية مع مراعاة السرية التي
تطلبها الحشمة بالطبع في الحديث عن مثل هذه الأمور، ولكن نظراً
لأن مكتب التحرير مفتوح للراغبين في الحضور يومياً من الثانية وحتى
الرابعة عصرًا، فسوف يمكننا أن نقدم التوضيحات اللازمة مقابل مكافأة
معقولة.

٤- جولة في الحانات مع بيان أسعار المشروبات الكحولية
والإشارة بشكل خاص إلى عناصر فن الطهي الرائعة، وتخليد أسماء
أفضل العاهرات والجرسونات. غني عن الذكر أننا سنولي الحانات
التي يتعهد أصحابها بدفع أجور معينة للمحررين اهتماماً خاصاً، حتى
إذا لم تلتزم مطابخها بالإجراءات الصحيحة.

٥- متفرقات. الطُّرْف والكلمات الساخرة والأقوال المأثورة
والأبيات الشعرية والشائعات الكاذبة هي أكثر الوسائل استخدامًا لعلاج
الأمراض الشهوانية وما إلى ذلك.

نحن لا نلتزم بمواعيد صدور، ولكن نظرًا لعدم وجود نقص في
المعارك يمكن للقراء أن يثقوا بأن جريدتنا سوف تظهر أكثر من اللازم.
المحرر المستأجر: إيفان إيفانوف أوتشيشيني.
مالك أرض سابق في برونسكي، حوكم بتهمة إساءة استخدام
سلطته كمالك أراضٍ، ولاحقًا عازف بيانو».

قبل أن أتمكن من الانتهاء من قراءة الإعلان كان جلوموف يعتصر
الأب النبيل بالفعل بين أحضانه صارخًا بإعجاب لا يوصف: «إيفان
إيفانيتش! أنت! أنت! أنت! أنت! أنت!».



هكذا انكشف اللغز: الواقف أمامنا كان عازف البيانو السابق في شقة كوباريخا، الشاهد على ألعاب شبابنا! لفترة طويلة لم نستطع أن نتمالك أنفسنا من الإعجاب والتأثر المبهج وسحقناه في أحضاننا بالتناوب. أما هو فقد انفعّل انفعالاً لا يوصف عندما أثبتنا له من خلال الحقائق التي لا تُدحض غياب عذر الغيبة^(٥٥) في هذه الحالة. سأله جلوموف:

- «تشيجيك... تشيجيك... أين كنت؟» أتذكر هذا اللحن؟

أجاب، وهو يحاول -من دون جدوى- أن يضفي بعض الحزم على صوته المرتعش:

- أتذكر!

أضفتُ من جانبي:

- وهل تتذكر كيف رفعتُ ذات مرة كأس فودكا مملوءة بمواد قابلة

للاشتعال، وكيف أوشكتَ حينها على الجنون؟

- أتذكر!

- وهل تذكر...؟

(٥٥) ادعاء المتهم أنه كان في مكان آخر عند وقوع الجريمة.

باختصار، تذكرنا هذا الكم الهائل من النكات المسلية والحضارية
تمامًا حتى إن شعر العجوز انتصب! قال:

- في هذه الفترة لم تكن لدي تسعيرات!

لكنه قالها هذه المرة برضا ولم يَشُبْ صوته أي عتاب، بل بدا
يتحدث عن ذكرى ممتنة للمزاح الذي يتسم به الشباب الذين نالوا
تعليمًا في المؤسسات التعليمية العليا. أخذ جلوموف يستحثة:

- إيفان إيفانيتش! كم كبرت! ازددت حسنًا!

وأضفت من جانبي:

- يا لحسن ثيابه! كما لو أنه ذاهب إلى حفل رقص عند كيسينيك
للمرة الأولى ليعرض ابنته على الحضور.

لكن العبارة الأخيرة جعلته يشتعل. نظر بحزن إلينا وسالت دموع
ضخمة على وجنتيه، وتدرّجًا خففت من إعلان إصدار الجريدة
«كراسا ديميدروفنا». توجه إلينا بالحديث بتأثر شديد:

- أيها الأصدقاء! لا تُهَيِّجُوا جروحًا قديمة لم تلتئم بعد! الابنة
التي تتحدث عنها، الابنة التي زينت حفلات مارتسينكيفيتش لم تعد
موجودة! عزيزتي مالخين البيضاء التي كانت تقدم لك يا سيد جلوموف
الشماندكوخين لم تعد موجودة! لقد عايش هذا القلب العجوز المسكين
كل شيء... كل شيء ولم ينكسر! آه! كم كانت فترة جميلة ومشقة
وسعيدة، بغض النظر عن أنني أرتدي الآن معطفًا محاكًا من فيتسموندير
للمستشار الراحل بوبريشين!

- ولكن... هل أنت سعيد الآن؟

- آه! الآن؟ أنا الآن مجرد ظل لإيفان إيفانيتش السعيد الذي عرفتاه في هذه الشقة تحديدًا! بالرغم من أنه بحسب المظهر الخارجي أبدوا أبا نبيلًا، فإنني من حيث الجوهر عازف بيانو أكثر من أي وقت مضى!

- لكن لماذا إذن تبدو أكثر شبابًا؟

- هذه إرادة العناية الإلهية التي تكافئني بشكل غير مرئي - ولو جزئيًا - على احتمالي صنوف المعاناة. أسألكما أن تقولوا لي بأمانة: ما المعاناة التي يمكن أن تكون أسوأ من ذلك: أن تعيش في اتصال دائم مع صندوق قروض عام في الوقت الذي لا تنال فيه أكثر من خمسة وعشرين روبلاً شهريًا، وتدفع منها ما يُقدَّر بعشرين روبلاً لتوفير السكن والطعام؟ - اسمع يا فانيا! هل يمكن أن تكون مالخين البيضاء والصغيرة قد انبعثت حتى صارت صاحبة صندوق قروض عام؟

- مالخين؟ أبدًا! مالخين الآن في سمائها تنظر ولا ترى شيئًا! أما صاحبة صندوق القروض العام فهي ماتريونا إيفانوفنا.

- أعني هذا أنك تزوجت مجددًا؟ احكِ يا أخي! احكِ!

- إنها قصة حزينة ومؤلمة ومع ذلك أحكيها عن طيب خاطر لكل من يدعوني إلى وجبة جيدة فعلاً. إذا أردتما أن تحددا لي يومًا وساعة محددين في «ستاري بيكين» أو في فندق «موسكو» فأنا مستعد!

- ولكن لماذا لا تحكيها الآن؟ (قاطععه بالالايكين وقد تملكه الكرم فجأة) للمصادفة السعيدة أنا متفرغ اليوم من التمشي، وفيما يتعلق

بالوجبة فلا شك أنني سأقدم لك هنا وجبة أفضل من أي وجبة في ستاري
بيكين!

اتفقنا، نحن وأوتشيشيوني. صفّق بالالايكين، وبإشارة منه أحضر
شاهداه الزور صينية كبيرة إلى الغرفة تحوي الفودكا والمقبلات،
وسرعان ما أحضر شاهدا زور آخران صينية أخرى مليئة بلحوم باردة
متنوعة. دعانا بالالايكين قائلاً:

- تفضلوا! جلب لي فيوشين هذا الكافيار تهنئة لي بعيد ملاكي
وأرسل لي هذا الباليك^(٥٦) من كوكان مباشرة، من الخان المتمرد السابق
نصر الدين لأنني وجدت له عروسًا. أتريدون أن أقرأ لكم رسالته؟
- نعم رجاء!

- أضعها دائمًا في جيبي كشاهد على وفائي بكل التزاماتي من دون
خداع. هذا هو نص الرسالة:

نسخة طبق الأصل

إلى السيد الجليل والعظيم والرحيم المجامي^(٥٧) بالالايكا في
بيتمبورج.

أنت نور عيني أيها السيد المجامي بالالايكا!

(٥٦) لحوم مدخنة من بعض أجزاء سمك الحفش والسلمون.

(٥٧) تمتلئ كلمات الرسالة بأخطاء إملائية.

أُعلمك أننا استلّمان الفتاة لودميلا التي أرسلتها بأمان ومعها كل شيء وفقاً للاتّحة المرسلة، وكل شيء يبدو سليماً. كتبت لنا أن هذه اللودميلا هي ابنة أمير كيف سفيتوزار، بينما مكتوب في الإعلان أنها ابنة صانع مفرقات. الأمر سيان لنا، لكنني أشير لك فقط بأنك خدعتنا. بالمناسبة، منذ أن هُزمت قواتنا بالقرب من ماخرام، صرنا مواطنين مخلصين لروسيا، وخضعنا لسلطة قائد الشرطة سيدور كوندرايتش، وشعرنا للمرة الأولى بفضل هذه الفداة لودميلا أن حزننا لا يخلو من عزاء. ونظرًا لنعمك علينا والفرحة التي جلبتها لنا، نقدم لك هذه العطية: جرة ماء خزفية وآآه! سمك سلمون يزن عشرين رطلا ولحم باليك ممتاز! حفظك الله! أنا نفسي أشتهي كل ذلك!

المتنرد السابق والمخلص الآن للسيد سيدور كوندرايتش وعبد سيدنا محمد: الخان نصر الدين.

سألت بفضول:

- لماذا أرسل جرة ماء؟

- الماء عندهم نادر، فتصور قيمة ما يرضيني به! أتريد أن أريك

الجرة؟

- نعم من فضلك!

جلبوا الجرة وفحصناها. جرة كأى جرة، لكن رائحة كريهة تنطلق

من طينها الرطب. قال بالالايكين:

- نعم أيها السادة. مررت بالكثير مع هذا الخان! أرسلت له ثلاث عرائس خلال شهرين، ولم يكتفِ! الآن أبحث عن الرابعة.

قال أوتشيشيوني:

- أجرؤ على إبلاغك أن لدي فتاة واحدة توافق على الرحيل. يا لها من فتاة جميلة!

- رائع! سنضع ذلك في اعتبارنا، ولكن أعترف لكم، أنه حتى من دون هذه الفتاة لن تكون نهاية لهذه العرائس. في كل صباح أجد أهل زقاق فونارني جميعهم يدقون بابي. حتى الشباب يأتون. يرن الجرس مرة تلو الأخرى.

تعجب جلوموف قائلاً:

- لكن الغريب أنه بالرغم من كل هذه المشكلات شكرك بجرة ماء!

- كما ترى يا عزيزي^(٥٨)! لا يوجد في عالمنا هذا كائنات أكثر شكرًا من هؤلاء الخانات! مع ذلك أرسل لي أيضًا زوجًا من ابن آوي، عليهما اللعنة! تسليت بهما لبضعة أيام، واصطحبتهما في عربتي إلى شارع نيفسكي، ثم أعطيتهما لروست في حديقة الحيوان. العمل الرئيس لهما كان العواء بطريقة ما، وبالطبع عضوا الحوزي. تصوروا أنهم لم يأكلا شيئًا عدا شرائح اللحم! وغدان! كنت أرسل في طلب الطعام من مطعم زافيتايف إلى هنا في بيسكي ثلاث مرات يوميًا!

(٥٨) بالفرنسية في الأصل.

- يااه!

- وسمك الرنجة هذا اصطدته بنفسي في الصيف الماضي.
كما تعلمون انخرطت في السياسة. يا للعجب! نعم، هذا ما حدث،
واضطرت إلى الهروب من البلاد. استأجرت بحسي الحيوي فنلنديًا
تشوخنوسياً^(٥٩). سألته: كم ستأخذ مني أيها الوغد ذو العينين البضاوين
لتعبر بي بحر البلطيق؟ أخذ مني ألف روبل ودلو فودكا، ووضعني في
قاع القارب وأخفاني بخيش وانطلق بي! لم يسمح لي بالخروج من
تحت الخيش إلا عندما اقتربنا من جزيرة جودلاند^(٦٠). هناك اصطدت
سمكة رنجة، وظللت هناك حتى اتضح أن الأمر برمته مجرد سوء
تفاهم. نعم أيها السادة، هذا ما اختبرته في ذلك الوقت. مهما كان الأمر
جيدًا خارج البلاد تصعب على المرء مفارقة وطنه. سافرنا كما تعلمون
إلى كرنشئات. كرنشئات من جهة وسومنلينا من جهة أخرى، وأنا أفكر
بينهما: وفجأة أقول: هل سيطلقون القذيفة؟ ها هي مدرعة تمر. إنها
مدرعة، ونحن لا شيء أمامها.

- وهل أطلقوا؟

- لا، حمدًا لله. ظلوا يحدقون إلينا. مرت المدرعة، وتصوروا
بأنفسكم قاربنا. بدا كقشرة لوزة، وعلاوة على ذلك كل دقيقة نجد
تسريبًا، لكنني استفدت من كل ذلك فيما بعد، وسافرت إلى كل أنحاء

(٥٩) مصطلح روسي قديم لبعض الشعوب الفنلندية.

(٦٠) جزيرة سويدية تقع في بحر البلطيق على بُعد ٩٠ كم من البر السويدي.

أوروبا. زرت جينيف واشترت ساعة ثم رحلت إلى باريس. اشترت بطاقات الصور هذه من هناك.

- رائعة!

عند ذكر الصور لحس أوتشيشيوني شفتيه بشهوانية. تمتم وهو على وشك أن يعطس: «أتمنى لو...».

- سأريكم أيها السادة. سأريكم كل شيء، سأريكم مجموعتي كاملة حتى التي يستحيل عرضها. كلمة شرف^(٦١)! عذرًا، ماذا تريدون أيضًا؟ سلمون؟ أوجه انتباهكم إليه يا سادة. سمكة السلمون هذه اصطادها نيميروفيتش دانتشينكو بنفسه. كنت معه في جزر سولوفيتسكي^(٦٢) وشرينا جعة بالعسل وتدفق الشراب من شواربنا وأفواهنا، وفي ذكرى الروابط التي تربط بيننا سكبنا وبلعنا! لم يتبق من السلمون الآن سوى ذيلها، لكنه ذيل مدهش! نيميروفيتش هو من يمكنه أن يروي الطُرف عن هذه السمكة. يقول إنها رهيبة وذكية، مثل الإنسان بالضبط! يمكنك أن تجلس هكذا على الشاطئ وتشعل النار وتغلي الماء في قدر وتصيح: هيا! أما هي فترى أن هذا تحديدًا ما ينقصها، لذلك تخرج أذنهما من تلقاء نفسها وتعوم أمامك! أقسم إن هذا ما يحدث. أتريدوني أن أعرفكم بنيميروفيتش؟

- نعم نريد فورًا!

(٦١) بالفرنسية في الأصل.

(٦٢) أرخبيل في البحر الأبيض.

- ستتحقق أمنيتكم قريباً جداً. هذا التين قدّمه لي أيوب باشا^(٦٣).
لكن لا ينبغي الآن الحديث عنه وإلا اندلعت حرب! لا تدفعوني إلى
الكشف عن الأمر! جربوا هذا التين، يا لرائحته!

- ماذا فعلت ليقدم لك أيوب باشا هذه الهدية؟

- اكتشفت له معلومة مهمة في المجالات الدبلوماسية. مجرد تفاهات!
صحنا في هلع:

- بالالايكين! احذر! بهذه الطريقة تفضح نفسك كخائن للوطن!
- آه! لكننا سنبرم صفقة^(٦٤)! في الواقع لقد اكتشفت معلومات من
أجله، لكنه بسبب هذه المعلومات تحديداً خسر المعركة. أتذكرون
كيف هزم في الوهد؟ لا يا سادة! أنا حذر في مثل هذه الأمور. بينما هو
يرسل لي هدية! حذّره حينها. قلت له: قل لي رجاء، إلى أين ستمضي؟
إذا خسرت المعركة فسيحاكمك الأتراك، وإذا ربحت فستحاكمك
أوروبا المثقفة. الأفضل أن تقدم استقالتك!

- ولم يستمع إليك، أليس كذلك؟

- لم يستمع إليّ وخسر المعركة. أشعر بالأسف على أيوب! أشعر
بالأسف عليه إلى حد الدموع! إنه محطم ولا يبدو حتى تركياً على
الإطلاق. ذهبت معه إلى الحمام العام، كما هو حقاً؛ كإنسان فقط. كان
جسده أزرق، مثلما كان يبدو رجال شرطتنا في زيهم القديم قبل تغييره.

(٦٣) ربما يقصد أحمد أيوب باشا، وهو سياسي عثماني تولى منصب والي اليمن.

(٦٤) بالفرنسية في الأصل.

استغرق بالالايكين في التفكير لوهلة، وبدا كما لو أنه تلاشى. من الواضح أن الكذبة سبحت نحوه بسرعة لدرجة أنه لم يستطع التعامل مع كل هذه المواد التي تُختلق بلا توقف. عاود حديثه مجددًا:

- نعم أيها السادة، لقد مررت بتقلبات كثيرة في حياتي! نفوه إلى بيروزوف وحاول زراعة البطاطس هناك لكنها لم تنم! لكنه اختبر أفراحًا عديدة أيضًا. مثلًا: شروق الشمس على شواطئ المحيط الشمالي المتجمد ويا له من منظر! تصوروا أن تشرق وتغرب أمامكم في الوقت نفسه! أين يمكنكم أن تروا منظرًا كهذا؟ لذلك لا أحد ينام هناك. ينامون في الشتاء وفي الصيف يصطادون الفقمة.

سأل أوتشيشيوني بحب استطلاع:

- أتمنى لو أعرف، هل لحم الفقمة لذيذ؟

- تنبعث منه رائحة الصابون، ولكن بالمناسبة، تناولته مع نيميروفيتش. أنا ونيميروفيتش ولا تكين. تصل درجة الحرارة هناك صيفًا إلى ٧٣ تحت الصفر، وفي الشتاء... يا الله! في هذه الظروف ستسعد بلحم الفقمة. ذات مرة ضرب الصقيع أنفي. نظرت وإذا أنفي في يدي!

- آه! اللعنة!

- نعم هذا ما حدث. لحسن الحظ عالجت الأمر على الفور. تناولت بعضًا من زيت الفقمة الدافئ ودهنت به وها أنا كما ترون! عرض علينا أن نفحص أنفه، وكان من المستحيل فعلًا ألا نلاحظ وجود فراغ في هذا المكان.

- لقد اختبرت كل شيء! حتى مناجم الذهب زرتها. أقول لكم إنني وجدت كتلاً ذهبية جعلتهم يخفزون ذات مرة خمسة أعوام من عقوبة أحد عملائي بالأشغال الشاقة من أجلي. الآن هو في معهد التعدين، مستلقٍ في أحد المتاحف.

- إممم! حقاً؟ قل لي رجاء، لقد سمعت أن العمال في مناجم الذهب يخفونه بمهارة شديدة. يأخذ العامل مقدار زولوتنيك^(٦٥) أو اثنين ويخفيه في الرمل بطريقة لا يمكن لأحد اكتشافها. أهذا صحيح؟ - لا يأخذون مقدار زولوتنيك، بل يخفون في المرة مقدار خمسة أرطال! كيف أشرح الأمر لك؟ أنا نفسي... انظر هنا! من أين بظنك كل هذا؟ من أين بظنك هذا الأثاث وما إلى ذلك؟ - حقاً؟

- كل شيء هنا كذلك! كل شيء بدأ من هناك. من هناك يا سيدي! إذا اكتفيت بالبحث عن عرائس للخانات المتمردين فلن تجني الكثير من المال! المهم أن تكسب المال بغض النظر عن الطريقة. كل شيء هناك، كما أن علاقاتي بدأت هناك أيضاً. الآن أنا وكيل لجميع عمال مناجم الذهب؛ أشتري القبعات للزوجات وأجهز تسريحات شعر للأزواج. أتعرف كم هو راتبي في الشهر الواحد؟ ماذا عن الطيهوج السييري؟ ماذا عن سمك النيلما^(٦٦)؟ ألا يُحتسب كل ذلك؟ أهداني

(٦٥) مقياس وزن روسي استُخدم قبل إدخال النظام المتري، ويساوي ١/٩٦ رطلاً أو ٤,٢٦ جم.
(٦٦) نوع من أسماك المياه العذبة البيضاء ينتشر في الأنهار القطبية الشمالية من شبه جزيرة كولا شرقاً عبر سيبيريا إلى نهر أنادير.

التاجر ترابيز نيكوف مؤخرًا سنًا عملاقة من إيركوتسك. أتريدون أن أريكم إياها؟

- نعم، اعمل معروفًا!

- سأريكم إياها، ومع ذلك قد أعطيها لحديقة الحيوان. لدي كمية رهيبة من المال تكفي لمائة عام. في العام الماضي سافرت إلى نيس^(٦٧)، ونظرت فإذا قلعة أوديفر عند سفح الجبل. سألت: كم سعرها؟ قالوا مليونًا ومائتي ألف! كل ما فعلته أن أخرجت المال من جيبي وحسبت المبلغ.

- آه! حقًا؟!

لم يتحمل أوتشيشيوني ونهض من على مقعده وصلّب^(٦٨). قال:
- لقد رأيت يا سيد بالالاياكين الكثير، بل الكثير جدًا! لكن أعترف أن...

- عشت في نيس عشرين عامًا حتى أدهشت الجميع. كانت لدي أوركسترا وحفلات موسيقية كل يوم جمعة.

دخل بالالاياكين تدريجيًا في حالة نشوة حتى ظهر الرغو في فمه. ازداد الأمر صعوبة. سألته من أجل تخفيف أجواء الكذب بطريقة ما:

- قل لي يا بالالاياكين! ما علاقتك بالراحل ريبيتيلوف؟

- ريبيتيلوف؟ رأيي فيه؟ هو من أخذني على يديه من جرن

(٦٧) مدينة فرنسية.

(٦٨) رسم علامة الصليب على نفسه.

المعمودية^(٦٩). لكن علاوة على ذلك هناك شيء آخر. أصولنا قديمة للغاية. نحن من سلالة أمراء برونسكي. أذكر براكوبي لبيانوف^(٧٠)؟ نحن جميعًا ننحدر من نسله من ناحية الأم: آل مولتشانين وآل روبيتلوف وآل بالالايكين وآل فاموسوف... الجميع! وتشايكي ألكسندر أندريتش الذي يعيش على حدود مقاطعة سكوبين!

- أتعلم يا بالالايكين الكلام السيئ الذي يُقال عنكم؛ عن آل برونسكي؟

- كم بيننا من كاذبين! ليس هناك ما يُقال. أبناء بلدي يحبون الكذب! تصور ماذا حدث من أيام! يأتي إليّ أحد المواطنين ويقول لي: أتعرف أن والدتك هربت مجددًا إلى إيليوشكا سوكولوف في المعسكر^(٧١)؟ بطبيعة الحال أرسلت برقية على الفور من ٣٣٠ كلمة إلى زاجوريتسكي: كذا وكذا... ألا يمكن منع ذلك؟ تخيلوا، ماذا حدث؟ بعد عام بالتمام والكمال يأتيني الرد: صديقي العزيز! والدتك منذ ثلاثة أعوام وهي في برونسك لم تفارقها. قولوا أنتم لي، لماذا كذب عليّ؟ هل أثرت عليه الحمى؟ ها؟

استمر الحديث بهذه الطريقة، ولم نلاحظ كيف أكلنا وشربنا كل ما

(٦٩) الجرن الذي يُغطس فيه الكاهن الطفل ليصير مسيحيًا.

(٧٠) سياسي وعسكري روسي.

(٧١) من أجل توضيح الأمر للقارئ من الضروري أن نُذكره هنا بأن بالالايكين ابن العجرية ستিকা المشهورة في موسكو، وقد حظيت قبل زواجها بسكرتير المقاطعة بالالايكين بعلاقة حميمة مع ريبيتيلوف، ويقول بالالايكين إنه علاوة على ذلك تجتمع به صلة قرابة. (الملاحظة من الكاتب)

على الصواني. في النهاية أفاق جلوموف لنفسه أولاً. قال:

- لم نأت لنستمع إلى الأكاذيب يا إيفان إيفانيتش! لقد وعدتنا بأن
تحكي لنا قصة تحولاتك، أليس كذلك؟
- أنا مستعد!

قال جلوموف من دون أي رسميات:

- حسنًا يا بالالايكين! فلتأمرهم بأن يقدموا لنا بعضًا من السيجار
الذي أرسله لك حاكم هافانا مقابل قضية شهادة الزور والخمور التي
أهداها لك إربر مقابل كتابة إعلان عن بيع الخمور والمشروبات
الكحولية!

انتقلنا إلى مكتب بالالايكين، وبالرغم من أنه رجانا أن نرى أولاً
مجموعة الصور التي أحضرها من باريس، فإننا غالبنا أنفسنا وأجلنا
هذه النية الحسنة إلى وقت آخر أكثر ملاءمة. بعد أن جلسنا إلى الطاولة
وعليها أفضل الأنواع، وأمانا كؤوس من المشروبات الفواحة كنا في
أتم الاستعداد لتلقي اعتراف محرر مستقل بجريدة «كراسا ديميدروفنا».

قال جلوموف وهو يتمدد على مقعده ويغلق عينيه:

- احك يا إيفان إيفانيتش! احك يا أخي!

وبدأ أوتشيشيوني.



«أنا من نسل عائلة نبلاء قديمة. كنتي الحقيقية هي جاديوك^(٧٢)،
أما كنية أوتشيشيوني^(٧٣) فقد التصقت بنا بعد حادث معين سوف أحكيه
لكم في الوقت المناسب.

فيما يتعلق بأصول أجدادي فثمة حكايتان: الأولى غير موثوقة تعود
إلى مؤرخ جليل من موسكو، والثانية أقل موثوقية وقد تشكلت هنا في
بطر سبرج.

يُعيد المؤرخ الموسكوفي الجليل أصلنا إلى نوفجورود من عصور
ما قبل التاريخ. كان هناك إنسان حسن النية من نوفجورود (وفي
قصص أخرى يقولون إنه كان لصًا) يُدعى دبروميسل جاديوك، وهو
من فكر قبل الآخرين في استدعاء الفارانجيين^(٧٤) وأعلن عن فكرته
لسكان نوفجورود في الاجتماع الشعبي العام. قال لهم: «منذ زمن بعيد

(٧٢) الكلمة تعني أفعى أو ثعبانًا سائًا أو خبيثًا.

(٧٣) الكلمة تعني: المهذب أو المصقول أو المصنّف، ويلعب الكاتب على هذا المعنى بطريقة
ساخرة.

(٧٤) الاسم الذي أطلقه الإغريق وشعب الروس وغيرهم على الفايكنغ، الذين حكموا روس
الكييفية بين القرنين التاسع والحادي عشر، واستقروا في مناطق عديدة بين بيلاروسيا الحديثة
وروسيا وأوكرانيا.

والفارانجيون يعلموننا كيف يجب أن نسلك؛ يحرقون المدن والقرى وينهبون الممتلكات ويقتلون الأزواج ويغتصبون الزوجات، ولكن كل ذلك لا يتسم بالعقل أو الذكاء! ما السبب في رأيكم أيها الأصدقاء الأعزاء؟». لكن مواطني نوفجورود بدلاً من الإجابة اكتفوا بحك رؤوسهم. واصل جاديوك حديثه قائلاً: «أنا أعرف السبب. السبب يا أصدقائي الأعزاء هو أنه بالرغم من أن الفارانجيين يعلموننا التفكير فإنهم لا يتبعون الأساليب الصحيحة. يسرقون ولكن ليس على التوالي. يقتلون ولكن في وقت غير مناسب. يغتصبون ولكن ليس بحسب القانون. اتضح إذن أننا لا نفهم علمهم، وهم لا يريدون تعليمه لنا. أليس هذا صحيحاً يا إخواني؟». ارتعدت قلوب أهل نوفجورود، لكنهم فهموا أن جاديوك يقول الحقيقة، وصاحوا جميعاً بصوت واحد: «صحيح!». قال لهم: «أرى إذن أن نرسل في طلب المشاة الفارانجيين ونقول لهم: أيها السادة الفارانجيون! بدلاً من الإغارة علينا يمكننا أن نسرقوا الممتلكات وتحرقوا المدن وتغتصبوا الزوجات، ولكن فلتفعلوا ذلك في المستقبل وفقاً للقانون! هل ما أقوله صحيح؟». ارتجفت قلوب أهل نوفجورود مجدداً، ولكن نظراً لأن حقيقة حديث جاديوك كانت واضحة للجميع صاحوا جميعاً بصوت واحد: «صحيح!». حينها تقدم الشيخ جوستوميسل وتساءل: «ولماذا تعتقد يا جاديوك ذا النية الطيبة أن السرقة وفقاً للقانون أفضل من السرقة المخالفة للقانون؟». أجاب جاديوك باختصار: «كيف ذلك؟ هل يمكننا أن نقارن بين فعل قانوني وفعل غير قانوني؟ من الواضح للجميع أن الفعل القانوني أفضل».

تعجب أهل نوفجورود من حكمة جاديوك وقرروا أن يدعوا الفارانجيين ليحرقوا المدينة وينهبوا الممتلكات ويغتصبوا الزوجات وفقاً للقانون! وما قيل حدث. وصل من البحر ثلاثة أمراء: روريك من نوفجورود وسينويس من لادوجا وتروفور من إزبورسك. وصلوا واستلقوا ليناموا بعد وعشاء الطريق. ما إن ناموا حتى حلموا ثلاثتهم بسلسلة واحدة من الصور تمثل مصير وطنهم المستقبلي. أولاً: الفترة المحلية وفيها يحرق الأمراء. ثانياً: الفترة التترية وفيها يحرق التتار. ثالثاً: الفترة الموسكوفية وفيها يحرقون ويُغرقون في النهر ويسجلون في السينودك^(٧٥). بعدها فترة الدجالين حيث يحرقون ويُقبَّلون الصلبان ويتنفون لحي بعضهم. بعدها فترة حملة ليب^(٧٦) حيث يحرقون ويضربون بالسوط ويقطعون الألسنة ويوزعون الفلاحين ويشربون المشروبات الهنغارية. بعدها يصدر الأمر إلى المحافظين بضرورة التدخل في القوانين في الوقت المناسب، ثم إنشاء حكومات المقاطعات «كيفية إيجاد مبرر لائق لجريمة التدخل في القوانين»، وأخيراً ظهور المدعين العامين «كيف يجري اصطياد الناس من دون شبكة؟». أُصيب ثلاثتهم باضطراب عظيم ولم يعرفوا ما العمل. فكروا: ماذا لو تحقق هذا البرنامج كله بسببنا؟ شعروا بالحسرة؛ تحسر الأول سينويس من لادوجا وأغرق نفسه في بحيرة، وتحسر الثاني تروفور من إزبورسك وشنق نفسه

(٧٥) السينودك ويُطلق عليه في مصر: سنكسار، كتاب كنسي تُدوّن فيه ذكرى القديسين والأحداث الدينية المهمة.

(٧٦) مجموعة من النبلاء تحت قيادة ابنة بطرس الأول صنعوا انقلاباً في ٢٥ نوفمبر ١٧٤١ في قصر الإمبراطورية الروسية، ونصّبوا الإمبراطورة إليزابيتا بتروفنا.

بالعنان. أما روريك، ونظرًا لتمتعه بعقلية حرة، فلم يرغب في مثل هذا الموت العبيث الفوري. عقد اجتماعًا وتوجه إلى أهل نوفجورود بهذه الخطبة: «حلمت أيها السادة النوفجوروديون حلمًا سيئًا. مرت بي في الحلم فترات حكم حكومات المقاطعات، ثم حكم مجلس ممتلكات الدولة... حل عليّ الحلم ككارثة إلى درجة أنني لا أعرف ما الأنبل بالنسبة إليّ: أن أُعْرِق نفسي أم أشتقها؟». لكن عندما رأى النوفجوروديون أن أميرهم يتمتع بعقلية حرة لموا الصمت، وفكروا في أنفسهم: الاختياران ليسا سواء؛ قد تتمزق عقدة جبل المشنقة، وقد يجف في الماء. بماذا ننصحه؟ تمتم جوتوميسل: إمم! وأسلم الروح! حينها تقدم جاديوك ذو النية الحسنة وأجاب باسم الجميع: «في رأيي سعادتكم، إذا نُفِّذ البرنامج كله لاحقًا فلن يكون هناك داعٍ لتغرق نفسك أو تشنقها». استغرق روريك في التفكير، وأعجبته كلمات جاديوكين، ولكن من ناحية أخرى فكر: الفترة المحلية - الفترة الموسكوفية - الفترة التترية... أمر سيئ! كيف يمكنه أن يُدبّر الأمر بحيث يلقي بالذنب كله على كاهل النوفجوروديين. قال: «أخي العزيز! سيُكتب في جميع الكتب المدرسية أن هذه الأمور تمت بسبب روريك! سيحفظ جميع الدارسين في المؤسسات التعليمية أن روريك وعد أن يسرق بحسب القانون وهذا ما حدث!». أصر جاديوك ذو النية الحسنة: «لا تهتم بذلك! دعهم يحفظون ما يشاءون! أنت وحدك يا صاحب السعادة من سيمسك بزمام الأمور، وستكون واثقًا بأنك ستظل في مكانك هذا لألف سنة». حينها سُر روريك وقال: «لقد حلمت بذلك فعلاً...»، وقاطعه جاديوك

قائلاً: «حتى الفنان ميكيشينا حلم بذلك، ولكن من تواضعه صمت. ما رأيكم إذن أيها السادة النوفجوروديون؟ ألن تبصق يا سيدي على هذه المخاوف؟». كرر جاديوك: «فلتبصق عليها!». مرة أخرى تعجب أهل نوفجورود من حكمة جاديوك وصاحوا بصوت واحد: «فليبصق!». أمسك روريك بزمام الأمور وقال: «كما ترون!» وبدأ يسلك بحسب القانون!.

اختتم أوتشيشيوني حديثه: «وكان هذا أول سلف لنا يتسم بالموثوقية»، ناظرًا إلينا نظرة انتصار، مقاطعًا أحداث القصة ليتأكد من الانطباع الذي تركته فينا سلالته.

اختلف الانطباع بيننا؛ بالنسبة إلى بالالايكين، فقد صدق الحكاية على الفور وشعر بالإطراء من أن رجلاً صاحب مقام رفيع وقديم كهذا يزوره، ودلالة على إخلاصه الموقر أمر بتقديم الشامانيا. أما جلوموف فتعامل مع الأمر كعادته بلا مبالاة، بل وبتشكك. لكني... لكني تذكرت! قلت لنفسني: كان هناك شيء... كان هناك شيء ما في مكان ما في الماضي على دكة المدرسة! توجهت إلى صديقي: «جلوموف! ألم تتذكر؟».

ما إن لفظت العبارة حتى تذكرت فجأة! نعم، هو! هو! يا إلهي! ونحن لا نزال في المدرسة أجبرونا -أنا ورفاقي في الفصل - على كتابة مقال عن موضوع: «الحلم المقدس لروريك!» يا إلهي!

- جلوموف! أحقًا لا تتذكر؟ كنا حينها لا نزال نتنافس؛ تؤكد أن الاجتماع الشعبي قد حدث في وقت الشروق، بينماؤكد أنه حدث

إبان الغروب ونقول: «عند ضفاف فولكوف المنحدرة تدرجت موجات موحلة». ألا تتذكر؟ كنا نقول: «خوذة روريك الذهبية ينكسر عليها شعاع الشمس». ألا تتذكر؟ حتى أفير كييف كتب، مُصورًا موت جوتوميسل: «الدموع تنهمر بهدوء على وجنته». أحمًا لا تتذكر؟

في ضوء هذه الإشارات الواضحة تغيرت حال جلوموف جلية. شعرنا بالمرح والسعادة. تحت تأثير هذه المشاعر المتدفقة نهضنا من أماكننا وتبادلنا القبلات.

- أُنذكر! أُنذكر كل شيء. أُنذكر «خوذة روريك» و«الدموع تنهمر على وجنة جوتوميسل». أُنذكر! أُنذكر! أُنذكر! (أُكّد جلوموف في بهجة). أريد فقط أن أسأل يا أخي: أليست هذه الحكاية مقتطفة من مارثا بورتسكايا^(٧٧)؟

- آه يا عزيزي! نعم، من حلم روريك النبوي تحديدًا. أخبرني المؤرخ الجليل نفسه بعد ذلك بهذه الحيلة، لكنه درسها من المصادر! لقد كتب يا أخي لأوفنباخ^(٧٨): «هل من الممكن - كما يُقال - تأليف أوبريت عن هذه الحكاية؟». لو لم يوقفه الموت وهو في أوج إنتاجه...

- وماذا تعتقد؟ هل تصلح هذه الحكاية لأوبريت؟

(٧٧) وفقًا للأسطورة والتقاليد التاريخية، قادت مارثا بورتسكايا كفاح جمهورية نوفجورود القديمة ضد موسكو في الفترة الممتدة بين وفاة زوجها والضم النهائي للمدينة من قبل إيفان الثالث في روسيا عام ١٤٧٨.

(٧٨) مؤلف موسيقي فرنسي من أصل بروسي.

- يا لها من حكاية! يا لها من حكاية! آه لو نفذها أوفنباخ كما يجب! تصور مثلاً جوقة بومبادور^(٧٩) أو جوقة قادة الشرطة! أو ربما حتى جوقة المحققين القضائيين في القضايا المهمة! هكذا يكون الأمر! - عظيم! وماذا يمكنني أن أقول! نعم يا أخي، كان هذا المؤرخ الجليل إنساناً رائعاً. لقد فهم كل شيء؛ بداية من العلم وانتهاء بالموسيقى. عرف أيضاً التاريخ الروسي بدرجة يصعب تصديقها. اعتاد أن يحكي كيف تقاتل المستيسلافيون والروستيسلافيون، وكان هو نفسه شاهد عيان. أغلى شيء فيه هو أنه لم يكن يسعى إلى أي طرف. يقول لي: الأمر سواء إذا هزمت مستيسلاف روستلاف، أو هزمت روستيسلاف مستيسلاف لأن كل ما يشغلني هو انشغالي بالتاريخ أو ما أستطيع استخلاصه منه.

- نعم، في واقع الأمر...

باختصار كانت الذكريات لتجرفنا قطعاً بعيداً لولا أن تذكر أوتشيشيوني أنه لا يزال لديه الكثير ليحكيه. بعد ذلك أكمل قائلاً: «تشكلت الحكاية الأخرى عن أصل أسلافي في حضن المدرسة التاريخية التحقيقية، وبالرغم من أن بارتينيف^(٨٠) من موسكو هو رائدها فإنها تطورت ونضجت حقاً هنا في سان بطرسبرج. تقول هذه

(٧٩) جين أنطوانيت بواسون، ماركيز دي بومبادور والتي تعرف أيضاً باسم مدام دي بومبادور، كانت سيدة أرستقراطية مثقفة أثرت بشكل كبير في النواحي الثقافية والفنية والسياسية في البلاط الفرنسي، وكانت عشيقة لويس الخامس عشر في الفترة من ١٧٤٥ حتى وفاتها.

(٨٠) بيوتر بارتينيف: مؤرخ روسي.

الأسطورة بإيجاز: جاديوك الأول كان من الأوردا^(٨١)، وقد عرف -بأمر من السلطات- الإله الحقيقي، وكان عرابوه اللواء أنشاياني^(٨٢) والأمير فيترخفوستوف^(٨٣). وقد توفرت مذكرات الأخير التي قدمها أحفاده لجريدة «روسكايا ستارينا»، ولا شك أنها ستلقي الضوء على هذا الحدث الرائع.

لن أقول أيًا من هاتين الحكايتين ترضي كبريائي بدرجة أكبر، فكلتاها لم تمنعني عن أن أصير محررًا مستقلًا لجريدة «كراسا ديميدروفنا». لم أتحدث عن أسلافي بغرض التباهي، فلا بد أن لكل واحد منكم سلفًا لا يقل عن ريديدا^(٨٤)، لكنني فعلت ذلك لسبب واحد، لأوضح النتائج المفيدة والمفاجئة في الآن ذاته التي يمكن أن يؤدي إليها البحث الموثوق عن أصل آل جاديوك!

أما ما يتعلق بأسلافي اللاحقين فيتفق مؤرخو موسكو وسان بطرسبرج بشأنهم. أحدهم نتفوا لحيته وآخر حطموا أنفه وثالث جلدوه بلا رحمة. إلا أن البعض نجوا وحصلوا رواتبهم من أهل القرى حيث نتفوا بدورهم لحى البعض وحطموا أنوف البعض الآخر وجلدوا فريقًا ثالثًا بلا رحمة. باختصار: مضى كل شيء في أصلي بحسب ترتيب

(٨١) دولة متعددة الجنسيات من القرون الوسطى على أراضي وسط أوراسيا، وحدث قبائل وشعوبًا وبلدانًا عديدة مختلفة.

(٨٢) الكلمة تعني: يائس.

(٨٣) الاسم مشتق من كلمة بمعنى مغناج أو عابث.

(٨٤) أمير كاسوجيا وهي قبيلة شركسية من شمال القوقاز.

الأنساب المعتاد مثل كل جاديوك^(٨٥) بشكل عام، من الصخور الفنلندية الباردة وحتى لهب كولخيس^(٨٦). لكن في النصف الأول من القرن الماضي، في عصر يليزافيتا، طراً حادث مهم. بينما كان جدي الأكبر الجنرال بروكوفي جاديوك ثملاً ألقى خطاباً غادرة، ولم يقتصر الأمر على أن ابنه أرتامون لم يلزم الصمت وحسب، بل إنه قدّم أيضاً للسلطات دليلاً واضحاً على خيانة أبيه. أدى هذا العمل اللطيف المخلص إلى نفي بروكوفي، وعوقب بالجلد وقطع اللسان، وسجنوه في بيريزوف، أما أرتامون، فقد وهبوه العطايا؛ بعد أن ألغوا كنيته القديمة «جاديوك»، وكأنها كناية عن خيانتته، تغيرت إلى أوتشيشيوني. من هنا جاء اسم آل أوتشيشيوني، وليس على الإطلاق من نوع الفودكا الذي بهذا الاسم.

شيد آل أوتشيشيوني عشاً لأنفسهم في مقاطعة ليديان التي اشتهر مثقفوها بحسن الضيافة وحب لعب الورق؛ وقد ساعد على ذلك بشكل خاص وجود سوق سنوية في المدينة وقربها من مياه ليبيتسك المعدنية. لم يستطع بالطبع أبي أن يقاوم المزاج العام. ابتسم القدر له. ظل منزلنا مشيداً على ارتفاع لفترة طويلة حتى إن الزوايا النائية من مقاطعة تامبوف، مثل مقاطعتي يلاتومسك وشاتسكي، كانوا يفخرون بآل أوتشيشيوني. مع ذلك يجب أن أعترف أنه في عام ١٨٣٠ انتهى أمر أبي بعد أن تلقى ضربة بشمعدان على صدغه، وبدد كل ما يملك عدا ثلاثين نفساً صار واجبهم أن يرعوا شبابي.

(٨٥) فلنلاحظ أن المؤلف يتلاعب بمعنى كلمة «جاديوك»: أفعى - ثعبان سام - خبيث.

(٨٦) دولة ومملكة ومنطقة جورجية قديمة قامت في غرب جورجيا، ولعبت دوراً مهماً في التشكيل العرقي والثقافي للأمة الجورجية والمجموعات العرقية التي لها علاقة بهم.

كنت حينها في العشرين، وخدمت كفارس في الجيش في فوج فرسان بيلوبرودوفسك...».

أحنى أوتشيشيوني رأسه وصمت. أحزنه فكرة أنه تقيم في ١٨٣٠. صحيح أن الدموع لم تظهر، ولكن كان بالإمكان رؤية نوع من الارتعاش العصبي في الشفاه كما يحدث مع إنسان تكشف له غريزته أن كأس خمر إنجليزية مُرّة هي وحدها ما ستجلب له الراحة. بالفعل ما إن أُشبعَت رغبة العجوز الموقر حتى هدأ وأكمل حديثه قائلاً: «لقد تلقيت تربية كلاسيكية ولكن من دون تعلم اللغات القديمة. في ذلك الوقت كانت هناك وجهة نظر خاصة حيال الكلاسيكية: كل من يستطيع معاملة النساء بذوق، ويعرف أن كوكب الزهرة يُطلق عليه أيضاً أفروديت، له الحق في أن يُطلق على نفسه: «كلاسيكي». كل شيء آخر أكثر جدية، مثل: «يا للزمن! يا للأخلاق!» - «يكفي الحكيم...» - «ليكن القناصل على أهبة الاستعداد»^(٨٧)... إلخ مما تتزين بها أعمدة جريدة «كراسا ديميدروفنا»، فقد تعلمته لاحقاً من جريدة «موسكوفسكي فيدوموستي» (الأنباء الروسية).

سرعان ما تبعت الأم الوالد إلى القبر. لم يعد لدي سبب لبقائي في الفوج وقررت الاستقالة والسكن في القرية. ولكن ثلاثين نفساً، حتى في هذا الوقت، لا توفر للمرء سوى الخبز والكفاس، وقد أفسدتني التربية الكلاسيكية لدرجة أنني لم أستطع التحكم في شهواتي. لم تكد

(٨٧) العبارات مكتوبة باللاتينية وهي استشهادات قديمة لشخصيات شهيرة؛ الأولى مثلاً مقتبسة من إحدى خطب شيشرون.

خمسة أعوام تمر على عيشي في الضيعة حتى بدأ التحقيق ثم المحاكمة، وأخيراً صدر حكم وُضعت بموجبه تحت الوصاية وحُظر عليّ دخول الضيعة. لكن تبين بعد ذلك أن هذا أمر غير ضروري لأنه في هذه الأثناء بيعت ضيعتي في مزاد علني وفاءً للديون.

بقدر ما أتذكر الآن لم يتبقَّ معي سوى خمسمائة روبل. تذكرت والدي وذهبت إلى السوق السنوية في فولخوف لأصنع صفقة بمالي، ولكن يا للأسف! التواجد لفترة طويلة قيد التحقيق والتعرض للمحاكمة أتلف وجودي! لم يظهر عقلي أي براعة وشلَّ وجل قلبي سرعة حركة يدي. تلاشى المال واصطحبني شركائي في حالة اقتضى الأمر فيها المكوث لنصف عام في مصحة المدينة.

لماذا كل ذلك؟

بعد ذلك اقتصرت معاناتي لبضعة أعوام على إصابات جسدية وحسب. لن أقول إنني عانيت من الحاجة. اخترت وقتها الرغبة في إلحاق الأذى بجاري على نطاق واسع، ودفعت قدرًا كبيرًا من المال لتحقيق ذلك، ولكن لم أشعر بحاجة واحدة حقيقية ومستمرة. مرة واحدة فقط أملت في شيء مستقر، وحدث ذلك عندما عيّنوني معلمًا للرقص في سلاح الطلبة العسكريين، ولكن توجب عليّ التزوير؛ أي إخفاء إداناتي الماضية عن السلطات.

بالطبع اكتشفوا هذا التزوير.

سيفاجئكم قطعاً ذلك أيها السادة! في الوقت الراهن، عندما حُلَّت قضايا عديدة ذات أهمية قصوى، حُلَّت معها أيضًا مسألة السمات

الأخلاقية لمعلمي الرقص! أثبتت صحافتنا الحرة بوضوح ناصع أن أي سجل جنائي لا يمكنه أن يمنع صاحبه عن تنفيذ هذه الواجبات الخاصة الموكله إلى سادة الرقص وعازفي البيانو، ومنذ هذه اللحظة فصاعدًا دخلت هذه الحقيقة إلى الوعي الجمعي. لكن في هذا الوقت كانوا ينظرون إلى هذا الأمر بقدر أكبر من الحدة، وتطلب الأمر من معلمي الرقص سجلًا أخلاقيًا لا تشوبه شائبة لا يطلبونه الآن إلا من أصحاب الحانات.

هكذا اكتشفوا التزوير، وتوجب عليّ ترك الوظيفة الرسمية إلى الأبد. لولا هذا لا أحد يعرف أي مستقبل كان لي تنظرني! كان لومونوسوف^(٨٨) مجرد صياد بسيط لكنه مات عضوًا في مجلس الدولة. لكن نظرًا لأن القدر لم يسمح لي بالوصول إلى أعلى المناصب، قررت أن أصير عازف بيانو. عرفت زوجتي مالخين في هذه الأثناء كما عرفتكم أيها السادة، وهذا وحده ما يُحلّي مرارة ذكرياتي. في هذه الردهة، وفي هذا الموضوع تحديدًا الذي ينتصب فيه بيانو السيد بالالايكين...».

لم يتمالك جلوموف نفسه أكثر من ذلك وقال:

- إيفان إيفانيتش! عزيزي! اعزف لنا كادريل «تشيجيكا». اعزف بجد كما كنت تعزف وقتها!

وافق العجوز الطيب قائلاً: «بكل سرور».

جلس إلى البيانو، ويبد مرتعشة بدأ يستعيد اللحن المنسي الذي

(٨٨) عالم روسي مشهور، مؤسس جامعة موسكو الحكومية.

لا يزال غالبًا «تشيجيك». عزف كما كان يعزف حينها من دون ادعاء براعة فنية في العزف، وكما يعزف العازفون عادة في بيوت الأسر النبيلة حيث يجتمع حشد من الشباب المبتهجين؛ يستندون إلى ظهور المقاعد ويميلون رؤوسهم قليلًا إلى أحد الجوانب. عزف آنذاك بهذه الطريقة، راغبًا بوضوح في أن يُبين للضيوف أنه بالرغم من كونه عازف بيانو فإنه في الوقت ذاته إنسان نبيل. تذكرنا -أنا وجلوموف- الماضي ورقصنا قليلًا. بعد أن انتهى من عزفه واصل حديثه قائلاً:

«عرفت مالخين عند داريا سيميونوفنا. كانت فتاة متواضعة وبضياء اللون لكنها ليست بارعة الجمال، ولذلك لم يُرد أحد الرقص معها. لكني أدركت مدى رغبتها في الرقص، وذات مرة، عندما انصرف الضيوف، اقتربت منها وقلت: «مالخين! لنرقص معًا!» وأجابتنى: «موافقة».

كانت هذه أسعد لحظة في حياتي لأنه تبين أن مالخين ادخرت مائة روبل، وعلاوة على ذلك أعطتها داريا سيميونوفنا ملعقتين فضيتين. وجدت أناسًا طيبين آخرين؛ بعض الضيوف، وأنت منهم يا سيد جلوموف، جمعوا مالًا معًا واشتروا لي حلتين. لم نعيش في رفاهية لكننا عشنا في وفاق حتى إنه بعد مرور شهر على الزفاف حظينا بابتنة.

لكن سرعان ما حدث أمر أفسد سعادتنا؛ ماتت داريا سيميونوفنا الطيبة. تتذكران بالطبع أيها السيدان أي أثر مروع تركته هذه الخسارة المفاجئة في أنفس الضيوف، لكن الأثر بدا مضاعفًا بالنسبة إليّ. بضربة واحدة فقدت صديقة، ومصدر رزقي الوحيد. لكن العناية الإلهية ساعدتني هذه المرة.

أولاً: تبين أن مالخين قد ادخرت مائة روبل أخرى. ثانياً: توطدت سمعتي كعازف بيانو بقوة، حتى إن الدعوات انهالت عليّ من كل بيوت زقاق فونارني. في الوقت ذاته كَرَمَني قسم الحي بأن أسند إليّ مهمة سرية تتعلق بالسياسة الداخلية.

كان هذا وقت هياج عام، وراود رؤساء القسم قلق شديد من اهتزاز الأسس الذي نجم عن ثورة فبراير^(٨٩). لكن أين يمكن مراقبة الحالة المزاجية العامة إذا لم تكن في دروس الرقص؟ ومن يمكنه أن يكون قاضياً أكثر كفاءة في هذا الأمر من عازف البيانو؟

أعرف أنهم يتجاهلون الآن عازفي البيانو، ويفضلون عليهم فيما يتعلق بالسياسة الداخلية المواطنين من أصول غير سلافية. لكن في رأيي هذا خطأ. أولاً: يرضى عازف البيانو بمكافأة صغيرة؛ على سبيل المثال: كنت أتلقي عشرة روبلات وحسب شهرياً، وكنت مخلصاً. ثانياً: لا يتسم بهذا الشطط الذي يتسم به المواطنون من أصول غير سلافية. ثالثاً: هو خجول حتى إنه لا يلجأ إلى اختلاق الحكايات إلا في الحالات القصوى، وبذلك لا يضلُّ السلطات. في كل الأحوال لم أرشد خلال خمسة أعوام إلا عن اثنين فقط، ولم أفعل ذلك إلا بسبب مطالبة كاتب القسم الملحة. على العكس من ذلك، ينال المواطن من أصول غير سلافية راتب مشير تقريباً، ويحاول أن يثبت أحقيته لهذا

(٨٩) إحدى موجات ثورات عام ١٨٤٨ في أوروبا. أدت الأحداث الثورية في فرنسا إلى إنهاء ملكية يوليو وإنشاء الجمهورية الفرنسية الثانية. عقب الإطاحة بالملك لويس فيليب الأول في فبراير من عام ١٨٤٨، حكمت الحكومة المُنتخبة للجمهورية الثانية فرنسا.

الأجر، ومن ثم يضع رؤساءه في كل لحظة في وضع صعب بسبب نياته الخبيثة.

هذا أمر شائن في رأيي.

أكرر: لم أحيي في ترف، لكنني كنت راضيًا. لكن في العام الثاني عشر من حياتي الزوجية السعيدة أظلمت شمس حياتي مجددًا، ولكن هذه المرة لم يستمر الأمر طويلًا. في البداية هربت مالخين مع عازف الأرغن اليدوي بعد أن سرقت كل مدخراتي، وبعد عام واحد ماتت ابنتي. انهار كل شيء مرة واحدة: المحبوبة والأمل في التمتع بمساعدة ودودة في فترة الشيخوخة وحلاوة الحب! صرت وحيدًا في مواجهة البيانو. في الحقيقة تبقى لي عزاء واحد: لم يتوقف القسم عن تكريمي بإيلائي ثقته، ولكن منذ خمسة أعوام أبعادوني عن السياسة الداخلية! وجدوني لا أتمتع بالفطنة والحدق الكافيين، وبشكل عام لا يمكنني أن ألبى متطلبات الزمن، وأعطوا وظيفتي لأحد المواطنين من أصل غير سلافي: كشيبيتسيولسكي...».

صحت أنا وجلوموف في صوت واحد:

- كشيبيتسيولسكي! لكن هذا هو صديقنا! هذا شريكنا في لعب الورق! وأخيرًا هو مرشدنا في طريق إثبات حسن نياتنا.

أجاب أوتشيشيوني:

- نعم، هذا هو. هكذا يسلك دائمًا. في البداية يقدم نفسه كقائد، ثم يتفوق في اللعب شيئًا فشيئًا، وفي النهاية يخون! آه أيها السادة! قليلون

منكم تعلّموا حقًا. أنتم لا تعرفون كيف يجب السلوك بحذر في هذه الأمور.

- أمر غريب! لماذا نحذر منه ما دامت قلوبنا نقية؟

- حتى مع وجود القلوب النقية يمكن للمرء أن يشكو! دعني أحكي لك عن أمر حدث في حضوري في الحمام العام. كنت أستحم وفي هذه الأثناء يتواجد أحد الشباب على مقربة مني والسيد رئيس القسم في حمام بخار. كما تعرفون بالطبع، في الحمام العام، لا يمكن للمرء أن يميز المناصب، فكل ما رأيته كان شابًا ومياهاً ساخنة! ولترصّ حينها بالقليل أو ينعدم! اللعنة! أي دولة هذه التي لا يستطيع فيها المرء أن يغتسل بالترتيب! باختصار، أطلق الشاب هذه الدعايات السلبية لتصل إلى عنان السماء! وماذا حدث؟ ما إن نطق الشاب هذه الكلمات حتى وجد السيد مدير القسم وقد ارتدى زيه الرسمي كاملاً، بسيفه وقبعته وكل شيء، وقال له: «كرّر رجاء ما قلته!». وماذا حدث في ظنكم؟ ظل الشاب لأربعة أعوام بعد ذلك يتخطب بين المحاكم ويحاول إثبات طهارته.

- أوف!

- لهذا أقول إنه لا يجب على المرء أن يفرح بكل علاقاته؛ خاصة اليوم. في السابق عندما تولى عازفو البيانو مسؤولية السياسة الداخلية كانت الأجواء أكثر أمناً. فما الذي سيهم عازف البيانو فيما تقوله؟ كل ما عليك هو أن تضع أمامه زجاجة جعة وسينسى كل شيء. وإذا لم ينسَ يكون الأمر أفضل، فهو بنفسه سينخرط في الحديث. في الحقيقة

يقولون لك: تفضل يا سيد بالتحدث! إذا فعلنا ذلك لا يكون حسنًا،
والعكس سيئ أيضًا. باختصار: وضع مربك! لا يتوجب علينا أن ننافس
السلطات! لماذا؟ لأن السلطات يا سيدي تمسك في يديها الرزق، وإذا
حدث مثلاً أن... حسنًا، باختصار، تنظر بهدوء واتضاع وإذا بالمتحدث
يخفف من حدة حديثه. لقد كان مُضللًا، وبعد أن يشرب زجاجة أخرى
 ويدخل إلى رحم المشاعر الحقيقية يسلك كما يجب، ويصير الجميع
بخير؛ هو والسلطات وأنا عازف البيانو!

- كشييشيتسيولسكي هذا يا أخي، منذ شهر واحد فقط، كنا نطعمه
ونسقيه ونلعب معه الورق. لا بد أن يفهم ذلك!

لكن أوتشيشيوني لم يرد، واكتفى بهز رأسه في تشكك. قال بعد
ذلك:

- لا، فقلبه مليء بالاعتزاز. لا، لا وألف لا! أفضل ما يمكن فعله
هو طرده!

- وهل تعتقد أنه سينال مديحًا على ذلك؟

- إذا كان لديك النفوذ فلن يهتمك شيء. سأخبرك عن النفوذ: في
عام ١٨٣٦ دخل أحد الشباب حمام النساء وأفلت من العقاب. كل ما
فعله هو أن قدّم اعتذارًا إلى السيدات في اليوم التالي.

هكذا قررنا أننا سننتهز الفرصة المناسبة ونطرد كشييشيتسيولسكي
شر طردة ثم نعتذر له لاحقًا. واصل أوتشيشيوني حديثه قائلاً:

«ربما كنت سأظل عازف بيانو حصرًا إلى الأبد لولا أن أعدني

القدر لتجارب جديدة. أعلنوا عن حاجتهم إلى محررين مستقلين، وبالمناسبة، صاحب هذه المؤسسة الترفيهية التي كنت أتلقي فيها دروسًا مسائية فكر في تأسيس قسم يختص بالدفاع عن صنوف المجنون المختلفة. بعد أن عرف أنني تلقيت تربية كلاسيكية توجه تلقائيًا إليّ، وللأسف الشديد لم أقبل عرضه وحسب، بل التزمت معه بعقد أيضًا.

لكن مغامراتي لم تتوقف عند هذا الحد. بعد ذلك سرعان ما انتبهت ماتريونا إيفانوفنا إليّ. كنت أعرفها منذ زمن بعيد، فقد كانت في زمنها منافسة لداريا سيميونوفنا في المجال التربوي، وعُرف عنها أنها امرأة محترمة تركت العمل برأسمال جيد وعقدت العزم على افتتاح مكتب عام للقروض. فجأة تبدأ هذه المرأة بالذات في التحدث وتقول لي إنها ليست سعيدة برحائها هذا!

ذات يوم كنت جالسًا في إحدى زوايا «الدورادو»، أشرب البجعة، مشغولًا بجمع مواد العدد القادم من الصحيفة. نظرت وإذا بها تجلس بجانبني. قالت إنها تريد أن تفتتح مكتبًا عامًا للقروض، وسألني عما إذا كنت أوافقها على نيتها هذه. قلت لها إذا كان لديك رأسمال فتوكلي على الله. قالت: لدي، ولكن سيتعين عليّ في هذه الحالة أن أتحدث مع الناس، وأنا - بوصفي امرأة - لا أستطيع أن أحكي شيئًا بنظام! قلت لها: لهذا السبب تحديدًا تحتاجين يا سيدتي إلى رجل. قالت: نعم، أحتاج إلى رجل!

سرى شيء بيننا. تفحصتني وبدأت راضية، وتفحصتها، وقلت في نفسي إنه بالرغم من تقدمها في العمر، لا خلل واضح فيها. يسيل من

عينها اليمنى شيء... كانت حادثة تربية مع أحد الضيوف، ولكن ما حاجتي إلى العين؟! وصلت إلى المنزل مستغرقًا في التفكير. لم أتوقع ذلك ولم أخمنه، ولكن ماذا يمكن أن يُقال؟ إنها تقلبات الزمن!

تزوجنا، وفي طريق عودتنا من الكنيسة إلى المنزل التقى بنا فجأة «شاب»! كان يرتدي مبدلاً، وقد حلق وجنة، والأخرى لا يزال الصابون يملأها. الوغد لم يرغب حتى في ترتيب مظهره!

منذ هذا الحين فصاعدًا تقاسم معنا هذا الشاب باستمرار سعادتنا الزوجية! يقضي وقته في تبطل ويُظهر ميلاً إلى الخردوات. ما دام بقي في المنزل تعاملني ماتريونا إيفانوفنا معاملة حسنة وتعفو عن سلفياتي. لكن في بعض الأحيان يختفي لأسبوعين أو ثلاثة، ويختفي معه بالطبع المعطف المصنوع من جلد الراكون. حينها تدفعني ماتريونا إيفانوفنا إلى البحث عنه، ولا تدعني أعود إلا عندما أحضر الشاب، وبالطبع لا يكون معطف الراكون معه.

الآن أمر بإحدى هذه اللحظات الصعبة. اختفى الشاب صباح اليوم، ولم يأخذ معه معطفًا واحدًا، بل اثنين، ونتيجة لذلك أرى نفسي بلا مأوى لفترة غير محددة. هذه حقيقة حياتي!».



جلوموف الذي اعتاد الاندفاع لم يستطع تمالك نفسه هنا. ما إن أنهى أوتشيشيوني قصة حياته حتى صاح:

- إيفان إيفانيتش! فلتنزل عندنا! إلى ماذا تحتاج؟ حساء ملفوف؟ لدينا! كأس فودكا؟ ستجدها!

وقال بالالايكين من جانبه بسماحة قلب:

- وإذا تطلب الأمر - بحسب ظروفك - أي شهود زور فستجدهم دائماً عندي هنا، ومجاناً!

- يا إلهي! تحالف رباعي؟!

صحت في سعادة وأنا لا أكاد أستطيع مواكبة تيار الدوافع السخية هذا.

بغض النظر عن تماسك العجوز الطيب، ولكن عندما رأى هذا التعبير الجمعي عن التعاطف معه لم يتمالك نفسه من البكاء. أمسكنا بأيدي بعضنا وتعهدنا أن نساند ونؤازر بعضنا بعضاً دائماً في طريق النيات الحسنة، وأخلصنا في تعهدنا إلى حد أن امتلأت الغرفة برائحة تشبه رائحة زريبة الماشية فور أن نطقنا الكلمة الأخيرة من التعهد.

اعتبر جلوموف أن من واجبه أن يشرح موقفه وموقفي فقال:

- لا بد أن أقول لك يا عزيزي إيفان إيفانيتش إن دعمك هو أمر
ثمين جدًا بالنسبة إلينا. نحن ليراليون يا إخوة! نحن دلو في فناء. يبتهج
الدلو بالمطر في الفناء ونرى فيه رحمة من الله. نفحص كل موضوع
من مختلف الزوايا. من جانب نجد الأمر حسنًا، ومن جانب آخر نجده
ممتازًا، وإذا وضعنا في الاعتبار أن الإنسان ثرثار فلن يكون هناك ما
نتمناه أفضل من ذلك! فلنبتهج ونأمل ونتنصر ونبارك، وكل شيء فاني.
حتى المارة يتساءلون في تعجب: ماذا بهم؟ هل ضلوا الطريق؟ هنا يا
أخي! يا للخطية! هل فهمت قصدي؟

إلا أن أوتشيشيوني تحير.

قال بحصافة:

- اسمح لي أن أشرح الأمر لك. مم تتألف الخطية؟ الفرح... الفرح
غير ممنوع، أليس كذلك؟ لو قلت مثلاً إنني لكوني عازف بيانو انخرطت
في السياسة الداخلية...

- هذا كل ما في الأمر؛ أن نبتهج بنبل ونتوقف! كم نبتهج! نهارًا
وليلًا! ليلًا ونهارًا! في المنزل وفي الزيارات وفي الحانات، شفاهة
وطباعة! لا نقول إلا: حمدًا لله! لقد عشنا! تغلبنا بأفراحنا على خوف
القسم كله!

وضّحت بدوري:

- المهم في الأمر أن فرحتنا اتخذت طابعاً لا يُحتمل، حتى إن الكثيرين اعتبروها نوعاً من التدخل.

- أفهم. الأمر يعني ما عبّر عنه الراحل تاديوس فينيديكتوفيتش^(٩٠) حينما قال: لا موافقة ولا لوم! كُل واشرب وابتهج!

- هكذا هو الأمر. جيد أننا فهمنا الأمر سريعاً. رأينا أن بهجة أفراننا لم تتقد، ومن دون تردد انطلقنا في طريق النيات الحسنة. بدأنا نتزّه فيه، نأكل الطعام ونحشو السجائر وتوقفنا عن التفكير. رويداً رويداً بدأنا نرى الفوائد. في وقت قصير أجرينا تحسينات كثيرة على أنفسنا حتى إننا الآن لا نفعل شيئاً سوى الجلوس وإغماض أعيننا. هل هناك ما هو أفضل من ذلك؟ ما رأيك؟

- ماذا يريد المرء أكثر من ذلك؟ يرمش بعينه وإذا به يصيب الهدف!

- لكن اتضح أن هذا لا يكفي، ونحن أنفسنا نعترف بأنه لا يكفي. الأمر جيد ولكن لا تزال هناك مشكلة. كما ترى، لا يزال هناك قدر كبير من الضراوة فينا. نمكث في المنزل، لا نرى أحداً، نلف السجائر. هل هذا ما يفعله أصحاب النيات الحسنة الحقيقيون؟ لا، الإنسان حسن النية الحقيقي يرمش بعينه، وهذا في حد ذاته يشير إلى بعض السمات الفعالة.

أخذنا نفكر ونفكر، وقررنا تنفيذ مبادرة واحدة نختمم بها إثباتنا

(٩٠) كاتب وصحفي وروائي روسي من أصل بولندي.

لحسن النية، حتى لا نكتفي بالكلام والفكر، ولكن نعلن نيتنا الحسنة عبر الأفعال.

انفجر جلوموف فجأة وتوجه إلى بالالايكين، وسرعان ما صعقه بسؤاله:

- بالالايكين! أجبني إجابة مباشرة ولا تكذب: هل أنت متزوج؟
ارتجف بالالايكين للحظة ولم يستطع أن يكذب. أجاب بصوت خافت، ناظرًا إلى جلوموف في ارتباك:
- متزوج!

- وما رأيك في الجمع بين زوجتين؟
احمر وجه بالالايكين بشدة. صاح في مرح: «بشكل عام يمكنني فعل ذلك»، ولكن سرعان ما أضاف من دون أن يفقد سرعة بديهته: «ولكن بشكل خاص يعتمد الأمر على...».

- لننهِ الأمر بكلمتين: ألف روبل؟
- يا عزيزي! هل أنت مشارك في قضية بارامانوف؟
- نعم.

- عذرًا ولكن إيفان تيموفيتش سبق ووعد بثلاثة آلاف من دون مزيد من المساومات!

- هكذا كان السعر لكن الآن الأمر مختلف. في ذلك الوقت كان القناصون قليلين، أما الآن فلا حصر لهم. كل القناصين عازبون ولا شيء يعرفهم. المطلوب الآن الجمع بين زوجتين.

ذرع بالالايكين الغرفة ثلاث أو أربع مرات. فاجأه المبلغ، ومن الواضح أنه ظل يجاهد نفسه ويحسب الأمر. أخيرًا قال بحسم:

- يستحيل أن أقبل أقل من ألفين. عذرًا أيها السادة! ألف روبل؟ وهل هذا مال؟

حاول جلوموف إقناعه:

- أنت تفهم جيدًا ما مقابل هذا المال. هل سيتطلب منك الأمر أي مجهود؟ تذهب قبل الزفاف ربما زيارتان أو ثلاث، فهل هذا عمل؟ سيطعمونك ويسقونك، بل ويعطونك أيضًا قطعتين ذهبيتين أو ثلاثًا مقابل الزيارة، وهذا فوق الحساب بالطبع! ما الأمر؟ هل تخشى الزفاف؟ وهل سيكون زفافًا حقيقيًا لتخشاه؟

- وهل نسيت ما سيحدث بعد ذلك؟

- ماذا سيحدث بعد ذلك؟

- أنسيت المحكمة؟

- غريب أنت يا أخي! محامٍ وتخشى المحكمة؟

هنا رأيت أن من واجبي أن أتدخل. قلت:

- بالالايكين! لم يحدث شيء بعد وتحدث عن المحكمة؟ اعذرني، ولكن هذه طريقة محامين بحتة. أولًا: يمكن أن يمر الأمر من دون محكمة. ثانيًا: حتى إذا ظهر أي سوء فهم لاحقًا يمكن للمرء أن يتعامل مع الأمر، ولنقل مثلاً بخمسمائة روبل.

- خمسمائة؟ شهود الزور وحدهم لن يشهدوا في المحكمة بأقل

من ٢٥٠ روبلاً. هذا كلام بيننا. بحسب ظروف هذه القضية سأحتاج إلى اثنين مثلاً.

- هذا يعني خمسمائة روبل، فما المشكلة؟

- عفواً، ولكن أين نصيبي أنا؟

- ستحصل على ألف روبل فور انتهاء الزفاف.

- ألف؟ ألف؟ وماذا عن القلق الأخلاقي الذي سيراودني؟ وماذا عن إهدار الوقت؟ هل تُقدّر سمعة الإنسان بألف روبل؟ أليس الألف رقمًا سخيفًا؟ لم يكن رفاقي ليسمحوا لي بأن أمرر الأمر مقابل هذه الألف!

عاد بالالايكين يذرع الغرفة مجدداً، ذهاباً وإياباً، مردداً بلا انقطاع وبمرارة: «ألف؟! ألف?!».

همست في أذن جلوموف: «اجعلها خمسمائة!».

لكن قبل أن يتمكن من اتباع نصيحتي، اتخذ الأمر منعطفاً آخر بدرجة مفاجئة تماماً. أقبل أوتشيشيوني على مساعدتنا. ذكرنا بوجوده بتواضع قائلاً:

- اسمحوا لي. سوف أقبل بخمسمائة!

حسم هذا التدخل المخرب الأمر لصالحنا. استسلم بالالايكين على الفور بعد أن وصل بالمبلغ إلى ستمائة لصالحه في حالة حدوث أي محاكمات. بعد ذلك قدم الشامبانيا واتفقت أنا وجلوموف على أن نلعب دور سائقين في عملية الزواج بالثانية هذه، أما أوتشيشيوني

فسيلعب دور الأب العراب^(٩١). علاوة على ذلك طلب الأخير عشرة روبلات مكافأة له ليؤجر به زياً مناسباً.

بعد الانتهاء من كل هذه التفاصيل طرح جلوموف أخيراً السؤال التالي للمناقشة:

- الآن أيها السادة، دعونا نفترض أن العملية تمت بنجاح. بالالايكين سينال الألف روبل المتفق عليها، وسنستمتع بالوليمة ثم نعود إلى منازلنا. هل سيُسكّل كل ذلك دليلاً كافياً لإيفان تيموفيتش على عدم وجود ذرة من الليبرالية القديمة فينا؟

هنا انقسمت الآراء. أكد أوتشيشيوني، على أساس ممارسته القديمة كعازف بيانو، أنه لن تكون هناك أي حاجة إلى مزيد من الأدلة. على النقيض منه أصر بالالايكين، من واقع عمله كمحام، على ضرورة تنفيذ تزوير آخر. فيما يتعلق بي، بالرغم من أنني كنت أخشى ألا تكون عملية الزواج باثنتين وحدها كافية، فإني أعترف بأن فكرة ارتكاب تزوير آخر أخافتنني. قلت بنبرة متضعة:

- في الواقع يُعد تعدد الأزواج في حد ذاته عملية تزوير، ولكن أَلن يكون الأمر مملاً للغاية - خاصة أنه لا يتوجب على المرء أن يكرر أمراً واحداً مرتين^(٩٢) - أن نرتكب تزويراً واحداً؟ أظن أنه سيتوجب علينا بعدها أن نرتكب تزويراً آخر، وسيكون أبسط.

(٩١) ليست هناك ترجمة مباشرة لهذه الكلمة في العربية. في التراث الروسي الأرثوذكسي يكون هناك شخصان يلعبان دور والد ووالدة العريس أو العروس ويباركانه أو يباركانها، تماماً مثل العراب والعرابة في حالة تعميد الطفل.

(٩٢) باللاتينية في الأصل.

عارضني بالالايكين قائلاً:

- نظرياً أنت محق تقريباً، فتعدد الزوجات ليس إلانوعاً من التزوير،
ولكن تشريعنا يتميز ب...

فجأة برقت فكرة في رأسي. صحت:

- أيها السادة! عم نتحدث؟ فلنعمّد يهودياً^(٩٣)! هذا ما نحتاج إليه!
أفضت هذه الفكرة بالجميع إلى حالة ذهول تام، حتى إن الدموع
لاحت في عيني أوتشيشيوني. قال جلوموف وهو يربت على يدي
بانفعال:

- أتعرف؟ ستُحسب لك هذه الفكرة يا أخي! (ثم أضاف بعد برهة)
صحيح ستكون هناك ضرورة للتزوير، ففي النهاية لن يمكننا تدبر الأمر
من دون صكوك مزورة، ولكن يهودي؟ يا لها من فكرة! يا لها من فكرة!
أتعرف؟ سنختار يهودياً أبيض وضخماً وسميناً من النوع الذي لديه
داخل كرشه أوراق نقدية بدلاً من الأمعاء!

قال أوتشيشيوني:

- لديّ واحد بالفعل، ويرغب بشدة في ذلك.

تابع جلوموف تخيلاته:

- وسنشجعه على تأدية الأعمال الخيرية؛ مثلاً آلات الحياكة
والجوارب...

(٩٣) يشير السياق إلى المصاعب التي عانى منها اليهود في روسيا في هذا الوقت، ومن ثم يرغب بعضهم في التحول إلى المسيحية.

ذكَرَتْهُ:

- ولكن لا تنسَ يا صديقي مصالح التنوير!

- لن أنسى قطعًا. لهذا الأمر أولوية. يُقال إنهم يؤسسون جامعة في سيبيريا. سندفعه إلى تحمل نفقة إنشاء ولو قسم واحد هناك. ما القسم المناسب في رأيكم؟

- أظن أنه سيكون قسم السباب. سيكون رائعًا في سيبيريا!

- رائع! قسم السباب! منذ زمن بعيد وأنا أشعر بالحاجة إلى قسم كهذا. حسنًا، لدينا شيء آخر؛ أن يجهز حملة استكشافية علمية ويمدها بكل الوسائل على الفور. كم من الحشرات والزواحف المختلفة في انتظار أن يلقي العلم الضوء عليها! عذرًا، ولكن حتى عربات السكك الحديدية ينتشر البق فيها في كل مكان.

قال أوتشيشيوني مؤيدًا:

- اسمحوا لي أن أبلغكم بأن لدينا شخصًا في مكتب التحرير يكتب منذ صباه مقالًا بعنوان: «عن البق القطبي»، لكنه لم يجرؤ على نشره.

- لماذا؟

- يقول إن الملاحظات ليست دقيقة بما يكفي. أما إذا أُتيحت له الفرصة ليجوب أنحاء روسيا لأغراض علمية فربما سيتفوق على أجانِب كثيرين.

- ممتاز! وما المبلغ الذي يكفيه في ظنك؟ عشرة آلاف روبل؟

- يا إلهي! بمبلغ كهذا يمكنه حتى أن يذهب إلى أقاربه في مقاطعة

بيرم!

- دعه يذهب! مصلحة العلم تقتضي منا ألا نشفق على مال الآخرين! أليست هناك أي احتياجات أخرى؟ اطلب ما تشاء!

- سأحاول. ما دمنا تحدثنا عن مصلحة العلم، فالسبب يعني السبب! أنا على دراية جيدة بهذا العلم. أليس بالإمكان أن تمنحوني رئاسة هذا القسم؟

- سنضع الأمر في اعتبارنا.

تقدم أوتشيشيوني بعد ذلك ببعض الالتماسات الأخرى ووجد استجابة مشجعة على جميعها من جلوموف. أخيرًا استنفذ يومنا، وأنهى جلوموف الاجتماع وشعر بضرورة أن يقدم ملخصًا قصيرًا عما تم الاتفاق عليه فيه. قال:

- هكذا أيها السادة حللنا كل الإشكاليات التي طرحناها للمناقشة بنجاح. فيما يلي الأمور التي يتوجب علينا فعلها في المستقبل القريب، أولاً: نتعهد بتزويج بالالايكين -وزوجته على قيد الحياة- بفتاة التاجر بارامانوف، وثمة موافقة جماعية على ذلك. ثانيًا: علينا أن نُعَمِّد يهوديًا. ثالثًا: بقدر ما يبدو الأمر مؤسفًا، ولكن لا مفر من التزوير.

توقف لبرهة كأنه يتناول أنفاسه من تدفق الإلهام المفاجئ، ثم واصل:

- اسمحوا لي أيها السادة! إذا توجب التزوير، فيبدو لي أن الأفضل هو إنفاق ثلاثين ألف كمبيالة باسم ماتريونا إيفانوفنا لصالح صديقنا المشترك إيفان إيفانيتش، أليس كذلك؟ هذا واجبنا أيها السادة. هذا

واجبنا الأخلاقي - إذا جاز التعبير - تجاه رفيق وحليف طيب. موافقون؟

بدلاً من الإجابة انفجرت موجة تصفيق حاد. انحنى أوتشيشيوني وشكرني. قال والدموع تترقرق في عينيه:

- ولن يخلو الأمر من فائدة أيضاً لماتريونا إيفانوفنا لأنه سيجبرها على العودة إلى رشدتها.

- رائع! هكذا حسمنا نقطة أخرى.

وأُعلن نهاية الاجتماع.

* * *

عدنا ثلاثتنا من عند بالالايكين، وكنا في أفضل حالة معنوية ممكنة. امتلأت قلوبنا بالإعجاب من جراء فكرة أننا إذا لم نكن قد أكملنا إثبات حسن نياتنا ففي كل الأحوال نحن نسير على الطريق الصحيح صوب تحقيق ذلك. «الآن لا يمكن لأحد أن يززعنا من مكاننا» هكذا أكدت نفسي، مبتسمًا ابتسامة واسعة ومشقة حتى إن الحارس عند الزاوية حسدني، وسرعان ما أسند مطرده^(٩٤) إلى الحائط، وأخرج من جيبه علبة التبغ وقدم لي بعضه.

هكذا مضينا من زقاق فونارني وصولًا إلى ليتيني، وطوال الطريق حرك الحراس مطاردهم كما لو أنهم يرحبون بنا قائلين: «مرحبًا بكم! أنتم في الطريق الصحيح!». وصلنا إلى الشقة وسلمنا أوتشيشيوني إلى البواب وأمرناه أن يصحبه إلى الحمام العام، وتوجهنا مسرعين إلى إيفان تيموفيتش لننقل له الأخبار السعيدة.

أخبرنا الضابط المناوب أن إيفان تيموفيتش مشغول باللجنة المجتمعة في غرفته الآن. لكن نظرًا لأننا خاصته، فلم يقتصر الأمر على أنه لم يتأخر في استقبالنا، بل دعانا أيضًا للمشاركة في الاجتماع فورًا.

(٩٤) سلاح قديم مؤلف من رمح وفأس حرب.

تألفت اللجنة من ثلاثة أعضاء: إيفان تيموفيتش رئيس اللجنة، وبرودينتوف الناسخ، وملاحظ الحريق مولودكين. كان موضوع الاجتماع هو إعداد مرسوم جديد عن «السلوك اللائق للسكان في أثناء حياتهم»، حيث تبين أن القواعد المؤقتة السابقة حول هذا الموضوع امتلأت بمختلف أنواع الغموض والتورية؛ الأمر الذي أدى إلى تنامي السلوك غير اللائق سريعاً.

حيّانا إيفان تيموفيتش قائلاً:

- حسنًا فعلتما بعروجكما. لقد فكرت في أن أرسل في طلبكما. تحمل هذه اللجنة على عاتقها مهمة كتابة مرسوم جديد، ولكن يلزم أن أعتزف بأننا حزانى.

- يعتريني الفضول لأعرف: ما هو موضوع الاجتماع؟

- أن يتحلّى الناس بالسلوك اللائق. بالطبع هناك الكثير من مظاهر الجهل؛ خاصة في شوارع... تجدون واحدًا يسير على اليمين، والآخر على اليسار. البعض يسير والبعض الآخر واقف في مكانه من دون معرفة السبب. نريد إصلاح هذه الأمور.

تساءل جلوموف مخمّنًا:

- هل تعني أنك تريد الآتي: إذا ذهبت إلى اليسار يتجه الجميع إلى اليسار، وإذا توقفت يتوقف الجميع مرة واحدة؟

- لا، الأمر ليس كذلك. من حيث الجوهر هو كذلك، ولكن... كيف يمكنني أن أعبر عن الأمر مباشرة؟ هذا مستحيل يا صديقي! علينا

أن نصل إلى حل للتعبير عن هذه الفكرة بحيث يدرك العاصي أنهم لن ينظروا داخل رأسه وحتى لا يكون هناك قسر ملحوظ في الآن ذاته. نريد أن يبدو الأمر كأن الناس يراعون السلوك اللائق من دون مراسيم، بل هكذا من تلقاء أنفسهم.

- إنها مسألة صعبة. يعتريني الفضول لأعرف كيف ستعاملون معها.

- بالأمس وضعنا الخطوط العامة، والآن نكمل ما يتعلق بالشارع. كتبنا كثيرًا، ولكن يلزم أن أعترف أن الأمر لا يروق لي كثيرًا.

استاء بروديتوف الذي بدا أنه روح هذه اللجنة ومحركها وقال:

- عذرًا يا إيفان تيموفيتش، ولكن ليس بالإمكان فعل ما هو أفضل من ذلك.

- يفتقر الأمر إلى النظام يا أخي. الأفكار جيدة لكنها مفككة. كنت أقرأ الجريدة منذ قليل، ووجدت كل شيء مكتوبًا فيها كما يجب: من ناحية يستحيل عدم الاعتراف بـ... ومن ناحية أخرى يجب أن نعترف بـ... وفي الآن ذاته يجب عدم التغاضي عن... جيد!

أمال إيفان تيموفيتش رأسه واستغرق في التفكير. واصل حديثه:

- ليس لدينا هذا الـ... ليس لدينا قلم حر. يبدو الأمر معروفًا. التزمت طوال حياتي بالسلوك اللائق، ثم اضطررت إلى وصف هذا السلوك اللائق على الورق. كفى!

سأل جلوموف بفضول:

- لكن كيف بدأت العمل في هذا الأمر؟ هل أجريت مثلاً مراجعة تاريخية؟

- أي مراجعة تاريخية تتحدث عنها؟

- كيف ذلك؟ يستحيل إتمام الأمر من دون هذه المراجعة. أولاً: أنت بحاجة إلى مراجعة تاريخية تتعلق بقواعد السلوك اللائق قديماً، وبعد ذلك عليك بمراجعة التشريعات الأجنبية المعاصرة عن هذا الموضوع. بعدها عليك بملخص آراء الحراس والخبراء، ثم ملاحظة تفسيرية وأخيراً تضع القواعد أو المرسوم.

- أهكذا يجري الأمر؟

- بالطبع. اليوم انقضت هذه الموضة. وصار من الضروري تقديم وثيقة تبريرية لكل شيء.

- أرى أن الأمر ليس بهذه الصورة.

تدخل برودينتوف قائلاً:

- اسمح لي أن أخبرك أن طريقتك غير ملائمة في حالتنا هذه.

- لماذا؟

- لنأخذ مثلاً بـ«التشريعات المعاصرة». جيد أن نرى كم هي ملائمة، ولكن إذا تحفظت السلطة على أي شيء فيها...

- عزيزي! دعنا لا نتطرق إلى أمر التشريعات! ببساطة يُقال هناك سلوك لائق في هذا البلد وكفى.

- مستحيل يا سيدي! بغض النظر عما سيحدث لاحقاً، في كل

الأحوال نحن مسؤولون عنها. أقول لك بوجه عام: من غير المحتمل مثلاً أن نحتذي بالسلوك اللائق الأجنبي. يمكن لروسيا بكل اتساعها أن تقدم نموذجاً بنفسها للآخرين. ستعلمهم يا سيدي.

- آه! أليس ذلك هو ما أتحدث عنه؟ لكن من ناحية المظهر... أنت تفهمني: يجب أن نحافظ على المظهر.

- إذا أبدينا اهتماماً بالمظهر فسيكون الناتج سيئاً للغاية. أي مظهر يمكن أن يكون هنا؟ منذ فترة قصيرة عاد أحد سكان عمارتنا من حيث بلاد المياه الدافئة وقال: يعيشون هناك في نظافة حتى إن المرء يخشى البصق. أمر مخزٍ! وهل هذا ممكن هنا؟ أود أن أقدم لك يا سيدي تقريراً شاملاً عن هذا الموضوع.

هنا اندلع جدال، ويجب أن أقول الحقيقة وهي أن جلوموف أجبر سريعاً على الاستسلام. أثبت بروديتوف عبر سلسلة كاملة من الحقائق التي لا تُدحض أن سلوكنا اللائق يقترب بشدة من غير اللائق، وأن هذا سيخلق شيئاً فريداً تماماً وخاصاً بنا وحدنا. علاوة على ذلك، يتسم السلوك اللائق الأجنبي بطابع خارجي حصراً (لا تقسم، لا تغضب... إلخ) في حين أن السلوك اللائق عندنا لا يتألف من مظاهر خارجية، بل يتمثل في الأساس في تذكر المرء لأن الحياة عابرة، وأنه هو شخصياً بمثابة إناء خزفي^(٩٥). مثلاً، يمكن أن نسمح عندنا بالبصق، ولكن يستحيل إلقاء نظرة وقحة. يمكنك الاهتمام بعلم القياس، أما الانخراط في السياسة الداخلية أو مناقشة أصل العوالم فأمر مستحيل.

(٩٥) تشبيه مستمد من رسالة بولس الثانية إلى كورنثوس، إصحاح ٤.

توجه إلينا إيفان تيموفيتش قائلاً:

- إنه يقول الحقيقة يا أصدقائي. صحيح أن لدينا سلوكًا لائقًا خاصًا بنا.

واصل بروديتتوف الظافر حديثه قائلاً:

- يمكنني أيضًا أن أشير إلى أنه مطلوب منا الآن بالمناسبة أن نرسم مخططًا لقواعد السلوك اللائق في شققنا الخاصة، وهنا أسألك: في أي من البلدان يمكنك أن تجد توجيهات شبيهة؟ يستحيل تدبر الأمر هنا من دون هذه التوجيهات.

أكد إيفان تيموفيتش بلهجة رسمية:

- صحيح!

وأجبنا نحن أيضًا:

- صحيح!

طور بروديتتوف فكرته قائلاً:

- الأجنبي وقح! يمضي إلى شقته ويظن أنه في قلعة منيعة. واسمحوا لي أن أسأل: لماذا يظن ذلك؟ لأن السلطة عندهم يا سيدي لا تبالي بعملها، بعكس السلطة عندنا. هناك لا يتدخلون في شيء.

أكد إيفان تيموفيتش:

- صحيح!

وأجبنا نحن أيضًا:

- صحيح!

أضاف إيفان تيموفيتش:

- إنهم مدللون هناك... مدللون للغاية، كالموعظين^(٩٦) بالضبط! سيأتون إلينا، ولكن كم سيستغرق الأمر منا من الوقت والعمل لإعادتهم إلى رشدهم؟ لدي صانع قفازات فرنسي يعيش في منطقتي قلت له مؤخرًا: «أنا أعتزم زيارتك يا ألفونس إيفانيتش!». سألني: «في المتجر؟». قلت له: «لا، ليس في المتجر، بل أريد أن أراك في غرفتك الصغيرة الخلفية لأنظر كيف تعيش فيها وكيف أحوالك وما إذا كنت جمهوريًا وما إلى ذلك». أخذ يحدّق إليّ وقال: «لا يمكن أن تفعل ذلك». يا له من شعب متعنت!

غضبت أنا وجلوموف من أعماق قلوبنا وسألناه:

- وهل تركته حقًا؟

- ماذا تقولان؟ استدرت وتنهدت ومضيت إلى المشتل، وهناك نفذت واجبي. آه يا أصدقائي! آه يا أصدقائي! الوضع لدينا حساس للغاية فيما يتعلق بهؤلاء الأجانب. حذرته بالطبع قائلاً: ألفونس إيفانيتش! لا أريد أن أسمع خرخرة جمهوريتك هذه من الشارع أو من الفناء لا قدر الله.

- حقًا؟

(٩٦) تشير الكلمة في المفهوم الأرثوذكسي إلى من قبلوا الإيمان المسيحي ولم يعتمدوا بعد. عادة ما يُدللون ويوجّه إليهم اهتمام خاص حتى يعتمدوا.

- (يضحك) وماذا يمكنني أن أفعل به؟

- ومع ذلك أي سلطة استحوذوا عليها!

- ضالون يتسمون بالعناد!

عاود بروديتوف الحديث:

- دعوني أحكم إذن وفقاً لهذا النموذج لنرى أي أمثلة يجب أن نتظرها. الآن نجد في منطقنا مثل هؤلاء الأشخاص في كل خطوة، فإذا كان لكل منهم مثل هذا المفهوم وبدأ يحدق إلينا، فماذا نفعل حينها؟

- لن نجد مكاناً نذهب إليه لا قدر الله!

- نحن في حاجة إلى تفحص أمر مثل هؤلاء الأشخاص في كل وقت، وبدلاً من ذلك إذا به يقول: «لا يمكن أن تفعل ذلك!». .

أكد إيفان تيموفيتش:

- صحيح!

وأجبنا نحن أيضاً:

- صحيح!

هكذا تلاشت فكرة المراجعة التاريخية للسلوك اللائق بالرغم من تأييد جلوموف القوي لها في البداية. قال بروديتوف:

- يجب أن أضيف: ما حاجتنا إلى التاريخ؟ أين سنبحث في التاريخ عن إشارات مفيدة لنا؟ إذا تناولنا الآن مثلاً التاريخ الروماني أو اليوناني فسنفقد مفتاح السلوك اللائق الحالي، ولن نعرف شيئاً بالطبع عما إذا

كان السلوك اللائق موجودًا هناك أم لا. انطلاقًا من حقيقة تناول الكتب المدرسية لهذه الأزمنة التاريخية كان هؤلاء الرومان واليونانيون أكثر فوضوية منا فيما يتعلق بالسلوك اللائق.

- وهذا مستحيل عندنا!

هكذا أكد إيفان تيموفيتش، ناظرًا إلينا نظرة مهيبة، وأعترف أن نظرتة جعلتني أوبخ جلوموف على إثارته هذه المسألة.

قال جلوموف مدافعًا:

- ومن قال إن هذا ممكن؟ ولكن إذا كان اليونانيون والرومانيون القدماء أمثلة غير ملائمة، فلدينا أمثلة ملائمة من تاريخنا.

- فيما يتعلق بالأمثلة التاريخية المحلية يمكنني أن أعارضها كالاتي: القطاع الغالب من الوثائق المتوفرة حول هذا الموضوع حُرقت في أوقات مختلفة، وما تبقى منها لا يحتوي إلا على إشارات مختصرة وغير كافية، مثل: أحدهم نتفوا لحيته وآخر حطموا أنفه. فلتحكم بنفسك أي سلوك لائق كان لدينا قديمًا!

- يا عزيزي ليس الجميع هكذا. في كل الأحوال أنا وأنت تعود أصولنا إلى أحدهم! يعيش في روسيا سبعون مليون إنسان، ولجميعم آباء، وإلا ما كانوا موجودين!

- موجودون بالتساهل يا سيدي.

باختصار بدا موقف برودنتوف قويًا، حتى على أرضية تاريخية. الأكثر إزعاجًا ليس فقط أن إيفان تيموفيتش مال بوضوح إلى جانب

كاتبه النشاط وحسب، ولكن أيضاً انخراط مولود كين في القهقهة بتبجح وغباء، متشياً بهزيمتنا.

تبقى لنا ملاذ أخير: التقاليد الشفوية والحكمة الشعبية والأمثال والأقوال المأثورة. لكن هنا انتصر بروديتوف بسهولة. قال:

- فيما يتعلق بالحكمة الشعبية يمكنني أن أقول الآتي: هي مفيدة للرعاع، أما بالنسبة إلى كبار الشخصيات، فلا يسعها الاسترشاد بها تقريباً. لدينا تقليد شفهي واحد: افعل ما تشاء! فيما يتعلق بالأقوال المأثورة، فأحياناً لا تكون ملائمة بتاتاً في حالتنا هذه. لنأخذ المثال الآتي: يقول الناس: لكل سينيكا قبعته^(٩٧)، لكن يتضح في بعض الظروف أن النقيض هو ما يجب فهمه من هذا القول المأثور.

- كيف ذلك؟

- هكذا يا سيدي! السلطة هي السبب. لدينا سينيكات كثيرون، فكيف سيكون الأمر إذا طلب كل منهم قبعة خاصة؟ فيما يتعلق بذلك نسعى أن يكون لدينا مقياس واحد لكل المتشابهين. هكذا ندير الأمر، ودعني أقول لك الحقيقة: نحن هنا لأن الشعب غبي يا سيدي!

صاح إيفان تيموفيتش:

- وأي غباء! إنه غبي حقاً! غبي!

جلب ذكر الشعب ووصمه بالغباء بعض المرح والسرور إلى حديثنا. في البداية تحدث أعضاء اللجنة عن هذا الموضوع، ثم تطور

(٩٧) معنى المثل: لكل ما يلائمه.

الأمر تلقائيًا، وأخذنا نكرر لعشر دقائق تقريبًا: آخ! كم هو غبي! آخ! كم هو غبي! انتهز مولودكين هذه الفرصة وحاكى لنا بضعة مشاهد من حياة الشعب، لا يقل مستواها في الحقيقة عن المشاهد التي كانت تُسلِّي الجمهور في مسرح الإسكندرية.

- كل هذا ولا تزال تتحدث عن الحكمة الشعبية!

هكذا اختتم بروديتنوف حديثه موبخًا جلوموف. لم يتراجع الأخير وقال:

- عذرًا، ولكني لا أستطيع فهم ذلك! كيف يمكن أن يكون الأمر كذلك؟ لا تاريخ ولا تشريعات معاصرة ولا عادات شعبية... لا شيء بتاتًا؟ أكتب إذن ما يخطر على ذهنك وحسب؟

- أكتب ما يخطر على ذهني مباشرة يا سيدي. نضع في اعتبارنا أمرًا واحدًا: أن نقلل قدر القلق الذي تشعر به السلطات بقدر الإمكان. هذا ما نحاول فعله.

بالرغم من أننا نعرف هذه النظرية منذ زمن بعيد، فقد قيلت لنا هذه المرة ببساطة ومباشرة وحسم، حتى إننا وجمنا لبرهة كما لو أننا تحت تأثير مفاجأة سارة!

أخيرًا قال جلوموف، وكان أول من تخلص من تأثير السحر:

- أمر مثير للفضول!

قال له بروديتنوف:

- إذا كنت تشعر بالفضول، فهل تود أن تعرف ما توصلنا إليه؟

يسعدنا للغاية أن يهتم الناس بعملنا. أسمح لي يا إيفان تيموفيتش؟

وافق إيفان تيموفيتش بالطبع وقرأ بروديتوف علينا:

مرسوم

حول السلوك اللائق للسكان في أثناء حياتهم

بدايات عامة

مادة ١: ليضع كل ساكن هدفين نصب عينيه: السلوك اللائق في كل الأماكن في هذه الحياة، والخير الأبدي في الحياة الأخرى.

مادة ٢: كلا الهدفين اللذين يشكلان بداية ونهاية سلسلة واحدة، تأسسا منذ زمن بعيد، وأقرتهما السلطة، ومع ذلك يوضع كل منهما تحت إشراف مؤسسة مختلفة. الأول تحت إشراف السلطة العامة المدنية والثاني تحت إشراف الدين.

مادة ٣: السلوك اللائق، الذي هو موضوع هذا المرسوم، ينقسم في الحقيقة إلى سلوك لائق خارجي وآخر داخلي. يظهر السلوك الخارجي من حيث مكان وجود الساكن في: أ. الشوارع والميادين. ب. الأماكن العامة. ج. شقق السكان الخاصة.

مادة ٤: يُعبّر عن السلوك اللائق الخارجي في أفعال وإيماءات الساكن، بينما يكون السلوك اللائق الداخلي بمثابة هيكل في قلبه، ومن ثم أفضل أماكن مراقبة الأول هي الشوارع والميادين والأماكن العامة، وأفضل أماكن مراقبة الثاني هي شقق السكان الخاصة.

مادة ٥: تُشكّل هذه المبادئ العامة، المأخوذة هكذا بشكل غير قابل للتجزئة، حجر الزاوية الذي تؤسّس عليه كامل بناية السلوك اللائق وكذلك مقولة: «فليطيعوا السلطات، فمن العبث إعطاء الأوامر إذا لم تُنفَّذ».

قطع بروديتوف قراءته وقال بعجرفة:

- هذه مجرد بدايات عامة. هل لديكم أي ملاحظات؟

بدلاً من الإجابة أمسكنا بيد بروديتوف وظللنا نربت عليها طويلاً بتأثر. قال جلودوف بصوت منفعل:

- لا يقتصر الأمر على عدم وجود ملاحظات لدينا، بل إنه من المدهش أيضاً يا عزيزي كيف لخصت في بضعة أسطر كل احتياجات الزمن الحقيقية! هذا صحيح... صحيح حقاً: «الشقق الخاصة». هذا حقاً هو المكان الذي يوجد فيه الخيط الحقيقي لحبكة الرواية. العناية الإلهية هي التي ألهمتكم يا صديقي بهذه الفكرة!

- لنواصل إذن!

الجزء الأول

عن السلوك اللائق في الشوارع والميادين

مادة ١: فيما يتعلق بالسلوك اللائق في الشوارع والميادين، تنقسم المدينة إلى ثلاث مناطق. تشمل الأولى ضفة نهر النيفا، بداية من أقصى حدود الضفة الإنجليزية وانتهاءً بساحة ليتيني، ثم السير بطول شارع

لتييني حتى نهايته، والانعطاف إلى جادة نيفسكي وصولاً إلى شارع بولشايا مورسكايا، والسير من هناك في جادة كونوجفارديسكي، والعودة مجدداً إلى الضفة الإنجليزية. تتألف المنطقة الثانية من المناطق المتبقية من المدينة على هذا الجانب من النيفا، باستثناء أجزاء روجدستفنسكايا ونارفسكايا، وكذلك جزر فاسيليفسكي بامتداد الخط الرابع عشر. يشمل الجزء الثالث مناطق أخرى علاوة على ميدان سينايا.

مادة ٢: من الضروري توفر السلوك اللائق الداخلي في كل هذه المناطق على السواء. فيما يتعلق بالسلوك اللائق الخارجي، ومن أجل توفير كل راحة ممكنة للسكان في هذا الصدد، يُشترط السلوك اللائق الخارجي الحاسم في المنطقة الأولى وحسب، ويُسمح في المنطقة الثانية بقدر من السلوك اللائق أقل منه في المنطقة الأولى، ويُسمح في المنطقة الثالثة بانحرافات مباشرة عن السلوك اللائق.

مادة ٣: توضع كل الميادين والشوارع والأزقة تحت تصرف الجمهور، ومن ثم لا يُمنع السكان من زيارتها؛ سواء بغرض التنزه أو أي غرض آخر، باستثناء ما يندرج تحت قائمة الإغراءات.

مادة ٤: من حق أي مار بشارع أو ميدان أن يتواصل مع من يريد بحرية، من دون التقيد بجانب واحد أو اتجاه معين، بل من حقه أن يعبر إلى الجانب الآخر إذا لزم الأمر، كما يمكنه أن يعرج على الزقاق القريب أيضاً. لكن يُحظر التسكع ذهاباً وإياباً من دون داعٍ أو سبب واضح.

مادة ٥: لا يُطلب من السكان الالتزام بزي موحد عند ارتياد الشوارع والميادين. ليرتد كلُّ كما يشاء وكما يليق بوضعه. لكن لا حاجة بالطبع إلى توضيح أن كلمة «ثياب» في حد ذاتها يجب أن تُفهم بمعناها الحقيقي، ومن غير المسموح التلاعب بالكلمات بأي طريقة في هذا الموضوع.

مادة ٦: يُسمح بالتوقف عند لقاء الأقارب والمعارف بحسب الرغبة أو مواصلة الطريق أو الانخراط في حوار لائق. نفهم من «حوار لائق» الآتي:

أ- ذكريات عن قضاء وقت ممتع.

ب- افتراضات عن إمكانية قضاء وقت ممتع أيضًا في المستقبل القريب.

ج- أسئلة حول صحة القادة، وكذلك عن صحة الأصدقاء والأقارب غير الملوثة سمعتهم في المحاكم.

د- ذكريات عما سمعوه ورأوه في أثناء تناول وجبات غداء اقتصادية.

هـ- طُرف من حياة المراقبين: كراسوفسكي وبيريوكوف.

و- حكايات من الحياة الشعبية.

ز- بشكل عام كل أنواع الحكم البسيطة التي لا يمكن أن تؤدي إلى سوء تفسير، لكن «النقد» ممنوع بالطبع.

مادة ٧: بعد تبادل الأحاديث، يحق للسكان -إذا لم يرتكبوا أي جريمة- أن يتفرقوا من دون إنهاء ما بدأوه، ومن دون أن يتعرضوا لأي عقوبة لقاء ذلك.

مادة ٨: غير مسموح بالسرقة والنهب والقتل على الإطلاق. يُنقل مرتكبو هذه الأفعال فوراً إلى أقرب حجرة، ومنها إلى قسم الشرطة التابعين له، ومن هناك إلى رئاسة القسم الجغرافي التابعين له.

مادة ٩: مع ذلك إذا لاحظ شخص محاولة واضحة للتعدي على ممتلكاته أو حياته من أحد العابرين، فعليه ألا يعلن ذلك بصوت محتد حق، بل يتولى تقييده بإحكام حتى لا يفلت منه.

مادة ١٠: إذا حدث ما هو أكبر من المتوقع، مثل عدم قدرة المرء على كبح جماح الجاني وأطلق سراحه، فيجب مراعاة خروج الأمر عن مجال الإرادة.

مادة ١١: عند لقاء المرء بسيدات يعرفهن جيداً، عليه أن يقدم انحناءة مهذبة لهن ويسأل عن صحتهن. إذا التقى بسيدة لا يعرفها فعليه ألا يقدم هذه الانحناءة، بل يواصل طريقه في صمت، ولا يسمح لنفسه بأي إيماءات مجازية.

مادة ١٢: ليعلم الجميع بشكل عام أن المرأة مخلوق ضعيف يستحق التساهل. لذلك من يستحق الثناء ليس هو من يغويها بالحياد عن الطريق القويم إلى طريق الهلاك، بل من يعيد الضالة إلى حضن العفة.

مادة ١٣: فيما يتعلق بطريقة التفكير بوصفه هبة داخلية، ليست هناك أي قواعد يمكن للمرء بموجبها أن ينال هذه الهبة. مع ذلك، وحتى لا تترك الراغبين من دون تعليمات مناسبة، يُسمح لخبراء الأقسام عند مرورهم بالقرب من السكان أن يقدموا التحذيرات المناسبة لروح العصر.

مادة ١٤: لكن إذا لوحظت في أي من السكان أي إيماءة واضحة تشي بسوء النية بدرجة لا تقبل الشك، يُحضر هذا الشخص فوراً من دون تضييع للوقت إلى قسم الشرطة للتحقيق.

مادة ١٥: عند الاتفاق مع حوذي، إذا ظهرت هذه الحاجة في القسم الأول، فعلى المرء أن يمتنع من دون قيد أو شرط عن استخدام لغة بذيئة، وفي القسم الثاني من المدينة يمسك نفسه عن استخدام هذه اللغة بقدر المستطاع، وفي القسم الثالث تُترك مسألة استخدام هذه اللغة من عدمها لإرادة كل شخص، بشرط ألا يُطلق السباب بتعسف، بل يُستخدم السباب بحسب مزاياه.

مادة ١٦: ليتذكر المنحدرون من أصول نبيلة أن تربية اللحي لا تلائمهم، أما حق تربية الشوارب فيُسمح به فقط للعسكريين. يمكننا أن نقول الأمر ذاته بشأن تصفيف الشعر، حيث لا ينبغي أن يكون مفرط الطول أو القصير. الشعر متوسط الطول هو الأفضل.

مادة ١٧: لا يُمنع الغناء والصفير (ولكن بصوت منخفض) بهدف المتعة. بالنسبة إلى السلطة لا يوجد ما هو أكثر إمتاعاً من أن يقضي المحكومون وقتاً ممتعاً من دون كآبة حيث يسلك كل منهم بحسب إرادته.

مادة ١٨: من الضروري أن يبطئ المرء عند مروره بالتماثيل، وأن يرتسم الحماس على وجهه. إذا صعب رسم هذا الحماس على الوجه بسبب تقدم العمر أو المعاناة من مرض ثقيل الوطأة، يُستبدل بالحماس استغراق بسيط في التفكير. الاستغراق في التفكير مثل الحماس، سيدلل على عزم الساكن أن يصير مثل هؤلاء الأبطال وقضاء الوقت مثلما قضوه؛ الأمر الذي جعل السلطة تنصب تماثيل لهم.

مادة ١٩: عندما يصير عدد السكان الذين يريدون محاكاة الشخصيات التي نُصبت لها تماثيل كافياً، تُجهز قائمة مفصلة من قبل لجنة الآثار المختصة. بعد ذلك تراجع هذه اللجنة القوائم، وتسترشد بفكرة أنه كلما شُيّدت التماثيل (حتى لو بمقاسات متوسطة) ازداد توقع المرء في قلبه لمكافأة ممتازة كهذه المكافأة؛ الأمر الذي يصير باعثاً لعيش حياة فاضلة.

مادة ٢٠: عند دخول الحمام يُحظر أن يخلع المرء ثيابه قبل أن يدخل الرواق الداخلي.

مادة ٢١: عند لقاء المرء بأشخاص أعلى منه مرتبة يجب أن يرتسم على الوجه نوع من الدهشة المبهذة واستعداد لا شك فيه للتحمل، وعندما يلتقي المرء بأشخاص مكافئين له يجب أن ترتسم على وجهه الضيافة والرغبة في تقديم الخدمات، وعندما يلتقي المرء بمن هم أدنى منه منزلة يجب أن يرتسم على وجهه التساهل، ولكن من دون إبداء ضعف.

مادة ٢٢: لا يُحظر إعطاء الصدقة للفقراء، ولكن من المفيد تذكيرهم بأن اللقمة الهنية لا ينالها المرء إلا بعرق جبينه.

مادة ٢٣: يزدهر الوطن بتوجيه العمل وفي الآن ذاته بمدّه برأس المال الملائم، وفي غياب هذا الرصيد يُمد العمل بقرض مع الالتزام بدفع الأقساط في الوقت الملائم مع الفائدة المحددة. هذا ما تأكد عبر اجتماعات أجريت في ظل وجبات عشاء اقتصادية.

مادة ٢٤: بالمثل يجب أن نذكر هنا الوحدات النقدية. عبثاً سوف نستخدم تعبير «روبل» لأنه سريعاً سوف يساوي نصف روبل، ولكن إذا وجدت السلطة هذا صحيحاً يجب تنفيذ رغبتها بالطبع، وهكذا هي الحال في جميع الشؤون الإنسانية الأخرى.

مادة ٢٥: كل ما لم يُشر إليه في هذه القواعد باعتباره غير محظور هو محظور. في حالة الشك، الأفضل أن يعود المرء إلى منزله ويفكر في الأمر ملياً هناك من دون أن يواصل نزّهته.

توقف بروديتوف. سأل جلوموف:

- أهذا كل شيء؟

- حتى الآن يا سيدي. ستكون هناك قواعد أخرى تتعلق بالسلوك القويم في الحمامات والأماكن العامة الأخرى، وأخيراً قواعد تتعلق بالسلوك القويم في الشقق الخاصة.

- عزيزي فليجوت بروديتوف (هكذا يسمون بروديتوف) اسمح لي بساعتين مع مرسومك هذا. سأضع قدرًا بسيطاً في البدايات العامة من الإرادة الشريرة واللعينة، فالأمر يستحيل تدبره من دونها يا صديقي! قدّم هذا العرض بإخلاص وبشعور بمشاركة قوي حتى إن

بروديتنوف لم يستأ، ليس ذلك وحسب، ولكن بدلاً من الإجابة مد يديه إلى جلوموف مسلحاً بمشروع المرسوم، وفجأة، من دون أن نلاحظ تماماً، بدأنا منذ هذه اللحظة نُحدِّث بعضنا بضمير المفرد^(٩٨). واصل جلوموف:

- رائع! بالمناسبة، اسمح لي أن أعيد النظر في الفقرة المتعلقة بالشوارع. ثمة قدر من الغلظة في بعض مواضعها؛ مثلاً: «عند دخول الحمام»، وبعدها مباشرة «عند لقاء المرء بأشخاص أعلى منه رتبة». هذا سيئ يا صديقي.

- صححها! رجاء صححها! (وأضاف إيفان تيموفيتش إلى طلبه) أنا نفسي أرى أنها ليست ملائمة. مثلاً تعبيرات من قبيل: «بالمثل - الوحدة النقدية»... لماذا نستخدم «بالمثل»؟ ألا يمكنني أن أقول هنا شيئاً غير «بالمثل»؟

- صحح! صحح كل شيء، خاصة ما يتعلق بالسماح بقدر من الإرادة الشريرة واللعينة! بالطبع يجب السماح بهذا القدر، ففي غيابه يكون دخول الشقق أمراً محرّجاً. لكن إذا توفر قدر من الإرادة الشريرة واللعينة يصير الدخول ممكناً إلى كل مكان.

طوى جلوموف المرسوم إلى أربعة ووضع به عناية في جيبه، ثم ألقى نظرة على إيفان تيموفيتش بمظهره المميز والجريء المعتاد وواصل حديثه قائلاً:

(٩٨) في الروسية يُستخدم ضمير الجمع دلالة الاحترام والرسمية، ويُستخدم ضمير المفرد دلالة الصداقة والحميمية. كل الحديث السابق كان بضمير الجمع.

- إيفان تيموفيتش! لكننا أتينا لـ... خمن ما الذي أتى بنا إليك!

- ربما لشرب بعض الفودكا؟

هذا ما خمنه إيفان تيموفيتش تلقائياً.

- الفودكا بالطبع، ولكن ألا تتذكر فتاة بارامانوف التي حدثتنا

عنها؟ بالالايكين والافق.

- حمدًا لله!

- أتعرف كم طلب من المال؟ ألف وستمائة! هذا هو كل المبلغ

الذى سيتقاضاه الآن وفي المستقبل أيضًا إذا تعرض لأي محاكمة.

- حمدًا لله! حمدًا لله! هذا رائع! حمدًا لله! (ظل إيفان تيموفيتش

يكرر العبارة، وهو يكاد يختنق من الانفعال ويصافحنا) ولكن يجب

الآن أن نهرع لنسعد العجوز أيضًا بالخبر. سأخبركم في المساء بآخر

الأخبار وماذا حدث وكيف يا أصدقائي.

ابتهجنّا أخيرًا، ومن ثمّ سمح جلوموف لنفسه أن يمزح مع

مولود كين، فالتفت إليه وسأله:

- ما بالك يا أفاناسي سيميونيتش صامت وقانط هكذا؟ كأن السلوك

اللائق لا يرضيك تمام الرضا!

أجاب مولودکین بلطف:

- لديّ نصيبي من ... من الحرائق يا سيدي! وأعترف أن هذا السلوك

اللائق الأخير لا يمكنني حتى فهمه!

عند عودتنا إلى المنزل وجدنا أوتشيشيوني قد عاد بالفعل من الحمام العام. كان يتمشى على مسافة قريبة من الخزانة التي تحتوي على إناء الفودكا، ولكن إبراءً لذمة صديقنا، علينا أن نعترف بأن شيئاً لم يُفقد من شقتنا.

قال لي جلوموف:

- حسنًا يا أخي، يمكننا القول إن كل شيء قد تم على أفضل وجه صباح اليوم. أنهينا الأمر مع بالالايكين، واسترجعنا صديقًا ضائعًا، وعلاوة على ذلك تشاكلنا مع المرسوم! بهذه الطريقة ربما سنتمكن أنا وأنت، بطريقة غير مباشرة، من وضع وطننا العزيز في جيوبنا!

جعلتني هذه الكلمات في حالة مزاجية رائعة، ونظرًا لتوفر هوة من الوقت لدينا قررنا أن نُكرّسها للتأمل الفلسفي المفيد. شكّلت مشاركتنا العرضية في أعمال اللجنة المكلفة بإعداد «مرسوم السلوك اللائق» مادة وفيرة وملائمة لمثل هذه الأفكار. أليس هو القدر في حقيقة الأمر؟ يلزم فقط السماح بقدر من الإرادة الشريرة واللعينة في المرسوم، وهذا أمر يعتمد علينا الآن كلية، وسيُسمح بالاقتراب من الشق إلى الأبد! الأمر ليس أن هذا الاقتراب تعذر من قبل، وفي هذا الصدد لا يمكن أن نصف أنفسنا بالمبتكرين، ولكن قبل ذلك كان هذا الفعل الضروري

للأمن الاجتماعي يتم بدرجة من الفظاظة، ولذلك لم يبدُ طبيعيًا. يقترب مثلاً رجل من الشقة صامتًا، ويفتح الباب الخارجي في صمت، وعندما يُسأل «عم تبحث؟» لا يستطيع تقديم إجابة ملائمة، ولا حتى عن أي شيء يحبه في الشقة. أيمكننا أن نرضى عن هذا النوع من الحماية؟ على النقيض الآن، بفضل مساعدتنا المستنيرة سيقرب الرجل مجددًا ليفعل الأمر ذاته، ولكنه سيجيب عن السؤال: «وفقًا للشائعات، تختبئ في هذه الشقة إرادة شريرة ولعينة. هات المفاتيح من فضلك!». حينها من سيسمح لنفسه بأن يجد أي شيء غير طبيعي في مثل هذا الطلب!

قال جلوموف:

- نعم أيها السادة! في كثير من الأحيان حتى الينابيع الصغيرة تُكوّن الأنهار التي تُخصّب أراضي لا حصر لها. هكذا نحن! عسى أن ترافقنا هذه الفكرة في أعمالنا وتمنحنا القوة لإنجاز ما توليناه، ليس لعار وطننا، بل لمجده!

لم يكن لدي بالطبع ما أعارض به كلمات الوداع هذه، ولكن حتى أوتشيشيوني رشم علامة الصليب عند سماع هذا الكلام وقال: «عسى أن يهبك الله السعادة!». بشكل عام أفادنا هذا العجوز الطيب ذو الخبرة في مناقشاتنا الفلسفية. لقد وقف معنا على أرضية فلسفية واحدة، لكنه تميز بأفضلية الخبرة الطويلة التي جعلته يحوز الكثير من الحقائق الملائمة التي شجعتنا على مزيد من الألعاب العقلية. قال:

- من السهل جدًا أن يجلب المرء العار لوطنه، أما المجد فعلى النقيض؛ أمر صعب تحقيقه حتى إن الكثيرين يُنْهَكون ولا يحققون

نجاحًا. عندما عشت في مقاطعة برولومونوفسكايا تولى الأمر هناك قائد واحد، وقد فعل كل ما يمكنه أن يجلب الخزي لوطنه. حتى الأجانب تعجبوا وتساءلوا: لماذا تفعل كل ما يجلب الخزي؟ أما هو فاعتاد أن يجيب: «لا أستطيع. سأسعد لو استطعت فعل شيء يجلب المجد، ولكن كلما فعلت شيئًا، جلبت الخزي».

- آخ! عليه اللعنة!

- سأحكي لكم كيف حدث ذلك. بعد فترة انتقل إلى قسم آخر وفكر: «على الأقل لن تجد هناك ما تفعله لتجلب المجد. افعل هناك ما تشاء!». هكذا استمر حتى رحل في خزيه.

- عجبًا!

- وعندما قال الأب القمص في أثناء صلاة الدفن: «هذا إنسان ظل طوال حياته يحاول فعل شيء يجلب المجد لوطنه المحبوب، ولم يفعل شيئًا سوى ما يجلب الخزي»، انفجر كل الحاضرين في البكاء.

- بالرغم من ذلك يظل الأمر مؤسفًا؛ الأمر الذي جعل من في السلطة في هذا الوقت يلزمون الصمت ويستغرقون في التفكير.

- أخذوا يفكرون ويفكرون ولم يصلوا إلى شيء.

- هذا أمر واضح، ولكن اسمح لي، ما قلته بشأن الينايع الصغيرة التي يحدث كثيرًا أن تُكوّن أنهارًا كبيرة، هو أمر صحيح تمامًا. من السهل جدًا أن يتحول، ولو أصغر ينبوع، إلى نهر جيد، بشرط واحد؛ أن يكون محبوبًا.

- لماذا لم تتحول أنت إلى...؟

- لم يحالفني الحظ. هذا هو السبب. أحدهم، ممن لا يتسمون
بذكاء كبير، ينظر إلى وجه الرئيس، ويرى احتياجه الحقيقي فعلاً، وآخر
ينظر طويلاً ولا يميز شيئاً. أنا أيضاً أردت ذات يوم أن أكون محبوباً،
وحدث النقيض تماماً.

- كم أنت مسكين! مسكين!

- نعم يا سيد! في ذلك الوقت خضعت للتحقيق بخصوص إساءة
استخدام سلطتي كمالك والوصول إلى المقاطعة لإثارة الجلبة. في كل
مكان ظل شخص واحد يحدثني ويقول لي: يمكنك أن توجه عملك
جيداً، ولكن حاول أن تكون محبوباً. علّمني بغرض المزاح قائلاً: اذهب
إلى القديس واجلب لي قطعة من القربان، فكم أحبه! فعلت ذلك حقاً.
وصلت إلى مكتبه وطلبت لقاءه ممسكاً بقطعة القربان. خرج إليّ وأخذ
القطعة ودورها بين يديه وقطعها إلى نصفين ثم إلى أربعة... فجأة، كما
لو أنه يمزح مزحة ثقيلة، طردني!

- أتعني أنها لم تعجبه؟

- بالضبط، فأنا لم أفهم نصيحة هذا الشخص بالقدر الملائم. لقد
أحب القربان فعلاً، ولكن مع الحشو.

- لو كنت قد فهمت إذن هذا الاحتياج الحقيقي لاستطعت أن
تشارك في التيار ولربحت شهادات الاسترداد.

- صحيح بلا شك يا سيدي. «أن تصير محبوباً». في هذا تتلخص

حياتنا كلها. مثلاً حدث أمر ما مع أحد معارفي. كان رئيسه عبوساً بعض الشيء. يُحوّل كل شؤن القسم إلى أرقام، ويدرس كل شأن من شؤن القسم بدقة بعد أن يضعه في عمود واحد بحيث لا يترك موضعاً واحداً فارغاً. ذات مرة أعطوه تقريراً، فأخذ يفحصه من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى واكتشف فقدان بعض الكوييكات، وكفى! أثار القسم كله، وأخذوا يبحثون ويفتشون، ولم يجدوا كوييكاً واحداً. أما صديقي هذا فكان يعلم أين هي. ذهب إلى رئيسه مباشرة وقال: إنها هناك. تحققوا بالطبع من المكان، ووجدوها فعلاً! أخذوه إلى الحمام العام وتركوه يغتسل بحساب هذه الكوييكات وألبسوه وخدموه وجعلوه الأول بينهم!

قادنا هذا المثال إلى فكرة أنه بغض النظر عن الذكاء، فأن تكون محبوباً هو أمر يلعب في حياة الإنسان الروسي دوراً مهماً له تأثير السحر. أعرب جلوموف عن رأيه في المسألة قائلاً:

- ابحث في أي موضع من مواضع «التاريخ الروسي القديم» و«الأرشيف الروسي» وقل لي ماذا ستجد عدا الحقائق الأكثر فتنة من هذا القبيل.

أكّد أوتشيشيوني:

- صحيح يا سيد، إذا قلب المرء في «التاريخ الروسي القديم» فسيجد أن السحر الموجود الآن كافٍ للغاية، حتى إن المرء في بعض الأحيان قد لا يفكر معه في أي شيء. أتذكّر شخصين كانا يغتسلان في الحمام العام؛ الأول عجوز والثاني شاب. سأل العجوز الشاب: في

رأيك أيها الشاب، ما هي القوانين التي هناك حاجة ماسة إلى نشرها اليوم أكثر من غيرها؟ أجابه الشاب، ويا للعجب! في اليوم التالي جاءه رسول. وضعوا عبد الله هذا في عربة وقادوه إلى العجوز. قال له: «إذا تفضلت اكتب القوانين التي ذكرتها بالأمس». جلس الشاب وكتب كل ما خطر على ذهنه في ثلاثة أسطر وحسب. الآن يا سيدي لديه ألف نفس في مقاطعة ساراتوف ومنزل عند جسر خارلاموف، كما أنه زوّج ابنته من فارس صغير. استطاع تحقيق كل ذلك من اختيار اللحظة الملائمة للذهاب إلى الحمام! ما رأيكم: هل جاءت الفكرة من ذهنه أم أن القدر هو من أرسلها إليه؟

قلت مفتونًا بأفاق السحر التي انكشفت أمامي: «ولكن لو كنا...» ولكن جلوموف لم يعطيني فرصة وقال:

- لا تندم! أولاً: من يسعد حقًا هو من يرضى بحصته البسيطة التي قسمت لها العناية الإلهية. ثانيًا: ليس من السهل يا صديقي بعد أن تكتسي بالذهب والمجد أن تتوازن فوق المرتفعات! حسنًا أن تكون لديك شخصية تفخر بها وتعظمها، ولكن ويل لك إذا نسيت -ولو للحظة واحدة- أنك اكتسيت بالذهب والمجد! السحر الذي رفعك سيخفضك! أليس ما أقوله صحيحًا يا إيفان إيفانيتش؟

- صحيح كلامك يا سيدي، لأن كل السحر في هذا العالم يأتي من السلطة، وأقول لك إن السلطة تعطيك اليوم شيئًا، وغدًا تستعيده. يروق للمرء أن يأخذ، ولكن العطاء مرير. لذلك أفكر بالطريقة التالية: الإنسان السعيد هو من يستطيع تجنب السلطة في طريقه.

- رائع! ولكن كيف يمكنك تجنب السلطة بينما هي في طريقك دائماً؟

- إذا استحال تجنبها فليس في يد المرء بالطبع شيء ليفعله، وهذا يعني أن الأمر مُقدَّر على سلالته. لكن إذا سنحت أي فرصة، فعليك بتجنبها. استخدم كل التدابير الممكنة وتجنبها!

- هذا أمر صعب يا عزيزي.

- لا يتطلب الأمر جهداً كبيراً إذا نُفذت السياسة بشكل صحيح. على سبيل المثال، يأتي رئيسك إلى القسم: تنهض وتنحني، يطلب حضورك فتظهر أمامه، يطرح سؤالاً فتجيبه بما يلزم ولا تنخرط في أي حوار. تغادر القسم وتنسى الأمر. إذا رأيته في الشارع، فلتدخل متجبر الحلويات أو تعبر إلى الجانب الآخر. إذا صادفته عند منزله ابتعد وأغمض عينيك.

- هذا علم يا أخي!

- حياتنا كلها علم يا سيدي، مع فارق واحد؛ ألا وهو أن العلوم العادية والحقيقية تُعلم الاختراق، بينما الحياة، على النقيض من ذلك، تلهمنا تجنب الاختراق. عندما يتقن المرء هذا العلم الحيوي، يمكنه حينها فقط أن يهتف بشيء من اليقين: نعم، سيرسلني السيد الرب لأموت موتتي الخاصة!

أخفض أوتشيشيوني عينيه لوهلة. ربما برق في ذهنه في هذه اللحظة تساؤل عما إذا كان هو نفسه قد اخترق العلم الحيوي بما يكفي

ليأمل بثقة في موته الخاصة أم لا. لكن نظرًا لأن هذه الأفكار الحزينة لم تستمر طويلًا في رأسه، واصل بعد أن ارتفعت معنوياته مجددًا:

- يأمرنا علمنا الحيوي بحب من في السلطة، وهنا يجب علينا أن نمتنع عن استخدام التعبيرات غير الملائمة.

- مثلاً يا عزيزي! أعطنا مثلاً!

- سأحكى لك يا سيدي حكاية عن مستشار دولة دق تابوت اثنين من رؤسائه من حبه لهما، ووافق على الانتقام من الثالث بنفسه. كان يا ما كان، مستشار دولة أحب رئيسه إلى درجة أن اعتبره خالداً. حيثما يذهب رئيسه يتبعه مستشار الدولة، سائراً على أطراف أصابعه، وأينما ينظر رئيسه يجد مستشار مجلس الدولة في كل مكان جالساً، ويداه على صدره، وينظر إليه. في البداية أحب الجنرال هذا التفاني، ولكن بمرور الوقت أخذ يفكر في نفسه قائلاً: «تُرى ماذا يعني ذلك؟ ألا يُعتبر هذا تعدياً بشكل ما؟ مستشارو الدولة هؤلاء مشكلة حقاً!». لم يرَ في الأمر إلا محاولة لرش مسحوق الحب السحري، وبدأ يفطم نفسه عن هذا الحب. فعل ذلك بكل طريقة ممكنة. وعده بالمكافآت وقيّده بالسلاسل، بل وقّده للمحاكمة ذات مرة، ولم يُجد معه شيء. كلما ازداد عقابه ازداد توقد قلب مستشار الدولة. فجأة، بسبب هذا الأمر أو غيره، بدأ الرئيس يذوي. أخذ يذوي ويذوي حتى مات. لم يقتصر الأمر حينها على دمدمة مستشار الدولة في القسم، بل أخذ يولول: «سوف يأتون لنا برئيس جديد، ولكن حتى يفعلوا ذلك من سيعاملنا بكل صرامة؟». لكن الله أشفق عليه، فلم يكدر يرمش بعينه حتى عيّنوا فعلاً

رئيسًا جديدًا. وصل الجنرال الجديد إلى القسم، وتلقى تحذيرات بشأن مستشار الدولة، فاستدعاه وقال له: «لقد أصابك سلفي بجروح، أما أنا فسأطلق عليك العقارب. ما رأيك؟». مع هذا لم يأس مستشار الدولة. قال في قرارة قلبه: «العقارب هي العقارب!». وأحب الرئيس الجديد بدرجة أكبر، وقضى عليه هو الآخر! جاء هذا العقرب ذات مرة إلى القسم من أجل مستشار الدولة، وفجأة حدث ما حذر مستشار الدولة منه. استاء مستشار الدولة، ولاحق النعش مثيرًا الاضطراب بين الناس قائلاً: «يقولون: فلنأمل في العناية الإلهية، ولكن أين هي؟». وعندما رأوا خطورة الأمر أرسلوا سريعًا رئيسًا ثالثًا إلى القسم من دون تضييع للوقت. وصل الجنرال إلى مكان عمله منتعشًا ومشرقًا، وبدأ لامعًا كعملة خمسة كوبيكات نحاسية جديدة. استدعى مستشار الدولة وقال له: «أحد أسلافي أصابك بالجروح، والآخر أطلق عليك العقارب، أما أنا، ولكي أبطل عناد أفعالك، سأضربك بمدافع الهاون!».

«برافو!» انطلقت الكلمة منا تلقائيًا، ولكننا فهمنا أن هتافنا هذا لم يكن في محله، بل وقاسيًا أيضًا.

سارع جلوموف إلى القول:

- اسمع يا صديقي! هذه حبكة يمكنك أن تؤلف منها رواية كاملة. لقد فكرت في عنوان لها: «ثمار فجور المرووسين»، أو «موت رئيسين والإجراء الذي اتخذه الرئيس الثالث». يمكنك أيضًا أن تكتب هذه الحكاية في صفحة التسلية في جريدة «كراسا ديميدروفا». في رأيك هل سيقبلها رئيس تحرير الجريدة؟

- يا إلهي! سيقبلها بكل سرور!

عارضت قائلاً:

- على النقيض من ذلك أعتقد أن هذه ليست حبكة رواية، بل تفوح منها رائحة المأساة. عذراً، ولكن من جانبٍ لدينا قوة الحب الصادق هذه، ومن جانبٍ آخر لدينا جروح وعقارب وأخيراً مطرقة! طوقته الرتب العليا، وقيدوه وقدموه للمحاكمة، وظل ثابتاً على حبه. أليست مأساة؟

هنا اندلع جدال جمالي. استند جلوموف في رأيه إلى حقيقة إمكانية صنع الرواية من أي شيء، حتى لو لم يكن لدى الكاتب أي تصورات حقيقية. فلنأخذ أربع أو خمس شخصيات رئيسة: «مستشار دولة - رئيسان مقتولان - رئيس مُعاقب وقاتل وهو في الآن ذاته أمين الصندوق»، ولنضف إليها شخصيات ثانوية مثل بضعة موظفين كتبة وسعاة وحراس، وبالنسبة إلى عنصر الحب في الرواية يمكننا أن نجلب بعض طالبي الود ومجموعة من مشاهد الحب (بين مستشار الدولة والسلطة من جهة، وبين السلطة وطالبي الود من جهة أخرى). لنضف أيضاً بعض التمارين ذات الطابع الوصفي، ونضفي عليها طابع التحليل النفسي ونزيد حرارتها وننتظر حتى تتقد. على النقيض من ذلك لا تتسامح المأساة مع أي إطناب، بل تدخل إلى صلب الموضوع مباشرة، ونجد فيها البداية والوسط والنهاية بشكل واضح، فلا يحدث أن يُترك شيء بدافع الملل وما إلى ذلك.

وضَّح فكرته قائلاً:

- حسنًا، ما نوع المأساة مثلاً التي يمكن أن نستخرجها من مستشار الدولة هذا؟ حبه رتيب، يكاد يكون من دون سبب، ومن ثم لا يوفر أي اعتبارات للعرض الدرامي أو لتطويره. يتوقف العرض بطريقة فجأة وعشبية. لا يمكنك في كل الأحوال أن تصنع من هذه المادة أكثر من فصل واحد مهما فعلت.

حاولت الاعتراض:

- لكن هكذا هي حياتنا كلها يا صديقي! هل في رأيك يستحيل أن نصنع شيئاً جديرًا بالاهتمام من حياتنا؟

- حياتنا تمثل فصلاً مسرحيًا واحدًا. ليست لدينا فواصل موسيقية، كما أن السلطة تراقبها من كل جانب. ما إن تبدأ حتى يصدر الأمر ويُسدل الستار.

- جلوموف! تذكر فقط! إنسان يسير في الشارع، وفجأة صغير النهاية! أليست مأساة؟

- أنا لا أقول إنها ليست مأساة، لكن ليس هناك ما يمكن تصويره بدلاً من ذلك. الظهور الأول والأخير وانتهى الأمر!

اتفق أوتشيشيوني مع جلوموف قائلاً:

- هكذا هو الأمر فعلاً. بالرغم من أن لدينا عددًا كافيًا من المآسي، ونظرًا لأن معظمها تحدث فجأة، فإنه يصعب أن نقسمها إلى فصول. إلى جانب ذلك اسمح لي أيضًا أن أقول لك: يمكن للمرء أن يقول: منذ الصبا ونحن نسير بين مآسٍ مفاجئة لدرجة أننا اعتدنا عليها بمرور

الزمن، وصرنا نقول في أنفسنا عندما نرى مأساة: هكذا هي الحياة!
أدت هذه الملاحظة إلى ظهور موضوع جديد على الساحة أمامنا؛
ألا وهو اعتياد المأساة. ما تأثير «اعتياد المأساة» على الحياة؟ أيسهل
عملية الحياة أم يُزيد مرارتها وكآبتها؟ كنت في صف الرأي الأخير،
ولكن جلوموف وأوتشيشيوني أكدا النقيض؛ أن هذا وحده ما يهون
الحياة، وأن من يشمون الرائحة المأساوية لا يعودون يميزون شيئاً
بعدها. قلت بانفعال:

- نعم هذه مأساة حقيقية. فكروا في الأمر! أليس مروّعاً أن نرى
هذه الجحافل من البشر يمضون حياتهم بأكملها بين المآسي جاهلين
وجودها! مأساة! يزيد عليها أنها لا تتمثل في فصل واحد، بل في عدد لا
يُحصى من الفصول يصعب التفكير فيها من دون ارتجاف!
عارضني أوتشيشيوني قائلاً:

- لسنا في حاجة إلى التفكير في أن الأذنين لم تُخلقا فوق الجبين،
بل علينا أن نتذكر الأمر وحسب، ومن ثم تستمر الحياة كدأبها من دون
أن تلاحظ الكيفية التي تسير بها تدريجياً.
أيده جلوموف قائلاً:

- صحيح! عرفت يا سيدي رجلاً كانت أموره تزدهر ما دام لا
يدركها، وحين فهم شئق نفسه.

قال أوتشيشيوني وقد ارتسم على وجهه تعبير جاد:

- صحيح! أتعرف يا إيفان إيفانيتش، أنت ذكي للغاية! كل ما في الأمر أنك هرمت قليلاً.

- بالنسبة إلى الشكر هل فكرتم لماذا يحدث الأمر بهذه الطريقة؟ بالطبع يلعب الجهل دوراً، لكن الشخص الذي لا يفهم لن يشمل! تساءلت بفضول:

- هل سبق أن ثملت يا إيفان إيفانيتش؟

- مر وقت كنت أشعر فيه باشتياق رهيب! لكن الله حفظني. بالتدريج صار بإمكانني أن أشرب في أي وقت، لكنني لا ألزم بطريقة ألا أشرب لثلاثة أسابيع وأشرب في الأسبوع الرابع. أنا أعيش بهدوء ولا أريد سبر غور الأمر، وما أراه أحاول ألا أراه، ولهذا السبب أتأوه. يا إلهي! في ظل ظروفه هل كان بإمكانني أن أبقى حيّاً لو ازدادت سبراً لغور الأمور؟! لقد شحذت نفسي إلى حد أنك حتى إذا مزقتني فلن أكمّد إلا قليلاً.

قيلت العبارة الأخيرة بإخلاص شديد حتى إن جلوموف لم يستطع كبح جماح نفسه وقبّل جبهة العجوز. واصل أوتشيشيوني، ومن الواضح أن ملاطفة جلوموف قد شجعتة:

- لا فخر ولا كبرياء في داخلي بل إنني طوال الوقت أهرب من التشهير والتقاضي. إذا أهانوني فلن أرفض المكافأة ولن أذهب إلى المحاكمة. لهذا يحبني الجميع. أحبوني عند داريا سيميونوفنا، وأحبوني عند مارتسيكفيتش، وحتى الآن يرحب بي الضابط المعاون المناوب في القسم ويقدم لي التبغ.

قلت بآلية:

- وهكذا يفعل معنا أيضًا.

- ومعكما أيضًا. عندما كنت تسبر غور الأمر لم يكن أحد يحبك، وعندما توقفت عن سبر غوره وثق بك الجميع! لنا هنا مثال بمرسوم السلوك اللائق.

تمتم جلوموف بحزن بعض الشيء:

- نعم. المرسوم!

نظرت إلى صديقي، ولحزني الشديد لاحظت فيه قدرًا من التبذل. صديقي الذي كان لتوّه يشارك بحماسة في مناقشاتنا حسنة النية بدا في هذه اللحظة منهكًا، بل ومنزعجًا. علاوة على ذلك ظل يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا؛ الأمر الذي أشار -في رأيي- إلى أنه بدأ يتكدر من المناقشات. لكن أوتشيشيوني لم يلحظ شيئًا من ذلك وواصل حديثه:

- أقول لكم بشكل عام: كلما حاولنا سبر غور الأمر، ازددنا تعرضًا

Ум-то, знаете, у нас выспрь бежит, а оттуда للنهش

И резонно -- ему .. هناك من يشبهنا وإذا ظلوا

يحدقون إلى ما حولهم فسيسقطون في مصرف لا محالة. الأمر في رأيي

كالاتي: شيع وحذاء وثياب ولتصمت! إذا سلكت بنبل، فسيعاملك

الجميع بنبل. إذا لم تمس أحدًا بسوء، فلن يمسك أحد. إذا عاملت

الجميع بسرور، فسيعاملونك بسرور. إذا عشت في هدوء وصمت،

فستمر الحياة. أليس كذلك يا سيدي؟

صاح جلوموف: «صحيح». وكان تحامله على نفسه واضحًا.

- اعتادت الراحلة داريا سيميونوفنا القول: حياتنا تشبه فلاحه في حانة مالوياروسلافيتسكي. إذا أطعمتها سريعًا، ملعقة تلو الأخرى، فسيمر الأمر بيسر، ولكن إذا بدأت تُقَلَّب الطعام وتتفحصه، فستتقيأ.

- صححيييح!

صاح جلوموف مجددًا، وحينها وقف قبالة أوتشيشيوني محدقًا إليه، صارًا على أسنانه. إلا أن أوتشيشيوني لم يفهم شيئًا.

- أود أن أقول لك إنني عرفت مستشارًا حقيقياً للدولة اعتاد زيارة داريا سيميونوفنا صباحًا، وحكى لي لماذا يأتي إليها صباحًا على وجه التحديد لا مساء. قال: في الصباح أنهض وأغتسل و...

فجأة صاح جلوموف: «نتانة! كفى!». ولكن في هذه المرة صاح بصوت راعد حتى إن أوتشيشيوني مد عنقه للأمام بشكل غريزي وكأنه يستعد لتلقي ضربة!



يجب أن أقول إنه لحسن حظ جلوموف لم يكتفِ بمد يده إلى أوتشيشيوني مع أول كلمة أقولها، بل اعتذر أيضًا على عدم قدرته على دفع التعويض المستحق عليه مقابل إهانته لفظيًا لعدم وجود عملات صغيرة معه.

أجاب العجوز الطيب الذي كان من الواضح أنه يُفضِّل نيل مبلغ ضخم -بشكل أو بآخر- بدلًا من عدة عملات من فئة عشرين كوبيكًا: «لا عليك يا سيدي! يمكنك أن تدفع كل شيء في المرة القادمة!».

هكذا حل السلام وجلسنا في أفضل حالة مزاجية لتناول الغداء. لكن الأفضل من ذلك هو أنه بالرغم من الإفطار الوفير الذي تناولناه عند بالالايكين، أكل أوتشيشيوني وشرب كما لو أن كل ما تناوله وشربه في الصباح كان حلمًا جميلًا. تذوق كل الأنواع وقَدِّم نصائحه بخصوصها جميعًا، ومزجها بتأملات وأقوال ماثورة من عالم الأخلاق السامية. قال:

- يجب التحلي بالخبرة عند شراء المؤن، وكما هي الحال في أي عمل بوجه عام، من الضروري الانخراط في العمل بمعرفة راسخة. العالم بالأمور يفوز والجاهل يخسر. على سبيل المثال، يجب شراء لحم الخنزير والألسنة واللحوم المدخنة بوجه عام من زقاق موتشني،

والسمك من ميتني والدواجن - إذا كان لدى أي شخص الوقت الكافي لذلك - من الطرق التي ينتظر عندها الفلاحون، وكثيرون يأخذون من الفلاحين بالمجان، لكنني لا أوافق على ذلك.

- لا توافق؟

- لا أوافق لعدم وجود قانون يقضي بذلك. فيما يتعلق بهذا الأمر، على كل فرد أن يتدبر أموره من دون الإضرار بقريبه. هذا هو القانون! سأقولها لك مرة أخرى: حتى النبيذ الأجنبي يمكن شراؤه بسعر رخيص للغاية إذا سُرِق.

- آه يا عزيزي! ألا يمكن أن نجرب زجاجة بخمسة روبلات؟

- بكل سرور! اسمحوا لي أن أقول لكم إنها ليست خطيئة أن يشتري المرء أغراضاً مسروقة، لأنها تُسرق بسبب وفرتها. حيثما يوجد فائض يدخر الخادم جزءاً لبيعه. كثيرون يشترون هذه اللحوم المخبأة.

- حقاً هذا؟

- الأمر سهل يا سيدي. يلزم فقط أن يتعرف المرء على الطهارة، وسيجد لحمًا وإوزًا وكل ما يريده. بشكل عام إذا عاش المرء بحكمة يمكنه أن يعتمد على موارده الخاصة في بطرسبرج.

- هل يمكن أن تقدم لنا مثالاً؟

- يمكنني يا سيدي. عرفت ذات يوم فارسًا متقاعدًا، منذ ولادته وهو في أفضل حال مادية. اعتاد صنع الولايم أسبوعيًا حتى إنه استقبل ذات مرة جنرالاً رومانيًا، وكيف استطاع ذلك؟ بسبب معرفته بطهارة النادي!

في أيام السبت يعدون وجبات الغداء في النادي، وفي الليل يجلب الطهاة كل بقايا الطعام إلى الجنرال، وفي اليوم التالي تُعد الوليمة.

- وهل تعرف طاهي النادي؟

- أعرفه معرفة وثيقة. اسألني وحسب عمن لا أعرفه، وستجد أنني أعرف الجميع. أنال من كل تاجر تخفيضًا يتراوح بين ٢٠-٣٠٪ عن السعر الذي يشتري به المشتري العادي. سأخبرك كيف أفعل ذلك. وصلت ذات مرة إلى أحد المتاجر وطلبت رطل كافيار، وإذا بهم يزنون لي رطلًا وربعًا. طلبت رطل لوز، فإذا بهم يزنون لي أربعة أرطال بالإضافة إلى الزبيب! ذهبت إلى حانة وطلبت ثلاث كؤوس فودكا، فإذا بهم يصبون لي الرابعة! دفعت ثمن ثلاث، والرابعة قدموها لي مجانًا بدافع التقدير!

- يا للسحر!

لكن أوتشيشيوني لم يسمع صيحة التعجب. بدا أن فكرة طلب المقبلات حجّرتَه، فقد بدا الزبد على شفّتيه واكتست عيناه بالبلادة. واصل حديثه قائلاً:

- أو مرة أخرى أذهب إلى دومينيك، وأجد هناك عددًا هائلًا من الناس يسرون ويتسكعون؛ واحد يدخل والآخر يخرج، والخدم أيضًا في حالة من الفوضى. مَنْ هناك بوسعه أن يلاحظك؟! كل ثلاث قطع كولياكا^(٩٩) وقل إنك أكلت واحدة!

(٩٩) فطائر محشوة باللحوم أو الأسماك أو غيرها.

- وهل يمكن فعل ذلك دائماً من دون مشكلات؟
- مرة واحدة حدث سوء تفاهم. لكن لم يمر شهر حتى تحسن الأمر وعدت للذهاب مجدداً.
- اسمع! أَلَمْ تعمل من قبل في جمعية الائتمان المتبادل بحيث تفهم جيداً في أمور العمليات التجارية؟
- من ناحية العمل لم أعمل هناك، لكني أَلقيت نظرة من بعيد. كل ما في الأمر أن نطاق المقايضة والتبادل هناك ضخم بينما هو صغير لدي. لو كان لدي ما هو أكبر لـ...
- استغرق أوتشيشيوني لوهلة في التفكير، لكنه لم يتدمر على العناية الإلهية ولم يتساءل عما كان ليحدث لو كان ما لديه من المال أكثر. قال أخيراً:
- يمكن للمرء أن يرى حوله طيور طيهوج جالسة، فكيف لا يستفيد بها! لو أن السيد يوخانتسيف قد...
- نعم، ليس من الممتع بأي حال من الأحوال أن تكون لديك ورقة آس ماسية ولا تستفيد بها.
- فيما يتعلق بأوراق الآس أقول لكم إن جميعها متماثلة. بالنسبة إليّ فلتمنحني المتعة حتى لو ستهاجمني أربع مرات!
- باختصار، تبادلنا الأفكار وتناولنا الغداء بسرور. بعد الغداء فكرنا في لعب الورق لكن العجوز المحترم رفض صراحة. قال:
- في شبابي كنت صياداً في لعب الورق، ولكن ذات مرة كسروا لي

أحد ضلوعي في مدينة ليديان بسبب اللعب، ومنذ ذلك الحين قطعت عهدًا على نفسي ألا ألمس هذه الأوراق اللعينة ثانية. ماذا فعلوا بي في هذا الوقت في رأيكم؟ لا يمكنني حتى أن أصف ما فعلوه بالكلمات! رقدت في المستشفى لشهرين!

مع ذلك وجدنا هذا الرفض ملائمًا جدًا لأننا تذكرنا أنه لا يزال يتعين علينا العمل على مرسوم السلوك اللائق.

توجب علينا في البداية أن نوضح الهدف الذي يجب أن تنحو إليه أعمالنا. نظرًا لعدم وجود تحليل تاريخي للسلوك اللائق بين أيدينا ولا مراجعات للتشريعات الحالية فيما يتعلق بهذا الموضوع، ولا حتى آراء الحراس، فهمنا أن مصدرًا واحدًا قد تبقى لنا؛ أن نخترع فكرة ما تمنعنا من التشتت وتمنحنا إمكانية إمداد عملنا بالوحدة اللازمة. أشار الميثاق الذي صاغه برودينتوف بكل وضوح إلى وجود هذه الفكرة. ذكر الآتي: «أفضل أماكن مراقبة السلوك اللائق الداخلي هي الشقق الخاصة للسكان». دخول الشقق لمراقبة السلوك اللائق الداخلي هو الهدف الذي يجب أن نسعى إليه. صاغ جلوموف الفكرة العامة قائلاً: «بالوضع في الاعتبار هذا الهدف كنت لأفترض الآتي: بادئ ذي بدء، يجب إجراء بعض التعديلات الطفيفة على المادة الرابعة من «البدايات العامة» لتكون كالآتي: «يُعبر عن السلوك اللائق الخارجي في أفعال الساكن وإيماءاته، بينما يُشيد السلوك اللائق الداخلي هيكلاً لنفسه في قلبه حيث يبني عشه بجانب السلوك الفاحش الداخلي؛ أي إرادة الإنسان الشريرة واللعينة. على الأساس ذاته تتحدد أفضل الأماكن التي يمكن

فيها مراقبة السلوك الأول كالآتي: الشوارع والميادين والأماكن العامة،
بينما أفضل أماكن مراقبة السلوك الثاني هي الشقق الخاصة للسكان
حيث تجد الإرادة الشريرة واللعينة ملاذًا لنفسها في صورة تستر بسيط،
أو في غالب الأوقات في صورة تواطؤ مباشر في جريمة ما. موافقون؟
أجبنا جميعًا بصوت واحد:

– موافقون!

– لكننا الآن في حاجة إلى الإجابة عن سؤال: «ما هو دخول
الشقة؟». إيفان إيفانيتش، قل لنا رأيك!
– دخول الشقة في رأيي يعني أن تدخل أي شقة.
توجه جلوموف إليَّ قائلاً:

– هل دخول الشقة يعني دخولها؟ آخ يا رأسي! رأسي! هل هكذا
تُكتب القوانين؟ هذه ليست مسرحية هزلية (فودفيل) يا أخي حيث
تُستخدم توريات من قبيل: «رئيس القسم – مادة منفصلة» وما إلى ذلك،
هذا مرسوم! ما الذي تقوله؟

– في رأيي أنه نظرًا للارتباط الحتمي بين دخول الشقة والحالة
الأخلاقية للسكان، يتطلب تحقيق هذه الحالة إذن الفحص والمراقبة.
قال أوتشيشيوني بتواضع:

– هذا أحد المفاتيح الرئيسة يا سيدي.

– مفتاح رئيس... هكذا بالضبط! رائع! الأفضل ألا يُقال ذلك
حتى من على منبر الجامعة. كنت لأضيف أمرًا واحدًا: «هذا الأمر

الأخير (أقصد المفتاح الرئيس) هو أمر مطلوب بشكل أساسي من أجل الإرادة الشريرة واللعينة في ملاذها الأخير». أسمح لي بهذه الإضافة؟

- بالطبع يا عزيزي! وهل شكلت من جانبي أي عائق من قبل؟
- وجدنا التعرف إذن. يلزمنا فقط الآن أن ننظم موضوع المدخل بحيث نحول دون أن يجد فيه أحد أي شيء غير طبيعي. أتعرفون بماذا أحلم؟ أليست هناك طريقة يا أصدقائي نرتب بها الأمر بحيث يروق الأمر للساكن ويوافق عليه من كل قلبه إذا جاز التعبير، وتصير هذه الزيارة بالنسبة إليه بمثابة...

واجه جلوموف صعوبة في إكمال الجملة، فقال أوتشيشيوني:
- بحيث يصير الأمر سيان له أن يأتي ضيف أو لا يأتي.
- بالضبط! بالضبط! بالضبط! بحيث يصير الضيف زائراً عزيزاً ومرغوباً فيه كعريس.

جرؤت على الاعتراض قائلاً:
- وماذا إذا جرت الزيارة ليلاً؟
- وما المشكلة؟ فليستيقظ الساكن ليثبت سلوكه اللائق ثم يعود لينام بعد الزيارة! سيجد غفوته الثانية أعذب ألف مرة من الأولى.
أكد أوتشيشيوني:

- بالضبط يا سيدي! عندما كنت رهن التحقيق في قضية مقتل زون، أيقظوني بهذه الطريقة أكثر من مرة. اعتدت حينها النهوض لأجد

أمامي فودكا ومقبلات على الطاولة، وحينها كنت أسلك بضمير وأغفو مجدداً. حدث ذات مرة أن أخذوني بعدها إلى السجن، ونمت هناك نومًا عميقًا.

- هل سجنوك؟

- يمكنك أن تسألني يا سيدي أي الأماكن لم أزرها!

- انظر كم يبدو الأمر سهلاً إذا كان السلوك اللائق الداخلي للشخص في حالة جيدة! أما إذا كان العكس، فهذا يعني أنك أنت المذنب. إذا لم يؤاتك النوم في هذه الحالة يا صديقي فأنت المعلوم! أتعرفون فيما فكرت يا أصدقائي؟ لماذا نغلق أقفال أبواب شققنا بالمفاتيح؟ لنجعل الأمر من دون مفاتيح وسيبدو لطيفاً ونبيلًا.

- وما العمل في حالة السرقات؟

- إمام... في حالة السرقة! في هذه الحالة سنخصص مفتاحين للشقة؛ واحد مع صاحبها والآخر في القسم.

إلا أن هذا الاقتراح أثار الجدل. كلانا اعترض، لكن اعتراضاتي لعب فيها القلق الغريزي دورًا رئيسًا، بينما استندت اعتراضات أوتشيشيوني إلى جوانب حقيقية لا لبس فيها. قال:

- دعني أسألك، هل توجد خزانة في القسم يا عزيزي؟

- خزانة؟ أتقول خزانة؟ نسلم أمرنا لله.

- لا، اسمح لي هنا أن أخالفك الرأي. يمكن أن نسلم أمرنا لله، ولكن الخزانة!

أعترف أنني ارتجفت بعد أن تذكرت شهادات الاسترداد التي بقيت معي. كرّرت:

- يمكن أن نسلم أمرنا لله، ولكن الخزانة!

ورفعت إصبعي سبابتي مثل أوتشيشيوني دلالة على قوة حجتي.

صار الخلاف ضارياً. انفعلنا إلى درجة أن شبَّ شجار، ولم نسمع بسببه كيف رن أحدهم الجرس ودخل ردهة الاستقبال. كم تعجبنا حينما وجدنا أماننا بروديتوف ومولودكين، كما لو أنهما ظهرا من تحت الأرض!

حيّانا بروديتوف ماداً يده إليّ وإلى جلوموف قائلاً: «عم تتجادلون أيها الرفاق؟»، ثم خاطب أوتشيشيوني بلطف: «وأنت أيضاً أيها العجوز هنا؟».

قلت مبتهجاً:

- هل جمعتمنا سابق معرفة؟

- سابق معرفة؟ إنه بين أحضاننا دائماً! ٥٠ كوييكا وينطلق! (أضاف وهو يربت على أيدينا) ها قد اجتمعنا معاً لنقضي المساء يا أصدقاء.

- فليجوت بروديتوف! أفاناسي سيميونيتش! أيها العزيزان. بماذا ستمتعوننا؟ هل ستقدمان الفودكا أم ماذا؟

- ستُقدّم الفودكا في وقتها، وهناك أمر آخر: إيفان تيموفيتش سيأتيك سريعاً. لقد ذهب لتوّه إلى بارامانوف وسيأتي إليك من هناك

بشأن الموافقة على حفل الزفاف. لقد بذلنا كل جهدنا مع بالالايكين
ليأتي إلى هنا في غضون ساعة.

- يا إلهي! لم نُجرِ حتى استعداداتنا!

- لا مشكلة! سيتفهم إيفان تيموفيتش. إنه إنسان بسيط وقلبه
أبيض. كأس فودكا وقطعة خبز أسود كمقدمات حتى لا تظهر أي أفكار
منحرفة. هذا كل ما في الأمر!

- لقد أقبلنا لتونا على العمل على المرسوم. يا إلهي! هل نحن في
حاجة إلى أي شيء؟ نبذ؟ أي طبق خاص يلائم ذوق إيفان تيموفيتش؟
قولا لي! أوامرا! ربما يحب مثلاً قصصاً من الحياة اليومية الروسية أو
اليهودية، فيمكننا أن نرسل في طلب حكااء!

- لسنا في حاجة إلى شيء! لا تثقلوا على أنفسكم يا أصدقائي!
إذا كان لديك شيء في المنزل فلتأمر بتقديمه ولن نرفض. فيما يتعلق
بالحكااء لا تشغل بالك به. اليوم عيد شفيغ زوجة الضابط المعاون،
وبهذه المناسبة سيتوافد إليه جمع الحكائين لشرب الفودكا بطعم
البرتقال.



بالرغم من تحفظات بروديتوف اتخذنا بالطبع كل الترتيبات للاحتفال بتشريف ضيوفنا بزيارتهم لنا. أخبرنا بروديتوف بعد ذلك بالاعتبارات التي جعلتنا نجد أنه من المفيد إجراء بعض التغييرات في «البدايات العامة» لمرسوم السلوك اللائق، وقد قابلها من جانبه بالتأييد الكامل لنشاطنا التشريعي.

أفضى بنا هذا التبادل الودي للأفكار إلى أفضل حالة مزاجية، ورغبة في توطيد اتحادنا إلى الأبد، أخبرنا بروديتوف ومولودكين بمعلومات موجزة عن سيرتهما الذاتية؛ الأمر الذي دعانا بالطبع إلى فعل المثل. قال لنا بروديتوف:

- أنا من فياتكا. كان أبي رئيس شمامسة، لكنه حُرِم من درجته الشموسية بسبب ارتكابه لجريمة والحكم عليه بالنفي إلى سيبيريا. بالرغم من ذلك، ولرغبته في الإقامة في موطنه، أعلن عن استعدادة لقبول وظيفة جلاد؛ الأمر الذي أيدته إدارة المقاطعة. في هذه الفترة كنت يافعاً، لكنني تعهدت أن أعمل في أي وظيفة عدا الشرطة. بالتالي، بعد أن ثَقَّفْتُ عقلي وقلبي بدرجة تكفي لأن أعمل مسؤولاً عن إصدار جوازات السفر (فقد عمل أحد أقاربي بهذه الوظيفة في بطرسبرج وعرفت بأمرها

منه) توجهت بعد أن أتممت العمر المطلوب إلى بطرسبرج. هنا تتوقف سيرتي الذاتية وتبدأ القائمة الرسمية للوظيفة الرسمية. قضيت خمسة أعوام في العمل كناسخ انتظارًا لشغل منصب المسؤول عن إصدار الجوازات. بعد ذلك عملت مسؤولاً بالجوازات لمدة ثمانية أعوام، وأخيرًا عينوني منذ اثني عشر عامًا ناسخًا في القسم. قبل خمسة عشر عامًا ترقيت إلى درجة المستشارين المسجلين^(١٠٠) ثم ترقيت تدريجيًا لأصير مستشارًا فخريًا.

- وهل أمورك جيدة؟

- كما ترون يا أصدقائي! لا يسعني التذمر بالرغم من أنه من ناحية أخرى لا يسعني ألا أقول إن الأمور اليوم صارت أصعب منها في البداية.

- كيف؟

- تكفيننا الآن المصادقة الرسمية وحسب! قبل ذلك كان من المعتاد أن تخرج إلى الشارع وترى الينابيع في كل مكان، أما الآن فلا شيء في شوارع دائرتنا سوى الثلج وأعمال الشغب، وتشتت كل شيء آخر في بقية الدوائر. عزمت في قلبي على الآتي: قلت مهما حدث فسأحاول بأي طريقة أن أذكر عشرة آلاف ثم أعود إلى موطني. احكموا الآن بأنفسكم: هل جمعت هذا المال بسرعة؟

- هل جمعته؟

(١٠٠) يشغل هذا المنصب الدرجة الرابعة عشرة من درجات الوظائف الرسمية الروسية في هذا الوقت.

- الأمر أن...

فكر برودينتوف لوهلة، ثم أخذ يحرك أنفه ويشم رائحة ما. نظرًا
لأنني احتفظت في هذه الغرفة بآخر شهادات استرداد بقيت لي ارتجفت،
وحاولت تغيير موضوع الحديث سريعًا. توجهت بالحديث إلى
مولودكين:

- وماذا عنك يا أفاناسي سيميونيتش؟

- بالنسبة إليّ يا سيدي فقد عثروا عليّ في سلة في الساحة في
أثناء اندلاع حريق. اندلع الحريق في ٢ مايو في عيد القديس أفاناسي
(أثناسيوس) الكبير^(١٠١)، ومن ثم سمّاني مساعد المأمور الخاص،
الراحل سيميون إيفانيتش أفاناسي سيميونيتش؛ الأول على اسم القديس
تبركّا به، والثاني على اسمه تشريفًا لي به. أثّرت بشأني قضية في مجمع
الكنيسة حيث تساءلوا: هل يجب أن أعتمد؟ إلا أنهم قرروا أنه لا يجب،
ومن ثم أنا لا أعرف حقًا حتى الآن ما إذا كنت معتمدًا أم لا.

- آخ! يا لها من مصيبة!

- حياتي بشكل عام غير عادية. على سبيل المثال، أحتفل بعيد
شفيعي ولا أحتفل بعيد مولدي.

قال جلوموف مازحًا:

- في الحقيقة لا يمكنك حتى أن تقول ما إذا كنت قد وُلدت بطريقة
حقيقية أم بطريقة ما أخرى.

(١٠١) بطريك الإسكندرية الشهير في القرن الرابع.

- فعلاً يا سيدي! كل ما أعرفه هو أنني تربيت في كنف فرقة الإطفاء في الأدميرالية الثالثة. أمر الراحل سيميون إيفانيتش بأن يضعوني داخل أنبوب إطفاء وقال: بعون الله يصير ملاحظ حريق، وصرت فعلاً.

- وهل تدخر جيداً؟

- لا. لا حاجة لي إلى الادخار. جئت إلى الحياة في حريق وستنتهي حياتي في حريق أيضاً. ما حاجتي إلى الادخار؟

- غريب! ألن تتزوج؟

- لا أرى نفسي ملائماً للزواج. بشكل عام لا أشعر بميل إلى أي شيء إلا إلى الحرائق.

رد برودينوف:

- تكذب يا أخي! اسألوه يا أصدقاء عن الأنسة!

- حدث فعلاً. ذات مرة أنقذت آنسة وانتشلتها من النيران، ولا بد أنني لم أتحلّ بالحذر الكافي. في اليوم التالي ذهبت إلى منزلهم وطلبت أن يبلغوهم بأني فلان الفلاني. وماذا حدث؟ أرسلوا لي مع الخادمة عشرة روبلات! هكذا انتهت حكايتي.

استمعنا إلى هذه القصة وأشفقنا بإخلاص على مصير مولودكين المرير الذي جعله لا يستطيع أن ينعم بالمسرات الأسرية بسبب الحرائق، ومن ثم لا يمكنه أن يأتي بنسل ويتكاثر. قال لنا برودينوف:

- وأنتم يا أصدقاء! احكوا لنا عن أنفسكم!

أجاب جلوموف بالنيابة عن كلينا:

- ماذا؟ نحن؟ نحن ضالان. هذا ما نحن عليه! نيلان بلا شهادات استرداد. هذه هي قصة حياتنا.

- أليست لديكما شهادات استرداد على الإطلاق؟

من الواضح أن بروديتوف كان يمزح لكنني تذكرت كيف تحرك أنفه منذ بضع دقائق وارتجف ثانية. لحسن الحظ خلّصنا بالالايكين من الإجابة عن السؤال حيث وصل في هذه اللحظة لنجدتنا.

جاء إلينا وقد ارتدى سترة رسمية وربطة عنق بيضاء وقفازات قطنية بيضاء. باختصار، بدا كنادل في مطعم بالكين. في الوقت نفسه فاحت منه رائحة العطر حتى إن جلوموف صاح تلقائياً:

- يا لها من عادة دنيئة يا بالالايكين أن تغتسل كل مرة في قناة يكاترينا قبل أن تزور أحداً!

- هذه رائحة بنفسج بارما^(١٠٢). يا لها من رائحة!

هكذا كذب بالالايكين ورفع فجأة طرف كفه إلى أنف أوتشيشيوني حتى إن الأخير عطس ثلاث مرات.

من الواضح أن بالالايكين ارتدى هذه الثياب على أساس أنه سيمضي حالاً إلى الزواج بالثانية. لذلك عندما عرف أن الحديث يدور عن إجراءات أولية وحسب، خلع فوراً قفازاته القطنية وبدأ يكذب. شكى قائلاً:

- إنهم لا يخبرونك أبداً بشيء، ومن ثم يجبرونك على ارتداء قفازات بيضاء والتحرك بسرعة شديدة. أتعرفون أنه توجب عليّ رفض

(١٠٢) بالفرنسية في الأصل.

زيارة أحد العملاء لاستشارتي حتى لا أتأخر عليكم؟ من سيعوضني عن ذلك؟

واساه جلوموف قائلاً:

- ماذا تريد أيضًا؟! لنقدم كأسين لأخينا. أهذه هي خسارتك؟
- لا يا سيدي. خسارتي لا تُعوّض بكأسين. أولاً: أنا لا أتقاضى أقل من مائة روبل للاستشارة. ثانيًا: هذه العميلة... هذه العميلة... أقول لكم إن مائة روبل قليلة على عدم رؤيتها!
سأل مولودكين:

- أتقصد تلك التي من زقاق فونارني؟
- بغض النظر عن من أين هي، ولكن لدي هذه العميلة. علاوة على ذلك أشارك اليوم في لجنة تحكيم قضائية. ما أقرره يحدث!
- هل أنت سليمان!

- سليمان أم لست سليمان، ولكن أريد ألف روبل من فضلكم.
كان من المحتمل جدًا أن يظل بالالايكين يكذب بهذه الطريقة حتى صباح اليوم التالي، ولكن جلوموف، بصراحته المعهودة، أوقف انخراطه في الكذب من البداية بعد أن صاح:
- بالالايكين! مللت منك!

جلسنا نتناول الشاي في انتظار إيفان تيموفيتش، وبدأنا نستخدم لغة بذئية. ما الأفضل: التساهل ولكن من دون ضعف أم القسوة المقرونة بالتجاهل؟ كان هذا هو السؤال الذي أثار كل العقول في هذه اللحظة، ومن

ثم صار هو موضوع الحديث. وقف بروديتوف في صف التساهل، وأيد رأيه بأن السياسة الداخلية وحدها تعرف كيف تجذب القلوب نحوها. قال:

- تعاملت كثيرًا يا أصدقائي مع ضالين ومستقيمين، ويمكنني من واقع هذه الخبرة أن أقول أمرًا واحدًا؛ لكل طريقة الخاصة. الضال جيد إذا أحب الحديث، والمستقيم جيد إذا أحب الشرب أو -على سبيل المثال- ذهب في نزهة بعربته الترويكا!

- أ تقول: الحديث؟ أليس هذا أمرًا زائدًا على الحاجة في الوقت الراهن؟

- لماذا يا سيدي؟ لماذا لا نتحدث ما دام الموضوع مثيرًا للاهتمام ونحن نعرف سابقًا أن شيئًا لن ينتج عن هذا الحديث؟

- بعض الأحاديث الأخرى لا تجلب ضررًا سوى إطلاق رائحة كريهة. أقصد: ما ضرر ذلك؟ التجار مثلًا يتحدثون بهذه الطريقة على نحو رائع.

- وإذا رفض يمكن تهديده. بشكل عام هذا أفضل نظام؛ التساهل أولاً ثم اتخاذ التدابير الملائمة تدريجيًا. سأبلغكم بالقواعد والاسترشادات المنشورة في وقت آخر. يجب إجراء الأعمال دائمًا بهذه الطريقة: التوجه أولاً نحو المعاملة الحرة ثم التراجع تدريجيًا عن...

أخيرًا رن جرس قوي في الحادية عشرة معلنًا عن وصول إيفان تيموفيتش. جاء إلينا مبتهجًا بثوب قصير، ممسكًا تحت إبطيه زجاجة

خمر جورسكي وضعها على الطاولة قائلاً:

- هذه لكم يا أصدقائي من العروس! غداً في الرابعة سنطلب معها الخبز!

ثم أخرج من جيبه حافظة محبوكة مطرزة بخرز أزرق وسلّمها لبالا لا يكين قائلاً:

- وهذه للعريس! هذه لك! انظر أي خرز مطرز عليها! أزرق! حاكته العروس لك بنفسها، الفتاة الصغيرة! حسناً يا أصدقائي! أنا تحت تصرفكم الآن. افعلوا بي ما تشاءون.

ما إن أنهى عبارته حتى صحننا جميعاً: أورا! وأمسكنا بجسد الضيف العزيز وبدأنا نهزه.

لا أتذكر ماذا حدث بعد ذلك إلا بصورة ضبابية. أتذكر أنني ثملت فوراً، وأن إيفان تيموفيتش رقص حتى صاح فيه بروديتوف: «آه منك! عبثاً يحزن المرء!»، وأن مولودكين وضّح لنا كيف يصعدون على أبراج المطافئ في أثناء الحرائق.

كانت الأجواء مبهجة للغاية عندما اجتمع الضيوف الأعداء، ولكن الأهم من ذلك هو أن إيفان تيموفيتش الذي رأيته في منتصف الليل في تمام الاستعداد، ولم يفارق إناء الخمر بعد ذلك ولو لدقيقة واحدة، بدأ قبالة الصباح في الإفاقة تدريجياً، وفي الساعة صباحاً اكتملت إفاقته بالفعل. قال مرتدياً قبعته ذات الحافة المطوية: «الآن حان وقت التقرير»، وهبط بخطوات ثابتة بصحبة بروديتوف ومولودكين.

في ضواحي سان بطرسبرج، في نارفا وكاريتنايا، يشاهد المرء بعض القصور الحجرية الصغيرة تثير الحسد في صدور العابرين بمدى ما توفره من راحة لأصحابها. عادة ما تُزَوَّد هذه القصور الصغيرة على طول الشارع بحدائق أمامية صغيرة تصطف على جانبها أشجار الزيزفون والسنت، وفي ساحات القصور الداخلية ليس من النادر أن يجد المرء بالإضافة إلى المستودعات والأقبية مساحات صغيرة مطوقة زرعوا فيها عددًا من شجيرات الليلك، وفي مكان ما في الزاوية سقيفة مضمرة متشابكة مع القصاص^(١٠٣) مُشَبَّعة باللون الأحمر. يُذكَرُ منظر هذه البنايات الرائي بمناظر المقاطعات؛ خاصة مقاطعة زاموسكفورييتشي حيث يظهر في معظم الحالات السكان الأصليون لهذه الأماكن. يبدو المنظر للمار كعدد لا يُحصى من الفطائر المحشوة ونوع آخر من الطعام، وأن خنازير بيضاء كالثلج ترعى في السقائف وقد سمت إلى حد أنها لم تعد قادرة على الحركة من فرط الدهون، وأسراب الدجاج تتمشى في الفناء، وفي مكان ما يغتسل البط في حفرة مليئة بالماء. كل شيء في هذه الأماكن المليئة بالعشب؛ سواء البشر أو الحيوانات، يكون أسمى من غيره في

(١٠٣) أشجار صغيرة من الفصيلة البقولية.

أماكن أخرى. لا يمكن لأصحاب المكان أن يتنفسوا إلا بصعوبة من الشخير المتراكم في الداخل، ولا يمكن للحوذي من فرط الشبح أن يميز يده اليمنى عن اليسرى، ويقف البواب وفي يده مكنسة ويحك بطنه بعضادة الباب بينما تتدلل الطاهية في خجل، وتنطلق الخيول الشبعانة على آخرها كالنفائات المنطلقة من الأفران من سقيفة المركبات، وهي على أتم الاستعداد لغرز عمود العربات في أي جدار سميك.

في أحد هذه القصور الحجرية الصغيرة عاشت فائينوشكا، فتاة التاجر بارامانوف. بدا منزلها قويًا وممتلئًا بطابقه من خلف صف أشجار الزيزفون والسنت، كما لو أنه يدعو المار لتناول الطعام والنوم فيه، ولكنه في الوقت ذاته يحذره بنباح كلبين يقفزان بشراسة، مقيدتين بالسلاسل من الجانبين الحجريين. شغلت صاحبة المنزل الطابق العلوي ذا النوافذ السبع المطلة على الشارع، بينما قطن في الطابق السفلي القائد المشاء بولكان شامشونيتش^(١٠٤) ريديدا الذي عاد منذ عام ونصف من أرض الزولو^(١٠٥) حيث قاد قوات الملك سيتيفايو ضد الإنجليز، والآن، إبان تفرغه من العمل الحربي، يعمل ككبير الندل لدى فائينوشكا التي حاولت بكل ما لديها من جهد أن تغريه بالبعد عن بولياكوف والقرب منها.

انحدرت فائينوشكا من أصل ورع. كان أبوها حارسًا لكنيسة في قرية زيايليتسين في مقاطعة مورشانسك، وأمها خابزة للقربان، ولكن

(١٠٤) الاسم مشتق من شمشون.

(١٠٥) أحد الشعوب الإفريقية.

أبناء إيارشية زيايلتسين لم يرتادوا كنيستهم بإخلاص. ينتمي أقوى وأغنى أبناء هذه الإيارشية إلى جماعة الصيارفة، أما صغار السمك المتبقي فكانوا منسيين ومضطهدين بالفقر حتى إنهم في مزايهم الطبيعية التي يفوقون بها طبقة الصيارفة لم يجدوا سوى القليل من العزاء. كان بارامانوف أيضًا من سكان هذه القرية، وبالرغم من أنه نقل نشاطه التجاري منذ فترة طويلة إلى بطرسبرج، اعتاد بين الحين والآخر زيارة موطنه واعتبروه النصير الأول لـ «سفينة» المحلية. بفضل علاقاته في بطرسبرج وتواطئه الإجرامي مع رجال الشرطة المحلية، رُفعت راية الدعاية المتبادلة عاليًا في زيايلتسين حتى حُلَّت لحظة أُنْكِد فيها كبير الهراطقة جوزنوف بوقاحة أنه سريعًا ما سيتوقف وجود الجنس البشري باستثناء بعض الشخصيات التي تنعم بقيادات قُدِّر لها أن تستمر في التكاثر على أسس قانونية من أجل بقاء اليهودية!

اتسمت زيارات أونوفري بارامانوف إلى زيايلتسين بالشكل الاحتفالي كاملاً. تساقطت الأمطار الذهبية على القرية، وتكرّمًا له اعتادوا أن يقيموا من أجله طقوسًا احتفالية خاصة يرعد فيها جوزنوف ويتنبأ، ويدور الحمام ويقفز حوله بينما يصرخ: «لقد وصل... وصل يا سيدي!»، وجُنِّد العشرات لأداء هذا التعصب الصياري، وبعد أن تلقى المأمور رشوته سار في الشارع متظاهرًا بأن كل شيء على ما يرام.

في إحدى هذه المرات شاهد أونوفري بيتروفيتش فائينوشكا. كانت الفتاة رشيقة، وبالرغم من سنها التي لم تتجاوز الأربع عشرة بدت أنها تتسم بهذه المزاي المستقبلية التي جعلت ذكر الحمام العجوز ينقر

بلسانه عندما رآها جيداً. هكذا عندما طُلبت يدها من حارس الكنيسة العجوز وخابزة القربان لم يقاوما، بل قبلا سريعاً المهر الكبير ثم انضما إلى الدرجة الثالثة من طبقة التجار^(١٠٦) في مورشانسك حيث انتقلا إلى المنزل الذي شيده لهما بارامانوف هناك. أما فائينوشكا فقد اصطحبها بارامانوف إلى بطرسبرج بعد أن وعد أبويها أن يُعلّمها الفرنسية ثم يُزوّجها لضابط من فرقة الاتصالات، وهي شخصية لا وجود لها الآن.

يبدو أن نية أونوفري بيتروفيتش الأساسية تمثلت في أن يجعل من فائينوشكا إلهة صرافية تترأس الطقوس الاحتفالية ويصير هو ابناً لهذه الإلهة (ولا بد هنا أن أضيف تحفظاً مفاده أنني لست خبيراً بطقوس وعقائد طائفة الصيارفة، ومن ثم قد أسقط في خطأ ما. «المؤلف»). لكن عندما تفحص الفتاة عن كتب تملكته الرقة وقرر أن يسلك معها بطريقة مختلفة. أرسلها إلى إحدى السيدات لتعلمها في مدرستها الداخلية للفتيات في حي زابالكانسكي، وعندما تعلمت فائينوشكا أن تقول «بونجور» وترقص رقصة با دي شال اشترى لها المنزل الذي ذكرناه سابقاً ورتب لها كل شيء فيه.

اتسمت فائينوشكا بالذكاء ولذلك فكرت في وضعها بجدية. في أوج إيناعها لم تنجذب إلى الضباط أو الموظفين ولا حتى الشباب المتأنقين المارين بنوافذ بيتها، بل استمتعت بشبابها الرزين من دون إفراط. لم تتجاهل مباحج الحب لكنها لم تولّ ثقتها لأول مغفل يمر بها، بل للرجل الذي يستحق هذا الحب تماماً بناء على أحكام صلبة

(١٠٦) في هذا الوقت انقسمت فئة التجار إلى ثلاث درجات بحسب حجم رأس المال.

وسلوك رصين حتى لو لم يكن يتمتع بأولى تجارب شبابه. بعد ذلك، وبموافقة بارامانوف، أسكنت رجلها المختار في الطابق السفلي بوصفه كبير الندل، وفي ذلك اليوم منحت كل العاملين في المنزل كأس فودكا. لم تطلق على ذكر الحمام العجوز فاسقًا أو صرافًا، بل على النقيض؛ تنازلت عن تشويهه وأطعمته أطباقًا شهية، وحرصت دائمًا على ربط منشقة تحت لحيته الحليقة بنفسها لأن العجوز اعتاد تناول الطعام بطريقة قذرة، وكان بإمكانه تلويث سترته الحريرية. من جانبه تسامح بارامانوف مع ضعفها الأنثوي ولم يشك أدنى شكوى عندما جلبت لنفسها كبير الندل. في البداية لم يجرؤ أونوفري بيتروفيتش على منحها الكثير من المال خوفًا من أن تهرب، لكنه اقتنع تدريجيًا بإخلاصها وأكرمها بسخاء حتى انضمت رسميًا إلى الفئة الأولى من طبقة التجار. مع ذلك لم تمارس التجارة بصورة شخصية، ولكنها حظيت بمخزن على رصيف كلاشينكوفسكايا مُعلّقة عليه يافطة: «تجارة الجملة للتجارة من الدرجة الأولى: فائنا يجوروفا ستيجنوشكين». من وقت لآخر كان بارامانوف يجري باسمها عملية تجارية أو أخرى، ولا شك أنها حققت مكسبًا كبيرًا.

يستحق السلوك الدقيق تنويجًا بالطبع. بعد أن بلغت خمسة وعشرين عامًا أرادت فائينوشكا ملاذًا لها وبدأت تحلم بالزواج الشرعي. لكن نظرًا لأنها فتاة ذكية وضعت شرطًا لا غنى عنه يتمثل في ألا يضايقها هذا الزواج ولا يضايق ذكر الحمام العجوز بأي شكل من الأشكال. تقدم إليها الكثيرون؛ سواء من أصحاب السلاح أم من غيرهم، لكن أحدًا

منهم لم يلفت انتباهها حتى الآن. ذات مرة كادت أن تنجرف بعيداً؛ حدث ذلك تحديداً عندما جلبوا لها الكونت لومبويو الذي قدّم نفسه لها باعتباره حاجب الدون كارلوس، الماكث في انتظار انتصار سيده منظم الرقصات في مقهى بالي دي كريستال، حيث يكلف كأس الفودكا خمسة كوبيكات وزجاجة الجعة ثمانية كوبيكات. لكن لومبويو أظهر جشعه من أول مرة حيث طلب أن تدفع له فائينوشكا أجرة الحوذي، وأخذت تدفع وتدفع، لكنه رفض التفاوض بشأن المزيد. في ظل هذا الظرف الطارئ المتعلق بترتيب الزواج أخذ إيفان تيموفيتش على عاتقه -كما رأينا- ترتيب الأمر ووجد المحامي بالالايكين، وبالرغم من أنه لم يكن ملائماً بدرجة كافية لهذا الأمر، فقد كان لديه شعار النبالة على شكل خيار رومي مجدول بوشاح وعليه شعار آل بالالايكين: «براسكوفيا هي خالتي والحقيقة هي أمي».

وصلتُ بصحبة جلوموف في الرابعة بالضبط، بالرغم من وجود عربة ذات مقعدين في الرواق الخارجي أقلت العرابين كما وضح لنا الحوذي لاحقاً. ذكرنا منظر بيت فائينوشكا من الداخل بمقاطعة زاموسكفورييتشي، حيث الدرج الخشبي المطلي بالأصفر، والدرابزين الخشبي والسجادة الصغيرة في الوسط، ثم الطابق الثاني المنتهي بساحة صغيرة، وفي عمقها خزانة تفوح منها رائحة طعام الأمس، ويمكن للمرء أن يرى باباً يؤدي إلى الدهليز الداخلي. كان باباً زاموسكفورييتشياً قديماً ذا مصراع واحد، وضخماً، ومنجداً بمشمع رخيص، ومعلقاً بقفل قديم ذي مقبض متحرك. فاحت من المدخل رائحة التوت بعض الشيء،

وعلى ما يبدو طُهي مؤخراً من أجل صنع المربي، كما فاحت رائحة أغراض الأحذية، فعادة كان العجوز روديفونيتش يقيم في هذا المكان، يؤدي عمل خادم الغرفة، وفي أوقات فراغه يمارس حياكة الأحذية؛ الأمر الذي يشهد عليه قالب الأحذية المنسي على النافذة. كان هذا هو روديفونيتش العجوز الذي التقى بنا، لكنه لا يزال عجوزاً شجاعاً يرتدي معطفاً أزرق وربطة عنق بيضاء ونظارة ذات إطار نحاسي فوق أنفه. سألنا بسرور:

- هل جئتما لثُملاً العروس؟ لكن لدينا عقبة: صاحبنا لم يأت.

- كيف ذلك؟

- عادة ما يتردد العرسان. يقول: ضعوا المال على الطاولة أولاً وبعد ذلك خذوه إلى العالم السفلي لو أحببتم!

- كم يبدو هذا سيئاً!

- لا عليكم، سوف يتم الأمر. لقد رحل مولودكين بالفعل، أخذ مائتي روبل في وشاح حرير حول عنقه. إنه في ذروة الأمر الآن! سيصل! عسى ألا يزيد المحامي مائة روبل أخرى! لقد استدعينا بالفعل العرابين. سنتناول الغداء ثم ندبر الأمر.

دخلنا الصالة. وجدنا الغرفة طويلة وضيقة، وفيها النوافذ الثلاث المطلة على الشارع ونافذتان أخريان على الردهة الداخلية المطلة على السلم الذي صعدناه لتوّنا. في منتصف الصالة كانت طاولة متقلقلة على أرجل عديدة متداعية. حول الطاولة وقف اثنان من الصرافين صامتين

يعملان من دون إثارة أدنى ضجيج، ومن الواضح أنهم أتوا بهما من المتجر حيث بدا على وجهيهما الإنهاك والشحوب، كما كانا حليقي اللحية. في أحد الجوانب، بالقرب من الطاولة المليئة بكل المقبلات الممكنة، كان رجل قلق يرتدي معطفًا أبيض بأزرار براقه. هذا هو تحديدًا القائد المشاء. عند ظهورنا تحرك سريعًا وأدار بطنه المستدير بمهارة وتوجه للقائنا.

بدا رجلًا في الخمسين، مفرط الحركة وبيضاوي الشكل تمامًا. بدا في الحقيقة كأنه مكون من عدة أشكال بيضاوية مختلفة يربطها خيط تديره آلة خفية. البيضة الرئيسة في المنتصف ممثلة في البطن، وعندما بدأ يهتز تحركت كل الأشكال البيضاوية الأخرى. كان تعبير وجهه لطيفًا وطيبًا وبدا من الوهلة الأولى كأنه واحد من شخصيات سبيس^(١٠٧) التي على شكل نقانق، وقد وُهبَت إمكانية الضحك. بالرغم من تناقل الشائعات بأنه كان بوسع هذا الفم في ساحة المعركة أن يطلق نغمات قاسية، بل ومتعطشة للدماء، فإنه في الوقت الحالي، بفضل عامين من السلام العميق، فقد هذه القدرة تقريبًا إلى الأبد. بدت شفتاه منتفختين ومليئتين بالدهن نتيجة للعض المتواصل عليهما، ومع ذلك لم يقلل هذا من شهيته، بل على النقيض؛ بدا كأنه قد زاد حديثها. كانت العينان صغيرتين مليئتين بالنداءة بعض الشيء؛ الأمر الذي أضفى عليهما مسحة حزينة وعاطفية. الأنف لين، يمكن بإصبعين تشكيله على أي شكل، والصوت رنان وملائم تمامًا للألفاظ البذيئة الضرورية لحث

(١٠٧) كريستيان هاينريش سبيس: كاتب ألماني.

الحدودية عند الانتقال إلى ساحات القتال. كان معطفه أبيض كالثلج وأزراره مصقولة بدرجة، كما لاحت علامة النبالة لبلاد الزولو ممثلة في أفعى واقفة على جزئها الخلفي في حقل ذهبي، وعلى جانبي الشكل عقرب وعنكبوت ذئبي، وبحسب تفسير ريديدا يمثل هذا الرمز زعيم الزولو بنفسه ممثلًا في الأفعى، ووزيريه الرئيسين؛ وزير شفاء الجذور (العقرب) ووزير ترضية المستوطنات البعيدة (العنكبوت).

رَحَّب بنا بولكان شامشونيتش ريديدا قائلاً:

- أهلاً وسهلاً! كنا يوماً ما قبائل بيتشينجي^(١٠٨) واليوم صرنا نزهر تحت مظلة قوة واحدة.

قال عبارته هذه بإذعان حقيقي لحقيقة مطلقة حتى إن جلوموف عندما تكهن بالسكن القديم للبيتشينجي القدامى عند الروافد السفلية لنهري الدينير والدون، اكتفى ريديدا بأن لَوَّح بذراعه، وكأنه يقول: «سُكنى! وهل قليلون هم من سكنوا؟ اليوم تسكن وغداً أين أنت أنت أيها الإنسان؟!». قال جهراً:

- السلمون أيضاً عاش عند الروافد السفلية للدون، وسبح هناك أيضاً، وقال في نفسه: «نحن مائة! نعم نحن مائة!»، وها هو السمك الآن على طاولتنا نستخدمه كمقبلات. عند الصرافين فقط يمكنك أن تجد حكاية كهذه.

في هذه الأثناء اجتمع الضيوف بالفعل في قاعة الاستقبال، ولكن

(١٠٨) قبائل تترية قديمة اتحدت معاً.

يبدو أن غياب العريس ترك انطباعًا ثقیلاً على الضيوف. جلست فائینوشکا نفسها على الأریكة المقابلة للطاولة المستديرة بفستانها الحريري الأبيض، وشعرها الأسود الرائع المرصع بأشكال ماسية وزهر البرتقال. بدت امرأة فائقة الجمال، صافية وداكنة، وفي واقع الأمر لم یلائمها هذا الفستان الأبيض، كما بدت طويلة، ذات عینین قاتمتین، تغطیهما رموش طويلة وكثيفة، وحمرة وجه قرمزية على الوجنتين، وشفתי غضبتین قرمزیتین یرتحف علیهما زغب رمادي. بدت كإلهة، ولم یبدُ ثدیها هكذا مجرد ارتفاعین من دون مغزی، ولا مجرد امتداد فاتر للطریق؛ الأمر الذي لا یلائم سوى عربات البريد وحسب، بل بدا كل شيء في موضعه، وینسب تحلو للعینین، حتی إنني عندما ألقیت نظرة على نفسي في المرأة رأیت شفתי قد تشكلتا على شكل قلب من تلقاء نفسهما. من الواضح أنها لاحظت هي أيضًا شكل القلب هذا، واستاءت.

بالقرب منها، وعلى الأریكة ذاتها، جلس صراف بئس وقد ارتدى معطفًا أسود یبدو حریريًا یلمع مع كل حركة یؤديها، وقد انخرط في محادثة تافهة بصوته الضعیف من دون أن یُنحّي عنه عن محدثیه ككلب. بدا وجهه متورمًا كما لو أنه مریض بالاستسقاء، ولكن في الرأس، كما بدت عیناه غائمتین ودامعتین، وبرزت من لحیتة أربع شعرات بیض على شكل خطوط مائلة؛ اثنتان في كل جانب، علاوة على زغب أحمر فوق الشفة العليا. علاوة على كل ما فات كان شعره الأصفر الرمادي مدهونًا، وقد مشطته وسرّحته یدا فائینوشکا فوق الرأس الحاسر، من الأذن للأذن.

على المقاعد المصطفة على جانبي الطاولة جلس كل من العرابين والمستشارين السريين بيريكوسيوخين الأول وبيريكوسيوخين الثاني، المُقالين من الخدمة جزاء لخدماتهما الممتازة. بدا كلاهما حزينًا؛ الأول لأنه نال أرضًا في أوفيمسكيا ثم اضطر إلى إعادتها، والثاني لأنه لم ينل أرضًا في أوفيمسكيا، وبالتالي لم يكن بوسعه إعادة شيء. علاوة على ذلك لم يتناول كلاهما شيئًا منذ الصباح في انتظار كوليباكا (فطائر محشوة) الصرافين، وقد أدى ذلك إلى أنه عندما انقطع الحديث لوهلة سُمعت قرقرة خفيفة من بطنيهما. بشكل عام كانا بائسين للغاية، لأن الصحف تصفهما يوميًا بأنهما «سلابان» بالرغم من أن بيريكوسيوخين الأول أعاد ما سلبه كاملاً، وبيريكوسيوخين الثاني لم يستطع حتى نيل شيء ليعيده. لذلك لم يُلقَ الضوء على براءة بيريكوسيوخين الثاني المؤكدة حيث قال الجميع: ومن يمكنه أن يميز بين هذين البيريكوسيوخين؟!

لم يجبرهما جمال فائينوشكا على تشكيل شفاههما على شكل قلب، وبهذا المعنى بدا صرافين أكثر من بارامانوف نفسه.

عند الحائط، على جانبي طاولة لعب الورق، جلس إيفان تيموفيتش وبروديتوف، بينما جلس أوتشيشيوني عند النافذة، وقد جلب معه من إدارة تحرير جريدة «كراسا ديميدروفنا» مراسلنا الخاص، وهو شخص مجنون تمامًا جلس بعينين مفتوحتين على آخرهما منهما في مضغ جذر ما بنفسجي اللون.

قدمه لنا إيفان تيموفيتش قائلاً بإيجاز:

- كان موظفونا ضالين، وقد صاروا الآن مواطنين نافعين.

قال بيريكوسيوخين متعجباً بسرور:

- أهكذا الأمر؟!

تنهد بارامانوف:

- آخ يا أعزائي! يا أعزائي!

- كيف ضللت؟

سألت فائينوشكا بلطف، وابتسمتُ في الوقت نفسه ابتسامة حلوة حتى إن جلوموف صرَّ على أسنانه ومد جسده كله للأمام (وقد فعل ذلك بالمناسبة بشكل لائق للغاية).

شرح إيفان تيموفيتش الأمر قائلاً:

- لا يمكن القول إنه قد وصل إلى مكان جيد، فقد صار حبيس هذا الهراء الذي يشعر المرء بالخزي لمجرد تذكره. الآن قد شُفي والحمد لله!

كنا لا نزال مترددين بشأن الشعور الذي يجب أن نبديه حيال هذا الحديث، وإذا بصوت طرق على البوابة الخارجية يعلن وصول عربة، وفي غضون دقيقة ظهر أمامنا ريديدا، وأشار بإصبعه إلى إيفان تيموفيتش.

وجم الجميع، وقد وصلت إلى آذان الجميع أصوات همس قادمة من الردهة الخارجية، وإذا بإيفان تيموفيتش يشير بإصبعه هو الآخر إليَّ وإلى جلوموف. قال لنا:

- النذل لن يأتي!

- ماذا حدث؟

أوضح مولودكين:

- هذا ما حدث. وصلت ووجدته جالسًا وقد ارتدى معطفه وقفازاته وربطة عنقه البيضاء، ويبدو كالملك المتوج. قال: «المال!» فأعطيته مائتي روبل. عدّها ووضعها في درجه وأغلق القفل وقال: «تبقى ثمانمائة!». حاولت بكل الطرق لكنه رفض الاستماع لي. خلع ربطة عنقه وقال: «إذا لم يصلني بقية المبلغ في خلال نصف ساعة فلن أذهب وسأخلع ثيابي تمامًا وأذهب إلى المغطس».

قال جلوموف:

- كان عليك أن تهدئه يا عزيزي وتقول له: «اصبر قليلاً، والمكان ليس بعيداً».

- قلت يا سيدي ولم يُجدِ معه شيء.

- يا له من وغد! (قالها إيفان تيموفيتش ساخطاً) كم أنفقنا هنا! أعددنا عددًا كبيرًا من الأطباق، وأجرنا العربيين بخمسة وعشرين روبلاً، كما دفعنا مقابل استئجار ثياب أوتشيشيوني، وأحضرنا عاملاً من الصحيفة، وهذا الجاهل استأجر عربة لنفسه على حساب العروس، وهو واقف الآن هناك عند النافذة.

فجأة خطرت فكرة على ذهنه. صاح، مادًا ذراعه إلينا:

- فكرة يا أصدقائي! يا لها من فكرة! كيف لم ينظر واحد منكم إلى هذا الجاهل؟! يا إلهي! يا لها من ثمرة! أفهمتم؟

أذهلتني هذه الكلمات، ولكن -لحسن الحظ- لم يفقد جلوموف حضور بديهته. قال بتعقل:

- أنت لا تحسب الأمر جيدًا يا إيفان تيموفيتش. أولاً: تقاضى بالالايكين مائتي روبل بالفعل. ثانيًا: اتفقنا مقدّمًا على أن يكون الأمر زواجًا من اثنتين. إليكم ما سأفعله: سأذهب إليه بنفسى، ولن أكون جلوموف إذا لم آت به إليكم في غضون عشرين دقيقة!

رحل جلوموف بصحبة مولودكين، وبقيت كرهينة لدى فائئوشكا. لم تجرِ المحادثة على ما يرام بالرغم من إن إيفان تيموفيتش حاول إحياءها بإعلانه: «التوت اليوم رخيص، بل رخيص جدًا، والجميع يتناولونه، حتى من يضرهم تناوله، أما فطر عيش الغراب فلا أثر له!». لكن ما إن أجاب الصراف: «عيش الغراب يحلو طعمه في الزبد الرائب»، حتى اضطرب بيريكوسياخين الثاني، وبدأ للجميع أنهم يسمعون صوت جرس من الغرفة المجاورة. اضطربت العروس حتى إنها نهضت تلقائيًا من على كرسيها قائلة:

- أصحاب السعادة! إليكم الفودكا! تناولوا المقبلات أيها السادة! لا تثقلوا على أنفسكم!

أعادت هذه الدعوى الجميع إلى طبيعتهم، ونسي المستشاران السريان ما يتعلق بأراضي أوفيمسكايا، وتحركا خلف المضيفة، واندفع إيفان تيموفيتش إلى الأمام ليفسح الطريق للضيوف. مد أوتشيشيوني عنقه كجواد في معركة، وأخذ ينقر على ربطة عنقه، حتى إن «مراسلنا الخاص» حرك لسانه وكأنه يمصه. في مؤخرة المكان أخذ الصراف

يخطو بصمت. التقيت برديدا عند طاولة المقبلات، لكنه لم يسمح بشرب الفودكا مباشرة، بل تذوق أولاً قدرًا بسيطًا من كل نوع (في أثناء فعل ذلك أغلق عينًا وحدق بالأخرى إلى الفضاء، والله وحده أعلم بالآفاق التي رآها بعيدًا) وأخيرًا أشار لفريق الضيوف بيديه قائلاً:

- يمكنكم البدء باطمئنان!

فعل الأمر ذاته مع المقبلات، وتناول من كل نوع، وشرح مع كل قطعة يتناولها مزاياها وأيضًا العيوب التي يمكن أن تبدو فيها. ويقول عن الرنجة إنها رنجة، وعن السمك المدخن إنه سمك مدخن. علاوة على ذلك أثنى ملاحظاته بقصص من حياة الشعب الروسي الرائع، وبذلك اكتسبت المقبلات طابعًا تاريخيًا عقلائيًا، ولم تمر عشرون دقيقة حتى عرفنا جيدًا كل تاريخ الشعب الروسي في القرن الثامن عشر، وبفضل المقبلات الجديدة التي قدموها أيضًا أملنا في أن نعرف ماذا حدث في تاريخ هذا الشعب بعد ذلك.

تساءل بيريكوسيكسين الأول متعجبًا ومشيرًا إلى ريديدا:

- أين وجدت يا فائنا يجوروفنا هذا الكنز؟

- جاء بنفسه بسبب لطف العروس!

أجاب الصراف العجوز:

- سيادة المحارب أنيكا فوين^(١٠٩) لا يمكث في مكان واحد

طويلاً! من حملة لحملة! الآن سوف يستدعيه الفراغة!

(١٠٩) شخصية بطولية في القصص الخيالية الروسية.

توجه بيريكوسيكين الثاني إلى ريديدا قائلاً:

- قل لي، هل الأمر مربح؟

- ماذا أقول لك؟ ذهبت مؤخراً إلى قبائل الزولو، وهو مسار يصل إلى مائة ألف فرست ذهباً وإياباً. استخدمت ثمانية عشر جواذاً، وكل منها يكلف المرء ثلاثة كوبيكات. احسب كم يكون المبلغ! في المحطات لا يريد الحوزية التحرك سريعاً، وكل ما يفعلونه هو أن يصيحوا: «أورا!»، والأجر اليومي بحسب الاتفاق، وعلاوة على ذلك يعرجون على أقاربهم في الطريق.

قال أوتشيشيوني:

- وهل هي منطقة جيدة؟ أقصد حيث يعيش الزولو؟

- يا لها من منطقة! يا لها من منطقة! أعطي من أجلها كل ما لدي ويظل قليلاً!

- وهل كل شيء هناك؟ الكافيار مثلاً والباليك (سمك مدخن) والرنجة في أفضل حال؟

- كل شيء كافٍ من دون انتباه إليه. كما لو أن لدينا ثروات في باطن الأرض كثيرة حتى إننا لا نعرف كيف نقرب منها. هكذا هم: لا يأكلون سمك الحفش ولا السردين، بل يأكلون الأفاعي والعقارب والخفافيش. هذه هي الأنواع المفضلة لديهم.

- آخ! آخ! آخ!

بينما الحوار يجري تحت فائنوشكا بي جانبًا وسألتني بصوت خافت:

- هل صديقك هو الذي ذهب إلى بالا لا يكيين؟

- نعم، هو صديقي.

- يبدو مضحكًا.

- كيف ذلك؟

- لم أقل له سوى كلمتين فقط وإذا به قد غرق تمامًا؛ حدثت عيناه، وكاد يُغشى عليه لولا أن خجل من الناس.

كانت أمامي، ممسكة بقطعة باليك بإصبعين، تقضم منها قطعًا صغيرة للغاية بأسنانها البيضاء المتساوية. من الواضح أن سلوك جلوموف لم يضايقها، ليس ذلك وحسب، بل بالأحرى راق لها. لكن ما الهدف الذي جعلها تقول لي ذلك؟ هل قالت ما قالته بتلقائية لتشغل ضيفها، أم أن كلماتها تنذر بتغيير مستقبل صديقي؟

واصلت حديثها من دون أن تنظر إليّ قائلة:

- اليوم سيغادر بولكان شامشونيتش إلى الفراعنة!

- اليوم؟

- نعم. سنحتفل بالزفاف عند زافيتايف، ومن هناك سننطلق بالعربة.

- هل تشعرين بالأسف عليه؟

- أنا؟ إنه يتناول الكثير من المقبلات. ملل!

- وهل تحتاجين إلى... -

- لا أحتاج إلى شيء، ولكن قل لصديقك أن يجلس بجانبني في أثناء تناول الغداء. أريد أن أهمس له بشيء.

رفعت عينيها قبل أن تنهي حديثها. ابتعد بيريكوسيين عن المقبلات وأمال رأسه بحزن وهاجمها بنظراته.

هنا جرى مشهد صامت.

تضرع المستشار السري من دون أن ينطق بكلمة: «آه لو كان بوسعي أن أنال شقة قائد!».

أجابته فائينوشكا بحزم ووضوح، ومن دون أن تنطق بكلمة أيضًا: «منحتك إياها!».

هنا فقط أدركت أي مستقبل عظيم ينتظر جلوموف.



ثمة مبالغة بشأن سمعة ريديدا العسكرية. صحيح أن رفاقه في فوج النبلاء أكدوا أنه أخذ على عاتقه تنفيذ بعض المناوشات العابثة في طشقند، لكنهم لم يوضحوا بدقة ما إذا كانت هذه المناوشات قد جرت في طشقند الجغرافية التي نعرفها أم في حانة طشقند الموجودة خلف شارع نارفسكايا. مع ذلك لم تمنح السلطة تقديرًا كبيرًا لمآثر ريديدا، وتركته يترقى ببطء حتى إنه بلغ الخامسة والأربعين ولم يتجاوز رتبة عقيد. بعد أن فاض به الأمر من لا مبالاة رؤسائه غير نشاطه وتوجه إلى القطاع الغربي ليعمل في مجال الترويس^(١١٠). لعب هناك دورًا رياديًا بين اليهود، وبعد أن طردهم من مناصبهم عاد إلى موطنه محملاً بالغنائم. لكن هذه المأثرة لم تُقدَّر حق قدرها. حين حدث ذلك أخلى يده ونشر الإعلان التالي في الجرائد كافة:

نقيب!

يتولى أعمال الاستطلاع، ويهاجم تحصينات كبيرة وصغيرة، ويتنصر في معارك ضخمة وبسيطة، وينصب الكمائن، ويطارد العدو، ويتراجع إذا قضت الضرورة. يمكنه أن يكون مفيداً بدرجة خاصة في

(١١٠) سياسة اتبعتها الحكومة القيصريّة لإجبار بعض المناطق الخاضعة لسيادتها على التحول إلى اللغة والعادات الروسية من خلال العنف وقوة الشرطة.

أثناء الصراعات الداخلية. في أوقات السلم يمكنه أن يعمل محرراً بجريدة. يسلك سلوكاً لائقاً. اطلبوا بولكان ريديدا القاطن في حي زبالكانسكي، بناية ٤ - ١٠٥، سقيفة في الساحة. يمتنع الوسطاء.

اعتمد ريديدا سراً على دون كارلوس الذي كان في هذا الوقت يدعم الحرب الأهلية الخلاصية في شمال إسبانيا، بل وأجرى المفاوضات أيضاً مع الكونت لومبوبو الذي ذكرناه سابقاً، بخصوص أموال البدل اليومي والرحلات الطويلة. لكن لومبوبو عرض خمسة روبلات لأداء هذه المهمة، وكان بوسع ريديدا أن ينال منها ثلاثة روبلات وحسب، ولذلك لم يتم الأمر.

نعم ريديدا بحظ جيد في إفريقيا، فقد استطاع تولي عدة تعهدات. أولاً دعاه الملك الأثيوبي أموناصرو (جاءت الدعوة من ابنته عائدة تحديداً) وقلدوه وسام «التمساح»، وبعدها أُسر فوراً. انتقل ريديدا من أثيوبيا إلى بلاد الزولو حيث علق زعيمها سيتيفايو (وهو يدرس الآن النظام البرلماني في لندن) بيضة نعامة حول عنقه، وبعدها أُسر أيضاً. لم يغفُ ريديدا للحظة في الطريق حيث تولى مهمة مساعدة ملوك المنطقة الاستوائية على تسوية الخلافات فيما بينهم، وعلاوة على ذلك ساعدهم على أسر بعضهم بعضاً، ونال لقاء ذلك جولات وبدلات يومية وفقاً للحسابات المدونة في بطرسبرج. الآن توجه إليه أحد البشوات العرب لطلب العون، ووفقاً لريديدا كان زميلاً له في فوج النبلاء.

بالرغم من أن ريديدا لم يريح معركة واحدة حقيقية، فإن سمعته كقائد ترسخت بقوة. وقره التجار الموسكوفيون، وبالنظر إليه كان

أصحاب الامتيازات الوطنيون البطرسبرجيون يتقدون. استحوذ ريديدا بدرجة خاصة على قلوب التجار من خلال تحديد مهمة روسيا في الشرق، وما يقترن بذلك من آفاق رائعة يجب أن تنفتح أمامهم في مجال الأقمشة والأنسجة التي تنتجها أفخم الشركات الروسية في حالة تنفيذ هذه المهمة. حينما طوّر هذه الفكرة، متصورًا في الآن ذاته سلسلة لا نهائية من القوافل الممتدة من البوابات الأيبيرية^(١١١) وحتى مدراس^(١١٢) صاح جميع مستشاري المصانع «أورا!»، ولقد قضى وسط هذا الضجيج على كمية ضخمة من الأطعمة والمشروبات، وهذا وحده يجعلنا نطلق عليه إلى الأبد لقب فارس وبطل. طوال عامين كاملين ظل يأكل ويشرب على حساب مستهلكي الأنسجة والأقمشة القطنية جزئيًا، وعلى حساب ركاب السكك الحديدية جزئيًا، وبهذه الطريقة شارك بصورة غير مباشرة في كارثة كوكوفسكايا^(١١٣)، لأن الأموال التي كان يجب استخدامها لإصلاح الجسر استُخدمت لتكريم ريديدا. في هذين العامين دلّل نفسه إلى حد عدم تدخين السجائر إلا بأطراف ذهبية، وفي الآن ذاته أعطاهم أسماء اختراعات وطنية عسكرية بدلًا من الأجنبية. مثلًا، أطلق على أحد الأنواع: «زابالكانسكي» تيمناً بحي زابالكانسكي حيث عاش في البداية، كما أطلق على نوع آخر «سينوب» تيمناً بفندق «سينوب» حيث أدى هناك مناورة ناجحة ولم يترك كأسًا أو طبقًا واحدًا إلا وكسره.

(١١١) البوابات الأيبيرية أو بوابات القيامة: إحدى بوابات موسكو.

(١١٢) عاصمة ولاية تاميل نادو الهندية.

(١١٣) حادث سكة حديد في روسيا في ١٣ يوليو ١٨٨٢، حيث خرج القطار عن مساره وقتل أكثر من ٤٠ شخصًا.

في هذه الفترة من المعيشة الحرة اكتسبت هيئته هذا الشكل البيضاوي الذي أدهش بسرور كل زوار فائينوشكا. لكن يلزم هنا أن نقول الحقيقة، وهي أن هذا الشكل البيضاوي يلائم كبير الندل أكثر من ملاءمته لقائد، لأن الأخير -مهما قال- يجب أن يكون مستعداً لإراقة الدماء في أي وقت. لذلك حتى أكثر الناس إخلاصاً لريديدا عندما عرفوا أمر الدعوة التي تلقاها من الباشا العربي هزوا رؤوسهم برية، متيقنين من أنهم لن ينتظروا في المستقبل نصراً أو ظفراً. قالوا فيما بينهم: «العجوز النهم صار كسولاً! انظروا إلى بطنه وقد صار كله طيات تماماً مثل ثور تيرولي ثمين!».

حاول البعض منهم حتى حثه على عدم الذهاب إلى هذه الرحلة، حيث وضحوا له أنه في حالة أن يأسره الإنجليز، فلن يطلقوه، بل سيبيعونه في مزاد لأحد المارقين، وسيصطحبه معه إلى الأسواق، وهناك سوف يضايقه الأولاد، لكن تصوّره لنيل بدلات الذهاب إلى القاهرة والعودة أغوته، حتى إن هذا التركي الأصل أغلق أذنيه عن كل محاولات الآخرين لإقناعه. في هذا الصدد أخطأت فائينوشكا أيضاً، لا لأنها لم تثنه عن الرحلة، بل على النقيض، لأنها أججت فيه التعطش إلى المآثر العسكرية.

اتسمت العلاقات التي تربط فائينوشكا بالقائد المشاء بالتشوش الشديد. مثلما حدث مع الشركات التجارية، جذبتها أيضاً سمعته العسكرية، وكما ذكرنا سابقاً، لم تدخر أي نفقات لتغريه بالبعد عن بولياكوف والقرب منها. لكن ما إن اقتربت منه حتى صارت على

قناعة بأن الفضيلة الوحيدة التي بقيت من بين كل فضائله هي شهوته الشديدة إلى المقبلات. مع ذلك سيكون من الظلم أن نقول إن ريديدا كان يخدعها عمداً. أقرب الاحتمالات هو أنه تدريجياً، بينما يتناول المقبلات ويبحث عن أفضل الطرق لبيع الأنسجة والأقمشة القطنية الموسكوفية، بدّد بنفسه عاداته في التعامل بشكل نقدي مع قواه الشخصية. أيّاً كان الأمر، لعب فوراً دور كبير الندل حتى إن فائينوشكا ارتبكت بعض الشيء.

ظلت لبعض الوقت تأمل في أن توقظ فيه مسألة الزواج من بالالايكين غريزة القائد، ولكن يا للعجب! لم يقتصر الأمر على أنه استجاب لهذا الخبر بالقر على لسانه وحسب، بل إنه سألها أيضاً عن عدد الشخصيات التي سيُعد لها غداء الاحتفال. حينها فقدت رباطة جأشها تماماً وبدأت تستنشق الكحول وتذهب إلى العرافين. رأت نفسها بهلع محكوماً عليها بعيش حياة تعيسة إلى الأبد في مجتمع الصرافين، وبدأت مخيلتها تختلط أكثر فأكثر بصورة لومبوبو ذي العينين السوداوين. قررت أكثر من مرة التخلي عن كل شيء والهرب إلى مقهى بالي دي كريستال لكن يداً خفية أبقتها على طريق الحكمة، ولم يكن ذلك عبثاً. في أشد لحظاتها حرجاً هرع الباشا العربي لعونها باستدعائه ريديدا إلى أرض القتال. ربطت حافظتين معاً؛ واحدة لبالالايكين والأخرى بنقش خرز ذهبي «من السيدات الروسيات» وأعطتهما لريديدا ليسلمهما إلى الوطني المصري الشهير.

لكن لنعد إلى حكايتنا.

أخيرًا جلبوا بالالايكين واستطعنا أن نبدأ تناول الغداء. جلس العريس والعروس كالعادة إلى جانب بعضهما، وجلوموف إلى جانب العروس (لم يندهش حتى عندما أخبرته برغبة فائينوشكا)، أما أنا فجلست إلى جانب العريس. جلس أمانا الصراف البائس وإلى جانبه العرابون. توزع بقية الضيوف عشوائيًا؛ أما ريديدا فقد اختار لنفسه مكانًا عند نهاية الطاولة، ولم يجلس تقريبًا، بل وقف مآدًا ذراعيه، وقاد جيش الصرافين الذين تولوا خدمة ضيوف الطاولة.

ارتدى بالالايكين ثيابًا أنيقة وبدأ في مظهر لا بأس به. حتى إيفان تيموفيتش امتدحه قائلاً: «ها قد برّرت نفسك!». وقبل تناول الغداء اصططحته العروس إلى المخدع وأرته ثوبًا حريريًا أزرق وحذاء من نوع تورجكوف وقالت: «هذا لك!». يمكننا بالطبع أن نتيقن من أن تعبيرًا سعيدًا لم يفارق وجه بالالايكين بعد ذلك.

لكن حتى في هذه اللحظات الاحتفالية لم تفارق فائينوشكا حمامها العجوز. كما العادة أجلسته وربطت المنشفة حوله وربت على وجنته وهمست في أذنه، ولكن بطريقة يمكن للجميع سماعها: «اجلس هنا يا بابا العزيز، ولا تشق إليّ! وأنا سوف أنظر إليك يا حمامتي!».

انتعش جميع الضيوف على طاولة الغداء، وقد حدث ذلك بدرجة خاصة لي وجلوموف لأننا كنا في غالب الأمر موضوع الحديث والمديح. تدفق حديث إيفان تيموفيتش كما يتدفق غناء العندليب، وقد حكى تفاصيل تحولنا المعجزي إلى طريق النيات الحسنة. قال:

- أرى شيئًا ما سيئًا يحدث في ليتيني؛ شابان يقيمان في شقة، لا يذهبان

إلى أحد، ولا أحد يذهب إليهما. تُرى ما السبب؟ أفكر: ستكون خطيئة أن أدفع بالشباب إلى اليأس. كما ترون، أرسل لهما واحدًا من دبلوماسيينا وأقول له: راقب الأمر هناك! إذا حدث شيء ما فستكون أنت المسؤول! وماذا حدث؟ لا يمر أسبوعان وإذ بي أسمع الآتي: إنهما جاهزان الآن للمضي في أي مسار! حسنًا، انتظرت قليلًا لأختبر الأمر وأرى أنه لم يحدث أي تأخير، وأقول لهما بنفسني: فلتعارف أيها الصديقان! أكد برودينتوف:

- وهما الآن يعاوناننا في الأعمال المكتبية في القسم.

وقال مولودكين:

- كما يعاونانني في الإطفاء.

صاح أوتشيشيوني من كل قلبه:

- كما يفعلان أفعالًا صالحة سرية! يد تعطي والأخرى لا تعرف^(١١٤)!

صاح الصراف العجوز:

- آه يا ناس! آه يا ناس!

توقف تدفق الشناء للحظة بسبب تأمل الكوليباك^(١١٥) الضخمة التي

(١١٤) تعبير مستمد من متى ٦: ٣ «وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلَا تُعْرِفُ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ».

(١١٥) نوع من الفطائر الروسية عادةً ما تُحشى بسمك السلمون أو سمك الحفش مع الأرز أو الحنطة السوداء والبيض المسلوق والفطر والبصل والشبت.

تبين أنها ملائمة تمامًا لما سمعته الأذان لتوّها، ثم عاد إيفان تيموفيتش مجدّدًا بقدر أكبر من الحماسة إلى موضوع حديثه.

- مؤخرًا بدأنا نعد مرسومًا للنيات الحسنة من كل النواحي، بناء على طلب القسم. أخذنا نناضل ونناضل في إعداده، من دون أن نتحرك خطوة إلى الأمام ولا إلى الخلف، وإذ بهما فجأة! تأملا الأمر وتعمقا فيه وتحدثا فيما بينهما، ومن هنا استطعنا تحقيق النجاح، وإذا بنا نكتب مقالة تلو مقالة... مقالة تلو مقالة!

توجه إليّ بيريكوسيكخين الأول بالحديث بدمائة:

- أتمارس العمل التشريعي إذن؟

- أمارس كل شيء. يمكنني سن قانون ويمكنني أيضًا إلغاؤه بحسب ما يتطلبه الأمر.

واصل إيفان تيموفيتش مديحه لنا:

- تخيل سعادتك أي سلوك لائق وصلا إليه حتى يقترحا أن يكون

لكل شقة مفتاحان؛ واحد منهما في القسم!

بقوله هذه العبارة الأخيرة حتى البيريكوسيكخينان فغرا فاهما بالرغم من أن لكليهما خبرة في المجال التشريعي. وضح أوتشيشيوني قائلاً:

- يعني ذلك أن يأتي الضيف في أي وقت ويأخذ ما يريد ويرحل!

قال بيريكوسيكخين الأول:

- إِمَم! هذا... سأقول لك... هذا يماثل أن تدخل إلى النفس من دون صابون^(١١٦)!

قال بيريكوسياخين الثاني قلقًا:

- ولكن اسمح لي، ماذا لو كانت لديك في الشقة أموال مثلاً؟
فغر الجميع أفواههم مجددًا فقد فاجأت كلمة بيريكوسياخين
الجميع وجلبت لهم الغم. لكن في هذه اللحظة قال إيفان تيموفيتش
بتأثر:

- آه سعادتك! وما هو المال؟ المال أمر مُكتسب. لديك مال وسواء
لدي أو لديهم (أشار إلى بروديتوف ومولودكين) أو حتى ليس لدينا...
ما الفرق؟ أين هي حلاوة المال؟! إنه مجرد إغواء!
- ولكن...

هنا قال بيريكوسياخين الأول:

- لا، سأوضح لك. عندما كنت لا أزال في الوظيفة تقدم إلينا أحد
السعاة العسكريين المتقاعدين بهذه الفكرة: أن نقسّم المدينة بأكملها
إلى وحدات عسكرية. كل منزل، أي كل وحدة عسكرية، يترأسها كبير
بوابين، وعلاوة على ذلك هناك أيضًا وحدات سريعة^(١١٧) لإحداث نوع
من الملاءمة والتكيف.

تصاعدت الصيحات من كل ناحية:

(١١٦) تعبير روسي عامي يُقصد به أن تنال حظوة وثقة الآخرين بالخداع والمكر.

(١١٧) أحد التشكيلات القديمة المؤقتة في الجيش الروسي.

- هذه فكرة فذة!

قال ريديدا:

- لكن لو كان الأمر بيدي لفعلته بطريقة مختلفة. فيما يتعلق بوجود
مفتاحين والوحدات العسكرية... كل هذا رائع، لكن لو كان الأمر بيدي
لنصبت مدفعًا عند مدخل كل بيت، وعند الضرورة أصبح: أيها البواب!
أدّ عملك!

- رائع! رائع!

وافقه بيريكوسيين الأول قائلاً:

- وسيكون الأمر مفيدًا أيضًا وقت الحرب فسنكون جاهزين في أي
وقت. أهلاً وسهلاً بكم أيها السادة الشرفاء!
باختصار، في غضون نصف ساعة ظهرت أفكار مشروعات وخطط
مفيدة كثيرة إلى درجة أن الصراف البائس ظل يسمع ويسمع حتى تأثر
بشدة. تنهد قائلاً:

- آخ يا أعزائي! آخ يا أعزائي! أكتتم تحملون كل هذه الأفكار؟!
أكتتم تفكرون طوال الوقت في الأفضل لنا والأكثر ملاءمة؟! أسهل
إطلاق المدافع؟ ألا تخافونه ما دام مفيدًا؟!

لكن لا يمكن لذكر المدافع وإمكانية نشوب حرب ألا يجعل
الحديث يتطرق إلى أمور تتعلق بهذا الموضوع. سأل بيريكوسيين
الأول:

- ما رأيك يا بولكان شامشونيتش؟ إذا هاجمنا الألمان أو الترك الآن، فهل روسيا مستعدة للرد؟

أجاب ريديدا:

- لو حدث الأمر الآن، في هذه اللحظة، سيكون سيئًا.

قال بيريكوسيكخين الأول بخوف:

- سيبدو الأمر كما لو أنه حاسم تمامًا.

- لا أعرف كيف أوضح الأمر لك، ولكن قواتنا المقاتلة في وضع جيد. هذه حقيقة، والسلاح متوفر بدرجة معقولة، وحتى البارود إذا سعوا إليه فسيجدونه. ولكن ما هو غائب حقًا يا سيدي هم القادة! ليس هناك قادة.

- لكن...

- لا شك يا سيدي، والأمر ليس كذلك عندنا فقط، بل في كل مكان.

- لكن إذا ظهر احتياج إلى الجنرالات فلا بد من البحث عن وسائل نسد بها هذا الاحتياج، أليس كذلك؟

- الوسائل موجودة، وقد اقترحت فعلاً.

تمالك ريديدا نفسه وبدأ يصب الصلصة من الطبق إلى فمه بسرعة حتى تعالى الصرير من الطبق، وانعكس لمعان السكين على الحائط في شكل أرانب صغيرة. واصل ريديدا حديثه قائلاً:

- الحل بسيط للغاية؛ إنشاء مؤسسة دولية للقادة المشائين، وهو أمر يمكن تنفيذه بسهولة. سيكون العدد محدودًا: خمسة أو ستة أشخاص لا أكثر، ولكن بشرط أن يكونوا مستعدين دائمًا. يمكنك أن تختار منهم من تشاء، وإن شئت يمكنك الاختيار بحسب الموطن.

- لكن من سيُعيّن في هذه المؤسسة؟ ومن الذي سيُعيّنه؟

- سنجد الصيادين الملائمين يا سيدي. إذا شعر أحد بمثل هذه القوة في نفسه فلن يتكاسل! سيأتي بنفسه ويعلن عن نفسه.

- إمام!

كان المشروع عجيبيًا حقًا، بل وبدأ من النظرة الأولى غيبًا. لكن عندما بدأوا يناقشون الأمر ويتفحصونه بدأ مفيدًا. أول مكان من الإغراء فيه هو سهولة العثور على القادة. إذا تطلب الأمر قادة فس نجد السيد القائد الذي لا يُقهر. إليك جيشك، وسيزودك أحد المخلصين بالبقسمات ولتنطلق إلى النصر. وستتصر! جذبت هذه الفكرة بيريكوسين الثاني حتى بدأ ينهمك في التخيلات والبحث عن أقسام أخرى يمكنه فيها تطبيقها. اتضح أن المؤسسات التالية ستكون ملائمة تمامًا لتطبيق هذه الفكرة: المالية - الاتصالات - البريد والهاتف... إلخ. وافقه أوتشيشيوني على هذا الرأي. قال:

- إذا لم يتوفر المال الآن، وإذا لم تكن الميزانية في حالة جيدة، فكل ما سيتعين عليه فعله أن يضع يده في الحقيقة ويقول: السيد الخبير في المالية جريزنوف! المال من فضلك!

أما الصراف، فقد اتسم بالصراحة التامة من جانبه ولم يخف تعليقه على الأمر. قال:

- آخ يا أعزائي! آخ يا أعزائي! كيف تقولون إن المال غير متوفر! هل يمكن أن يحدث ذلك؟ المال موجود، ولكنهم لا يبحثون عنه في المكان المخبأ فيه.

بدأ حينها الحديث عن المكان المخبأ فيه المال، وكيف يمكن العثور عليه، وأملوا في أن يمضي بارامانوف أكثر في طريق صراحته، لكنه أمسك نفسه وتصنع منظر من لا يعرف أن القط أكل اللحم. توكلوا على الله وانتقلوا بالحديث إلى موضوع القرن التاسع عشر. تحدثوا عن الباخرات والقاطرات البخارية والتلغراف والتلفون والستيرين والبارافين والأولين والكيروسين، وفي كل شيء تُرى فيه يد العناية الإلهية ويحمل الخير لروسيا بوضوح. قال بيريكوسياخين الثاني:

- منذ فترة طويلة كنت أسافر إلى موسكو في ديليجانس^(١١٨)، وها أنا جالس معكم اليوم. سافرت ووصلت! أضاف أوتشيشيوني:

- منذ زمن بعيد سعادتك كانوا يفضون أظرف الرسائل بدبابيس الشعر. كم كان الأمر مضیعة للوقت! اليوم يمسون الظرف فوق البخار للحظة ويقرأ المرء ما يشاء!

اندهشوا مجدداً، لكنهم أرادوا التفكير فيما إذا كان ينبغي للمرء أن

(١١٨) عربة بأربع عجلات يجرها جواد.

يرى هنا يد العناية الإلهية المحسنة بوضوح لروسيا، ولكن بيريكوسيين
الأول انعطف بدفة الحوار قليلاً. توجه إلى ريديدا بالحديث قائلاً:

- وهل لدى هؤلاء الزولو أي ماليات؟

- ليست لديهم ماليات حقيقية، ولكن لديهم ما يشبهها بالطبع،
وإلا كيف يتدبرون أمورهم!

- هل يصكون نقوداً؟

- لا يصكون نقوداً بل يتصرفون كالتالي: يتقيأ تمساح سيتيفايو مثلاً
عظمة صغيرة فيتعاملون معها باعتبارها روبلاً فضياً. إذا تقيأ المزيد من
العظم يُحسب خمسة أو عشرة روبلات، وإذا وصل طول العظمة إلى
١٠ فيرشوك^(١١٩) مثلاً تساوي مائة روبل. في هذه الأثناء يقضي الوزراء
أوقاتهم في صنع العملات الصغيرة. ذات مرة بينما هم جالسون صنعوا
مليون عملة!

- يا لها من مدينة ويا له من شعب ويا لها من عادة! انظر أي سهولة
صنعوا بها الأمر!

- وهل لديهم سياسة داخلية؟

- ليست لديهم سياسة داخلية حقيقية، ولكن لديهم شفاء للجدور.
هنا الشرطة والقضاء والتنوير الشعبي وكل شيء! هناك يأخذون الأعزاء
مفرطي الحساسية ولا يطلقونهم إلا عندما ينتهي أمرهم.

- يا للسهولة الكبيرة!

(١١٩) وحدة طول روسية قديمة تُقدَّر بـ ٤٤ سم.

- وهل لديهم وسائل اتصالات؟

- ليست لديهم وسائل اتصالات حقيقية، ولكن منذ فترة قريبة أنشأوا وزارة لكوارث كوكوفسكايا. الآن فقط بدأوا يشيدون الطرق.

كلمة تلو الأخرى وانكشفت لنا حياة الزولو تمامًا. الماليات والشرطة والقضاء ووسائل الاتصالات والتعليم الشعبي... لديهم كل شيء بوفرة ولكن بطريقة غير حقيقية، بل بما هو أفضل من ذلك؛ بطريقة أفضل من الحقيقية. تبقت إذن مسألة واحدة تحتاج إلى الحسم: كيف استسلمت دولة كهذه مزدهرة ومنظمة، ولديها قائد كريديدا، إلى الإنجليز بهذه السهولة؟ لكن ريديدا قدّم لنا إجابة مُرضية تمامًا عن هذا السؤال. وضح لنا:

- استسلموا لأنهم لا يفهمون أوامري. أقول لهم: إلى الأمام يا رفاق! فأجدهم يتراجعون. أقول لهم: تحركوا! فأجدهم ثابتين في أماكنهم! الأوغاد! بطريقة ما تمكنت من الهروب وظل سيتيفايو على عرشه في قلب ميدان المعركة!

تأسفنا وشربنا نخب العريس والعروس ثم نخب العرابين ثم نخب بارامانوف، وأخيرًا نخب سيتيفايو، فطبقًا لريديدا ربما يكون مفيدًا لروسيا. أرادوا التحدث عن أمر آخر لكنهم شعروا بالثقل. أخيرًا قدّمت الفاكهة وانتهى الغداء. هرعت تلقائيًا إلى جلوموف.

عرفت من حديثه أنه عُرض عليه الانتقال إلى شقة ريديدا غدًا. أما أعجب الأمور فهو أنه عندما أبلغني بقراره، لم يقتصر الأمر على أنه لم يرتبك وحسب، بل نظر إليّ أيضًا بثقة كبيرة أكثر من ثقته الطبيعية. أعترف

أني لم أنتظر أن يتم كل ذلك بهذه السهولة ومن دون أدنى تردد، ولذلك خاطرت بالقول إنه في ظل أي علاقة تتمتع بأدنى قدر من الاحترام يكون الأمر منفراً أن يعتمد الرجل على امرأة، خاصة إذا اعتمدت هذه المرأة على رجل آخر. لكنه اعترض على حديثي بإيجاز قائلاً إنه بعد أن قرر المضي في طريق إثبات حسن النيات لم يعد بإمكانه التردد، وسيسير في الطريق بثبات عزم، ودعاني في نهاية حديثه بقليل الإيمان.

بينما نتجادل بهذه الطريقة، إذ بفائنيوشكا تؤدي مشهداً آخر جديداً صامتاً، وهي في تمام السعادة والتألق، ولكن هذه المرة مع بيريكوسيكين الأول. سألتها المستشار بنظرات عينيه: «هل أنال شقة؟» وأجابته عينا فائنيوشكا: «لا».

- ولكن في هذه الحالة آمل أنه بالرغم من أن أموال الشقة س...

- ولا أموال شقة.

- ولكن... هاهاها!

وانفجر في ضحك مرير، ودفعني جلوموف السعيد في جانبي وهمس في أذني:

- انظر إليها! يا لها من فاتنة! وأنت لا تزال تتحدث عن كذا وكذا!
أمرك غريب! انظر إليها! آخ!

لن أصف التحولات الأخرى التي طرأت على الاحتفال، ولكنني سأكتفي بالقول إن كل شيء تم بنظام، وإن الباليك الذي أعدته الطاهية

زافيتايفاً كان رائعاً، حتى إن الرقص استمر حتى الصباح. حضرت كل سيدات قسيمي ليتينايا ونارفسكايَا، وبدا الشباب الفرسان كأوراق شايب الكوبة وقد كَوْنُوا مجموعة لا تزيد على ٢٥ فرداً، ولهذا أفسح مأمور قسم نارفسكايَا المجال لجوقته. لكن أكثر من سعد وسط الحضور كان جلوموف الذي نال بشكل مفاجئ هدية أن يرقص رقصات لطيفة. في الحقيقة لم يؤدّ هذه المهمة بنجاح كامل؛ إما كان يتأخر عن الإيقاع المطلوب أو يضرب بقدمه بقعة واحدة؛ الأمر الذي جعله يغضب بشدة ويندفع في القاعة كإعصار، ولكن حتى أخطأه هذه أسعدت فائينوشكا. لم تُنَحَّ عنه عينها، وظلت تسأل الجميع: «أرأيتم من هو أكثر مرحاً و... لطفاً؟»، لذلك عندما فوجئت واندعشت من ذلك طلبت من جلوموف أن يُفسّر لي الأمر، لكنها لم تعطه فرصة ليقول كلمة، وقَدّمت لي صامته حلوى مع بطاقة قرأت عليها التالي:

الحب حلو يُعَلِّم الجميع

الدم يغلي والقلب يتقد

عبثاً نحاول تجنبه

فلا مهرب من العشق

من المدهش كيف يسلك الناس بغرابة حين تتملكهم رغبة في أن يثيروا إعجاب الآخرين! فكرت في ذلك بينما استغرق جلوموف في رسم بعض العلامات الماسونية بقدميه حول الموقد. لم يستطع الابتعاد عن هذا الموقد وكأن قوة خفية تجذبه صوبه. تشوهت ملامح وجهه وانعقد حاجباه وصرّت أسنانه، بل بدا أنه نسي أين هو وماذا يحدث له،

وتذكر أمراً واحداً؛ بين يديه شيء يجب أن يبلى ! لم يقتصر الأمر على أن فائينوشكا لم تغضب، بل إنها قهقهت بمرح وسماحة عندما رأت أن كل الجهود التي بذلتها من أجل أن تُحرّكه من مكانه مضت بلا جدوى. أخيراً سُمعت طقطقة وتهاتوت طبقة الجص ووجد جلودموف نفسه في الهواء!

عذبتني فكرة أنه حتى صباح اليوم كان لدي صديق، وبحلول المساء فقدته. كم من الأعوام لم ننفلل للحظة عن بعضنا! اندفعنا معاً إلى الثورة، كما شعرنا معاً بالاضطرابات الحلوة في طريق حفظ الذات، كما قررنا معاً أن نسلك طريق إثبات حسن النيات، والآن يتوجب عليّ السير وحدي في طريق مفروش بالأفاعي.

لم أخدع نفسي. الطريق أمامي محفوف بالمخاطر، أو يمكن أن يقول كثيرون إن طريقي محفوف بصنوف النذالة. إلا أنه ثمة صنوف نذالة تفرضها الظروف المحيطة، وثمة نذالات لا تُقدّم لصاحبها شيئاً سوى اقترافها. يا لها من فائدة أن ترتكب نذالات من أجل أن تعينك على تعظيم شأنك، أما ارتكاب نذالات لتصير وغداً وحسب فهو ببساطة فعل دنيء! يا لرهافة الشعور التي يجب أن يتسم بها المرء ليتمكن من الإقدام على نذالات مفيدة من دون أن يُثقل كاهله باقتراف نذالات غبية لا طائل منها!

في مثل هذه الظروف الضاغطة تتسم مساعدة الصديق وحضوره بأهمية خاصة. للصديق في مثل هذه الظروف قدرة على النصيح والتعزية. فلنأخذ مثلاً بهذا الموقف: تسير في الشارع وتلاحظ أن لقاءً

خطيرًا في انتظارك. تتردد وتسأل نفسك: أيتوجب عليّ الركض إلى الجانب الآخر أم أترك الأمر لله وأتلقى الضربة القادمة؟ هنا تحديدًا يهرع الصديق لمساعدتك. إذا لم تكن إمكانية الهروب قد تلاشت بعد فسيقول لك: اهرب بسرعة! وإذا كان الوقت قد فات فسيحذرك: «لا تهرب لأنهم سيلاحظونك، ومن ثم لن يجلب لك الهروب شيئًا سوى الضرر!». أخيرًا، إذا لم يكن بد من التعرض للإهانات بالرغم من كل الاحتياطات، فسوف يواسيك بقوله: «لا تشغل بالك! في المرة القادمة سوف نندفع إلى البوابة ونتوارى عن الأنظار!».

هكذا يسلك الأصدقاء، إذا لم يكونوا مخبرين بالطبع.

لكنني لن أخفي أن شكواي من جلوموف شابها قدر من الحسد. كلانا استعد للمأثرة ذاتها، وها أنا لا أزال أقف في بداية الطريق، وهو قد وصل إلى نهايته، ليس ذلك وحسب، بل نال أيضًا شقة بموقد. لم يعد مضطرًا إلى تعמיד يهودي أو كتابة مشاريع قوانين زائفة. بعد أن صار تحت رعاية شخصية أخرى، استطاع زخرفة سجله الصغير بطريقة أبطلت كل التفاصيل الوسيطة. يمكنه أن يصير الآن كمارات^(١٢٠)، أما أنا فيتوجب عليّ أن أعيد عملية ارتكاب النذالات المعذبة من البداية وبالترتيب؛ عليّ أن أقدم الدليل مع كل خطوة أخطوها وأقدم وثيقة أدعم بها موقعي، ولن أفعل كل ذلك كي يتبنوني في النهاية، بل من أجل أن يتنازلوا ويسمحوا لي بالعيش وحسب!

أمر سيئ أن يفارقك أصدقاءك القدامى، حتى عندما يتضح لك أن

(١٢٠) أحد أهم مفكري وقادة الثورة الفرنسية الأكثر راديكالية وتعطشًا للدماء.

صديقك الفار هذا كان في حقيقة الأمر وغداً طوال الوقت. إذا فارقك صديق جيد فسيكون مستقبلك مريراً، وإذا فارقك من اتضح أنه وغد يكون ماضيك مريراً. يعني ذلك أنك عشت خمسة عشر أو عشرين عاماً من دون أن تلاحظ رائحة كريهة بجانبك. بغض النظر عن هذه الرائحة الكريهة، انفتحت أبواب قصورك الروحية وعفنتك الروحي على مصراعيها، ولمن؟ انفتحت لوغداً! لكن للشقة المزودة بتدفئة سحرها الخاص! بيريكوسيين الأول مستشار سري، وبالرغم من كل محاولاته لم يستطع بتوسلاته أن يلفت انتباه فائينوشكا، بينما جلوموف على درجة مساعد استشاري ونال كل شيء من دون كلمة واحدة ولا طلب، ومن دون أن يبذل أدنى جهد. بعد ذلك ستُقدّم الفطائر والوجبات الخفيفة، وربما يأخذون أيضاً الصراف على شرف بعض العمليات البنكية! لن أصيب شيئاً من كل ذلك؛ أنا حسن النيات في مجال الأدب والصحافة الذي يتقاضى من ١٠-١٥ كوبيكاً على السطر الواحد، بل سيذهب كل ذلك إليه هو العرييد المتبطل!

وسط كل ذلك نسينا بالالايكين تماماً. ما إن وصلنا إلى منزل زافيتايفا حتى أعطاه إيفان تيموفيتش -في حضور شاهدين نبيلين- بقية المبلغ وأخذ منه إيصاً مكتوباً عليه: «تلقيت المبلغ المتفق عليه كاملاً مقابل إجراء الزواج». ثم بدا وكأنه غرق في الماء، فمهما سألوه بعد ذلك عن المكان الذي توارى فيه لم يُجب إلا بهراء لا يُسمع تقريباً:

«أنا؟ أنا يا عزيزي»^(١٢١) استقللت المركبة وذهبت إلى أوزيركا. ظللت أقود وأقود. يا للأعجوبة! وصلت إلى منطقة موستامياكي. لم أجد شيئاً لأفعله فاغتسلت في البحيرة وتناولت بعض حساء السمك واشترت صندوق موسيقى من قائد المحطة هناك. في العام الماضي قدمه لي أحد العملاء، وها قد عاد! عدت إلى المنزل وإذ موعد الاستئناف قد فاتني، فقلت في نفسي: عليّ الآن الذهاب إلى مكتب القاضي. قالوا لي: «هل خفت؟ ليكن الرب معك! سنعيد الأمر بتاريخ سابق من أجلك».

ظل إيفان تيموفيتش يسمع ويسمع وأخيراً لم يحتمل وصاح:

- ما هذا؟ ماذا تقول؟ آخ!

أخيراً في السادسة صباحاً عندما ملأت الشمس الشارع بالدفع والنور ذهبنا جماعة واحدة إلى محطة نيقولايفسكايا لنودّع قائدنا الذي لا يُقدَّر بثمن! وجدنا قطار الطوارئ الذي طلبه الباشا العربي جاهزاً بالفعل وحاشيته في انتظار ريديدا، وتكوّن طاقمه من فردين مصريين: خباز وسائق، بالإضافة إلى شخص أسمر آخر بدا لي أنني رأيته ذات مرة في النادي الفني يخدم على الطاولة. عند ظهورنا، وفي غياب النشيد الوطني المصري، هتف المغنون الذين أرسلتهم مصانع الأقمشة الموسكوفية: «عودوا إلى دياركم!».

أسرع ريديدا بخطوات واثقة إلى الحاشية وأمرها:

- إلى اليسار دُر!

سمعنا صوت سلاح بارد، وتناهدت إلينا من العربات أصوات خطوات منحسرة.

(١٢١) بالفرنسية في الأصل.

عندما سكن كل شيء التفت ريديدا إلينا، وعندما رأى الأخوين
بيريكوسيوخين ييكيان صاح بصوت مضطرب:

- الزما الهدوء أيها العجوزان! سأسافر إلى القاهرة وسأنال هناك
بدلات الرحلة وأسلم الباشا العربي إلى الأسر، وهو أمر مؤسف لزميل
مدرسة ولكن ما باليد حيلة، ثم أعود.

قال ذلك ودخل العربة ومن خلفه المنشدون.

انطلق القطار بأقصى سرعة.

وقفنا طويلاً على الرصيف الفارغ نلوح بمناديلنا، متمنين النصر
والغلبة للمصريين. قال جلوموف بصوت نبوي:

- سترون، إذا مهّد ريديدا لأقمشتنا طريقاً إلى الهند فلن تخلو
منطقة فوزنيسينكي من نصب تذكاري له!

وتعالى صوت أحدهم:

- وربما يقيمون نصباً تذكاريّاً له في موسكو في نوجوفوي.

حينها لم يتمالك أوتشيشيوني نفسه أكثر من ذلك وأعلن بطريقة
احتفالية نيابة عن هيئة تحرير «كراسا ديميدروفنا»:

- يكفي الحكيم ذلك! (١٢٢)

عندما استيقظت لم أجد على طاولتي سوى عدد جريدة كراسا

(١٢٢) باللاتينية في الأصل.

ديميدروفنا الذي قدّم فيه مراسلنا الخاص تقريراً مفصلاً عن احتفالية
الأمس، سأقتبس منها هذا التقرير حرفياً:

«بالأمس، في أحد الأركان غير المرئية من عاصمتنا جرى احتفال
متواضع ولكنه مهم. واحد من نجوم عالمنا القانوني، المحامي
بالالايكين الذي لم يُهزم من قبل، تزوج بفتاة يتيمة، ربيبة المصرفي
الشهير بارامانوف، وتُدعى فائنا يجوروفنا ستيجنوشكينا، تعمل
منذ بضعة أعوام بشكل مستقل بتجارة الجملة على رصيف ميناء
كلاشينكوف. بالنظر إلى شباههما لم يكن بالإمكان إلا الابتهاج،
فكلاهما شعر بدفء الحب، وكلاهما شاب وقوي! علاوة على ذلك،
من المريع التفكير في الدراما المتقدمة التي ستبدأ في غضون ساعات
قليلة بين جدران منزل ستيجنوشكينا التي كانت حتى الصباح لا تزال
تنظر بعفاف إلى أمواج قناة أوبفودني! حلوة وخارقة!

السيد بالالايكين معروف للجميع بمعاملته الرائعة واللطيفة،
فمن من العملاء تركه السيد بالالايكين من دون سيجارة؟ تأثر السيد
بالالايكين كثيراً بعبويه الجسدية، أما العروس فقد ذكرنا جمالها بينات
الجنوب الحار؛ بنات إسبانيا. فلتعطوها صنوجاً في يديها وسترقص
الكاتشوشا^(١٢٣). حرارة وبرودة، عاطفة مشبوبة ولا مبالاة فخورة،
حركة وهدهوء... اجتمع كل ذلك معاً في حركة واحدة متناغمة وشكل
مزيجاً غامضاً وآسراً بطريقة منفردة.

من بين الحاضرين برزت شخصيتان موقرتان على وجه الخصوص؛

(١٢٣) رقصة إسبانية شعبية بالصنوج.

إحداهما بعد أن حصلت على أرض في مقاطعة أوبا أعادتها بامتنان،
والأخرى لم تُعدها لأنها لم تحصل عليها. لا يقل بأي حال من الأحوال
الدور الذي لعبه بطلنا المغوار المشاء بولكان شامشونيتش أهمية عن
دور الضيفين السالفين، وقد انطلق فوراً من عطلته إلى بلاد الفراعنة
البعيدة حيث تواصل معه باشا عربي متمرد. تميزت الحفلة في منزل
الطاهية زافيتايفاً ببساطة العاطفة. رقص المدعوون هناك بتلقائية، بففضل
الحلويات الوفيرة تخلص معظم الضيوف من نير الأعراف المجتمعية
واستبدلوا بها جراحة أسرة. مع ذلك، حتى ذلك الحين لم تظهر علامات
جهل غير محتمل. انتهت المتعة في الخامسة صباحاً، ولكن من المحتمل
جداً أنها كانت لتستمر حتى اللحظة الحالية لو لم تظهر أمارات نفاد
الصبر على العروسين، وهو أمر طبيعي جداً في وضعهما، وقد أوضح
ذلك للضيوف أن الشابين لا يريدان بقاء الضيوف أكثر من ذلك. بعد
ذلك تفرق الجميع، وتوجه الشaban إلى منزلهما حيث كان كيوييد الطفل
في انتظارهما على العتبة، وربما تقاضى من الشابين السعيدين الرسوم
المقررة قبل أن يسمح لهما بنسيان أنفسهما في أحضان مورفيوس^(١٢٤).

لا يمكننا أن نلزم الصمت حيال حقيقة أخرى جديرة بالملاحظة أثارها
الاحتفال ذاته. وافق اثنان من أكثر عديمينا ضرراً، بناء على طلب العريس
والعروس، على هجر طريق الليبرالية الزلق إلى الأبد، والمضي بخطوات
راسخة في طريق النيات الحسنة. فليُعنهما الله على حفظ طهارتهما!».

بعد ساعة وصلتنى رسالة من جلوموف: «أنا في الجنة! سأعود بعد
أسبوع!».

(١٢٤) إله الأحلام في الأساطير الإغريقية.

ما إن تُركت لحالي حتى شعرت بالعجز. نظرًا لكوني شخصية ضعيفة كانت لدي أسباب كافية إذن لأخشى أن يلعب بعواطفني كل من ألتقي به ممن يخطر على باله أن يفرض عليّ مطالبه. تصورت في ذهني بالفعل أعين التحريض موجهة إليّ، وشعرت بأنفاسه الكريهة وسمعت صوته المخادع، وتطلعت إلى السقوط في الخطيئة. أمر واحد لم أستطع أن أحدهه بدقة؛ أي نوع من التحريض سأعرض له قريبًا؟ في هذه الفترة سرت في المدينة إشاعات غريبة وغير محتملة الحدوث بتاتًا. حكى البعض أن اثنين من كبار المحرضين: زاتشينشيكوف وزابيفالوف، ساهما في عهد آنا ليولدوفنا في اعتلاء يelizافيتا بتروفنا^(١٢٥) عرش الأسلاف، ينتقلان من منزل إلى آخر ويجبران السكان، الذين بلا حول ولا قوة، على إنشاد «تريو^(١٢٦)» معهما من أنشودة «شارل الجريء»، وقد أبدلا اسمه ليصير «ويليام تيل^(١٢٧)». على النقيض من ذلك أكد آخرون أن من يمر بالشقق ليس زاتشينشيكوف وزابيفالوف، بل فيجلياتنيكوف

(١٢٥) إمبراطورة روسيا العاشرة وابنة القيصر بطرس الأكبر والإمبراطورة كاثرين الأولى، تولت القيادة خلفًا لإيفان السادس سنة ١٧٤١ م وتوفيت سنة ١٧٦٢.

(١٢٦) شكل موسيقي يعتمد على غناء ثلاثة أصوات.

(١٢٧) بطل شعبي سويسري وهو جزء من حكايات استقلال سويسرا عن الإمبراطورية النمساوية.

وبروزياتنيكوف وهما ابنا أخى شيشكوفسكي، وقد ظهرا هكذا ولا أحد يعلم من أين، وعلاوة على جوازات السفر يطلبان من السكان أن يكشفوا عن طريقة تفكيرهم، ويجبرانهم على إنشاد «صغير النصر يتعالى»^(١٢٨).

تحدثوا عن ذلك في العربات والمتاجر الصغيرة وعند البوابين؛ باختصار في كل مكان تستقي منه السياسة الداخلية المعاصرة إلهامها. غريب الأمر! بالرغم من أني، بوصفي إنساناً أنهى تعليمه في مؤسسة تعليمية عليا، لم أصدق هذه القصص، وجدت نفسي تلقائياً أنتظر أن يحدث شيء ما. هل سيأتون ويجبرونني على إنشاد شيء ما؟ أسيجروون على ذلك؟

بشكل عام نسي الناس بطريقة أو بأخرى كيف يعيشون في هدوء. الكل (ولا أستثني أي أحق بالطبع) ينخرط في السياسة الداخلية، واعتماداً على عدد الفطائر المتوقعة يعلن نفسه إما حسن النية وإما «ليس حسن النية»، والأخير مصطلح سياسي خاص ظهر في الآونة الأخيرة، ويشير إلى شيء متوسط بين حسن النية وسوء النية. الفارق بينهما هو الأكثر تفاهة، وفي الآن نفسه يُحرّض الناس على بعضهم ويشل قواهم ويشير غضب السلطة ويجلب إلى الحياة أكثر المتاعب حماقة. كل ذلك بسبب رغبة تجارة حُسن النية في الاستئثار بكأس الخمر وحدها.

في الحقيقة، السلطة هي المسؤولة عن ذلك. لقد تعاملت بجدية شديدة مع هذه المشاهدات، بل ومن الواضح أنها صدقت أنه يمكن أن يوجد في عالمنا هذا حزب لأصحاب النيات الحسنة يختلف عن حزب

(١٢٨) النشيد الوطني للإمبراطورية الروسية.

أصحاب النيات غير الحسنة، بدلاً من أن تقول لهذا الفريق وذاك: «نم! لن ينام الله من أجلك!».

تورطت السلطة إذن في المشاحنات المتبادلة بالتشجيع والضغط والعزاء والتحذير. أما الحزبان، وقد رأيا في ذلك اعترافاً غير مباشر بشرعية وجودهما، فازدادا قوة أكثر فأكثر، ووصل الأمر الآن إلى أن صار التهديد بالأشغال الشاقة أكثر الإجراءات اعتياداً في تقييم الحزب لآراء الحزب الآخر وسلوكياته.

للأسف، السكان هم أكثر من يعانون من هذا الصراع الضاري. وجد الناس أنفسهم عالقين بين الحزبين المتعادين، وكل منهما يهدد الآخر بالأشغال الشاقة، وهم لا يفهمون ما المطلوب منهم بالضبط، ومن ثم هجر الناس أنشطتهم اليومية وكرّسوا أنفسهم لتخمين هذه المؤامرات الحمقاء. بينما يختبر البعض عملية التخمين هذه يتخبط البعض من زاوية لأخرى، والبعض الآخر -ومن ضمنهم أنا وجلوموف- يشارك في هذه الجرائم أملاً في أن يحميه القانون الجنائي العام من ادعاءات القانون الجنائي السياسي. في حقيقة الأمر، وفي ظل وجود من يختبر ويهدد كل خطوة يخطوها المرء، وسماع أسئلة تتضمن تهديداً بالأشغال الشاقة، والدوران داخل دوائر من المجادلات القائمة على اتهامات بالخيانة ومساعدة أشخاص على ارتكاب جرائم وإخفائهم... إلخ، سقط الجميع في الحيرة. ما إن يُصاب المرء بالحيرة حتى تتبعها قطعاً عمليات الطرح أرضاً والاعتراض والخيانة والخزي.

أدركت كل ذلك بوضوح في وحدتي.

لم أتصور قط أن هجران جلوموف لي يمكن أن يصنع مثل هذا الفراغ في حياتي اليومية. في هذه الأثناء، سواء عن طريق الصدفة أو غير ذلك، بدا لي مع اختفاء جلوموف أن كل أصدقائي الجدد قد اختفوا هم أيضًا. لثلاثة أيام متتالية لم أسمع خبرًا واحدًا باستثناء دعوة مختصرة تقول: «يُقَدَّم الطعام»! حتى جواز السفر لم أُسأل عنه؛ الأمر الذي يشير إلى أن مياه النسيان قد غمرتني بالفعل.

لم يهتم أحد بي، لا إيفان تيموفيتش ولا كشيشتيسولسكي ولا أوتشيشيوني. عليّ الاعتراف بأنني لم أكن لأجرؤ على قول شيء لهم من دون مساعدة جلوموف. ثمة أناس لا يمكن للمرء أن يتحدث معهم إلا بمساعدة صديقه. يُلقِي الصديق كلمة ويلتقط الصديق الآخر هذه الكلمة بسرعة ويطلق أخرى... وهكذا تنشأ المحادثة، ويبدو الأمر كما لو أن الورق ملقى على الأرض، فإذا كان ورقة واحدة فهي مجرد ورقة، ولكن إذا كان أوراقًا كثيرة فهي نفايات. رأيت مولودكين مرتين يمططي أنبوب الحريق بالقرب من منزلي، وفي كل مرة كان ينظر من نافذتي، بل ويرسل لي قبلة في الهواء أيضًا. لكن حينما حاولت استدراجه مثلما فعلت ذات مرة مثلًا حين كمنت له في الطريق، وإناء الخمر في يد والكأس في يد أخرى، اكتفى بهز رأسه لي. لم يعد في يدي شيء.

شعرت أن شيئًا في انتظاري؛ إما مأساة أو ملهاة. في واقع الأمر هما شيء واحد، فالملهاة القاسية قد تخلف وراءها أكثر التصادمات مأساوية. ذات مرة قال أوتشيشيوني إن البشر يمضون حياتهم بأكملها بين المآسي جاهلين وجودها بسبب قصرها ومفاجأتها. من الواضح أنه

لم يُنه حديثه حينها. المآسي عندنا مكونة فعلاً من فصل واحد، فما إن يُرفع الستار حتى يُسدل على القتلى، ولكن هذه المأساة امتدت إلى عدد لا نهائي من الفصول بشكل لم يحدث في أي مكان آخر. لذلك تعقدت الملهاة. لا يعود سبب عدم انتباهنا إليها إلى أن المفاجأة تقضي على الألم، ولكن إلى حقيقة أنه لا مهرب من المآسي، ومن ثم سواء شكوت أو لا فستعين عليك تحملها.

من الواضح أنه بينما أنتظر دخول هذه المأساة الماجنة بين ساعة وأخرى إلى حياتي، لم أستطع إلا أن أعذب نفسي بشكوك تتسم بأقصى قدر من السوء. ماذا لو فاجأتني المأساة؟ ماذا لو دفعتني إلى الحائط وقالت: أخرج كل ما لديك! لا تهز ذيلك! لا تلعثم! لا تلمح إلى شيء! لا تتحفظ! بل أجب مباشرة وبدقة وبتحدد!

كيف سأنصرف في مثل هذه الظروف؟ هل سأطلب الإرجاء؟ لكن سيكون هذا الطلب تحديداً بمثابة هز للذيل! هل سأقول صراحة إنني لا أستطيع الانضمام إلى صنوف التحريض لأنني أعتبرها أكثر أشكال الحياة الاجتماعية إفلاساً؟ لكن في كل الأحوال لا تصف التحريضات نفسها بهذه الطريقة بل تسمي نفسها: «إقرار النظام». من يتحدث معك عن التحريض؟ سيدكرونيك بالنظام ويدعونك إلى الدفاع عنه، أما أنت فستبدو حيال الأمر كذكر إوز صالح^(١٢٩)!

آه من هذا السؤال الغبي! يظهر في كل لحظة وفي كل مكان ويومض ويبدو كما لو أنه يعض الحياة!

(١٢٩) تعبير روسي يشير إلى الصفات السلبية التي تظهر فجأة في شخص ما.

ليس هناك ما هو أسوأ من الحماسة، فعندما يكون صاحبها مضطرباً يشعر أنه واقع تحت تأثير الجبن والتزلف. لن تتراجع الحماسة قيد أنملة أمام القناعات القوية ولا المنطق، بل ستضغط أكثر فأكثر. ستفترض أن الجميع لديهم إجابات جاهزة محفورة في قلوبهم، ولذلك ستطلب من المرء إجابة سريعة بنعم أو بلا.

أخيراً حل الصباح، وتحققت خلاله كل هواجسي بالكامل. كنت جالساً منهمكاً في قراءة التقويم وإذ بي أجد فجأة أمامي رجلاً مجهولاً، وكأنه جاء من تحت الأرض، وعليّ هنا القول إنني منذ سيري في طريق النيات الحسنة وأنا أبقى أبواب شقتي مفتوحة بحيث يستطيع «الضيف» أن يدخل إلى حجرتي مباشرة ويقتنع ببراءتي. حيّاني الرجل قائلاً:

– هل بدأت العمل على التقويم؟ ممتاز. هاهاها!

نظرت إليه. كان طويل القامة، بدينًا، ومن الواضح أنه كان سعيدًا أيضًا، صاحب رأس كبير مليء بالشعر ووجه مسطح ذي طبيعة حادة، امتلأ بالتنوءات والتجاويف من دون أي دقة، وقد اتكأ هذا الرأس على العنق القصير وسط كتفين عريضتين. بدا منظره كله وكأنه مطروق على بعضه بقوة كما لو أن جسده بأكمله يقول: «لن أتعذب عبثًا، ولكن يمكنني أن أقتل!». الساقان تبدوان كسيقان وحيد القرن، واليدان كيد السعاة الرسميين، والصوت يتردد كما لو من هاوية. ليس هناك أي شيء يوحي بالدسائس؛ الأمر الذي ولّد انطباعًا مقبولاً إلى حد ما. بدا أنه إذا

استحال تجنب الضيف، فالأفضل أن يكون ضيفك وقحًا عن أن يكون
مثيرًا للدسائس، يستغل الإفلات من العقاب، وكأنه سقط هكذا من
السماء، وفي الآن ذاته يغرقك في الدسائس. من المحتمل جدًا أن يكون
هذا الجسد الأخرق قد عاش أيامًا أفضل. في البداية عاش طفلًا من
عائلة صالحة^(١٣٠)، ثم صار بوقًا عابثًا وبعد ذلك مرحًا لامعًا، وبعدها
ذاويًا ثم طشقنديًا أو عاملاً في مجال الترويس، وأخيرًا انتهى به الأمر
ليصير مُحَرِّضًا حسن النية. عندما نظرت إليه عن كثب ومض في ذهني
شيء من الماضي.

واصل حديثه وقد جلس على المقعد من دون تقييد بالرسميات:

- هل مضيت في طريق النيات الحسنة؟

كنت لا أزال أنظر إليه بتمعن وأتذكر. كان هناك شيء ما حقًا.

- إلام تنظر؟ هو بنفسه حقًا. هاهاهاها!

وجدت نفسي أصبح تلقائيًا:

- فيجلياتيكوف^(١٣١)! ألم تخضع للمحاكمة؟

أخيرًا تذكرت. في الحقيقة كان الواقف أمامي النساج الداوي الذي
عرفته يومًا ما قائدًا للشرطة في (ت).

- آه يا إلهي! لقد اكتفيت! حوكت بعد ذلك مرتين أيضًا. أتريدني

أن أحكي لك سجلي باختصار؟ وما المانع؟ بكل سرور! في طشقند

(١٣٠) بالفرنسية في الأصل.

(١٣١) الاسم مشتق من كلمة بمعنى السوط أو جلدة السوط.

عملت في مجال الترويس ثم حوكت. جلدت التجار والبرجوازيين
والفلاحين وشربت الفودكا. هاهاهاها!

أكد كل عبارة بـ«هاهاها!» مُشربة بسخرية ممزوجة بنوع من الطيبة
بشكل غريب. واصل حديثه:

- أنا يا سيدي من النوع الشكاك، بل وربما كلبى^(١٣٢) النزعة. لا
أؤمن بالمحاكم ولا أعترف بأحكامها. لو كنت قد آمنت لأدنت منذ
زمن طويل، ولكنني حي، كما تراني، وواقف أمامك. الآن لتحدث عن
العمل. يبدو أنك مضيت في طريق النيات الحسنة. هاها!

- ولكن يبدو لي أنني كنت...

- لا يهم سواء كنت أو ستكون أو تكون الآن. أنا لا أعرف ما إذا
كنت أنا شخصياً حسن النية أم مجرد... ولكن المهم هو التالي: هل
تريد الانضمام إلينا؟

- وما نوع التحريض الذي تنضم إليه؟ أهو شرير بدرجة مدهشة أم
حسن النية بدرجة مدهشة؟

- خمن أنت!

- ولماذا أخمن؟ لا ضرورة لذلك.

- إذا دعوتك بشيء فسأقول: «عضو في دائرة محبي الإحصاءات».

هاها!

(١٣٢) الكلبة مذهب فلسفي يوناني قديم، يميل أصحابه إلى الارتياح في دوافع الآخرين وعدم
الثقة بوجود الخير في الطبيعة البشرية.

- هل وافقوا على المرسوم؟

- غريب أمرك!

- في هذه الحالة اعذرني! صحيح أنني أحب الإحصاء لكنني لا أشعر بأي حاجة للجوء إلى السرية في الوقت الذي يمكنني فيه علناً أن...

- أهلاً بك في كل الأحوال، سواء علانية أم سرّاً! هات يدك باركك الله لتتفق!

- وحق الله لا أستطيع!

- هل تدرك ما هي حقيقة حياتك؟ إنها كارثة كوكوفسكايا! هذا كل ما يمكن أن يُقال عنها! هل عشت من قبل ولو لدقيقة واحدة كما تشاء؟ أبداً! ولا دقيقة واحدة! أنت تحب القراءة، وبدلاً من الكتب تقرأ التقويم. تحب المجتمع، وبدلاً من صحبة الناس تلجأ إلى كشيشتيسولسكي وصحبته. تحب الكتابة، وبدلاً من الحروف حاولت أن تخربش! باختصار، تسير دائماً على جسر كوكوفسكايا، وكل هذا من أجل أن يقولوا عنك في القسم: «يا له من إنسان خطير! هذا أكثر أنواع الأندال عادية!». أ يصلح ذلك لأي شيء؟

حتى أنا شخصياً أدركت أن هذا لا يصلح لشيء لكنني في كل الأحوال وجدتني أكرر: «لا أستطيع».

- منذ فترة قصيرة رتبت أمر الزواج بزوجة ثانية لهذا الغرض، وفي المستقبل ربما يتطلب الأمر منك التزوير...

عندما قال هذه الكلمات انتصب شعر رأسي. كرّر:

- نعم، التزوير، وذلك لأن المطالب تظل ترتفع أكثر فأكثر، وعليك أن تزيد درجة استعدادك لتتسق معها. لكن دعنا نفترض أنك نفذت برنامجك كله حتى النهاية، فماذا ستكون النتيجة؟ هل سيثقون بك؟ ألن يقولوا: «يريد أن ينجو بجلده وحسب، ولكن لا إخلاص حقيقي في أفعاله»؟

واصلت الإصرار على موقعي:

- لو كنت قد صدقت حقاً أنك مستعد فعلاً، فهل كانت النتيجة لتبدو كذلك؟ في الواقع يمكنك تحقيق هذه النتيجة من دون أي عناء. لن تحتاج إلى الحديث مع كشييشيتسيولسكي ولا إجراء أي تزوير. يمكنك أن تمضي مباشرة وتقول بصراحة: «ها أنا!» وسيتضح لك كل شيء. ستصدق الجميع ويصدقونك. يقولون: «هذا إنسان مخلص وحقيقي، ويجب أن نصدقه لأنه لا يفكر في النجاة بجلده وحسب، بل في تزيينه أيضاً». هاهاها

- لكن هذا تحديداً هو ما لا أريده! لا أريد تزيين هؤلاء المحتالين.
- آه منكم أيها الليبراليون! تريدون أن تنجوا بجلدكم وتنالوا ما تريدونه هكذا من دون ثمن! لكن في الحقيقة عليكم أن تدفعوا مقابل ما تنالونه!

- اسمع! أليس من المفترض أن يكون الجلد هدية من الطبيعة؟
- يعتمد الأمر على منظورك إلى الأمر. هذا موضوع خلافي.

يقولون الآن مثلاً: «تقول إنك لم تفعل شيئاً وجلدك ملكك هكذا؟ هذا غير صحيح. بوسع الجميع ألا يفعلوا شيئاً، ولكن عليك أن تفعل شيئاً لتنال مديحاً!».

- قل ما تشاء، ولكن ما تقوله في الحقيقة هو مجرد افتراء وليس ذكاء.

- وهل أنا الذي اختلقت هذا الغباء من نفسي؟ لا يهمني الأمر. كفى حديثاً عن ذلك. ألا تفكر في تزيين جلدك؟ أنتسم بالإيثار في هذا الموضوع؟ رائع! الإيثار هو أمر مفيد، فكم من الآفاق الرائعة تظهر من خلاله! وتبدو أيضاً أنها في متناول اليد.

- لا وألف لا!

حاول إقناعي بكذ. قال إنهم لا يطلبون مني أمراً صعباً من جانبي، وإن الأمر كله سيقصر على الملاحظة العلمية لأحجار الأساس وفحص جوازات السفر وحسب من حين لآخر... هاها!

- الأمر الآن يتعلق بالمنازل الصيفية وهذا هو مجال المراقبة الأكثر ملاءمة لأن الناس يعيشون في المنازل الصيفية على راحتهم ويتركون النوافذ والأبواب والشرفات مفتوحة. في واقع الأمر لا دسائس حتى هنا بل مجرد إحصائية ستفيد المؤرخ المستقبلي بلا شك. أخيراً، بصفتي باحثاً في مجال ما هو معاصر أقول إن الأمر لا يقتصر على الفائدة، بل من الضروري أيضاً تحديث مخزون الملاحظات ببيانات جديدة مستقاة من مجالات تعذر الوصول إليها سابقاً.

باختصار، ظل يتحدث معي حتى لم أعد أحتمل وأبدت اهتمامي.

سألته:

- ما نوع الإحصاءات التي تجمعونها؟ وكيف تجمعونها؟
- تهدف إحصائياتنا إلى استيضاح الحالة الفكرية الراهنة. من يفكر عن ماذا، ومن يتحدث مع من وفيما يرغب... أمور كهذه.
- رائع. هل لديك إذن أناس موثوق بهم ليجمعوا مثل هذه الإحصاءات؟

- يُعهد بهذا النشاط لخبراء في مجال الإحصاءات، والشرط الذي لا غنى عنه في هذا المجال أن يكونوا قد حوكموا مرتين على الأقل! هاهاها! هؤلاء الناس يرتبون الإحصاءات ويوافقونها مع الظروف. على سبيل المثال: الصيف الآن حار ومن ثم يسبح الكثيرون في المياه. الإحصائي لدينا يقفز في الماء.

- يا إلهي! في كل مرة أصبح أجد شخصاً غريباً يعوم حولي!
- هذا هو! لدي مثال آخر: حان وقت قطف الفاكهة. يضع الإحصائي الخاص بنا طبقه فوق رأسه ويذهب لجمع الإحصاءات.
- اسمع! بهذه الطريقة سيجمع إحصائيوك عجائب لن يعود بوسع أحد أن يعيش بسببها.

- هذا ما أتحدث عنه! هذا ما أقوله؛ أن أحداً لن يستطيع أن يعيش!
- لكن هكذا سيتحول الأمر إلى حرب أهلية!
- نعم، وأنا أقول لك فليتحول إلى حرب أهلية!

حدقت إليه بذهول. صاح فيَّ وقد انفجر في قهقهة مدوية:

- وما الذي يهكم في ذلك؟

- ماذا تقول؟ لدي... لديكم... لدينا جميعاً بلد ووطن وعلينا أن... ليس لدينا الحق في تشويش أموره.

- غريب أمرك! يريد أن ينجو بجلده وينوي التزوير وفي الآن ذاته يبكي على الوطن!

بقي فيجلياتنيكوف معي ساعة أخرى وحكى لي كل ما يمكن أن يغويني؛ حكى لي كيف هي الأمور جيدة عندهم، وكيف أن لكل منهم رقماً، وكيف يرتدي جميعهم ثياباً تشبه ثياب الممثل في الفودفيل. يضع القادة في اعتبارهم خير المجتمع ومن ثم يفعلون ما يفعلونه مجاناً، بينما لا يضع المنفذون خير المجتمع في اعتبارهم وبدلاً من ذلك يتقاضون المكافأة المناسبة. اختتم حديثه قائلاً:

- أمر غريب! بغض النظر عن عدد المرات التي يُحاكم فيها المرء، يأتي إلينا في النهاية، وتُزال كل الإدانات بحركة واحدة!

مع ذلك عليّ أن أعترف أنني قاومته. في لحظة كاد ينزلق من لساني شيء يشبه وعداً بالتفكير في الأمر، ولكن في هذه المرة -والحمد لله- أخطأ فيجلياتنيكوف بنفسه. نهض من على كرسيه وتركني ووعدني بالعودة بعد فترة قصيرة واستئناف الحديث.

في هذا اليوم كنت محظوظاً بشدة فقد توافد الضيوف عليّ؛ ضيفاً تلو

الآخر. لم أكد أودّع فيجلياتنيكوف حتى ظهر الجنس اللطيف. جاءني
شابة صغيرة، لا تخلو من الفتنة، لكنها بدت مرتبكة بعض الشيء. من
المحتمل أنها لم تتورط بنفسها في التحريض، ولكن الإخوة أو أبناء
العم قد أصابتهم نيران الإحصاءات في البداية ثم أصابتها بعدهم.
من الواضح أنها نسيت لماذا جاءت لأنها جلست قبالي وظلت تنظر
إليّ طويلاً صامتة. بدا الأمر لي أن بعض الدمعات تلمع في عينيها؛ إما
لأنها تأسف عليّ أو لأنها تقول: «آه! كم أنا بائسة!». في النهاية قررت
مساعدها في مهمتها. سألتها:

- أهو التحريض أم ماذا؟

حينها تذكرت وقالت:

- آخ يا عزيزي! تعال إليّ!

قالتها بلطف كما لو أنها تدعوني للدخول من المكتب إلى غرفة
المعيشة. من المحتمل جداً أن تكون هذه هي الطريقة التي نظرت بها
إلى مهمتها، لأنني عندما عرضت عليها هذا الاقتراح لم تتعجب بتاتاً
وقالت:

- حسناً! لندخل!

أمسكت بيدها وقلت: «آه! يا إلهي!»، واستشرفت خيراً.

ثم جاء عجوز في أرذل سنين العمر وقَدّم نفسه: «تابعك المخلص
والأمين»، وبدأ من دون تقيد بالرسميات:

- هذا مستحيل يا سيدي! مستحيل يا سيدي!

- فيم أذنبت في حقك سعادتك؟

- في كل شيء يا سيدي! ارتكبت تجاهي أمراً دينياً وفاسداً لا مثيل له. لن أجادلك! ولكن الأمر هكذا مستحيل يا سيدي!

اضطرب وانزعج بالرغم من أنه لم يستطع الإفصاح عن الأمر. من الواضح أن أمراً كان واضحاً له لكنه لم يستطع أن يفهم ماهيته تحديداً. لذلك ظل يكرر بإصرار: «مستحيل يا سيدي!». كرر والداه هذه العبارة، ونظراً لأن كل شيء كان واضحاً لهما فعلاً، اعتقد أنه إذا ظل يكرر هذه العبارة هو الآخر فسيتضح الأمر له في وقت ما. لكن عندما رأى أنه لا يفهم شيئاً وأنا أيضاً لا أفهم شيئاً قرر أن يشرح الأمر تفصيلاً. قال:

- أنا لا أرى هدفاً من ذلك يا سيدي! كل شيء ممكن يا سيدي: أن تنتقد وتشير وتعرض، ولكن الأمر هكذا مستحيل يا سيدي!

- آخ سعادتك!

- لا هدف من ذلك يا سيدي، وهذا هو الأمر الرئيس. الأمر لدينا دنيء، والجميع يعرفون ذلك جيداً ولكن علينا أن نضع هدفاً في اعتبارنا، وأنا لا أرى هنا أي هدف يا سيدي!

- آخ سعادتك! ومن لديه أي هدف في أيامنا هذه؟! الناس يعيشون كما يُقدَّر لهم، ويمر النهار والليل ثم نهار آخر وليل...

- تقول يعيشون كما يُقدَّر لهم؟ رائع يا سيدي! هذا هو هدفك يا سيدي! أن يمر اليوم بهدوء وسلام والحمد لله! غداً سيأتي يوم وبعد غد يأتي يوم آخر وأنت تعيش! الحال ليست أفضل خارج البلاد، ولكن

هناك على الأقل يشعرون بالرضا، بينما لا نشعر هنا بالرضا.

في أثناء قوله ذلك ظل العجوز يزداد اضطرابًا أكثر فأكثر حتى انخرط أخيرًا في نوبة سعال جعلتني أندفع صوبه تلقائيًا وأفرك له صدره. قال وهو يهدأ:

- أرايت؟! جوهر ك طيب، فأنت مستعد لعون القريب ولديك احترام للكبير، فلماذا لا تسلك هكذا في كل شيء؟ آخ أيها الشاب! آخ أيها الشاب! عدني أنك ستصلح أحوالك!

- لكن ماذا فعلت لـ...؟

- لم تفعل شيئًا، ولكن ببساطة، مستحيل العيش هكذا! مستحيل العيش من دون هدف. في الخارج يعيشون وهنا يعيشون، ولا يتذمرون في الخارج ولكنهم يتذمرون هنا. لماذا لا يتذمرون هناك؟ لأنه لا جدوى من التذمر! لماذا يتذمرون هنا؟ لأنه يستحيل عدم التذمر! لحظة! هل قلت أمرًا ما خاطئًا؟

- لا شيء سعادتك. كل شيء بخير حمدًا لله.

- رائع! فلتعدني إذن أن...

لكنه انخرط ثانية في نوبة سعال. نوبة تلو الأخرى وفي الفواصل بينها قال:

- ثلاثون عامًا وأنا أسعل هكذا. سعلت لعشرين عامًا في أثناء عملي بالمراقبة، والآن أسعل وأنا عضو في مجلس الشيوخ منذ عشرة أعوام. ماذا يعني ذلك؟ ربما بوسعي يا صديقي أن أسعل لثلاثين عامًا أخرى!

- فليمنحك الله مرادك!

واصل بثقة:

- لا ألتخذ حتى أي إجراءات خاصة لأنني أرى الهدف! أرى الهدف وأعرف أن البناية التي أشيّدُها راسخة، أما أنت فلا ترى هدفًا وتشيد بناءك على الرمل! أمر سيء يا سيدي! مستحيل يا سيدي!

نهض من جلسته وأخذ يحدّق إليّ طويلاً هازأً رأسه بنبرة تأنيب أبوية.

صاح وهو يضمّني إلى أحضانه:

- فلتعزّ يا صديقي رجلاً عجوزاً!

لم أتحمّل واندفعت إلى أحضانه. لم أفهم بماذا أعده بالضبط لكنني وعدته. أخذ يربت على رأسي وقال:

- كنت أوكد طوال الوقت أنك باللطف تستطيع تحقيق كل شيء.

بعد كل من أتوا جاءني أحد أقربائي من بعيد (في مقام حفيد ابن أخي) وأعلن أنه قضى الصيف بطوله مع النساء في الغابة يجمعون الثمار، وقد نجح بهذه الطريقة في تحقيق إنجازين مهمين. الأول أنه نال فوق راتبه ٩٩ روبلاً وثلاثة كوبيكات مقابل التوت الذي باعه في رامبوف بثلاثة روبلات و ٨٧ كوبيكاً للقطعة. علاوة على ذلك وعدت جمعية تشجيع الفنون بإجراء اشتراك له.

- ألا تود يا عمي أن تأتي أنت أيضًا؟

لكنني في هذه المرة غضبت.

استغرقت طوال اليوم في التفكير في الطريقة التي يمكنني بها أن أفي بالتزاماتي، أو بالأحرى في الطريقة التي يمكنني بها التهرب منها. حتى وقت قريب كنت أقضي النهار بصحبة جلوموف في ضواحي بطرسبرج، ونلتقي بأحد الإحصائيين في الغابة وهو يجري استطلاعاته بينما يتظاهر بجمع الفطر. استأت جدًّا من الأمر حتى إنني شعرت بالغثيان من فكرة أن أجد نفسي ألعب دور السابح في المياه أو جامع الفطر. السؤال الآن هو: ما الذي يجب فعله إذا صارت المسألة كالتالي: إما جمع البيانات وعمل الإحصاءات أو البقاء إلى الأبد في قائمة أصحاب النيات السيئة والقيادة على طول جسر كوكوفسكايا؟

يمكنكم أن تتصوروا مقدار السعادة التي سعدت بها حينما وجدت جلوموف قد أتاني في صباح اليوم التالي. بدا مرحًا وفي تمام العافية بالرغم من أن وجهه شحب بعض الشيء وأنفه ازداد حدة. من الواضح أنه هرع إليّ ليقص عليّ وقائع ملحمة حبه، لكنني قاطعته فور أن بدأ التحدث. اليوم أو غدًا قد يُوجّه فيجلباتنيكوف تحذيرًا ثانيًا، والعجوز والفتاة ربما ينتظراني الآن. فيما يتعلق بقريبي فلا بد أنه قد أرسل المواد الإحصائية التي انخرط في جمعها إلى مكانها بالفعل، فما العمل الآن؟

قال جلوموف بحسم:

- عليك أن تهرب.

- وأنت؟

- وأنا أيضًا. سأصطحب فائينوشكا معي. يا لها من فتاة! ذهاب!

- كيف سنهرب؟

- ستقدم تدريجيًا. سنذهب أولاً بالقطار ثم بالباخرة ثم بعربة ترويكّا ثم نعود إلى القطار مجددًا. عندما يرهقنا السفر نتوقف ونستريح. سنأخذ معنا مؤنًا، وسنقوم برحلة إثنوجرافية إلى القرية، ونشتري الحليب والخبز الأسود وندوّن الأغاني والأناشيد الفلكلورية، وإذا وجدنا عازف باندوركا^(١٣٣) أعمى فسنصطحبه إلى بطرسبرج.

- غريب! في السابق كانوا يجمعون الأناشيد الفلكلورية من القرى، والآن يشمرون حتى مستوى المرفق ويسيرون في البرد!

- إذا كانت هذه هي قسمة الجميع فنحن لن نرحل عن العالم! لقد سألت فائينوشكا بالفعل: هل ستبعينني لنذهب إلى الشعب؟ قالت لي أتبعك حتى نهاية العالم! من أجل العلم، يمكننا يا صديقي العزيز أن نتحمل البرد.

- الحديث هنا عن أمر جدي يا جلوموف بينما تمزح طول الوقت!

- لا أمزح إطلاقًا. أقول لك يجب أن نهرب ونسهر. ليس لدينا

ما ننتظره هنا. أنا موافق على النجاة بجلدنا، ولكن تزيينه أو مواءمه! أن

(١٣٣) آلة موسيقية أوكرانية شعبية من عائلة العود.

أصير عبداً مذعناً! بالمناسبة، جلبت لك خبراً ملائماً لهروبنا. تصور أن أونوفري قد دفع نصف مليون للجامعة؟

- من أجل رحلة سييريا؟

- لا، من أجل أماكن جديدة؛ سمرقند أو مرغلان^(١٣٤). لم يُقرّر بعد.

- وهل نسي ما يتعلق بقسم السباب الذي سترأسه أوتشيشيوني؟

- عذراً ولكن أونوفري هو من ارتأى ذلك. يقول إنه عند التعامل مع الأجانب لن يكون هذا القسم مفيداً.

- لن يسعد الشيخ المبجل بهذا الخبر!

- لقد تذكرنا ريديدا يا صديقي العزيز. نظراً لأنه في ظل الظروف الحالية لا يُنتظر أن تكون هناك حاجة إلى الاقتصاد السياسي، فسوف يقرأ في الجامعة الجديدة عن علم توزيع المنسوجات والأقمشة القطنية الموسكوفية.

- رائع! يكفي لمارغلان أن تدرس هذين العلمين.

- ستتوجه إلى الاتجاه التالي: سنخرج في البداية على ضيعتك بروبليفانيا. ربما نجد المنزل هناك لم يتضرع كلية بعد، ثم نتوجه إلى مورش عند أقارب فائينوشكا ومن هناك نتجه إلى نيجني لوموف حيث تعيش عمّة فائينوشكا عند خصي ثري تعمل طبخة لديه، وفي مكان ما في الطريق نعمّد يهودياً. يُجري أونوفري بالفعل المفاوضات

(١٣٤) مدينة تقع في أوزبكستان.

عن هذا الأمر سرًا. إنه يأمل منذ فترة أن يجعل أحد اليهود صرافًا لديه.

- لكن إذا رحلنا، من سيهتم بشؤون الجامعة؟

- سنولي كامل ثقتنا بالالايكين في هذا الأمر. سيحقق يا أخي

مراده.

- جلوموف! دعنا نرسل في طلب أوتشيشيوني سريعًا.

- فلنرسل في طلبه وفي طلب بالالايكين أيضًا. لنحدث عن

الأمر الضرورية ثم تناول الغداء جميعًا عند فائينوشكا.

بعد ساعة كان أوتشيشيوني وبالالايكين معنا. بعد أن سمع العجوز

المبجل عن المهمة التنويرية التي في انتظاره في الشرق أراد أن يقول

بعض التعبيرات المذهلة، لكنه من فرط الدموع لم يستطع قول كلمة

واحدة. عندما هدا طلب شيئًا واحدًا؛ أن يبدأ في تقاضي راتبه من الدولة

الآن منذ أن أعلم بالخبر السعيد من دون أن يتوجب عليه انتظار افتتاح

الجامعة. فيما يتعلق بالالايكين فقد أخذ مهمته القادمة على محمل

الجدية بعد أن حذره جلوموف قائلاً:

- انظر يا بالالايكا! عليك أن تتحلى بالمكر كالثعلب.

- لا تقلقوا أيها السادة حيال أي شيء يتعلق بي. أعرف كيف

أفعل ذلك جيدًا، ولم أقرر من قبل استخدام هذا القدر من المكر، لكني

سأستخدمه الآن.

حينها اقتنعنا أن قضية تنوير الشرق الروسي صارت في أيدي أمينة،

وكنا على وشك الذهاب إلى فائينوشكا لكن أوتشيشيوني أوقفنا قائلاً:

- ما دام الأمر وصل إلى ذلك فسأكشف سري إذن. ابتكرت أمرًا واحدًا، ليس خاصًا تمامًا ولكنه مفيد. ما رأيكم أيها السادة إذا فعلوا الآن في روسيا تأمينًا إلزاميًا على الحياة، فهل سيعود هذا الأمر بالنفع أم بالضرر؟

حيرنا السؤال بشدة حتى إننا ظللنا نحدق إلى أوتشيشيوني طويلًا. لكن جلوموف التقط شيئًا ما؛ أغلق عينًا ونظر بالأخرى، وهذا ما يحدث له دائمًا عندما يفكر أو يحسب شيئًا ما. واصل أوتشيشيوني حديثه:

- كم عدد سكان روسيا بحسب أحدث المعلومات؟
أجبت:

- وفقًا لتقويم سوفورين الأخير وصل العدد في ١٨٩٧ إلى ٩٨٥١٦٣٩٨ نفسًا.

- هذا يعني أنه إذا دفع الفرد روبلاً واحدًا فسيكون لدينا ٩٨٥١٦٣٩٨. حسنًا. هذا مبلغ جيد. لدينا إذن مساهمة سنوية من الناس تصل إلى ٩٨٥١٦٣٩٨ روبلاً. ما رأيكم: ما العلاوة التي يمكن أن نخصصها في حالة الموت؟ أعطوني رقمًا تقريبيًا!

هرعنا إلى تقويم سوفورين وبدأنا نبحث عن مقالات تتعلق بحركة السكان لكننا لم نجد شيئًا. حينها تذكرنا ما قيل عن هذه المسألة في الإحصاءات القديمة بخصوص أن متوسط عمر الإنسان يصل تقريبًا إلى ٣١ عامًا. قال جلوموف:

- ٣١ روبلاً.

صاح أوتشيشيوني في نوبة كرم:

- وأنا أقول لنجعلها ٣٥ روبلاً.

هاجمته قائلاً:

- ماذا تقول؟ أنفهم من سيستفيد من تأمينك؟! سيستفيد منه

الفلاح. يكفيه ٣١ روبلاً.

لكن أوتشيشيوني أصر على إبقاء الرقم ٣٥ حيث إنه في ضوء السياسة الشعبية يمكن لهذه الإضافة أن تشكل مقترحاً جيداً. واصل حديثه قائلاً:

- والآن كم يمكن أن يصل عدد الموتى سنوياً؟

اندفعنا مجدداً إلى التقييم ولم نجد شيئاً مجدداً. وصلنا إلى أنه في الفترة الممتدة بين ١٨٧٠-١٨٧٩ وصل متوسط الزيادة السنوية للسكان إلى ١٥٠٠٠٠٠ نفس. لكن فيما يتعلق بعدد المواليد والوفيات سنوياً، فهذه مسألة تعهد أوتشيشيوني بتحديددها بفضل حدة قدرته على الملاحظة. قال:

- لنفترض أن نصف الـ ٩٨٥١٦٣٩٨ نساء. سيُقدَّر عدد النساء إذن

بنحو ٤٩ مليوناً. نصفهن كبيرات السن أو صغيرات السن، وبذلك يتبقى لنا ٢٤ مليوناً ونصف من النساء القادرات على الإنجاب، وسنقول إن نصف هذا العدد عاقرات أو لا يزلن عذراوات، وبذلك يتبقى لنا ما يزيد على ١٢ مليون امرأة بنسبة بسيطة. كل من هذه النساء القادرات على الإنجاب تنجب مرة كل ثلاثة أعوام تقريباً. صحيح؟ لدينا إذن أربعة

ملايين وليد. سنقول إن معدل الوفيات يصل تقريباً إلى مليونين ونصف وبذلك يتبقى لنا مليون نفس ونصف. إذا قلنا ٣٥ روبلاً للمتوفى، فكم يكون المبلغ؟

أجبنا بمرح:

- ٨٧,٥ مليون!

- إذا طرحنا هذه المصروفات من الدخل (٩٨,٥ مليون) فكم ستربح شركة التأمين إذن؟

- ١١ مليوناً وواووناً!

- ١١ مليوناً لا غير يا سادة.

صمت أوتشيشيوني مبتهجاً! أثر أيضاً قوله «شركة تأمين» تأثيراً كبيراً علينا. لم نكن في انتظار ذلك بأي طريقة. ظننا أن العجوز ببساطة يلهو بالإحصاءات بدافع الفراغ وحسب، وإذا به يدبر ما دبره!

كان جلوموف أول من استعاد رشده. قال:

- هذا جيد يا أخي. أقترح التبرع بروبل فضي منا للأطفال حديثي الولادة.

أضاف بالالايكين: «وأنا سأحتفظ بنصف الأسهم لي». لكن أوتشيشيوني زار حتى وافق بالالايكين على تخفيض النسبة إلى الربع. من جانبي قلت:

- اسمحوا لي أيها السادة، كل هذا ممتاز، لكننا أغفلنا أمراً واحداً: المديونين! من المعروف أن الفلاح الروسي...

كنت على وشك إلقاء محاضرة عن سمات الفلاح الروسي ولكن
أوتشيشيوني قاطعني فور أن بدأت قائلاً ببساطة:

- هذا أفضل بالنسبة إلينا.

- كيف؟

- سأقول لك يا سيدي. كل من لا يستطيع دفع روبله الفضي في
أوانه يُحرم إلى الأبد من حقه في مكافأته التأمينية. هذه هي القاعدة يا
سيدي. الآن اسمح لي: كم يُقدَّر عدد الذين دفعوا لسنوات عديدة ثم
توقفوا فجأة؟ مدفوعاتهم ستذهب بالكامل لخدمة المجتمع! ثانيًا:
لنفترض أن عدد المديونين ينمو حتى يصل إلى الثلث. هذا يعني أن دخل
المجتمع سيقبل ليصل إلى ثلاثة وثلاثين مليون روبل. لكن بالتوازي مع
هذا النقص سيقبل أيضًا عدد من ينالون مكافأتهم التأمينية إلى النصف،
وربما أكثر. ستسألونني: لماذا إلى النصف؟ السبب بسيط، وهو أن عدد
من يموتون من بين قطاع المديونين أكبر دائمًا من عددهم من بين دافعي
الضرائب العاديين. إذا تحققت هذه الفرضية فسيصل الدخل إلى ٦٥
مليون روبل، وستصل تكاليف دفع مليون وثلاثمائة ألف مكافأة تأمينية
إلى نحو ٤٥ مليون روبل. المتبقي: ١٤ مليونًا.

صحبنا جميعًا:

- برافو إيفان إيفانيتش! برافو!

سأل جلوموف بفضول:

- أي مصائر أفضت بك إلى هذا المزيج الرائع!

أجانبني العجوز المبجل بتواضع:

- لم يهني الله مواهب كبيرة لكني أحاول استغلال أقلها أفضل استغلال. أمشي بين الناس وأنصت جيدًا. منذ فترة قصيرة سمعت رجلًا ذكيًا يعرض مشروع تأسيس شركة تأمين على حوادث القطارات بحيث يفرض رسم بسيط على كل راكب ولكنه إلزامي، وإذا وقع حادث تكون هناك مكافأة تأمينية. جيد؟ سمعت وسمعت وفجأة ومضت الفكرة في رأسي: ماذا إذا طبقنا هذه الفكرة على نطاق واسع؟ وهكذا توصلت إلى الفكرة.

امتدحه جلوموف قائلًا:

- ويا لها من فكرة! حتى الأطفال لم ينسهم! أنت طيب، وهذا أئمن ما فيك. لنفحص الآن هذه الحالة: طفل صغير لا يتعدى عمره شهرًا يموت. كيف كان قبل ذلك؟ يصنع له أبواه نعشًا ويدفعان للقس ليصلي عليه، ولنقل مثلاً خمسة روبلات. من أين يأتي الفلاح الفقير بخمسة روبلات؟ في المستقبل يموت آخر، والآن صار على الأسرة ٣٥ روبلاً. حينها نقول له: تفضل! ثلاثون روبلاً مبلغ رائع! في حياة الفلاحين يمكن للواحد فيهم أن يشتري بهذه الروبلات الثلاثين بقرة! رائع!

- بل هذا هو الأروع يا سيدي.

لم يتبقَّ أمامنا سوى تطوير بعض الوسائل لتنفيذ فكرة أوتشيشيوني، لكن نظرًا لأنني كنت متدمرًا في هذا اليوم وجدت أنه من الضروري أن أطرح سؤالاً أخيرًا على المجتمعين. قلت:

- كل هذا رائع ولكن أمرًا واحدًا يزعجني. لقد ذكرت السياسة الشعبية. لنفترض أنه سيسهل عليك تقديم طلب للسماح بمشروع يحمل فائدة لا شك فيها للشعب. لكن تصور أن يحدث الآتي مثلاً: غداً تنتهي السياسة الشعبية وتحل محلها سياسة ليست شعبية. ما العمل في هذه الحالة؟ ألا تتوقع في هذه الحالة أن يُبطل الإذن الممنوح لك فوراً؟ في هذه الحالة كيف ستكون قيمة أسهمك أو حصصك؟

لكن هنا حمل جلوموف على عاتقه مهمة شرح تهافت اعتراضاتي.

قال:

- غريب أمرك! وهل سنعجب بالأسهم مثلاً؟ سنبيعها في البورصة. وإذا فرزوها فسنبيعها خفية. إيفان إيفانيتش، هل توافقني؟

- صحيح كلامك تمامًا يا سيدي.

هكذا حُلَّت كل الصعوبات ولم يعد شيء يمنعنا عن المضي قدماً. واجهنا ثلاثة أسئلة رئيسة: ما الأفضل لتنفيذ هذه الفكرة؛ شركة بأسهم أم الاعتماد على صداقتنا؟ كم عدد الأسهم التي يجب إصدارها في الحاليتين؟ كم القيمة التي يجب تعيينها في هذه الحالة أو تلك؟

حسمنا الإشكاليات الثلاث بالإجماع. بالنسبة إلى السؤال الأول قررنا أن تكون شركة قائمة على الأسهم حيث إن هذه الشركات بلا اسم، وعلاوة على ذلك، من الأسهل الدخول إلى البورصة بأسهم من الدخول إليها بحصص رفاقية ثقيلة (فلتقارنوا مثلاً بين الفرسان ذوي التسليح الخفيف والفرسان ذوي التسليح الثقيل). بالنسبة إلى السؤال الثاني توصلنا إلى إمكانية إطلاق مليون سهم بقسائم على غرار أسهم

السكك الحديدية في طريق نوفوتورجيسكايا (على الأقل هذا ما نأمل!)، وسنكتب على كل سهم «الإصدار الأول» لتشجيع الجمهور على إصدار ثانٍ، ومن ثم تصير الشركة قوية. فيما يتعلق بالسؤال الثالث، وبالرغم من ضغط الدافع الأناني علينا لنجعل سعر السهم كبيراً بقدر الإمكان، فإن شعوراً بالعطف تجاه البشرية المحتاجة قد تملكنا. بالوضع في الاعتبار أن هذه الأسهم لن تُكلّفنا كوبيكاً واحداً، ومن أجل النجاح في بيعها للجمهور، من الضروري أن تُتاح في الأساس لأصحاب الميزات الصغيرة، ومن ثم قرناً أن ٢٥ روبلاً ستكون قيمة عادلة، وحين يُجرى التقسيم لاحقاً بين المؤسسين سيصل المبلغ إلى ٢٥ مليون روبل.

لكن هل نجعل القيمة المادية في روبلات فضية أم نقدية؟ حدث خلاف في هذه المسألة. قال بالالايكين صراحة إن المعدنية أفضل حتى يصير الأمر أيسر بالنسبة إليه، أما أنا فقلت إن المعدنية لا بأس بها لكن لن يضرنا أن تكون ورقية. وقف جلوموف وأوتشيشيوني في صف الروبلات الورقية وقد طلبا أن نضع في اعتبارنا أن القطاع الأكبر من جمهورنا قد نسي حتى فكرة وجود الروبل المعدني القديم. قال جلوموف:

– ما لنا ومال المعدنية؟ حتى الكاتب الفرنسي بونت كتب عن سرقة الأموال المعدنية.

لكن ما إن نطق كلمة «سرقة» حتى استدار تلقائياً، كما لو أنه أراد التيقن من عدم وجود أي شخص غريب في المكان معنا وما إذا كان

قد تحدث بحدة أم لا. سأل وكأنه لا يصدق أنه هو نفسه من قال هذه الكلمة: «من قال: سرقة؟»، وعندما تأكد من عدم وجود غرباء استنتج أنه هُيئَ له ذلك وحسب.

مع ذلك حدث ذلك في الوقت المناسب حيث حُسم الأمر لصالح الروبلات الورقية. لكن عندما وصلنا إلى ما يتعلق بتقسيم الأسهم تصلبنا تدريجيًا حتى إننا عدنا إلى كل الأسئلة السابقة مجددًا. أصر جلوموف أولاً على أن تكون فائنيوشكا هي المؤسّسة. قلّص ذلك من نصيب كل منا، ولكن نظرًا لأن جلوموف هدد بفسخ العلاقات اضطررت إلى الموافقة على أن يطبع سرًا من الإصدار الأول مائة ألف سهم إضافي يمنحها لفائنيوشكا. ثم أثار جلوموف سؤالاً عن مشاركة بارامانوف، لكننا قررنا من دون أي مجادلات أن نطبع مائة ألف سهم أخرى احتياطية تُعطى لبارامانوف بسعر ٢٥ روبلاً للواحد وتحويل مليونين ونصف من خلال هذا البيع إلى رأس مال احتياطي. بهذه الطريقة يظل رأس المال الأساسي سليماً، وقسّمناه فيما بيننا إلى أربع حصص متساوية. لكن هنا بدت الحصص فجأة قليلة للجميع، وبدأ الكل يوبخ الكل بالتناوب. وبيّنا أوتشيشيوني لأنه بدّد أموال الآخرين بتعيينه المكافأة التأمينية بمبلغ ٣٥ روبلاً بدلاً من ٣٠ روبلاً، ووبيّنا جلوموف لتبديده أربعة ملايين من أجل المولودين حديثاً، ووبيّني لأنني ساهمت بازدواجيتي في القضاء على الروبل المعدني. اضطرب بالالايكين بدرجة تفوق الجميع حتى إن عينيه امتلأتا بالدماء. ظل يصيح: «ما الجدوى من معاناتي؟ ما الجدوى من معاناتي؟»، حتى أمسكه جلوموف من ذراعه

ولم يحتمل أكثر من ذلك فجرّه إلى السلم.

لكن عندما تم ذلك، وهذان تدريجيًا تذكرنا فجأة أنه يستحيل علينا تدبر الأمر من دون بالالايكين. جميعنا سيرحل فمن سيتولى أمر الموافقة على إنشاء الشركة؟ من الواضح أن بالالايكين وحده هو من يستطيع تحقيق النجاح في هذا الأمر. لكن الحظ حالفنا هنا لأن في اللحظة التي قرّر فيها جلوموف البحث عن بالالايكين، ركض الأخير عبر الفناء ووجدناه صار بيننا مجددًا بعد أن صعد إلينا من السلم الخلفي. قال وقد نسي تمامًا ما حدث:

- سأتولى هذا العمل نيابة عنكم. أعرف كيف أفعل ذلك جيدًا، ولم أقرر من قبل استخدام هذا القدر من المكر، لكنني سأستخدمه الآن. هكذا انتهى الأمر على نحو رائع واستطعنا التوجه لتناول الغداء عند فائينوشكا بقلوب مرتاحة. في هذا اليوم الرائع الذي لا يُنسى بدأنا عمليين لامعين. أولًا: تأسيس جامعة زارافشان/ فيرجانسك. ثانيًا: زودنا الفلاحين بمساعدة كبيرة. عبّر جلوموف عن كل ذلك بروعة حينما قال مشيرًا إلى أوتشيشيوني:

- لدينا هنا أيها السادة مثل وعبرة عمليان! المبجل إيفان إيفانيتش هو -إذا جاز التعبير- المثال الأساسي لكل ممولين. لا ينظر حوله ولا يتخابث ولا يلعب بالإحصاءات ولا يسلك المسارات المعرّجة بل يتحدث حديثًا مباشرًا، يتحدث من الروبل إلى الروح، أو يمكننا أن نصوغها بطريقة أخرى: يتحدث من الخيوط العارية إلى القميص الرائع! صمّت أيها الأحمق، ألا تراني أتكلم؟

غادرنا نحن الخمسة بطرسبرج: الصراف وفائينوشكا وأوتشيشيوني وجلوموف وأنا. علاوة على ذلك، قررنا أن نصطحب معنا شخصاً جديراً بالثقة من المفترض أن يدوّن في الطريق كل أفعالنا وأحاديثنا وأفكارنا في دفتر يوميّات. بدا لنا هذا الإجراء الاحترازي مهماً، ففي حالة أن اصطادنا «الضيف» سيكون مثل هذا الدفتر بمثابة تبرئة لنا. سنقول له: اقرأ! في البداية فكرنا في أن يلعب كشيبيشيتسيولسكي هذا الدور، لكن تبين أنه جاهل، وعلاوة على ذلك كان منخرطاً بكل سرور في لعب الورق. حينها وقع اختيارنا على «مراسلنا الخاص»، وكما سنرى لاحقاً لم أخطئ في اختياره.

كان طريقنا يمر مباشرة بمورش حيث ينتظرنا أقارب فائينوشكا، ولكن في الطريق أعاد جلوموف التفكير وأقنعنا بالنزول في تفير لنستمع برحلة على متن باخرة في نهر الفولجا إلى ريبنسك. قال: «أولاً: سوف يرفع نهر الفولجا من روحنا المعنوية. ثانياً: ما دمنا حددنا لأنفسنا أهدافاً تنويرية فعلينا ألا ننسى أننا آجلاً أم عاجلاً سنضطر إلى قضاء فترة في البرد القارس، بل وربما يتعين علينا أن نتنزه وأيادينا خلف ظهورنا. في رأيي علينا أن ننهي هذا العمل في أسرع وقت ممكن. سنتألم بقدر

ما يتوجب علينا، وبعد أن نعرض دليلاً على أننا أتممنا طقوس التنوير كاملة يمكننا أن نمضي قدماً بأمان. سنعرض هذا الدليل عند مرورنا بكل البوابات والحراسات، ونظرًا لأنه سيبين أننا افتتحنا جامعات لا حصر لها، لن يمسنّا أحد. المسألة كلها تتلخص إذن في كيفية جعل المعاناة مريحة بقدر الإمكان. لدي كل الأسباب لأعتقد أنه سيكون مربحًا أكثر لو أدينا هذا الواجب في مقاطعة تفير. تشتهر هذه المقاطعة منذ فترة طويلة بليبراليتها. هذا وحده يكفي لتوقع الدخول تحت مظلة الضباط. «أيها السادة! أقترح أن نصيح «أورا!» من أجل التنوير ورخاء مقاطعة تفير بشكل عام، ورخاء ضباط تفير بشكل خاص!».

استقبلنا هذه الخطبة التي تتضمن برنامجًا سياسيًا كاملاً بتعاطف شديد. صحننا ثلاث مرات: «أورا!»، وفي اليوم التالي، في السادسة صباحًا، نزلنا بالفعل في تفير واستقللنا باخرة من هناك متجهة إلى ريبينسك.

لم نكد نغتسل ونشرب الشاي حتى وجدنا «مراسلنا الخاص» يجلب دفترًا وینال استحساننا، وكتب على صفحة العنوان:

يوميات السفر

رحلة استكشافية على حساب التاجر من الطبقة الأولى بارامانوف
بهدف استكشاف جامعة زارافشان

اليوم الأول

الرحيل من سان بطرسبرج: أغسطس في الثالثة والنصف عصرًا في قطار البريد.

الأفعال: بعد دخولنا عربة القطار أخذنا أمانتنا ثم أخرجنا صندوق المؤن وأخذنا نغترف منه حتى حل الظلام. في الأماكن المحددة خرجنا لتناول الغداء في المحطة ثم الشاي فالعشاء. نمنا ليلاً.

دارت المحادثات بشكل أساسي عن فائدة التنوير وأيضًا عن الإنسان السعيد حقًا. بخصوص المسألة الأخيرة أخبرنا أونوفري بيتروفيتش بارامانوف أن بيريكوسيين الأول كشف له عن نيته قبول مبلغ بسيط: «يسرني أن أسعد سيادتكم» ولكن نظرًا لأن بيريكوسيين الأول وضع سعرًا لهذه المهمة: ١٠ آلاف روبل، وبارامانوف عرض عليه بسبب تقدمه في السن خمسمائة روبل وحسب تبدد الأمر سريعًا. علاوة على هذه المحاورات يمكننا أن نضيف أن جلوموف كان يخاطب فائنا بجوروفنا ستيجنوشكينا بالملكة. في الوقت نفسه أبدى تحفظًا مفاده أن هذا التعبير لا يُستخدم بمعنى أنه يحلم باعتلاء فائنا بجوروفنا عرش روما أو صربيا، لكنه يستخدمه بمعنى أنها ملكة على عرش قلبه. أيًا كان التفسير فقد أَرْضَى الجميع؛ بما فيهم الضابط غير المرئي الذي كان يستمع إلى الحوار.

لم يكن لدى أحد أفكار اليوم.

في اليوم التالي، في الخامسة صباحًا، وصلنا إلى تفير وانتقلنا إلى الباخرة.

اعترف الجميع بأن هذه النسخة من اليوميات مُرضية تمامًا وسارعوا إلى ختمها بالتوقعات الملائمة.

لكن حالة الطقس لم تلائمنا. اكتنفت السماء غيوم داكنة أمطرت مطرًا رقيقًا وخريفياً تمامًا. بدا الأمر كما لو أن شبكة حجبت عن أعيننا منظر الفولجا وأمواجه وضافه المنبسطة حيث تبدو الأكواخ هناك وحيدة سوداء. لهذا السبب لم ترتفع روحنا المعنوية كما أملنا. لم يتجاوز عدد من على متن الباخرة عشرين شخصًا، واحتشدوا في صمت تحت المظلة، وهم يمزقون بأيديهم قطع سمك الروش المجفف. مثل الاستثناء الوحيد لذلك شماس شاب ذو وجه وشعر وعينين بيض وقد ارتدى رداء من قماش شالون باهت. ظل يجوب سطح الباخرة ذهابًا وإيابًا، وبين الحين والآخر يتكئ على حاجز الباخرة (خاصة في المنطقة التي وقفنا فيها) وينظر بعيدًا، هارًا كتفيه المبللتين، كما لو أنه يحصي الكنائس التي يراها في الطريق، ولكن بدا لي أنه «يجمع بيانات إحصائية». لم يكن هناك أحد إطلاقًا في الكبائن. وقف الطاهي عند باب المطبخ بسترته الملطخة بشدة لدرجة أنه بدا كما لو أنه كان يمسح بها الأرض، وبدا أنه لا يتوقع حدوث شيء جيد. أما الخادم الناعس ذو الوجه المتورم، فكان يرتدي معطفًا ملطخًا، وبصق إلى اليمين ومسح البصقة بقدمه اليسرى. كانت الباخرة مدولبة وقديمة وقد ظلت تنفخ وتهدر وتصر، وتعلن عن وجودها بوضوح. ترددت في الأذان أصوات ضربات المجاديف المدولبة الهادئة المقترنة بصيحات الدليل للربان: «أربعة - خمسة - خمسة - أربعة - ثلاثة!»، كما لو أنها آتية من حلم.

أي حزن كئيب أثارته هذه الأصوات، بل والمشهد المرتسم أمامنا
بأكمله!

أخيرًا دفعنا المطر إلى الاحتماء بالمقصورة، ولكن هناك بدت
الأجواء أكثر مللاً. الأهم من ذلك أننا لم نعرف ماذا نفعل. أردنا طلب
بعض الطعام، ولكننا تذكرنا معطف الطاهي وخفنا. لم نجد أيضًا
موضوعات للحوار، وفي الآن ذاته كان من الضروري أن نتحدث لأننا
إذا لم نفعل ذلك فمن الممكن أن تظهر لدينا بعض الأفكار، وحينها
سيفسد دفتر يومياتنا إلى الأبد. أوشك جلوموف على طرح سؤال:
«ما أسباب الملل؟»، لكنه تراجع عن ذلك تخوفًا من أن يهيئ السؤال
الفرصة لإساءة التفسير. من جانبي أوشكت على طرح سؤال: «أين
تكمين السعادة الحقيقية؟ في الغرف أم في كبائن السفن؟»، لكنني
أحجمت أيضًا خوفًا من أن يهيئ السؤال الفرصة لإساءة التفسير. حسنًا
فعلنا ذلك لأن «مراسلنا الخاص» وضع عينيه علينا بالفعل، وبدأ أنه في
انتظار ما سيحدث.

بدأ جلوموف التحدث عن مدينة كورتشيفا. مررنا بالفعل بمحطة
الباخرة الأولى وتلتها مدينة كورتشيفا. تبين أننا نعرف أمرًا واحدًا عنها؛
كورتشيفا هي مدينة كورتشيفا! لكن لا نعرف ما إذا كانت فيها مصانع
صابون ومدابغ أم لا. صحيح أخبرنا أوتشيشيوني أنه ذات مرة وصل إليهم
في صحيفة «كراسا ديميدروفنا» خبر يؤكد أن خبارًا يعيش في كورتشيفا
يخبز كل يوم أرغفة فرنسية طازجة، لكن هيئة التحرير لم توافق على

نشر هذه المادة خوفاً من أن تتضمن بعض الرموز^(١٣٥). كان هذا كافياً كي تفتح شهية الجميع ويرغبوا في التوقف في كورتشيفا. عبثاً حاولت إقناعهم بأنه سيكون من الأفضل لنا التوقف في مدينة أوجليتش حيث يصنعون سجقاً أوجليتشياً رائعاً، ولم يستمع إليّ أحد. صارت الباخرة مقبنة حتى إن الجميع سعدوا السنوح الفرصة لهم كي يتعدوا عن الرطوبة والأصوات المحبطة للقارب البخاري ويذهبوا لأماكن هادئة ودافئة. قال جلوموف: «ما هذا؟! كورتشيفا يا كورتشيفا! لنبقَ هنا يومين أو ثلاثة ونزور معالم المدينة، وبعدها ربما نذهب إلى أوجليتش!».

التقنا كورتشيفا بعداء. لم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة حينما توقفت السفينة في الميناء، ولكن بفضل السحب التي ملأت السماء حل الشفق قبل موعده الطبيعي. ازداد هطول المطر وصارت الأرض رطبة، وكان الرصيف فارغاً تماماً. بالرغم من عدم طول المسافة وصلنا إلى المسكن بجهد كبير نظراً لانزلاق أقدامنا، وكنا مبتلين وقذرين تماماً. حينها فقط استعدنا رشدنا وتبادلنا النظرات وكأننا نسأل أنفسنا: أين نحن؟ طرح مراسلنا السؤال فجأة بغضب: «أي شيطان أتى بنا إلى هنا؟». بدا صوته نبوياً. في العادة كان يلزم الصمت ويسلك بخجل حتى إننا لم نعرف دقائق صوته تقريباً، وفجأة تبين أن لديه صوتاً جهيراً (باس) عميقاً بسبب الإفراط في الشرب.

لكن أحداً لم يُجِب عن السؤال، وأعادنا جلوموف إلى الشعور بالواقع بقوله:

(١٣٥) ربما المقصود هنا أن روسيا تستورد أفكاراً ثورية طازجة من فرنسا.

- أيها السادة! جوازات السفر جاهزة.

بدا النُّزْلُ قديمًا، لا يستطيع أحد العثور عليه إلا في أبعد الغابات حيث لا يمكن لأحد الذهاب إلى هناك. الساحة واسعة ومظلمة ذات سقف منحدر خشبي، ننته تفوح منها رائحة بول الماشية، وردحاتها الداخلية معتمة، وفيها سلالم متقلقلة وسماور، والنزل قائم في الطريق تنتشر من حوله النفايات والرائحة النتنة. على اليمين كوخ كبير تقيم فيه أسرة صاحب النزل، ويُسمح للضيوف الأكثر نظافة بالدخول مباشرة إلى غرفتين علويتين صغيرتين ونظيفتين ذات نوافذ خضراء ينكشف منها منظر ميدان ومن خلفه يلوح نهر الفولجا. كل شيء هنا بدا غريبًا ومشوهًا، كان له مغزى وهدف يومًا ما لكنه هُجِر منذ زمن بعيد وتضعضع وفاحت منه رائحة الأماكن غير المأهولة. حتى زوجة صاحب النزل كانت تنظر إلى منزلها نظرتها إلى مكان للنوم وحسب، ونقلت أنشطتها إلى جناح إضافي صغير يتضمن متجرًا تبيع فيه سقط المتاع لتلبية احتياجات الفلاحين.

إلا أننا استقررنا في المكان بشكل أو بآخر وطلبنا بالطبع السماور قبل أي شيء آخر. لكن يا للأسف! الكعك الشهير الذي علّقنا عليه آمالنا لم يتوفر. منذ أسبوع أغووا الخباز بالذهاب إلى كاليازين، وبذلك فقدت كورتشيفا، التي كانت تثير حسد منطقة الفولجا كلها بأرغفتها وكعكها، كل فتنها. سأل جلوموف زوجة صاحب النزل:

- ماذا لديكم هنا إذن؟

- كاتدرائية يا سيدي.

- كاتدرائية؟! أقصد ماذا لديكم يؤكل؟

- لدي بيض لو شئت.

تحدث صاحب المنزل، وهو تاجر من كورتشيفا، بهدوء وعلى مضض. كان فلاحًا لا يتجاوز الستين، ولا تزال هيئته تنبض بالصحة ويبدو جسده ممتلئًا، لكنه كئيب من الداخل. لا بد أنه اختبر أوقاتًا أفضل منذ زمن. عجز منزله بالعابرين وامتلاأت صناديق خزينه بالشوفان والحبوب الأخرى، وعلاوة على ذلك لديه بعض عربات الترويكات. لم يعيش الناس في كورتشيفا في بحبوحة من قبل، ولكن على الأقل فاحت منها رائحة الخبز. في هذا الوقت اعتاد رازنوتسفيتوف ارتداء السراويل الواسعة من نسيج البلش والأقمصة السكندرية. لم يسرع الخطى، ولم يندفع كالمجنون سعيًا خلف المال، بل ازداد سمته في هدوء وثقة، وأخذ يدخر عملات العشرة كوييكات واحدة تلو الأخرى، وأغلق عليها في صندوق ذي قفل مقوّر. وفجأة تسلل الخراب. وصل بطريقة لا تُصدّق، حتى إن الجميع ظنوه مزحة. في البداية صفّرت باخرة في الفولجا، ووقف رازنوتسفيتوف على الضفة ونظر كيف تهدر حورية البحر هذه في الماء وظل يقول: اسبحي أيتها الدمية اللعينة! اسبحي! ولكن لا تسبحي كثيرًا! وبعد مرور عام، كان لا بد من تقليص عدد الحوذيين إلى النصف، لأن الركاب هبطوا إلى بلدة نوفويه. بعدها أعلنوا تحرير الأقنان وانهمك مالك الأرض في البداية في شهادات الاسترداد، ولكن بعد مرور فترة قصيرة اختفى فجأة من دون أثر، وسُرّ الفلاح بتحرره ومضى بعيدًا ليجث عن رزقه. البيوت التي بقيت بدت

معتلة وقديمة وقليلة. فرغ السوق حتى إن تجارة العصيدة لم تعد تبدو جذابة. اضطر صاحبنا إلى هجر عمله كحوزي تمامًا ثم أعلن تحرره، وللوهلة الأولى سُر رازنوتسفيتوف. كان أول من افتتح حانة في الساحة لبيع النبيذ وفكر: «الآن سيرتاد الفلاحون الحانات!». ارتاد الفلاحون الحانات فعلاً، ولكن نظرًا لأنه في كل قرية ظهر رازنوتسفيتوف الخاص بها أخذ مقابل ثمن الخمر حدوة حصان وأعناق أحذية قديمة، ازدهرت أحوال النصابين القرويين وساءت أحوال رازنوتسفيتوف الأصلي. بعد ذلك بدأوا يشيدون السكك الحديدية: من بولوجوف إلى ريبنسك، ومن موسكو إلى ياروسلاف، ونسوا أن يمروا بالسكك الحديدية عبر كورتشيفا، فلم تصلها حتى المحطات المرحلية. لم يتبقَّ لرازنوتسفيتوف من حياته الحرة سوى بطن ضخم لم يجد شيئًا ليملاؤه به في أي مكان. قال رازنوتسفيتوف الساخط، محرّكًا كتفيه بعصبية:

– لا بد أن كورتشيفا هذه ستُحرق!

لكنها لا تزال قائمة كاملة حتى الآن بعكس نبوءاته، بالرغم من أنها تتضعض أكثر فأكثر كل عام وتزداد خزيًا.

حاول جلوموف أن يؤثر على رازنوتسفيتوف بلطفه: «عسى أن تأمر يا عزيزي باصطياد دجاجة من أجلنا!». إلا أن صاحب المنزل أجابه كالحًا: «يمكن اصطياد دجاجة، ولكن لا يمكن طهوها بالقليل الذي هنا!».

مع ذلك تولوا الأمر بطريقة أو بأخرى. اصطادوا دجاجتين مرة واحدة واستعاروا من قُمص الكنيسة قِدْرًا، وبدلًا من الموقد طهوا

الحساء على طوب تحت سقيفة. علاوة على ذلك استطاع صاحب
النزل أن يجلب بعض الكعك المتحجر والليمون المجفف من أجل
الشاي. خفنا أن يجتمع أهل كورثيفا كلهم ليشاهدوا كيف يتناول
ذوو الأملاك حساء الدجاج؛ الأمر الذي قد يُسبب ثورة أخرى، لكن الله
رأف بنا. تناولنا الطعام وابتهجنا وشعرنا بتدفق من الفضول.

- يا صاحب المكان، هل لديكم هنا أي معالم يمكننا أن نزورها؟
أجاب رازنوتسفيتوف بقدر أكبر من اللطف، وقد صار على قناعة
أن ثروة في انتظاره:

- لدينا كاتدرائية يا سيدي.

- أليس هناك شيء آخر بالإضافة إلى الكاتدرائية كمصانع أو ورش
مثلاً؟

- لا، لم تكن لدينا في الماضي، والآن الأمر أسوأ من الماضي.

- ماذا يعملون هنا إذن؟

- نتسكع حول بعضنا. حتى شؤوننا الخاصة لا نعرفها.

- ربما تحوكون المخرمات (الدانتيل) مثلاً هنا أو شيئاً من هذا
القبيل؟ ماذا عن السجاد والشرائط والأكمام؟

- ليس لدينا يا سيدي من يمكنه حياكة الأزارار وأنت تقول
مخرمات؟!

- ماذا تفعلون؟

- ندفع ثمن تراخيص العمل. نحن نعيش من أجل هذا وحسب.

- غريب أمرك! لكن يجب أن يكون لديك عمل تجاري لتدفع ثمن ترخيص مزاويلته.

- لذلك نكدح! من لديه نعمة يبيعها، ومن لديه دجاجة تبيض يأخذ فرخها وبيع كل هذا على السفينة، ونشتري بما نناله ثمن التراخيص.

صاح الصراف بشفقة:

- آه يا ناس! آه يا ناس!

بدا الأمر غير طبعي أن يعيش هؤلاء الناس من أجل شراء تراخيص العمل وحسب حتى إن فائينوشكا ظلت تسمع وتسمع ثم انفجرت في القهقهة: آخ! كم يبدو الأمر مضحكاً! لكنها صمتت فور أن لاحظت أن جلوموف يلقي عليها نظرة خاطفة.

- أليس لديكم شيء إذن لنزوره؟

كرّر رازنوتسفيتوف: «كاتدرائية يا سيدي!»، ثم تذكر بعد وهلة وقال: «لدينا أيضاً شيخ تخطى عمره المائة، ويمكنكم أن تلقوا نظرة عليه إذا شئتم».

تبادلنا النظرات وقرأنا على أوجه بعضنا: «ليس لديهم كعك ولا مؤسسات ولا يحوكون المخرمات ولا ينسجون السجاد. علينا إذن أن نلقي نظرة على هذا العجوز!».

في أثناء هذه المحادثات لم نلاحظ كيف مر الوقت. أحضروا إلينا السماور مجدداً وجلس صاحب النزل معنا وبدأنا نشرب الشاي مجدداً. في أثناء شرب الشاي دار الحوار عن كيفية رفع

المستوى العقلي والاقتصادي لكورتشيفا.

قال جلوموف:

- ألا تأكلون الديوك المخصية المسمنة؟ هل روستوف بعيدة؟ ألم تر كيف ازدهرت أحوالها بسبب هذه الديوك؟

أجابه رازنوتسفيتوف بتواضع:

- هذا غير ممكن أبداً.

- لماذا؟

- لن يستطيع ديكنا المسمن أبداً منافسة ديك روستوف.

- لماذا يا عزيزي؟

- لأنهم في روستوف يعرفون ماذا يعني تحديداً الديك المسمن، ولذلك حاز ديكهم هذا المجد. أما ديكنا فإذا أردت أن تطعم به أحداً، فلن تجد من يتناوله.

- آه يا إلهي!

واصلت الحديث بدوري:

- في كيمري يصنعون الأحذية طويلة العنق. انظر إلى أهل كيمري وستجد أنهم...

- الأمر ذاته فيما يتعلق بالأحذية طويلة العنق. إذا أراد أحد حذاء طويل العنق فمن الطبيعي أنه سيذهب إلى هناك حتى لو لم تُرضه الخياطة. أقصد أن...

- عزيزي، لماذا أنت محبط هكذا؟ ابتهج قليلاً!

- حاولنا أن نبتهج كثيراً، وابتهجنا بأنفسنا وابتهجت السلطات.
كان لدينا هنا مالك أرض... كم كان مخادعاً في لعب الورق! قرر أن
يصنع السكر. زرع البنجر وبني مصنعاً، لكن بدلاً من البنجر نما له جزر!
- ماذا تقول؟

- صدقني هذا ما حدث. هكذا هي الأرض هنا. ما تنتظره منها لا
ينمو عليها، بل ما لا تنتظره منها تخرجه إليك. لا يمكنك الاعتماد عليها.
- لكن كيف يمكن مساعدتكم؟

- أي مساعدة؟ حظينا ذات مرة بمساعدة وها قد انقضت!

- أي مساعدة تقصد؟

- في العام الماضي أعلن التاجر فزدوشنيكوف: إذا أحضر له أحد
شخصاً صقلياً فسيكافئه بخمسة وعشرين روبلاً. أمسكوا به فعلاً! في
هذا الوقت كان الجميع يمسكون ببعضهم. آه مما فعله هذا الوغد!
يقول الشيء ثم يتراجع عند الحساب. يقول إن هؤلاء ليسوا صقليين
حقيقيين! هكذا استغل شاب مدلل في الثلاثين الناس.

- وهل كنت لتطلب شيئاً من فزدوشنيكوف هذا؟

- من يطلب منه شيئاً يقضي عليه. إنه يسيطر الآن على كل شيء هنا،
وكذلك على الشرطة، وقد جعل قائد الشرطة تحت طوعه. كل ما يتطلبه
الأمر أن يقول شخص ما هذه الكلمة المنفرة «صقلي!»، وإذا به يجعل
الجميع من حوله ويسيطر على المساومة ولا يعطي متنفساً لأحد ليتنفس!

- وماذا عن قائد الشرطة هذا؟

- يقول إنه ليس في يده شيء ليفعله. يقول إن فزدوشنيكوف يسير في الطريق الصحيح! آخ! لا يعرف ما العمل.

- وهل كنت لتعرف؟

- الجميع يشعرون بالأسف على أنفسهم. كلمة واحدة فقط لكنها أغلى من مصنع السكر! أتعرف تأثير صيحة: صقلي؟! فلتجمع بعض المال! ربما نستطيع فعلها نحن أيضًا!

جفّف رازنوتسفيتوف العرق من على وجهه، وربت بقلق على بطنه. قال بكآبة:

- انظروا أي بطن صار لدي! كيف ذلك؟ وبالمناسبة يطلب هذا البطن طعامًا!

مزحت فائينوشكا قائلة:

- أنت تأكل إذن؟

- القليل.

تصلب تدريجيًا. تناول من على الطاولة كعكًا صلبًا وقضمه نصفين كما لو أنه شقه بفأس. في أثناء ذلك أظهر صفاً متماسكًا من الأسنان البيضاء القوية والمتناسقة. قالت فائينوشكا بعجب:

- أي أسنان لديك!

- لديّ أسنان، ولدي بطن، ولكن لأي غرض؟

استاء أوتشيشيوني، فقد بدا له أن رازنوتسفيتوف يتذمر.

- آخ يا نيكيفور موسيتش! كيف تقول ذلك؟ الأسنان عطية من الله وأنت تقول: لأي غرض؟!

- هذا ما أقوله. الأسنان تحتاج إلى القضم، وإذا حركها المرء هكذا عبثًا، فما الفائدة؟ الأمر ذاته ينطبق على البطن، فإذا لم يكن أكثر من قشرة جافة، فلا جمال فيه ولا فرح، بل يصير مجرد شوال!

قضم رازنوتسفيتوف من كعكة أخرى وصمت. صمتنا نحن أيضًا. أغلقت فائينوشكا عينيها من الإرهاق، واتكأت على جلوموف. عاود أوتشيشيوني الحديث قائلاً:

- في رأيي يا سيد أن السلطات لا توليك العناية الكافية. لو كانوا قد أولوكم عناية بقدر أكبر لازدهرت أحوالكم منذ زمن.
أجاب رازنوتسفيتوف:

- لقد مرت بنا مختلف أنواع السلطات: فحينًا يزعبنا رئيس بمدى لطفه وآخر يزعبنا بصرامته. يا للمحادثة التي أجريناها! لماذا ليست عندنا ورش ومصانع؟ لماذا ليست لدينا ساحة استقبال جيدة؟ لماذا ليست لدينا مدخنة حريق جيدة؟ ماذا عن أبراج المراقبة والجسور والفوانيس؟ يقولون علينا برابرة!

قضم رازنوتسفيتوف كعكة ثالثة وقرع الكأس ووضع في قاعها قطعة صغيرة من السكر، ونهض بثقل من على المقعد. «عذرًا على الشاي والسكر!». شكرنا وأوشك على المغادرة ثم تذكر فجأة

شيئاً جعله يتصلب تمامًا. سألنا بصراحة:

- من أين أنتم؟

أجاب جلوموف نيابة عن الجميع:

- من بطرسبرج.

- أمرتم هنا في طريقكم إلى مكان آخر؟

- لا. أردنا أن نرى المدينة. نود جمع بعض المعلومات.

- أي معلومات تودون جمعها؟

- الأعراف مثلاً. تقول ليست لديكم حِرف، ولكن ربما لديكم

أعراف. ربما لديكم أغاني احتفالية وحفلات زفاف ورقصات دائرية وعادات وحكايات وتقاليد. في بعض الأماكن تُجرى حفلات الزفاف بالاختطاف.

وضّحت له:

- ربما لديك فكرة عن وجود نوع من ماميلفا تيموفينا^(١٣٦) أو

ربما لديكم منشدون عميان.

نظر رازنوتسفيتوف إلينا بجدية وهز رأسه باستنكار.

- أليست لديكم جوازات سفر؟

قلت في نفسي: «ها قد بدأ الأمر!». أجابه جلوموف:

- لدينا.

(١٣٦) إحدى شخصيات الحكايات الشعبية الروسية.

تغيرت حال صاحب النزل. اكتسى وجهه بالصرامة وصوته بالحدة والجفاف. قال بطريقة تكاد تكون رسمية:

- حسنًا، لا بد أن نكون صارمين في هذا الأمر. إذا جاء شخص من مكان ما فلا بد أن يعلن عن سبب زيارته، وإذا جاء هكذا عبثًا من دون سبب فهو يُعرض نفسه للمتاعب!

غادرنا وانهمكنا في التفكير. في واقع الأمر لم نفكر في ضرورة أن نعلن عن سبب زيارتنا قبل أي شيء آخر. ولكن أي سبب؟ إذا قلنا إننا نجمع إحصائيات فلن يصدقنا أحد. سيقولون: أي إحصاءات يمكن جمعها في كورتشيفا؟ كورتشيفا هي كورتشيفا. لا ورش ولا مصانع فيها ولا أبراج مراقبة ولا جسور ولا ساحات استقبال، وكل شيء آخر فيها عادي كما هو في أي مكان آخر. كما أن عددنا كبير على جمع الإحصاءات. لماذا مثلًا تأتي إلى هنا زوجة التاجر من الدرجة الأولى ستيجنوشكينا؟ ما الحاجة إلى حضور صراف؟

إذا قلنا إننا نسافر وحسب فربما سيبدو الأمر أكثر تناقضًا. سيسألون: لماذا تسافرون؟ ولن تكون لدينا أي إجابة أخرى سوى: نسافر كذا! سيسألوننا مجددًا: ما الهدف من سفركم؟ وستستمر الأسئلة حتى يسلمونا في النهاية إلى أيدي السلطات.

إذا قلنا إن التاجر بارامانوف بدأ مشروعًا تجاريًا مع زوجته ستيجنوشكينا، فلن يصدقنا أحد أيضًا، فما هو المشروع التجاري الذي يمكن عمله في كورتشيفا؟ ما الذي يمكن أن يولد في كورتشيفا؟ جزر؟ نما هذا الجزر حينما زرعوا البنجر، أما إذا زرعت الجزر فحتمًا سينمو

الفجل. هكذا هو الأمر هنا. إنهم لا يحوكون المخرمات ولا ينسجون
السجاد ولا يصنعون الصوف ولا الأحذية طويلة العنق ولا يدبغون
الجلد ولا يغلون الصابون. أمر واحد يتم في كورتشيفا؛ تُذرف الدموع
وتمضغ الأسنان. من الواضح أنه لا يوجد ما يدفع أي رجل صناعة أو
تجارة للذهاب إلى كورتشيفا.

يا إلهي! آه لو تأتي النهاية أسرع! إذا قُدرّ البرد فليكن البرد! كم
عشنا بعيداً عن البرودة! لا بد أن نشعر بها يوماً ما إذن!

كان الوضع مأساوياً. لحسن الحظ تذكرت أنه على بُعد ثلاثين
فرساً من كورتشيفا تقع ضيعة بروبليفانايا التي تربطني بها علاقة ما.
بروبليفانايا الآن غافية ومهملة وخامدة، ولا تدرك أن صاحبها جالس
الآن في كورتشيفا يجمع الأغاني الفلكلورية ويستمع إلى أغاني
البحث (١٣٧)...

اقترحت عليهم:

- سأقول ببساطة إن فائينا يجوروفنا ساومتني على الذهاب إلى
بروبليفانايا.

نظر إليّ جلودوف بارتياح. من الواضح أن فكرة لمعت في رأسه
تتمثل في الآتي: ألا أحاول استغلال الفرصة بمفاجأة فائينوشكا بجدي
وأبي؟ تعجبت فائينوشكا هي الأخرى، وبدا أن فكرة أخرى ومضت في
رأسها، أما مراسنا الخاص فصاح مباشرة:

(١٣٧) نوع من الأغاني الشعائرية الروسية تُغنى في أثناء ممارسات التكهن بالمستقبل في عيد
الميلاد.

- هذا رائع!

استطعت بالطبع تبرير موقفى بسهولة بعد أن وضحت أنى لا أطالبهم بأى هدايا أو دفعات مقدمة أو أى شىء. أنا مستعد لبيع بروبليمانيا لأى شخص ينوى أن يجعل منها مسكنًا رائعًا، لكنى لا أنوى اللجوء إلى القسر فى مثل هذه الحالة. عندما سمعوا منى ذلك هداؤا ووجدوا اقتراحى ملائمًا جدًّا، لذلك قررنا الآتى: فى البداية سنقول إننا جئنا لإلقاء نظرة على بروبليمانيا، ثم نتحرك بخفة إلى الباخرة مجددًا كما لو أننا لم نتفق على السعر.

لكن بينما كنا نتحدث جاء صاحب النزل مجددًا، وأعلن فى هذه المرة أنه يتوجب علينا الذهاب فورًا، ومن دون إضاعة المزيد من الوقت، إلى قسم الشرطة.

أسرعنا بالطبع إلى تلبية الدعوة بكل سرور.

* * *

جرى الأمر بشكل شديد اللطف والبساطة.

لم يكن المأمور ولا نائبه في المدينة. استقبلنا عضو مكلف بالحضور نيابة عنهما وهو عجوز متهالك يُدعى بانتيلي يجوريتش سرعان ما دعانا إلى الجلوس بكياسة:

- آخ أيها السادة! آخ أيها السادة!

ظل يهز رأسه وينظر إلينا، بطريقة لا تُعبّر عن اللوم بقدر ما تُعبّر عن الشفقة. بدا كأنه يقول: «كم كبروا ومع ذلك لا يعرفون أبسط الأمور!». جلسنا وانتظرنا.

قال بلهجة تعاطف تزدداد أكثر فأكثر:

- تعرفون بالطبع أي وقت نمر به الآن وماذا نفعل.

جرى الأمر في غرفة القيادة. انتصبت طاولة في منتصف الغرفة يغطيها مفرش أخضر، وكانت طاولة أخرى أصغر في زاوية الغرفة، وعليها كومة من الأوراق، وقد جلس إليها سكرتير، وهو إنسان لا يزال في ريعان الشباب أخذ ينظر إلينا بشفقة هو الآخر. بإمكان المرء أن يرى غرفة أخرى أكبر من خلف الحاجز الزجاجي، ممتلئة بطاولات تغطيها مفارش من مشمع أسود وقد جلس إليها عشرة موظفين انهمكوا

في عملهم. المصاييح مدخنة، وقد تشيع الهواء برائحة الكيوسين
الرخيص الحادة.

توجه بانتيلي يجوريتش إلى السكرتير قائلاً:

- ميخائيل ميخائيليتش! انظر هناك!

توجه السكرتير إلى الحاجز وفتح الباب وألقى نظرة وقال إنه لا
أحد خلف الأبواب، والكل في عمله. من جانبه رفع بانتيلي يجوريتش
قماش المنضدة وألقى نظرة ليتأكد ما إذا كان هناك أحد تحت الطاولة.
عندما تأكد من عدم وجود أحد قال:

- ولكن لماذا؟ ما أهمية كورتشيفا؟ تكشفون عن أنفسكم وتقعون
في شراكتنا. آه أيها السادة!

واصلنا الصمت، لا لأننا لم نفهم، ولكن لأننا لم نجد ما نبرر به
موقفنا.

- تعرفون مدى الصرامة التي تتسم بها هذه الفترة، ومع ذلك تتخذون
هذا القرار؟! أتعرفون كم وغداً في انتظار... في انتظار الشاي^(١٣٨)؟
وهم يراقبون الآن من خلف النوافذ. آخ أيها السادة! آخ أيها السادة!
قال جلوموف متلعثماً:

- ولكن نحن...

قاطعته بانتيلي يجوريتش:

(١٣٨) كلمة الشاي في هذا السياق تماثل الشاي في العامية المصرية بمعنى: رشوة أو إكرامية.

- أعرف أنكم لم تفعلوا شيئاً. أنتم لم تفعلوا شيئاً ولا أنا فعلت شيئاً، ولا أحد فعل شيئاً. هل سمعتم عن فزدوشنيكوف؟ آخ أيها السادة! آخ أيها السادة!

قررت إنهاء كل ذلك دفعة واحدة فقلت:

- اغفر لنا بحق المسيح!

- ماذا أغفر؟ الله يغفر أو لا يغفر، ولكن ما لي أنا والغفران؟ قُل لي من فضلك لماذا؟ ما الهدف؟ ما السبب؟ أي سرور أملت أن تجدوه هنا في كورتشيفا؟

قال جلوموف مجدداً:

- أليست جوازات سفرنا سليمة؟

- آه جوازات السفر. وما هي جوازات السفر؟ جوازات سفر الجميع سليمة دائماً. شخص يتجول في السوق. «أليديك جواز سفر؟». «لدي». ننظر إليه ونجد أنه جديد. «حسناً، ليكن الله معك»، وبمرور أسبوع يتبين أن هذا الشخص تحديداً يبحثون عنه منذ ثلاثة أعوام، وقد سار في سوقنا وأوقفناه وسجلناه!

- لكن لا يمكن بسبب حادث واحد أن نستنتج أن...

- أعرف ذلك، ولكن هل يمكنني من الأساس أن أستنتج شيئاً؟ كنت لأسعد جداً لو... ولكنه فزدوشنيكوف! وكورتشيفا أيضاً! لكن لماذا؟ لماذا كورتشيفا تحديداً؟ لا حرف فيها ولا تجارة ولا مصانع. لا

شيء فيها عدا كاتدرائية! حتى الكاتدرائية التي في كيمري أفضل منها.
ميخائيل ميخائيليتش، ما رأيك؟

ابتسم ميخائيل ميخائيليتش، وقال مازحًا:

- كلامك صحيح تمامًا يا سيدي. حتى السمكة تندفع متجاوزة
كورتشيفا سريعًا. يصطادونها في تفير أو في كيمري، أما عندنا فلا
يستطيعون.

- لا شيء عندنا ومع ذلك تخاطرون؟ تكشفون عن أنفسكم
وتقعون في شراكنا!
ساندنا السكرتير قائلاً:

- قد يكون السادة قد نشدوا الراحة.

- ولماذا لا يستريح المرء على الباخرة؟ قد تبهر وتبحر، ولكنك
تنزل في النهاية في كاليازين. هناك ستجد رفاتًا مقدسًا وديرًا. أو ربما
تنزل في أوجليتش فهناك ستجد منزل ديمتري تساريفيتش^(١٣٩)، ولكن
كورتشيفا؟ أي سبب يدفع بالمرء للنزول في كورتشيفا؟

من سوء حظنا المريع نسي جلوموف اتفاقنا عن بروبليفايا وقال
فجأة:

- لمجرد الفضول.

- هذا ما أتحدث عنه. لماذا؟ كيف؟ إذا كان هناك سبب يمكنك أن
تشعر بالفضول كما تشاء، ولكن إذا لم يكن هناك فأنا لا أعرف حقًا ماذا

(١٣٩) ابن القيصر إيفان الرهيب.

أتى بكم إلى هنا. في كل الأحوال لا أقول ذلك من تلقاء نفسي، فما لي والأمر؟ بالنسبة إليّ كلما ازداد عدد الفضوليين كان الأمر أفضل. لكننا الآن في زمن... علاوة على فزدوشنيكوف!

سألت بفضول:

- من هذا الفزدوشنيكوف؟ أي قوة لديه؟

- إنه فزدوشنيكوف وحسب...

ازداد اضطراباً تدريجياً وأخيراً بدأ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. توقف أمامي وقال:

- ما العمل الآن؟

- لم نفعل شيئاً حقاً يا بانتيلى يجوريتش...

- أعرف أنكم لم تفعلوا شيئاً. حتى الآن لم تفعلوا شيئاً، ولكن قد تفعلون شيئاً غداً... أي شيء. كل شيء يدور حول هذا الوقت. ولكن ما العمل؟ ماذا أقول؟ أبحروا وأبحروا وفجأة نزلوا في كورتشيفا؟ من الواضح أن كورتشيفا كانت عالقة في حلقة بمرارة ولم يستطع ابتلاعها بأي طريقة.

- بانتيلى يجوريتش! جئنا هنا ليوم واحد لنرى معالم المدينة ثم نعود إلى طريقنا.

- أي معالم هنا؟

- الكاتدرائية مثلاً.

- الكاتدرائية؟ لنفترض أن الكاتدرائية جديدة بالثناء.
- قالوا لنا أيضًا إن شيخًا يعيش هنا في كورتشيفا قد بلغ مائة وسبعة أعوام.
- حسنًا، العجوز... ربما! كنوع من احترام الشيخوخة.
- ربما هناك أيضًا شيء آخر يـ...-
- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ لا شيء عندنا.
- قالها بسرعة وكأنه يخشى ألا يكون هناك شيء فعلاً.
- قال السكرتير:
- يمكنكم رؤية الحداثة^(١٤٠) عند التاجر بريزنتوف. إنها تمثل نوعًا من الحركة المستمرة، وقد اخترعها بنفسه.
- شدّد بانتيلي يجوريتش على موقفه:
- لا شيء... لا شيء يمكن رؤيته هنا. لا شيء هنا سوى تضييع الوقت وتشجيع الكسل! هكذا هو الأمر أيها السادة! سوف تنهضون غدًا مبكرًا وتخرجون على الكاتدرائية وتتضرعون ثم تزورون العجوز، وبعدها ترحلون وليكن الرب معكم.
- بانتيلي يجوريتش! اسمح لنا برؤية البكرة دائمة الحركة.

(١٤٠) الحداثة أو البكرة هي أداة ميكانيكية لها عزم قصور ذاتي معين تستخدم كمُخَزَّن للطاقة الدورانية، حيث تقاوم الحداثة التغيرات الناشئة في السرعة الدورانية، والتي تساعد على استقرار عمود الدوران عند التذبذب نتيجة عزم الدوران الناشئ عليها بسبب القوة المتولدة من المحرك.

هكذا أنت يا ميخائيل ميخائيليتش تترك الأمور! آخ أيها السادة!
آخ أيها السادة! ماذا خطر على أذهانكم؟ أتريدون أن تأتوا حيث المطر
والرطوبة والطين؟ ما السبب؟ لو كان المأمور هنا في المدينة ل... لديه
قدرة على التعامل مع هذا الأمر، أما أنا ف...

كان طيب القلب ومستنير الفكر لكنه فقير ويُقدَّر راتبه.

علمنا لاحقاً أن المأمور ومساعدته أيضاً طيبا القلب ومستنيرا الفكر
لكنهما يقدران راتبهما. هكذا هي الحال مع كل موظفي كورتشيفا
بشكل عام. تقول القلوب الطيبة: ارحلوا! بينما تحثهم رواتبهم على
البقاء مهما حدث!

حركة أبدية...

سأل جلوموف وقد امتلأ فجأة بالشفقة:

- بانتيلى يجوريتش! أليدك بنات؟

- نعم. لدي ست بنات. في عمر الزواج!

- حسناً، قبل شروق الشمس س...

شعر فجأة بالخجل وقال:

- آخ! ماذا تقول؟ لا أقصد أن... لماذا لا تلقوا نظرة على المدينة؟
ألقوا نظرة!

- لا ما دام أن...

- آخ! لا. لا أقصد ذلك. لدينا تقاليد ونحن نحافظ عليها. مر علينا
زمن! أه! لدينا هنا الكاتدرائية والعجوز، ولدينا البكرة دائمة الحركة.

يمكنكم البقاء لفترة إضافية. جوازات سفرهم سليمة يا ميخائيل
ميخائيليتش، أليس كذلك؟

- صحيح تمامًا يا سيدي.

- الرب معكم. لا تشغلوا بالكم بالأمر. لم نكن نسأل عن جوازات
السفر من قبل، وأعترف أنه لم يكن لأحد جواز سفر. كل امرئ وشأنه.
لم يكن أحد غريب يأتينا، ولكن ها هم يأتون إلينا الآن!

أربكه مجددًا التفكير في راتبه. حاول أن يلقي نظرة علينا ويخمن
شيئًا ما لكنه لم يستطع تخمين شيء. توجه إلى سكرتيره مستفهمًا بحزن:

- ميخائيل ميخائيليتش؟

- أظن أنه لا توجد أي مشكلة.

- حسنًا! ليكن الرب معكم! ألقوا نظرة كما تشاءون! (قالها بحسم
والتفت إلى فائينوشكا وأضاف) وأنت يا سيدتي؟

- وأنا يا سيدي أيضًا.

- كما تشائين، ولكن بالمناسبة، الموضة الآن هي القابلات
وكاتبات الاختزال والعاملات بالتلغراف. يومكم سعيد أيها السادة!

صافحنا بلطف وأعاد لنا جوازات سفرنا وتركنا نذهب.

في اليوم التالي، ما إن نهضنا من النوم حتى وجدنا خطابين؛ واحد
من بيريكوسيين الأول إلى الصراف والآخر من بالالايكين إلى
جلوموف (عسى ألا يتعجب القارئ من شيء في هذه القصة العجيبة. أنا
نفسي أفهم بوضوح تام أنه لا يمكن أن تُسلم أي خطابات في كورتشيفا،

ولكن ما العمل إذا كان هذا ما حدث فعلاً؟ في الواقع لم يذهب أحدنا إلى كورتشيفا من قبل، أما هم فذهبوا^(١٤١). أذعن بيريكوسيين. أدرك أن مطالبه الأولية كانت مفرطة ووافق على تقليلها إلى النصف. أبلغنا بالالايكين أنه قدّم التماسات إلى إدارة التمويل بشأن المهمتين الموكلتين إليه. استُقبلت فكرة إنشاء جامعة في زارافشان بالتعاطف الكامل من أعضاء إدارة التمويل، كما استقبلوا فكرة مشروع جمعية تأمين إلزامي على الحياة ببهجة. لكن توجب على بالالايكين أن يتعهد. بعد كلمة «يتعهد» كتب سطرًا كاملاً من النقاط ثم أضاف «حزين وليس لدي ما أفعله».

– يا له من وغد!

شتمه جلوموف فجأة من دون مقدمات بعد أن جعّد الرسالة.

في الحقيقة بدا الأمر مفاجئاً للجميع، فما الذي جعل بالالايكين يتوجه إلى قسم التمويل بالسؤال عن جامعة زارافشان؟ حتى لو لجأ إلى قسم شرطة كورتشيفا لبدا الأمر أكثر ملاءمة! لو حدث ذلك لأرسل قسم الشرطة السؤال إلى حيث يجب إرساله، وهناك سيخاطبون الجهة التي يجب أن تُخاطب، وبهذه الطريقة كان الأمر ليُحل. لكن أحدًا لم يستطع أن يفهم ما الفائدة التي يمكن أن تجلبها إدارة التمويل إلى حركة التنوير.

وحده أوتشيشيوني لم يشاركنا هذه الحيرة. قال:

(١٤١) الملاحظة من الكاتب.

- أما أنا فأرى نقيض ما تعتقدون، في رأيي أي عمل يُراد له أن يتم بنجاح يجب أن يبدأ بلا شك من إدارة التمويل، وسيُقرَّب هذا من هدفه.

- غريب قولك! وما علاقة إدارة التمويل بالجامعة؟

- لا توجد علاقة عامة، ولكن هناك أناس يعملون في إدارة التمويل. هذا هو الأمر. الأمر الذي لا يتولونه لا يتم، ولكن إذا تولوه يتم.

- كيف يتعاملون مع قضية لا علاقة لها بقسمهم؟

- أقول لك كيف. سيكتبون! وإذا لم يصل الرد لفترة طويلة يكتبون مجدداً. الأمر المهم هنا هو المكاتبات، وربما يخترعون شيئاً ما له علاقة بعلوم التمويل وحينها سيتولون القضية من دون حاجة حتى إلى أي مكاتبات.

بدأنا نتناقش فيما إذا كانت هناك علوم تمويل. توجب علينا أن نعترف لا بإمكانية وجود هذه العلوم وحسب، بل بوجودها الفعلي. يتولى البروفيسور كوجان علم خبز بقسمات الجنود، والبروفيسور جورفيتس علم حصص اللحوم والخمور، والبروفيسور ماكشيف علم إصدار إيصالات المؤن غير المسلّمة. هذه مجرد بداية فقط، ولكن إذا واصلنا العد فستُرْهق العيون من طول القائمة. ستكون هناك عشر كليات على الأقل، والأهم من ذلك لن يوجد قسم واحد شاغر. بالطبع لن تتوافق هذه السمات للجامعة مع فكرة المتبرع اتساقاً كاملاً، ولكنها كبداية ستكون جيدة. جامعة، وفي زارافشان! يا للروعة!

لم يخش أوتشيشيوني على قسمه. من المستحيل الاستغناء عن

اللغات الشرقية في زارافشان، وعلم القياس هو الجذر الأساسي للغة الشرقية.

فيما يتعلق بالتأمين الإجباري على الحياة، وبالرغم من أن هذا الموضوع لا يقع بأي حال من الأحوال داخل نطاق شعبة التمويل، فإننا بعد تفكير في الأمر وجدنا أن بالإمكان الكتابة عنه. لكن ماذا نكتب مثلاً؟ يمكن ببساطة: «اعترافاً بضرورة قسم التمويل من حيث مسؤوليته عن التمويل الناجح للجيش والأساطيل بالغذاء...»، ثم يسير الأمر من تلقاء نفسه. إذا أردنا للأمر أن يتسم بمزيد من الدقة فعلينا ألا نكتب مباشرة للجهة المنوط بها الأمر، بل لجهة أخرى فرعية، ثم تكتب هذه الجهة لجهة فرعية أخرى، ويستمر الطنين؛ طنين البريد والتلغرافات في أقسام المالية والاتصالات والشؤون الأجنبية. حينها فقط ستضطر المؤسسة المنوط بها الأمر إلى أن تظن هي الأخرى. هكذا يتم الأمر بنجاح.

هكذا رأينا أننا في انتظار المزيد من المآثر القادمة من جانب بالالايكين.

فيما يتعلق ببيريكوسيين، فلم نصدر عليه أي أحكام، وقد تركنا أمره لتقدير دفة الصرافة في مقاطعة مورشانسك.

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة صباحاً حينما خرجنا لإلقاء نظرة على كورتشيفا. مع أول خطوة وجدنا مفاجأة في انتظارنا: وجدنا

مسافرًا آخر غيرنا في كورثيفا. كان غندورًا يرتدي معطفًا بازلائيًا^(١٤٢)
وقبعة أسطوانية، يذرع الميدان ويلوِّح بعصا. أنظر جيدًا إليه وأشعر أنه
يشبه شماس الأمس، بل إنه هو بعينه! صحت خائفًا:

- جلوموف! انظر! هذا شماس الأمس. هو بعينه!

لكن بدلًا من أن يجيب جلوموف على صيحتي، صاح هو الآخر
محدّرًا:

- انظر! انظر! ها هو! في هذه الزاوية!

أنظر ولا أصدق عيني، في زاوية الميدان أجد مسافرًا آخر يتجول،
ويرتدي معطفًا بازلائيًا هو الآخر وقبعة أسطوانية. ما هذا؟!

ومضًا أمامنا وفجأة تلاشيا من أمامنا كما لو أن الأرض انشقت
وابتلعتهما.

توقفنا تلقائيًا وبدأنا نبحث عنهما بأنظارنا، فبوسعهما أن يتواريا مثلاً
في مكان ما بين حشائش القنب، ولكن لا حشائش قنب في كورثيفا.
بدأنا نتذكر أحداث الأمس؛ هل قلنا أي شيء لا يجب قوله؟ توصلنا إلى
أننا في واقع الأمر لم نقل شيئًا كهذا ولكن...

عابت جلوموف بتردد:

- أنت الذي جئت بنا إلى هنا.

لكن جلوموف اعترف بنفسه بخطئه. نظر إلى فائينوشكا بارتباك

(١٤٢) نوع من الزي الرسمي، ووفقًا للشائعات فإنه مُعد خصوصًا للجامعي الإحصاءات.
(سالتيكوف شيدرین)

كما لو أنه يقول في نفسه: «لماذا بطيشي دمرت هذا الكيان الشاب الساحر!»، لكن الأمر لم يقتصر على أن هذه المخلوقة اللطيفة لم تُظهر أدنى قدر من القنوط، بل على النقيض، نظرت ببهجة مخصصة في عيني الخطر.

واصلتُ إزعاجه:

- لنفترض أننا لم نفعل ولم نقل شيئاً، ولكن هذا لا يكفي. في ظل الظروف الراهنة ثمة حاجة إلى دفء المشاعر؛ الدفء النشط، وهذا ما فاتنا.

بالرغم من ذلك أثرت بهجة فائينوشكا تأثيراً إيجابياً على الجميع فلم يستمعوا إليّ. بطريقة ما أدركوا جميعاً فجأة أنهم أبرياء، ومن المعروف أن المرء إذا شعر بأنه بريء، حتى لو مزقته وأحرقته، يظل بريئاً.

أمر مدهش كيف يلهم هذا الوعي إنساناً ما بالشجاعة والفخر حتى لو كان صرافاً! لقد شعر هذا الصراف بأنه بريء إلى درجة أنه تعهد بأنه إذا وصل إلى بر الأمان فسوف يمنح بيريكوسيين كل ما طلبه.

لا شك أن هذا هو ما انتظره جلوموف. بمبادرة منه أمسكنا بأيدي بعضنا وصحنا ثلاث مرات: «سعيدون بالمحاولة سعاااادتكم!». نظرنا وإذا بصاحب معطف البازلاء يحاول فك أيدينا، وما إن أردنا الإمساك به حتى تلاشى من أمامنا.

تبين أن الكاتدرائية رائعة، فسيحة ومضيئة. نظرنا إلى كل شيء فيها تفصيلاً؛ الجدران وحامل الأيقونات وغرفة المقدسات. كل شيء بدا في أفضل حال. وجدنا فيها الثريا الأروع والإنجيل الأضخم و صليب المذبح الأنيق... كل شيء فيها مرتب وأنيق. تبين أيضاً أن تبرعات التاجر فزدوشنيكوف في كل مكان. قال الأب الشماس وهو يرينا معالم الكاتدرائية:

- وعد السيد فزدوشنيكوف أيضاً بالتبرع بإنشاء جرس للكاتدرائية، وحينها سيحسدونها في كيمري. وفي غضون عام سيُجدد الجص الخارجي.

إلا أن التاجر فزدوشنيكوف لا يحتجز كورثشيفا فقط في أسرهِ، بل مقاطعة كورثشيفا بأكملها. بيد يتبرع وبالأخرى يفتش في جيوب السكان، ولذلك يراقب توازن المقاطعة بدقة. لديه حصته في كل الحانات، وإذا كان رازنوتسفيتوف قد أفلس فذلك لأنه لم يوافق على الخضوع وقرر المنافسة. لولا ذلك لكان الآن كغلام فزدوشنيكوف، يهرع إليه ويقف طوع بنانه، وعلى سبيل الانتقام كان ليتناول حساء الملفوف بالنقانق. علاوة على ذلك يصنع فزدوشنيكوف الخمر: الماديرا والبورتفين واللافيت والرئفين. يصنع كل ذلك بملصقات

ذهبية وسدادات معدنية. في مدينة كاشين يصنعون الخمر على الطريقة الأجنبية، أما فزدوشنيكوف فيصنعها على طريقة أهل كاشين، ولكن كلتا الطريقتين أجنبية. يتاجر فزدوشنيكوف في البساتين، وبعون الله وصل بسعر ساجن^(١٤٣) الحطب إلى خمسة روبلات. قال الأب الشماس:

– بلدتنا فقيرة. إذا أراد الجميع إطعام أنفسهم فسيبتزع كل امرئ اللقمة من فم أخيه بلا فائدة. لن يشبعوا وعبثًا سيتشاجرون، ولكن إذا تغذى أحدهم بالقرب من الجميع فربما ينجح الأمر!
وعندما ركعنا في شرفة الكاتدرائية أضاف:

– منزله الحجري هناك على التل، وفيه جمال كورتشيفا كله. تعالوا وألقوا نظرة. لديه الآن مسافران يتناولان المقبلات.

لكننا سارعنا لزيارة الرجل العجوز بالرغم من أن العلاقة بين فزدوشنيكوف والرجلين بمعطفي البازلاء كان من شأنها أن تحثنا على الذهاب إليه، وتقديم احترامنا إليه في المنزل الذي بدا مقرًا لإظهار النيات الحسنة في كورتشيفا.

في الواقع تبين لنا أن العجوز عجوز حقًا، لا أسنان لديه والعينان تفيضان دمعًا والرأس أصلع تمامًا. علاوة على كل ذلك وجدنا لديه شهادة من قسم شرطة كورتشيفا تشهد بأن حاملها التاجر أونيسييم دادونوف يبلغ من العمر مائة وسبعة أعوام، أو ربما أقل أو أكثر قليلًا. وجدنا دادونوف جالسًا على مقعد كبير مهترئ هدية من المؤرخ الراحل

(١٤٣) مقياس طول روسي قديم يساوي ١٣٤، ٢ م.

بوجودين «تذكّارًا للحظات الممتعة» التي قضّاها معه، وقد ارتدى العجوز قميصًا أبيض نظيفًا، وافترش دثارًا قطنيًا على ساقيه، وكان من الواضح لنا أن العائلة أُخطرت سابقًا بزيارتنا. كان الجو خانقًا في الغرفة، فنادرًا ما تُهَوَّى صيفًا لأن العجوز يخشى أن يمرض من الهواء ويموت. لدى العجوز ابنة، وهي امرأة ضخمة تتكىء على الدكة بلا حراك هي الأخرى تحت الأيقونات، ولا يمكنها الجزم بعمرها تحديدًا، لكنها تتذكر أمرًا واحدًا؛ أنها ولدت في عام التجنيد الإجباري. لم يتبق لها شعر ولا أسنان، لكنها لا تزال تبصر بالرغم من ضعف بصرها، ولذلك تبتلع الذباب في كثير من الأحيان. تخدم هذين العجوزين شابة في السادسة عشرة لا تزال في حالة جيدة لكنها تشكو من آلام قدميها. استقبلتنا الشابة بحرارة وأدلت بشهادتها على الفور.

- انظروا إلى عجوزنا! لدينا شهادة براءته ولا نخادع. ندفع من أجله سنويًا أربعين كوبيكًا.

قالت ذلك وأشارت إلى ختم الأربعين كوبيكًا الملصوق على الشهادة، علامة على أن الرجل العجوز قد نال الترخيص. علاوة على ذلك نهضت من جلستها إلى الطاولة وكشفت لنا عن ملاءة مليئة بالذباب كتب عليها زوار مشهورون أسماءهم. الأغرب من كل ذلك كانت التوقيعات التالية: «أشك في أن هذا العجوز قد تحمل فعلاً عقوبة الضرب بالعصي^(١٤٤)! السيد ألكسي أراكافيتش». تحت هذا التوقيع:

(١٤٤) الإشارة إلى نوع من العقوبات البدنية انتشرت قديمًا في الجيش ونظام القنّانة حيث يُضرب المرء بنوع من العصي على ظهره.

«كل ما يقوله مشكوك فيه. اللواء بريتي». آخر توقيع كان من نصيب الأكاديمي ميخائيل بوجدوين في يوليو ١٨٦٢، ومن هذا التاريخ لم يأت أحد لإلقاء نظرة على العجوز. قلت مرتاباً:

- ولكنه في عام ١٨٦٢ لم يكن قد بلغ التسعين عاماً بعد، فماذا كان مثار الاهتمام به حينها؟

عارضتني الشابة:

- ومن يمكنه أن يعرف كم كان عمره تحديداً وقتها يا سيدي؟ لقد بلغ مائة وسبعة أعوام منذ أربعين سنة بالفعل وتوقف عن التقدم في العمر من وقتها.

بدأنا نطرح بعض الأسئلة على العجوز لكن تبين أنه لا يتذكر سوى أمر واحد، في البداية وُلد ثم عاش. حتى ما يتعلق بأراكتشيف^(١٤٥) فقد نسي كل شيء، بالرغم من أن أراكتشيف، وفقاً لكلمات السيدة العجوز، قد هدده بإدراج اسمه في فوج أبشرون^(١٤٦) العسكري مع الجنود العاديين إذا لم يتوقف عن عيش حياة طفيلية، ولا بد أنه كان سينفذ تهديده لولا أنه قد سقط في الخزي.

هكذا هو قانون القدر القاسي! كم إنساناً تعهد بتمزيق جلده بالسياط في حرارة الكبرياء المفرطة، وفجأة يظهر أمامه سلم ويسقط في هاوية العالم السفلي؟ تتحول البهجة إلى أنين، ومن كانوا بالأمس

(١٤٥) من أهم رجال العسكرية الروسية، وهو مجدد المدفعية الروسية ١٨٠٧ وزير الحرب ١٨٠٨ - ١٨١٠.

(١٤٦) وحدة المشاة في الجيش الإمبراطوري الروسي.

في انتظار أن يمزق جلدهم بسياطه يسطون أجنتهم فجأة ويبدأون
في تعذيبه قائلين: ماذا سرت؟ أأكلت الفطر؟ آخ أيها السادة! آخ أيها
السادة! وماذا لو...؟

توجه جلوموف بالسؤال إلى الشابة:

- ولكن هل تذكرين أي شيء؟

- وكيف لا أتذكر؟ أتذكر الحريق! كل شيء حينها احترق، وبعد
ذلك بعشرة أعوام، بعد أن شيدوا كل شيء مجدداً، اندلع حريق آخر.

- حريق؟ ألا يمكنك أن تقولي شيئاً عن العادات والأعراف هنا؟
مثلاً أغانٍ أو رقصات وحكايات وتقاليد؟

استغرقت الشابة في التفكير. من الواضح أنها لم تفهم السؤال.
وضّحت لها:

- كيف تقضين وقتك؟ ألا تغنين؟ هل ترقصين؟ هل تحكين
حكايات؟

- لا شيء بعينه. كانوا يرقصون من قبل رقصات مستديرة في
الميدان الموجود قبالة المنزل، ولكنهم لم يعودوا يفعلون ذلك الآن ولا
يحكون حكايات. نعيش كما لو في نعش!

- ما سبب هذا التغيير في رأيك؟ هل تغيرت السياسة الداخلية أم لم
يعد هناك ما تغنون عنه؟

لكنها لم تفهم مجدداً.

- كيف أوضح لك ذلك؟ لنأخذ مثلاً بالأدب. اعتاد السادة من

قبل قراءة الأدب وإنشاد الأغاني، أما الآن فقد غطى الشخير على كل الأصوات، فما سبب ذلك في رأيك؟

أجابت الشابة بارتباك كما لو أن الشك يراودها فيما إذا كانت قد خَمَّنت المعنى الصحيح أم لا:

- الآن الضباط يراقبون.

- رائع! أرجو أن تكتب يا مراسلنا ذلك. اكتب: الضباط! ولكن ماذا يمكنك أن تضيفي أيضًا؟ كيف هي أحوالكم الآن؟ هل الطعام شحيح؟ - إلى حد ما. نُعد مسحوقًا ونبيعه ونشتري الخبز بثمنه، وأطريه، فالعجوز لا يستطيع تناول شيء إلا إذا كان طريًا.

- هل الحياة الآن أكثر وفرة من الماضي أم النقيض؟

- وكيف يمكننا أن نقارن الآن بالماضي؟ في الماضي كنا... صاحت العجوز من زاويتها، وعيناها الدامعتان تدوران في محجريهما وكأنها قد جَنَّت: «في الماضي كنا نتناول حساء الملفوف»، وظلت تكرر: «نتناول حساء الملفوف! نتناول حساء الملفوف!».

وصرَّ العجوز بتعاطف كما لو أنه يحوزق:

- كنا نأكل العصيدة!

- ولكن لماذا افترقتم هكذا؟

- لم يحدث الأمر فجأة، ولكن كما يُقال: اليوم سيئ وغدًا أسوأ وفي النهاية يسوء الأمر أكثر.

- فيما يتعلق بالضباط ألا تظنون أن لهم علاقة بذلك؟

- لا بد أن لهم علاقة بذلك.

ولكن هنا حدث أمر غريب. لم تكذ الشابة تبدأ في توضيح الأمر حتى سمعنا فجأة هذه العبارة كالرعد:

- الضباط! نعم هم الضباط! قولوها مباشرة! الشيوخ يعيشون حياة سيئة لأنه لا يوجد قانون. هاها!

نظرنا إلى بعضنا في ذهول، لكن تبين أن أحداً منا لم يتفوه بهذه العبارة. في الوقت نفسه شعرنا بنفحة ما مثلما يشعر الأرواحيون في جلسات تحضير الأرواح. فجأة انزلق بيننا أحد هذه المعاطف البازلانية ثم تلاشى في الهواء.

همس جلوموف لي:

- هذا ليس معطفاً حقيقياً. هذا طيفه. إنه موجود في داخلنا... في قلوبنا... مثلما يرى العطشان ماء كذلك نراه. هل رآه الجميع؟ تبين أننا رأيناه ولكن أحداً من أصحاب البيت لم يره أو يسمعه. واصلت الشابة حديثها:

- في الماضي كان في هذا المكان دجاج وبط وإوز، وكان جدي يقول إنه لم يكن يصطاده. أما الآن فلا يمكنك أن تجد دجاجة واحدة في كورتشيفا بأكملها.

كررت العجوز بغضب:

- كنا نتناول حساء الملفوف! كنا نتناول حساء الملفوف!

واصل جلوموف استجواب الشابة:

- ومتى كنتم تتناولون حساء الملفوف؟ هل ما زال متوفرًا؟
- لا أتذكر تحديدًا. أظن أنني كنت أتناوله حتى بلغت العشرين، ثم...

لكن في هذا الوقت تردد صوت غامض مجددًا:

- وفي رأيكم كل ما يتطلبه الأمر أن يوجد نظام قانوني وحينها سيظهر حساء الملفوف. ليبراليون! هاهاها!

وظهر طيف المعطف البازلتي للحظة في الهواء ثم تلاشى.

دفعنا المال سريعًا وخرجنا. توجهنا من دون وعي إلى مخترع البكرة دائمة الحركة، ووصلنا إلى كوخه من دون وعي أيضًا، وكان عند أطراف المدينة.

التقى التاجر بريزيتوف بنا بسرور هادئ، وكان من الواضح أن القدر لم يكدره. بدا في الخامسة والثلاثين من العمر، نحيلًا وشاحبًا، ذا عينين كبيرتين متأملتين وشعر طويل منسدل في خيوط مستقيمة على وجنته. كان كوخه واسعًا كفاية، لكن البكرة دائمة الحركة تشغل أكثر من نصفه بحيث صعب علينا أن نجد مكانًا للجلوس. كانت البكرة مستقيمة ذات مكابح، وحافتها ضخمة، والبكرة مضغوطة على بعضها بألواح رقيقة، وبدت كصندوق فارغ. في هذا الفراغ كمنت الآلية التي مثلت سر المخترع. لا يتسم السر بالطبع بحكمة خاصة، فهو يشبه أشولة مملوءة بالرمل ووضعت بحيث توازن بعضها بعضًا. ووضعت عصا عند

- أحد مكابح البكرة مما جعلها في حالة سكون. بدأت الحديث:
- سمعنا أنك استطعت تطبيق قانون الحركة الأبدية على اختراعك هذا، فهل هذا صحيح؟
- أجاب بارتباك:
- لا أعرف كيف أصوغ الأمر. الأمر كما لو أن...
- هل يمكن أن نرى؟
- طبعًا، يسرني ذلك.
- تقدمنا إلى البكرة ثم دار حولها. اتضح أن البكرة موجودة في الأمام والخلف. سأل جلوموف:
- أستدور؟
- لا بد أن تدور. إنها متقلبة المزاج.
- هل يمكن أن نزيل الكابح؟
- أزال بريزيتوف العصا ولم تتحرك البكرة وكرّر:
- إنها متقلبة المزاج. لا بد من إعطائها دفعة.
- أمسك بالحافة بكلتا يديه وقلبها عدة مرات، وأخيرًا هزها بقوة ثم تركها، ودارت البكرة. دارت عدة دورات بسرعة وسلاسة كافيتين، وكان بإمكاننا أن نسمع كيف تضغط أشولة الرمل في الداخل على الحواجز ثم تفلت منها، ثم بدأ دوران البكرة يهدأ ويهدأ وسمعنا تصدعًا وصريرًا وأخيرًا توقفت البكرة.

- ثمة معلاق إذن!

هكذا وضح المخترع بارتباك، ثم همَّ لمعالجة الأمر مجدداً وحرَّك البكرة، ولكن تكرر الأمر في المرة الثانية أيضاً. سأله جلوموف وهو يحاول أن يبت في صوته أقصى درجات التشجيع:

- أخبرني، هل توصلت إلى هذا الاختراع بنفسك؟

- الفكرة موجودة، ولكن كل ما في الأمر أنني لا أستطيع تنفيذها بشكل كامل.

- لم تضع في اعتبارك قوة الاحتكاك.

- وضعته في اعتباري، فما هو الاحتكاك؟ المشكلة ليست فيه، لكن هكذا هو الأمر. تدور البكرة وفجأة تصير متقلبة المزاج وعنيدة وينتهي الأمر! آه لو استطعت صنع البكرة من مادة جيدة فعلاً! أما هذه البكرة فمصنوعة من مواد مزر كشة وحسب، وهذا مكنم العيب.

- هل فحص أحد بكرتك؟

- نعم.

- وماذا قال؟

وقف بريز ينتوف محني الرأس ولزم الصمت.

وجدت نفسي أفتش بنظري تلقائياً في أرجاء الغرفة وخفضت رأسي أيضاً. بدا لي كل شيء فيها غير مريح وعارياً وكما لو أنه مخادع. في زاوية الغرفة أيقونة واحدة وقد علق في ظهرها صنفصاف يكاد يتحلل. دكة الأدوات فارغة وكذلك الحوائط والطاولة. رأيت كوب ماء

خزفيًا على النافذة وبجانبه قطعة سميكة من الخبز الأسود. ربما كان هذا هو إفطار بريزيتوف وغداؤه وعشاؤه. لم أجد في المكان علامة واحدة تشير إلى المعيشة والسكنى. لم أرَ حتى حالة الفوضى الشائعة في مثل هذه الأكواخ الصغيرة؛ وخاصة هذا الإهمال الكئيب. بدا وجود الرجل الوحيد في ضوء هذا الإهمال والترك غير عادي بشكل ما، وبدا هو نفسه مهملاً ومتروكاً. كيف عاش هنا؟ في الواقع عندما يتم أمر البكرة بنجاح لن يتبقى له شيء ليفعله هنا. من المحتمل أنه ملأ هذا الفضاء بأطيافه وخيالاته أو تملكه تبطله الحاليم، وقد أمضى أيامه في تأمل هذه البكرة المسحورة، تعذبه رغباته المتقدمة إلى صنع شيء هائل لا يُقاس ولا يُحد، وبسبب غموض تصوره تحديداً قهره هو شخصياً.

نصحه جلوموف بتعاطف: «ربما يمكنك التكيف بدرجة أسهل مع أي عمل». أما بريزيتوف فقد ظل صامتاً.

- لنفترض حتى أنك قادر على إتمام مهمتك، لكنها في كل الأحوال مشروع معقد وبعيد المنال، وفي طريق تحقيقه هناك الكثير من المسائل الأكثر ملاءمة، ويمكن لحل هذه المسائل، علاوة على أنه أمر مفيد في حد ذاته، أن يقدم لك شخصياً ما تحتاج إليه من الدعم.

تمتم بهدوء:

- آه لو صُنعت هذه البكرة من مواد حقيقية!

فاحت هذه الكلمات بقناعة قوية إلى حد أن ارتجفت فائينوشكا فجأة. سألت بلطف:

- هل لديك زوجة؟

- أنا وحدي. لم أنزوج. كانت لدي أم لكنها ماتت في العام الماضي، ومنذ هذا الحين وأنا أحيا بمفردي. (أضاف مبتسمًا بارتباك) ليس هناك من يُرتّب الغرفة العلوية.

أعترف أنني ظننت أن فائينوشكا ستُخرج من محفظتها ورقة بمائة روبل وتقول له: «خذ! هذه للبكرة!»، لكن السيدة اللطيفة حزنت لوهلة ثم تعافت. واصل جلوموف أسئلته:

- وهل أنت منهمك في هذا العمل منذ فترة طويلة؟

- نعم، منذ فترة طويلة، ولكن لا أتذكر التوقيت تحديدًا. الفكرة جاهزة ولكن...

- ولكن فكّر كم من الأعوام قضيتها في عمل واحد وأين هي النتائج؟

- ربما سأبلغ هدفي يومًا ما.

لم يكن من الممكن الاستمرار في الحوار أكثر من ذلك. حتى جلوموف الذي يتسم بفضول لا يمكن إشباعه فهم أن مواصلة استشارة هذا الإنسان لإشباع فضوله كمسافر هو فعل غير ملائم وعديم الضمير. فجأة انزعج أوتشيشيوني من شيء ما من دون سبب واضح. سأل:

- وهل تدفعون ضرائب كثيرة؟

- لا يأخذون منا الآن ضرائب كثيرة لكنهم يأمرونا بشراء تراخيص العمل.

التقط سريعاً من على الطاولة شهادة تجارية بسعر روبلين وخمسين كوبيكاً وأراها لنا. ربما ظن أننا جئنا إليه تحديداً لنفحص هذه الشهادة. قال أوتشيشيوني وهو يفتش بنظره أنحاء الغرفة تلقائياً:

- مكلفة!

تعجب جلوموف وسأل:

- وما حاجتك إلى هذه الشهادة ما دمت لا تمارس مهنة تجارية بشكل دائم؟

- هذا ما يحدث. منذ فترة قصيرة أصلحت صندوق سعوط الذي يعمل بالموسيقى لمأمور القسم، ومنذ شهر جلبوا مذراة لأحد السادة ملاك الأراضي وذهبت لأشارك معهم في جمع المحصول.

- ولكن كيف هي الأحوال بشكل عام؟

وهنا بدأ الاستجواب. ما هي الأغاني والحكايات، وهل لديكم منشدون عميان أم لا وما إلى ذلك. لا أعرف إلى أين يمكن أن يقودنا ذلك. ربما يتعلق الأمر بعدم كفاية الأجور مقابل العمل أو إلى مسألة مراكمة الثروات وطريقة توزيعها، ولكن سيفضي بنا ذلك تدريجياً إلى حافة الهاوية مباشرة، وفي هذه المرة لن يتركنا المعطف البازلاني لحالنا.

- عم تسأل؟ وهل يمكن العيش في بلد لا قانون فيه؟

وهنا سُمع الصوت بوضوح ورنين:

- الشخصية - عدم تأمين احتياجات الغد - مجهول - ليبراليون...

هاهاها!

شعرنا مرة أخرى بهذا الطيف المألوف، وومضت بالقرب منا مجدداً هذه الكتلة البازلائية وعلى رأسها قبعة أسطوانية ثم اختفت وتلاشت. صاح جلوموف:

- الطيف! لكنه طيف منقذ أيها السادة. إنه يظهر لنا لنعرف ما هو مستحيل وما هو ممكن، لذا دعونا نشكره!

بالرغم من أننا وعدنا بانتيلي يجوريتش أن نكمل طريقنا عند سنوح أول فرصة، فإن الباخرة لم تصل وتوجب علينا البقاء في كورتشيفا. بعودتنا إلى فناء النزل عرفنا أن رازنوتسفيتوف اشترى من مكان ما بقرة مقابل ديون مستحقة له وأنه يتاجر في الأبقار. تنازل لنا عن جزء من لحم البقرة وطها لنا حساء ملفوف رائعا، وباع بقية الذبيحة واشترى بما ربحه تراخيص مزاولة.

بالرغم من كل شيء أكلنا حتى شبعنا ونمنا وحل الشفق، وتوجب علينا أن نقضي فترة المساء بشكل أو بآخر. حاولنا حل لغز ما فتساءلنا: ما هي كورتشيفا؟ لكن الإجابة كانت قصيرة للغاية: كورتشيفا هي كورتشيفا. ثم اقترح جلوموف أن يلقي علينا محاضرة تاريخية فوافقنا بسرور. بدا الأمر ممكناً في فناء النزل المتواضع، وتطرق جلوموف في محاضراته إلى الفارانجيين ثم حلق بحرية إلى بعض الفترات التاريخية المحددة: المحلية والتترية والموسكوفية والبطرسبرجية حتى وصل إلى الفترة المعاصرة. لكن ما إن نطق بهذه الكلمات الافتتاحية: «الفترة

المعاصرة التي نعيشها الآن تشبه فلاحًا كامارينياً^(١٤٧) ي...»، حتى قال
أحدهم فجأة:

- كرّر ما قلته من فضلك!

التفتنا وإذ بمعطف بازلائي واقف عند الأبواب. أطيّف هو؟
لم تمر ثانية واحدة إلا وكنا قد أطفأنا الشمعة وتجاوزنا الضيف غير
المدعو لنجد أنفسنا في الشارع.

* * *

(١٤٧) كامارينا: مدينة في جزيرة صقلية.

ظللنا نركض طوال الليل. طاردنا المطر وتناثر الطين من الأقدام إلى الرؤوس. إلى أين كنا نأمل الهروب؟ لا يمكن لأحد أن يجيب عن هذا السؤال. لو كنا قد عرفنا أي شيء لأدركنا بالطبع أنه مهما كانت سعة عالم الله فلا مهرب من الأطياف التي تسكنه. دفعنا الذعر القاسي والوحشي إلى الأمام وإلى الخلف.

كان بوسعي سماع كيف تنشج فائينوشكا ألماً وهي تحاول مواكبتنا، وكيف يكاد مراسلنا الخاص أن يختنق من إصابته ببقايا مرض قاتل في صدره، وكيف وصل الصراف إلى النشوة صائحاً: «لقد وصل السيد! وصل!». ازدادت ضراوة المطر أكثر فأكثر وازدادت السماء امتلاء بالسحب الكثيفة. لم نلتق في طريقنا بإنسان واحد، أما كيف لم تلتهمنا الذئاب فهذا ما لا أفهمه. ربما سمعت شيئاً عنا من الضباط وخشيت أن تُجهز علينا لئلا تضيع معنا الجذور والخيوط التي تتبعها المعاطف البازلائية. مهما كان الأمر فنحن ندين بحياتنا إلى هذه الاعتبارات الوقائية. أخيراً خارت قوانا. من الواضح أن الساعة وصلت إلى الخامسة صباحاً لأن الشمس بدأت تبزغ وبدأت أطياف تظهر على الخلفية العامة للشفق الرمادي. رأينا أمامنا بركة ومن خلفها كتلة ما مظلمة.

أنظر جيداً ولا أصدق عيني... بروبليفانايا أمامي^(١٤٨)! إنها هي! هي! هي! ها هو الطريق المؤدي إلى الضيعة. البركة الكبيرة في ناحية، محاطة بأشجار البتولا، وفي الناحية الأخرى حديقة قديمة مثمرة. ها هو منزل فخم رمادي ورطب يظهر بصعوبة وسط الغسق، وخلف المنزل ثمة كتلة معتمة أخرى؛ إنها حديقة أخرى خاصة بالمنزل ذاته. ولكن أين «الفناء الأحمر»؟ أين الأجنحة والإسطبلات والماشية؟

منذ أن حدثت الكارثة لم أزر بروبليفانايا. في هذا الوقت وصلت سريعاً وأنهيت أمراً ما سريعاً وألقيت نظرة على شيء ثم غادرت سريعاً أيضاً. أمرت العمدة أفيريانيتش بحماية ممتلكات سيده والحصول على الإيجار الخاص بأراضي التخصيص الإضافي^(١٤٩). اعتدت أن أتلقى هذا الإيجار الذي يصل إلى ثلاثمائة روبل بانتظام حتى إن البواب الذي جلب لي أمر استدعاء إلى القسم للشهادة قال لي بسرور: «لقد وصل إيجار إرثك!». بين الحين والآخر كانت تصلني أيضاً اتهامات لأفيريانوف بالسرقة والاختلاس والسرقة وجرائم أخرى، لكن نظراً لأنني لم أستجب لهذه الاتهامات هدأ كل شيء تدريجياً. كنت على وشك نسيان إرثي وضيعتي لولا وصول سندات الثلاثمائة روبل التي تصلني كل عام وتذكّرني بأنه في مكان ما هناك موقع مميز يعترف بسيادتي عليه. كان الفرح الذي أحدثته رؤية بروبليفانايا في الجميع لا يوصف.

(١٤٨) الاسم الرسمي للضيعة: القاع الذهبي، أما تسمية بروبليفانايا، فقد أُطلقت عليها في اللغة الدارجة لأن صاحبها خسرهما منذ زمن بعيد في لعب الورق. (سالتيكوف شيدرين)

(١٤٩) الإشارة إلى نوع خاص إضافي من تخصيص الأراضي من جانب الحكومة علاوة على الأراضي الأساسية التي تقسمها الحكومة في القرى تقسيماً رسمياً.

انفجرت فائينوشكا في البكاء، وابتسم جلوموف بسعادة وقال: ها هي! ها هي! جلس أوتشيشيوني والصراف على الحشائش وخلعا أحذيتهما طويلة العنق وسكبا الماء منها بفرح. حتى مراسلنا الخاص الذي لم يؤمن بشيء تقريباً عدا الفودكا تذكر حينها الله ورشم علامة الصليب. بدا للجميع أنهم وجدوا أخيراً بقعة آمنة حيث الدفء والراحة وحيث لا مكان للشكوك والوشايات.

- اكتفينا من الضباط. هل يوجد أي منهم هنا؟ (هكذا صاح جلوموف بثقة لكنه سرعان ما أعاد النظر وفكر بشكل خرافي) فليجعل الله كلامنا خفيفاً عليهم!

اصطحبت رفاقي إلى شرفة السيد وتوجهت بنفسي للبحث عن أفيريانوف. بدأ تأثير «سلطة الأرض» في العمل في داخلي، فعندما تعمقت في داخلي شعرت كيف تبدأ غرائز السيد في التوقد فيّ. مشيت أبحث عنه وألقي نظرة على المكان من حولي. البركة في حالة جيدة ولكن ألم يصطادوا سمك الكاراسيوس منها؟ ها هو الفناء الأحمر لكن من قبل كان حاجرًا يطوّقه، أين هو الآن؟ هنا في الزاوية كان هناك جناح، أما الآن فكومة من القمامة متراكمة نمت فيها نباتات القراص. هنا انتصبت قديمًا شجرة بتولا مجمعة غرستها قديمًا العمة فارفارا إيفانوفنا، أما الآن فليس هناك سوى جذع. أين الإسطبلات؟ أين فناء الماشية؟ كانت هنا جياد! كانت هنا أبقار! كان هنا غنم! تذكرت الاتهامات وبدأ قلب السيد المالك ينتحب فيّ. أنا المذنب! تشكلت المشاهد بشكل ما في ذهني.

كان عليّ حينها أن أهرع إلى بروبليفا نايا لأتحقق وأدين، بل وأقدم الاتهامات إلى المحكمة إذا تطلب الأمر. الجناح الإضافي، إذا كان من أجل حصان صغير، يُكلّف خمسين روبلاً، فما بالكم بجواد قناص! لكن من ناحية أخرى تذكرت أن أفيريانوف اعتاد أن يرسل من وقت لآخر أموالاً أخرى علاوة على الإيجار. أي أموال هذه؟ أتذكر - كما لو أنه حلم - أنه كتب في البداية: «بعنا الجواد الأصفر ذا الذيل الأسود»، وبعدها «بعنا الجواد الأزرق المخصي»، ثم البقرة فبقرة أخرى... أيعقل أن يكونوا قد باعوا أيضاً الجناح الإضافي؟ أتذكر أنني كتبت شيئاً ما عن الماشية. هل منحتها لماريا الأرملة وأكولينا مكافأة على خدمتهما المخلصة؟ كلتاهما على ما أتذكر اشتكتا من مصيرهما، وقالتا: لقد خدمنا والديك وأكلنا كسرة خبزنا بالدموع، ولم تتبقّ لنا الآن سوى الدموع من دون خبز.

مع ذلك عندما تركت ضيعة بروبليفا نايا كانت كاملة. أزاح هذا الانطباع الأساسي كل التفاصيل التالية. كان الفناء الأحمر مسيجاً بأشجار البتولا وحاجز، أما الآن فقد نمت أشجار البتولا ولا وجود للحاجز وانخفض الفناء تماماً. بالطريقة ذاتها كانت الحديقتان مسيجتين، والآن اندمجتا بالطريق، وصار بمقدور أي عابر أن يمضي حيثما يشاء. هل أشجار التفاح لا تزال سليمة؟ وأشجار الكرز؟ لا شيء في الدفيئة سوى أنبوب يبرز منها، وقد تفككت نصف أحجارها. أتذكر شجرة زيزفون ضخمة قديمة كانت على يمين المنزل. كم جمعت من زهور! وكم من أسراب نحل طنّت على أوراقها القاتمة! أين هي الآن؟

خلف الزيزفون كان هناك أيضًا زقاق محاط بأشجار الزيزفون. أتذكر الآن أنه في أقصى حدود أشجار البتولا كان أحد الجوانب يبدو كما لو أنه مغطى بالدماء حيث اعتادوا استخلاص عصير البتولا من نسغه في الربيع... أين هذا الزقاق؟ صحيح أنه لا يزال بإمكان المرء أن يرى في هذا الاتجاه أشجارًا عملاقة من بعيد لكنها لم تعد تشكل كتلة متماسكة كما كانت، بل تتناثر فرادى. تهتز قممها بغضب كما لو أن شجرة جرباء شابة تقاتلها وتنتصر عليها.

ظلت كل هذه الذكريات والمشاهد تومض في ذهني؛ الأمر الذي جعلني أبطئ في بحثي. من المحتمل جدًا أن يُفسَّر كل ذلك لي ويُكتشف الأمر، ولكن غرائز السادة الملاك عنيدة لدرجة أنني لا أستطيع التحكم في نفسي إلا بصعوبة. لكن أين اختبأ أفيريانوف؟ كان المكان من حولي فارغًا، وباستثناء زفرقة العصفير المستيقظة لتوها لم يُسمع صوت. على بُعد نصف فرسث ظهرت قرية يتصاعد الدخان من موقدها، لكنني أعرف أنه ليس لأفيريانيتش أقارب في القرية يمكنه أن يجد الراحة عندهم. أخيرًا تذكرت أنهم وضعوا ذات مرة مغطسًا في الحديقة، ومن ثم توجهت إليه.

بدت الحديقة ضخمة وميتة بشكل غير عادي، ولم أرَ فيها لا مشاتل ولا ممرات. كل ما رأيته فيها كان مسارًا واحدًا إلى الداخل يمر عبر البوابة المتداعية التي لا تزال متعلقة بحلقة واحدة متكئة على عمود يُشكِّل جزءًا من الحاجز المتلاشي. في وقت من الأوقات زرعوا في هذه الحديقة أنواعًا مختلفة من شجر الحور، أما الآن فقد

نشرت أشجار الحور هذه جذورها في كل أنحاء الحديقة حتى اقتربت من المنزل نفسه. في السابق كانت هناك سلسلة كاملة من أحواض الياسمين وصريمة الجدي والبلسان وزقاق ممتد من اليليك وعدة أزقة من أشجار السنط، أما الآن فقد تلاشى كل ذلك تحت وطأة العبودية لأشجار الحور. لا شيء الآن سوى كتلة لا نهائية من العصافير التي تتحرك بحرية في هذه الأيكة شديدة التشابك كما لو أنها أرادت الدفاع عن نفسها من أي تدخل خارجي. أعرف كثيرين يُولّد عندهم مرأى هذا الإهمال والهجران انطباعًا ساحرًا، لكنه جعلني ببساطة أستاذ. كما لو أن الكلمات تندفع من هذه الكتلة الكثيفة نحوي: «ليس لديك ما تفعله هنا! لا شيء بتاتًا! لا شيء بتاتًا!».

كان أفيريانيتش جالسًا على حافة المغطس يمضغ شيئًا ما. لكن عندما رأى أحدهم يمر خاف وأخفى سريعًا شريحة الخبز الأسود التي كان يتناولها. لا يزال حيًا بالرغم من أنه هرم، حتى إن وجهه بدا وكأن الطحالب قد غطته. عند سماعهما لضجيج ألقت الأرملة ماريا وأكولينا الخادمة نظرة من الباب وبان بوضوح أنهما تعيشان هنا. كانت لماريا الأرملة ابنة تُدعى بولكا، قصيرة وخجولة ومعقودة اللسان ذات عينيّن ماكرتين وبطن منتفخ، وقد مكثت منذ زمن بعيد في دار للفتيات، وقد رأيتها الآن تركض أمام عيني في الشرفة الخارجية. بغض النظر عن أنها تجاوزت الخمسين لكنها لا تزال تبدو كفتاة. قلت لها مازحًا بطريقة السادة:

- بولكا! متى ستتزوجين؟

حينها فقط انتبه الجميع .

- آخ ! كيف هذا ! إنه السيد !

في البداية بدا أنهم ابتهجوا حيث ذرفوا الدموع واندفعوا ليمسكوا بيدي، كما لو أنهم أكلوا آخر رغيف خبز لديهم في الليلة الماضية، ولو لم أظهر لهم من خلف الغيوم لهددهم الموت جوعاً في اليوم التالي .
واصلت مزاحي :

- ألا تزالون أحياء ؟

مازحوني هم أيضاً :

- وما الذي قد يحدث لنا ؟ لسنا ملكاً للدولة . لم تحرقنا النار ولم يغرقنا الماء (وبعد مرور لحظة واحدة وجموا جميعاً وقالوا) أنت رجلنا الجميل .

أخيراً فتحوا أبواب المنزل ومصاريع النوافذ . مع أول خطوة غمرتنا روائح كريهة . تقلقلت ألواح أرضية الردهة قليلاً وتناثرت قطع الجص على الأرض ، ولاحت دوائر بنية على السقف نتيجة حدوث تسريب ، وفي منتصف الغرفة كانت طاولة طعام مستديرة -ويا للغرابة !- وجدت عليها عددًا من جريدة «الأنباء الموسكوفية» . كانت غرفة المعيشة مظلمة تمامًا بسبب أشجار الحور التي تصل فروعها الندية إلى النوافذ . استقرت في غرفة النوم الصغيرة عائلة من الأقداد (هَمَسْتَر) وبدا واضحاً أن لا فكرة لديها إطلاقاً عن الإنسان وسماته لأنها لم ترتبك إطلاقاً عند ظهورنا وواصلت الركض واللعب . باختصار ، أينما ذهبنا وجدنا الرطوبة والخراب .

هكذا بدا لعيني البيت الذي اكتنف شبابي بأحلام ذهبية. كل شيء هنا استدعى الماضي إلى الذاكرة. لا نافذة في هذا المنزل إلا ونظرت منها عددًا لا نهائيًا من المرات إلى الفضاء في انتظار غامض لسحر. ولا أجمة في هذه الحديقة إلا وشهدت العملية السرية التي جرت في فترة الشباب؛ هذه العملية الإبداعية التي تُلقى ضوءها على رجل المستقبل كأشعة الشمس حين الشفق. لا شبر في هذه الأرض إلا وأخفى في أعماقه كلمة توبيخ لا يمكنه أن يشهد بها.

كل هذا؛ المنزل والحديقة والأرض، بدا منسيًا ومهملاً، بل ويكاد يكون منتهكًا. تدريجيًا أوشكت على أن ألين، ولكن الوضع العام بعد المغامرات الليلية التي مررت بها كان من شأنه أن يخنق كل دفعة حس. قبل أي شيء آخر كنا في حاجة إلى ثياب جافة وبعد ذلك طعام. أحضروا سلسلة المفاتيح وبعد بحث قصير جلبوا لنا كومة من الثياب الكتانية والأقمصة النسائية. لكن فيما يتعلق بتياب الرجال فلم يجدوا شيئًا عدا أربعة أثواب رسمية اعتاد أبي وجدي التباهي بارتدائها في فترة الانتخابات. كانت ثيابًا رسمية غريبة بخصور قصيرة وذبول طويلة ضيقة من الخلف. في بعض الأماكن أكلت العثة القماش، وفي ثوب منها تصادف أن كان مقلوبًا اسودَّ لون الخياطة وفاحت من الثوب رائحة نحاسية. مع ذلك لم يكن هناك بد من ارتداء هذا الزي الرسمي، ولكن نظرًا لأن عدد هذه الأثواب كان أربعة، ارتدى الصراف بلوزة نسائية كتعويض عن خدماته الممتازة. بعد ساعتين جفَّت أجسامنا وشعرنا بالدفع بالفعل، وعندما أطعمتنا الأرملة ماريًا عجة البيض نسينا كل

مصائب الليلة الماضية وشعرنا أننا في حالة جيدة، كما لو أننا قضينا حياتنا بأكملها مرتدين هذه الثياب الرسمية، مستعدين للدفاع عن حقوقنا كنبلاء.

في هذه الأثناء كان لوصولنا أثره على القرية. أول من صادفته في الضيعة كان الكاهن وقد أخفض عينيه في خجل بعد أن رأيته أرتدي سروال أبي بنية مقلوبة، لكن عندما عرف أن ستيجنوشكينا، زوجة التاجر، قد تشتري مني بروبليفا نايا وتعيش هنا وتحضر الصلوات في الكنيسة ابتهج وبدأ يعد على أصابعه: عملة بعشرين كوبيكًا وأخرى مثلها وربع روبل. ثم جاء عمدة القرية وقال إن جنديين قد أتيا إلى القرية وأحدهما يقول إن حق القناة سيعود مجددًا قريبًا والآخر يقول: الأرض والماء والهواء وكل شيء سيصير ملكًا للدولة، وسيوزع ما في الخزانة على الجميع. من منهما نثق بحديثه؟ لم أفهم وتساءلت:

- كيف يكون ملكًا للدولة؟

وضَّح لي العمدة قائلاً:

- هكذا سيجري الأمر بحسم.

كان سؤالاً مخادعاً تفوح منه رائحة التفسيرات الفاسدة. إذا قلت إن الجنديين كاذبان فربما يُقال إنني أقوّض سلطة الجيوش والأساطيل، وإذا ملت إلى جانب أحد الرسولين فلن نعرف من منهما الأكثر انحرافاً. يبدو أن الأول أقل انحرافاً من الثاني، ولكن...

في النهاية نظرت إلى الكاهن وقلت:

- علينا أن نبتهل إلى الله.

قال الكاهن:

- هذا ما أقوله أنا أيضًا. لا يجب أن نتوكل على الأمراء ولا على أبناء البشر، بل نضع اتكالنا كله على الله.

حينها رشم العمدة علامة الصليب وسأل:

- هل لديكم جوازات سفر؟

أراد أن يشرح لنا سبب طلبه، فقد كنت في كل الأحوال بمثابة أب ذات يوم، فظل يغمغم بعض الهراء الذي لم ألتقط منه سوى «لماذا؟» - «فليحفظك الله!» وأخيرًا قال: «الأمور الآن أشد صرامة». قال أيضًا:

- ها هو عيد رقاد العذراء على الأبواب ونحن -والحمد لله- لم نزرع شيئًا بعد!

- كيف هذا؟

- نصطاد كل الصقليين. قضينا مؤخرًا ليلتين كاملتين في الغابة نبحث عن المدان، وهرب من أمام أعيننا.

- الصقلي؟

- هو بعينه. نراه يهرب. آخ أيها الآباء! آخ أيها السادة المسيحيون! هو! أمسكوه يا إخوة أمسكوه! تسلل من بين أصابعنا كالشبوط!

بعد العمدة جاءت فتاة من القرية أعلنت أن فتيات البوساد^(١٥٠)

(١٥٠) مستوطنات روسية قديمة، تجاور مدينة أو ديرًا، مأهولة بسكان حرفيين أو تجار، منفصلة عن المدينة المجاورة.

يطلبين الإذن بالرقص أمام المنزل تكريمًا لمالك الأرض الجديد (وكان الخبر قد انتشر حينها أن فائينوشكا جاءت لشراء بروبليفانايا ووصل إلى كل أنحاء المدينة بسرعة البرق).

لكن علاوة على ذلك يمكن أن يتبادر إلى الذهن سؤال آخر يشغلني أنا شخصيًا: هل وصل السيد فعلاً أم أن شخصًا يحاكيه ويرتدي قناعاً؟ فهمت بنفسي مدى أهمية هذه الأسئلة وكيف أنه من الطبيعي أن تُطرح، وانتظرت بخوف اللحظة التي تنضج فيها ولا يعود بوسع الكاهن أو العمدة أو صاحب الحانة أن يمسكوا ألسنتهم عن الحديث. لم يكن القدر عادلاً حقاً معنا. لا حضور الصراف، ولا مشاركة شخص مخزٍ كأوتشيشيوني في مغامراتنا فعل شيئاً لأقصى الوشاة الذي منحه الخوف الحالي امتياز توزيع تراخيص مزاولة المهنة على الموثوق بهم، وغير الموثوق بهم على السواء. لم نجادل ضد قوة الأشياء، بل على النقيض؛ خضعنا لها ضمناً ووضعنا هذا البرنامج الذي يشمل تعدد الزوجات والتزوير وكل ما بدا لنا الأفضل. بدلاً من التعاطف والتأييد، وبدلاً من قول: «لماذا نرتكب مثل هذا التزوير؟ يمكننا أن نقف على الطريق الصحيح من دون تزوير!»، إذ بنا نجد سلسلة من المفاجآت تنتظرنا مع كل خطوة نخطوها تبعث في قلوبنا الكآبة والتردد.

ما الذي أراده منا تحديداً هذا المعطف البازلتي الغريب الذي وجدنا أنفسنا بفضلها هنا في بروبليفانايا؟ إذا كان يريد فعلاً جمع الإحصاءات، فهل لا يفهم أن أناساً يحضرون حفلات القسم ويلعبون الورق مع دبلوماسي القسم ويؤلفون المراسم عن السلوك حسن

النية وينشئون الجامعات بهدف نشر علم القياس يجب أن يُمنحوا نطاقاً واسعاً ولا يتبعهم أحد في كل خطواتهم ومن ثم لا يخيفهم؟ ما الذي كان ثورياً بشكل يستلزم الإدانة في حديثنا بالأمس مع العجوز وبريزنتوف؟ ما الخطورة التي شكلتها مقارنة جلوموف التي لم يكملها حتى بين المعاصرة وفلاح كاماريني؟ لم تتضمن سلوكياتنا شيئاً ثورياً أو مستهجناً بدرجة خاصة، وحتى لو تضمنت شيئاً يستحق التوبيخ وكان خطيراً، فهل لا يجب النظر إلى مثل هذه السلوكيات بوصفها انحرافات عرضية يلجأ إليها المهتدي حديثاً ليمزق بها قلبه بسبب ما اكتنفه من عار؟ في كل الأحوال يجب أن يُترك له المجال لينال قدرًا من العزاء. حتى في مجال الوشاية لا تعلن المعاصرة المنتصرة عن نفسها بأنها مفلسة وحسب، ولكن ببساطة تعلن حماقتها. أعرف أن النظام الذي يسمح باستغلال خدمات الأوغاد سيئ السمعة كرادع ضد قوة أصحاب القناعات موجود، لا من الأمس وحسب، بل في رأيي أن قانون التقادم في هذه الحالة، على أقل تقدير، غير ملائم. في الحقيقة هذا ليس نظامًا على الإطلاق بل خسة. يصنعون لغزًا من شخص، دعنا نقول إنه ضال، ولكن بالمعنى الأيديولوجي أعلى من المستوى العام، ويتركون أمر تخمين هذا اللغز لوغد. أليست خسة؟ تخيل فقط كيف يقترب هذا الجاهل المشؤوم بأنف مرفوع من النفس الإنسانية ويبدأ في فرزها في المستودعات، فماذا سيفهم؟ في أفضل الأحوال سيفغر فمه ويرمش سريعاً. لكن إذا كانت لديه رغبة لإظهار بضاعته مباشرة، وعلاوة على ذلك إذا تبين أن لديه شهية ذئب، فلن يزعج نفسه حينها بالذكريات،

ولكن ببساطة سيعثر على بعض الكلمات اللاذعة ويبدأ بمساعدتها في اكتشاف الناس. بغض النظر عن رأيكم، لكن هذه ندالة إيجابية.

عالم القناعات وعالم النذالات عالمان مختلفان تمامًا ولا يوجد أي اتصال بينهما. هذه حقيقة لا جدال فيها بشكل يجب أن يكون ملزمًا للجميع. حتى لو سمحت بأكثر الضلالات قوة في مجال القناعات فستوجب عليك حينها أن تُحدّد سابقًا ماهية هذه الضلالة، ولماذا تفترض أنها ستجلب الضرر للمعاصرة السائدة. هل بوسع وغد جاهل أن يدرك مثل هذه المسائل الصعبة والمعقدة؟ لا، سوف يصبح بكلمة لا معنى لها، وفي ظل حمايتها سيجمع كل تنوع تطلعات الفكر الإنساني في كومة واحدة. تصوروا كيف يمكن أن يصعب على المرء أن يستمع لملاحظات مثل هؤلاء الناس الذين يخلطون بين برودون ويوخانتسيف وجارibaldi^(١٥١) من جهة ويريدوا من جهة أخرى!

في الماضي كانت الوشاية أذكى منها الآن. وضعت لنفسها هدفًا محددًا، ولذلك كان بوسعها أن تحققه داخل حدود متطلباتها. أي شيء لا لزوم له وخارج نطاق هذه المتطلبات كانت تطرحه بعيدًا كما لو أنها تقول: «لدي ما يكفي من المشاغل الآن، ولكن إذا تبين لاحقًا أنه ضروري فسأفحص الوشائيات اللاحقة!». ربما كانت قسوة مركزة، ولكن في الوقت نفسه أزالته عن نفسها صفة الهزل والانتهاك. اليوم، وبفضل الكثرة المفرطة في عدد الأوغاد، ارتبك كل شيء حتى صار من الصعب تحديد أي من هذه الكتلة المتنامية من القيل والقال يمثل

(١٥١) سياسي وقائد إيطالي ثوري.

الواقع، وأبها يجب أن يُطرح فورًا إلى الكلاب. بسبب هذه الفوضى يُعهد بأهم وأصعب مسائل الحياة إلى أكثر المتطوعين جهلاً، ومن ثم تصير الحماقة، بل والهراء التام عنصرًا أساسيًا في الاتهام، وهو أمر مجرد الاعتراض عليه مثير للاشمئزاز. من الواضح حتى أنه ليس اتهامًا ولا اضطهادًا، بل مجرد هراء وانتهاك.

أليست أشد إهانة أن يجد المرء نفسه عالقًا في شبكة من نذالات الأوغاد من كل جهة؟ عندما يرى المرء أذى الأوغاد يكتنف كل علاقات الحياة ويشمه في النفس البشرية ويجده في ثنايا القلب الإنساني ويشعر أن كلمة السخط المؤلمة لا تحرق قلبه، بل على النقيض؛ تتجمد على اللسان... فهل يمكن أن يكون هناك مشهد أصعب وأكثر كآبة من ذلك؟ أكرر: الوشاية موجودة منذ زمن بعيد كعامل مساعد، لكنها اعتادت الوجود داخل إطار معين يقتصر على حلقة معينة من الظواهر، ونادرًا ما تخرج عن حدود اختصاصها. أما اليوم فقد صارت مفهومًا دنيويًا وذابت وانحلت وبددت كل تصور عن الحدود، والأخطر من كل ذلك أنها استحوذت على نمط حياة الإنسان العادي وركزت عليه بشكل خاص قوة تجاربها المفسدة. لكن ربما هذا هو تحديدًا ما سيدمرها. سألت جلوموف:

- ما رأيك، هل ستلاشى الوشاية؟

أجاب مخمنًا أفكاره على الفور:

- قطعًا. أولاً: لقد تشنت بشدة وأغرقت كل مهامها في كتلة من الإسهاب. ثانيًا: لقد أساءت بشدة إلى الإنسان العادي الذي

تبدو له مسألة الإفلات بجلده أهم ما في الحياة.

- ها نحن على سبيل المثال.

- نعم، نحن بالضبط أناس عاديون. تصور مقدار القلق الذي عانينا منه خلال يوم واحد فقط! أولاً: ركضنا بأقصى سرعة مسافة ثلاثين فرسلاً! ثانياً: تعرضنا لخطر أن تفترسنا الذئاب والسقوط في حفرة أو أن نعلق في مستنقع. ثالثاً: لم نكد نجفف ثيابنا حتى أثّر مجدداً هذا السؤال المقيت: «ألديكم جوازات سفر؟»، انتظروا فقط حتى يوثقوا أيادينا من الخلف ويقودونا موثقين إلى كورتشيفا، ومن أجل ماذا؟ ماذا فعلنا؟

- رائع ولكن كيف يمكن للشخص العادي أن يتغلب على الوشاية؟

- هذا هو تحديداً السؤال الذي طرحته. سنظل نتساءل في المنازل والشوارع ومفارق الطرق، وهمساً وبصوت خافت وبصوت عالٍ: ماذا فعلنا؟ هذا هو كل شيء. لن يهبط مثقف من أعلى درجة بمستواه ويطرح هذا السؤال، أما الإنسان العادي فهذا ما يلائمه تماماً، فهو حسّاس بإفراط تجاه هذه النعم التي يُشكّل مجموعها راحة الحياة. لا يتعلق الأمر بالطعام وحده ولا بمعطف لائق ولا بالراحة بوجه عام، بل أيضاً بحرية التفكير والتعبير عن أفكاره بإنسانية. عندما يلاحظ أن وغداً يحاول التسلل إلى أفكاره، ويصير على قناعة بأن هذا الوغد يهينه في كل خطوة ويضايقه ويُسمّم وجوده بالوشايات، سيبدأ في التخبط والغليان. سيكبح نفسه لبعض الوقت بالطبع ويحاول التملص، وهذا ما نفعله مثلاً: نقول مزحة ونتواصل مع أوتشيشيوني! لكن بعد ذلك سيفغر فمه ويصيح: لماذا كل ذلك؟ ماذا فعلت؟

- وماذا بعد؟

- غريب أمرك! بعد ذلك سيفتح بقية الأشخاص العاديين أفواههم، فماذا فعل في حقيقة الأمر؟ يجري مشهد صامت مثل مشهد من مسرحية المفتش العام^(١٥٢) يتعين عليك من أجل تنفيذه الاستعانة بمصمم رقصات. (صمت جلوموف لوهلة ثم أكمل) سهل عزل مثقف كبير لأنه لا يبالي بالتفاهات. يمكنك أن تنتزعه من صفوف الناس وتسحقه لأن الإنسان العادي لن يشفع له، بل سيخجل وحسب ويغلق أذنيه وعينه. محراث صغير يمكنك أن تمسكه بيدك وتقول: أمسكه يا إخوة! نحن أناس عاديون. أما الإنسان العادي فسوف يجمع. أينما ذهب سيجد أخًا له في كل مكان يشكو له ويظهر يديه قائلاً: «انظر كيف فركوا معصمي! لقد فركوه بكذا! أنا سليل الحسب والنسب يفركون يدي؟!».

بعد أن قال هذه الكلمات الأخيرة تصلب جلوموف، بل وأشار مهددًا بأصابعه في الهواء. من الواضح أنه تأثر برداء الأمراء الذي على كتفيه.

حينها شعرت أنا أيضًا بزي الأمراء على كتفي وغضبت بدوري.

صحت:

- ومن يسيء إلينا؟ إنهم رعا راسخون في الانتهاك ولا يضعون حتى أي قرابة في الاعتبار. يفعلون هذا بنا نحن أبناء الأمراء؟! ولماذا كل ذلك؟ ماذا فعلنا؟

(١٥٢) أشهر مسرحيات الأديب الروسي العظيم: جوجول.

فجأة، قفزنا من أماكننا كما لو أن كلاً منا قد دفع الآخر، واقتربنا من النافذة وصحنا:

- لماذا كل ذلك؟ ماذا فعلنا؟

نظرت إلى الفناء ورأيت رجلاً أمام البيت مباشرة.

كان شرطياً، قبعته العسكرية فوق رأسه وسيفه على جانبه وشارباه مفتولان. رأيته واقفاً مستغرقاً في التفكير ينظر بتدقيق إلى أشجار البتولا المحيطة بالفناء الأحمر، كما لو أنه يحصي مقدار الحطب الذي يمكن أن يخرج به من هنا!

وبَخت جلوموف قائلاً:

- هل لا تزال تشك في وجود شرطين في بروبليفاينايا؟

بدلاً من أن يجيب عن سؤال صاح:

- انظر! انظر! ليس واحداً، بل اثنان!

في الواقع، خلف نباتات القراص عند الجناح القديم ظهر شرطي آخر يرتدي قبعته العسكرية أيضاً وسيفه معلق على جانبه. قبل أن تسنح الفرصة ليقدم التحية لبعضهما اقترب منهما عشرة شرطين آخرين من نواحٍ مختلفة. اصطاد أحدهم خنزيراً طليقاً بينما أخذ آخر بيضة طازجة من تحت دجاجة ولم يجلب الآخرون شيئاً وبدوا حزانى.

بدأ الاجتماع، ووجدت هذه الفكرة تراود ذهني تلقائياً: ربما تكون فرضية وجود سيد مزيف قد تشكلت ونضجت في أذهانهم بالفعل. في البداية وزعوا نقاط المراقبة ثم ظلوا يتناقشون حول أي جانب سيكون

الأفضل ليشنوا منه الهجوم؛ من جانب الغابة أم المستنقع؟ لكنهم لم يتوصلوا إلى شيء لأن خنزيراً طليقاً استولى على كامل انتباههم. حينها قرروا أن يقدموا تقريراً كريماً إلى السلطات بإعلان منطقة بروبليفا نايا في وضع حصار، في انتظار القبض على خنزير آخر طليق، وربما تناوله مع العصيدة وكذلك الدجاجة التي وضعت بيضة.

قال لي جلوموف بخوف:

- ألم أخبرك؟ أخبرتك أننا لن نستطيع أن نهرب من الجبال!



تملكنا الغم، وكان من النوع الباهت والمؤلم الذي يهاجم المرء بسبب هواجس تهديد غامض لا يدفعه شيء. تأتي أوقات تستحوذ فيها مثل هذه الهواجس على مجموعة كاملة من الناس، وتنتشر كضباب خبيث يزحف إلى مكان ما ويحوّله إلى بقعة مسحورة. في هذا السياق أتذكر صيفاً؛ تجلس في المنزل ويبدو لك أنك تسمع حفيفاً خلف الباب مباشرة؛ شخص يتلمس قفل الباب في الظلام. تخرج إلى الشارع وترى أحدهم يهدد بأصابعه من إحدى النوافذ. لنفترض أن كل هذا يُهيأ لك وحسب، وأن لا تهديد حقيقي تواجهه، ولكن في كل الأحوال بوسع السراب أن يعدّبك إذا اقترب منك.

هذه هي تحديداً أنواع الأوهام التي اكتفتنا بعد اجتماع الشرطة. حلّ الشفق وأخافنا اقتراب المساء. عندما يهتاج أوتشيشيوني ومراسلنا الخاص يبدوان في الليل كشيطانين. بالرغم من أن الشياطين لم تظهر لنا، بدا لنا أنه من الأسهل اصطيد المرء في وضع النوم عن اصطيداه وهو مستيقظ. لذلك قررنا أن نظل مستيقظين أطول فترة ممكنة، وعندما اقترحت ترتيب أمسية أدبية بهدف تمضية الوقت وافق الجميع بسرور على هذه الفكرة.

أول شيء فعلناه هو التوجه إلى أوتشيشيوني. كان نوعاً ما كأوديسيوس الذي مثلت حياته مزيجاً متنوعاً من الواقع والخيالات، بحيث يمكن للمرء أن يحيا في عزلة يستمع إلى حكاياته لشهر كامل ولا يسمع شيئاً آخر. وافق العجوز الموقر طوعية على طلبنا وحكى لنا فعلاً حكاية خيالية بلا أدنى شك، حتى إنني قررت أن أنقلها إلى هنا حرفياً من دون إضافة أو حذف. ها هي الحكاية:

حكاية عن قائد متقد

وكيف يزعج السلطات بحميته

كان يا ما كان، قائد متقد عاش في إحدى الممالك وفي أحد البلدان. حدث هذا منذ فترة بعيدة عندما كان القادة يتبعون هذه القاعدة: حاول أن تضر بقدر الإمكان، وسيؤدي ذلك تلقائياً إلى الفائدة.

اعتاد الجنرالات حينها أن يقولوا: يجب إخضاع الأشخاص العاديين أولاً ثم ضربهم بقرون الثور وأخيراً يملسهم الحاكم بقفازه. حينما يُربى الواحد منهم هكذا فسيتنفس الصعداء من تلقاء نفسه وتزدهر أموره.

الترم قائدنا المتقد بهذه القاعدة من دون جهد يُذكر، ولذلك عندما عهدوا إليه بإحدى المناطق ليديرها مكافأة له على تفهمه كان قد أعد برنامجاً بالفعل. في البداية سيلغي دراسة العلوم ثم يحرق المدينة وأخيراً يخيف السكان. في كل مرة كان يذرف الدموع ويقول: «والله لا

أفعل هذا الأذى إلا لمصلحتهم! سادع المدينة تحترق عامًا آخر هكذا وسترون بعدها كيف ستستقر تدريجيًا. ستستقر وتستقر وفجأة يحين دور الأشغال الشاقة!».

الأشغال الشاقة المكان الذي لا يتدخل السكان في شؤونه ولا يعملون عقولهم ولا يكتبون مقالات تقديمية، بل يعيشون ويزدهرون برصانة. يعملون في أيام الأسبوع، وفي الأعياد يبتهلون إلى الله من أجل من في السلطة، وبهذا يسير كل شيء بنعومة، كالسكين في الحلاوة! لا مجال للعلوم، وهم مستعدون دائمًا للاختبارات. لا يشربون خمرًا، وتزداد ضرائب الشرب التي يدفعونها أكثر فأكثر، ولا تأتيهم بضائع من الخارج ولكنهم يدفعون رسومًا جمركية أكثر فأكثر. ينظر القائد المتقدم إلى المدينة ويبتهج، ويمنح النساء مناديل والرجال أوشحة حمراء ويقول لنفسه: «هذه هي أشغالي الشاقة الجميلة! لهذا السبب قضيت على العلوم وبترت الناس وأحرقت المدينة. أنفهمون الآن لماذا فعلت ذلك؟».

يجيبونه: «وكيف لا نفهم؟! نفهم بالطبع».

بهذا الأمل وصل إلى منصبه وبدأ الإضرار. أضر لعام فالثاني. أوقف إمداد الناس بالطعام وأبطل علاجهم وأحرق الخطابات ونثر رمادها في الريح. في العام الثالث بدأ يتفحص المدينة بنفسه. «يا لها من معجزة! لا بد أن المدينة التي في عهدي ستزدهر حقًا بالرغم من أنها لم تستقر بعد. كم أذهلت الناس مع أول حركة أؤديها حتى إنهم منذ ذلك الحين وهم يسиров بأفواه فاغرة!».

استغرق القائد المتقد في التفكير وحاول البحث عن السبب.

أخذ يفكر ويفكر وفجأة ومضت الفكرة في ذهنه. «المنطق» هو السبب. تذكر حوادث مختلفة، وكلما تذكر ازدادت قناعته بأنه بالرغم من إضراره بالكثيرين، فإنه لم يكن ضررًا حقيقياً من شأنه أن يسحق صاحبه فوراً. والسبب في أن الأمر لم يصل إلى هذا الحد هو أن «المنطق» منعه. كم مرة غضب ولوّح بذراعه وصاح «سأسحق!» وفجأة يأتيه «المنطق»؟ يا لك من حمار يا أخي! لو لم يكن لديه منطق لكان قد جعلها أشغلاً شاقة حقيقية فعلاً! صاح بأعلى صوته بعد أن توصل إلى هذا الاكتشاف: «كم أتمنى لو أنكم وجدتم راحتكم عندي منذ فترة طويلة!»، وهدد بقبضته في الهواء معتقداً أن من شأن هذا أن يجلب الفائدة للمدينة التي عُهد بها إلى إدارته.

لحسن حظه عاشت في هذه المدينة ساحرة اعتادت قراءة الطالع من فنجان القهوة، وبالمناسبة، كانت تعرف كيف تتخلص من «المنطق». هرع إليها وصاح: «انزعيه!». عندما أدركت الساحرة ضرورة الإسراع حفرت ثقباً في رأسه ورفعت الصمام، وفجأة تعالى صفير من الثقب و... وانتهى الأمر! صار صاحبنا من دون «منطق».

بالطبع صار سعيداً جداً. عندما يأكل لا يعود قادراً على رفع اللقمة إلى فمه لأنه يقهقه طوال الوقت تقريباً.

ركض إلى المكتب. وقف في منتصف الغرفة يريد أن يضر أحداً. يريد أن يضر وحسب، ولكن أي ضرر يفعله ولمن، هذا ما لا يفهمه. تحديق عيناه ويحرك شفثيه ولا شيء آخر. لكنه أخاف الجميع بمظهره

الغريب هذا حتى إنهم فروا منه ذات مرة. حينها ضرب الطاولة بقبضته وحطمها وهرب.

ركض في الأنحاء. رآهم يحرثون ويجرفون ويجزون ويجدفون. إنه يعرف جيداً ضرورة حبس مثل هؤلاء الأشخاص في المناجم، ولكنه لا يفهم كيف يفعل ذلك. حذق إلى أمامه وانتزع منجلاً من أحد الفلاحين وحطمه، ثم اندفع إلى فلاح آخر حتى يحطم المسحاة، إلا أن الجميع خافوا منه وفي دقيقة واحدة فرغت الأرض من حوله. حينها نثر من حوله كوم القش وهرب.

عاد إلى المدينة. إنه يعرف أنه يجدر به أن يشعلها من أطرافها الأربعة، لكنه لا يفهم كيف يفعل ذلك. أخرج علبة الثقاب من جيبه كعادته، وحاول إشعال العود ولكن من الطرف الخاطئ، وهرع إلى برج الكنيسة وأخذ يقرع الجرس. قرعه مرة والثانية، ولكنه لا يفهم لماذا يقرعه. في هذا الوقت جاء الناس راكضين يسألون: أين الحريق يا أبانا؟ أين؟^(١٥٣) أخيراً أنهك من قرع الجرس وهبط من على البرج وأخرج علبة الثقاب مجدداً وأشعل كل الأعواد مرة واحدة، وما إن هرع إلى الناس حتى هربوا جميعاً من وجهه في كل الاتجاهات وتركوه وحيداً. حينها ركض إلى منزله وأغلق الباب من خلفه بالمفتاح.

مكث أسبوعاً فالثاني، من دون أن يضر أحداً، ولا يفهم السبب، والناس أيضاً لا يفهمون. هنا توجب عليهم أن يلتقطوا أنفاسهم بينما هو محبوس في منزله ولا يضر أحداً، لكنهم بدلاً من ذلك خافوا. كان

(١٥٣) قديماً اعتادوا قرع أجراس الكنائس تنبيهاً للناس بحدوث حريق.

من المستحيل ألا يخافوا. حتى ذلك الحين كان يضرهم دائماً وتوقع الجميع أنه بين ساعة وأخرى سوف ينفعهم بطريقته، ولكن ما إن حدث ما حدث حتى هدأ كل شيء، ولم تعد هناك لا منفعة ولا ضرر. الناس لا يعرفون ما الذي يمكن أن ينتظروه من هذا الصمت ولذلك وجموا. تركوا العمل واختبأوا في أوكارهم ونسوا الأبدية ومكثوا ينتظرون. في هذه الأثناء بدأت أفكاره تتراكم مجدداً. نظر مرة من النافذة وبدا أنه فهم.

«يبدو أنني جلبت ضرراً حقيقياً بمظهري الغريب!»، هكذا صاح وانتظر قائلاً في نفسه: «الآن فقط سيجتمعون جميعاً أمام منزلي وسيطلبون استعادة الأعمال الشاقة».

لكنه انتظر طويلاً ولم يأت أحد. بدا أن كل شيء في حالة تأهب: الحقول متفجعة والأنهار ضحلة والقطعان أصيبت بالجمرة الخبيثة واختفت الرسائل، وكل ما يتطلبه الأمر هو المزيد من العمل الشاق حتى تجهز الأعمال الشاقة. هنا سؤال يطرح نفسه: لمن يجهز هذه الأشغال الشاقة؟ أينما ولى نظره يجد المكان فارغاً، وصار الأوغاد كالبعوض الذي يلاعب القطعان في ضوء الشمس. يستحيل إذن إعداد الأعمال الشاقة من أجلهم وحدهم لأنه حتى في حالة الأشغال الشاقة تكون هناك حاجة إلى واشٍ متبطل من السكان الأصليين، كادح في عمله ويتسم بالتواضع.

غضب. خرج إلى الشارع وبدأ ينتزع الناس من جحورهم واحداً تلو الآخر. يخرج واحداً ويتفاجأ ويخرج الثاني فيتفاجأ أيضاً. لكن هنا

واجه مشكلة كبيرة أيضاً. لم يكد يصل إلى الحجر الأخير حتى نظر وإذ بمن أخرجهم من جحورهم انسلوا إليها مجدداً.

اتخذ قراره. خرج من البوابة ومضى إلى الأمام مباشرة. ظل يسير حتى وصل إلى مدينة كبيرة كانت مقر السلطة العليا.

نظر ولم يصدق عينيه. منذ فترة طويلة في هذه المدينة تحديداً صاح الأوغاد في جميع تقاطعاتها ودفن الصغار أنفسهم في الحفر، وفجأة يرى كل شيء الآن قد انقلب رأساً على عقب! الناس العاديون يسرون في الشوارع بحرية والأوغاد هم من يتوارون!

أيمنما نظر وجد الخير في السماء وعلى الأرض. يعرج على حانة فيقولون له: «لا يا سيدي. لا يتوفر الشراب هكذا سريعاً». يمر على مخبز فلا يجد أي أرغفة. يذهب إلى بقالة فيقولون له: «النقائق غير جاهزة يا سيدي. ما إن تأتي حتى تُباع فوراً!». يسأل من يعرفهم ومن لا يعرفهم:

- ما سبب ذلك؟ أي ضرر تعرضتم له جعل تجارتكم تروج هكذا؟

- ليس هذا بسبب الضرر، بل على النقيض: لدينا سلطات جديدة

الآن وقد توقفت عن الإضرار بنا، ولهذا أحوالنا جيدة.

ذهب القائد المتقد إلى السلطات ليرى بنفسه. نظر إلى المنزل الذي يعيش فيه القائد، وإذ به منزل قد دُهن حديثاً. البواب جديد والساعة جدد، وأخيراً رأى القائد نفسه! فاحت رائحة الأذى من الرئيس السالف، أما الجديد فتفوح منه رائحة المنفعة. القديم يشخر والجديد ينقر كالعندليب. يتسم ويصافح ضيوفه ويطلب منهم الجلوس... ملاك حقيقي!

نظرًا لأنه لم يجد ما يفعله بدأ بتقديم البلاغات، وكلما ازدادت بلاغاته ازدادت فسادًا. وهكذا بغض النظر عن مقدار الإضرار الذي تسبب فيه لم يجلب منفعة واحدة. لا يمكن للمنطقة التي أوْتُمِنَ عليها أن تلتقط أنفاسها وحسب!

لم يفهمه القائد الجديد فقال له:

- كرّر ما قلته!

- كما سمعت بالضبط. لا يمكنني بأي طريقة أن أضربهم إضرارًا حقيقياً.

- ماذا تقول؟

نهض كلاهما مرة واحدة ونظرا إلى بعضهما. فجأة تذكر القائد الجديد أن سلفه قد أعد له سابقاً عدة تقارير بهذا المعنى. فقهقه قائلاً:

- أهذا ما نتحدث عنه؟ لقد تخلينا عن هذه الطريقة. الآن لا نضر بهم بل نفيدهم فقط، فمن المستحيل أن تلقي مياه الصرف في النهر وتنتظر أن تجده أنظف. ضع هذا نصب عينيك.

عاد القائد المتقد إلى منطقته المؤتمن عليها ومنذ ذلك الحين صار أمران نصب عينيه: «فلتحقق الفائدة عن طريق الضرر»، والآخر الجديد: «إذا أردت نفع الوطن فعليك أن...»، ولم يضع بقية القول نصب عينيه. لكن أحياناً كان يخلط بين الاثنين. حينها يتضح الآتي: «ما أكلته وما تناولته هو أمر واحد».

أعجب الجميع بقصة أوتشيشيوني. أكثر ما أراح الجميع هو أن تقرر مصير المنطقة المعهود بإدارتها بسلام قدر الإمكان. وحدها فائينوشكا هي من أعربت بسذاجتها عن بعض الشكوك. في البداية أفلقتها مسألة كيف لم يعرف القائد المتقد لمدة طويلة أن السلطة الجديدة في المدينة الرئيسة قد أدخلت أنظمة جديدة. أجابها جلوموف عن سؤالها قائلاً: «السبب هو أن هذا حدث في مملكة معينة وفي دولة معينة، ولكن أين بالضبط؟ خمني!». بعدها أعربت عن أسفها بسبب أن السلطة الجديدة لم تكتفِ بأنها لم تقضِ على الأمر القديم الذي وضعه القائد المتقد نصب عينيه، بل بدت كأنها تركته أيضاً عن عمد! أجاب جلوموف عن ذلك بتعقل أيضاً قائلاً: «لقد تركت ما قد تحتاج إليه لاحقاً». أضاف بعد ذلك بصلابة:

- لم نجتمع من أجل أن ننتقد يا صديقتي، بل من أجل استغلال الوقت في شيء مفيد. للوهلة الأولى قلت في نفسي: أي نوع من الأغبياء هذا القائد المتقد! ما الذي اخترعه هذا؟ لكني الآن أرى أن الأمر لم يكن ممكناً من دون إحراق مدينة او اثنتين. أنت في حاجة إلى الإدارة، ولكن كيف يمكنك أن تدير من دون أن يكون في يدك نار ولا سيف؟ حسناً، من عليه الدور الآن ليحكى؟ أونوفري بيتروفيتش! يبدو أنك تريد إخبارنا بسيرتك الذاتية. ابدأ يا صديقتي!

لكن بدلاً من أن يبدأ الصراف البائس قصته أخرج من جيبه ورقة ملطخة كما لو أنه يُقدّم حساباً، وقدمها إلينا قائلاً: «هذه هي حياتي!».

سيرة ذاتية

تاجر من الطبقة الأولى أونوفري بيتروفيتش بارامانوف.

في ١٥ يناير ١٨١٨ دفع الآتي عند الولادة بحساب الروبلات والكوبيكات:

١٠٠ للكهنة.

١٠٠ لإدارة المحكمة المحلية السفلية.

١٠٠ لقضاة آخرين.

في ٣٠ يوليو ١٨٢٦ عند تقديم الأختام الضرورية للوالدين، وقد زعما أن هذا حدث في المنام، دفعا عمومًا ٥٠٠٠.

ما اشتريناه من أجل السيد قائد الشرطة

برميل كافيار: ١٥,٥٠

سمكتان باليك: ١٦,٦٥

نبذ مارسال: ٣٠

مكسرات لأطفال قائد الشرطة: ١,٢٥

نبذ سانتوريني للأب ميكيتا: ١٢

تكاليف الفترة بين ١٨١٨-١٨٣٨

تكاليف تغيبات: ١٠٠ روبل.

٢٠٠٠ روبل سنويًا للكاهن.

٧٣٥٠ تكاليف معيشية في إدارة المحكمة السفلية.

٧٥٠ من أجل الانتصار على الأتراك في ١٨٢٩.

التحويلات الجارية حتى اليوم

في ١٨٣٨، دفعت ١٠٠٠ روبل تكاليف تحويل الأوراق النقدية إلى الفضة، وحوّلتها كلها حمداً لله.

في ١٥ يناير ١٨٣٩، وبمناسبة الأعوام المنصرمة واعتماد ختم صغير يُزعم أنه حدث في المنام: ٥٠٠٠.

جاء مسؤول من المقاطعة للتدقيق.

من أجل الأمر ذاته دفعت ٧٠٠٠.

٣٥٠ ثمن ساعة دقاقة له.

في المناسبة ذاتها دفعت ٥٠٠٠ للمحافظ لحساب الأرامل والأيتام.

٥٠٠٠ من أجل تزيين الأديرة.

٦٠٠٠ بمناسبة تأسيس الإدارات المحلية في ١٨٤٢.

٣٠٠ ثمناً لعربة ذات أربع عجلات لقائد الشرطة في المناسبة ذاتها.

١٠٠٠ روبل من أجل تكاليف المعيشة في الفترة الممتدة بين

١٨٣٨-١٨٤٥.

٣٥٠٠ مصاريف تغيبات.

في ١٨٤٥ ذهبت إلى بطرسبرج، وأراد قائد الشرطة في راياجسك

أن يجري تحقيقاً في قضية اختلاس ممتلكات مؤمنة. دفعت ٢٠٠٠.

١٥٠٠ في ريازان بخصوص الأمر ذاته.

- ١٥٠٠ في كولومنا بخصوص الأمر ذاته.
- ١٠٠ من أجل السفر ليلاً إلى برونسي.
- أرادوا في موسكو نفياً إلى سيبريا: ١٥٠٠٠.
- ٥٠٠ في كلين من أجل التفتيش.
- ١٠٠٠ في تفير بخصوص الأمر ذاته.
- ٧٥٠ في تورجوك.
- ١٠٠٠ في فيشني فولوتشيوك.
- اشترينا أجراً في فالداي بـ: ٥.
- ١٠٠ للحدودي في كريستي.
- ٣٠٠٠ للمحافظ في نوفجورود في دعوة لشرب الشاي.
- مجموع ما أنفقته في بطرسبرج: ٥٠٠٠٠.
- ٤٥٠٠٠ في ١٨٤٦ بسبب جنرال أزجاج الجميع، بداية من الوزير نفسه.
- إزعاج خاص: ٥٠٠٠٠.
- ٢٥٠٠٠ في ١٨٤٧ بسبب إزعاج مستشار الدولة.
- ١٥٠٠٠ في ١٨٤٩ بمناسبة الانتصار على المتمردين المجريين.
- ١٠٠٠٠ لتعزيز الموارد.
- ٧٥٠٠٠ في ١٨٥٣ لدعم الجيش والأسطول.

- ٥٠٠٠٠ في ١٨٥٤ بخصوص الأمر ذاته.
- ٥٠٠٠٠ في ١٨٥٥ امتناناً بمناسبة نهاية الأمر.
- راتب ٦٠٠٠ روبل في الفترة الممتدة بين ١٨٥٤-١٨٥٦ والمجموع ٦٦٠٠٠ ألف روبل سنوياً.
- في ١٨٥٧ بسبب ارتفاع تكاليف المؤن زاد الراتب إلى ١٠٠٠٠ روبل، وبالنسبة إلى سؤال: «وماذا أيضاً؟» أجبت بـ: «سنرى لاحقاً».
- ١٠٠٠٠ في عام ١٨٥٨ ثمناً لـ: «سنرى لاحقاً».
- ١٠٠٠٠ في ١٨٦٢ بمناسبة نهاية الإصلاحات.
- في ١٨٦٣ دعوت الجنرال لشرب الشاي ودفعت ٢٥٠٠٠ من أجل الصالح العام.
- في ١٨٦٤ دفعت ٤٠٠٠٠ ألفاً للجنرال ذاته قرضاً لشراء ضيعة.
- ٣٠٠٠٠ في ١٨٦٥ في أمور مختلفة.
- في العام ذاته عرج عليّ أمير ألماني وتناول الشاي في منزلي واقترض ٦٢٠٠.
- اقترض الأمير ذاته ٦٢٠٠ مرة أخرى.
- ٣٠٠٠ لمعاونه الشخصي.
- ٣٢٠٠ لمعاون آخر.
- ٥٠ في ١٨٦٦ بمناسبة حرية الطباعة.
- ٥٠٠٠ في ١٨٦٧ لأهداف عامة.

- ٦٠٠ في ١٨٧٠ لمسؤول القسم لشؤون الجامعات.
- ١٠٠٠ في ١٨٧١ لنشر مفاهيم سليمة.
- ١٥ من أجل نصب تذكاري لبوشكين في ١٨٧٢.
- في ١٨٧٣ دعوت الجنرال ودفعت ١٦٠٠٠ لدعم التسليح.
- ٧٢٠٠ في ١٨٧٤ لتشييد جسر أسفلتي.
- ٢٠٠٠ في ١٨٧٥ من أجل الحدائق والحفلات.
- ١٠٠ في ١٨٧٦ من أجل إصدار قاموس.
- ٩٥٠٠٠ في ١٨٧٧ للقسم من أجل الوطنية.
- ٨٧٠٠٠ في ١٨٧٨ من أجل الأمر ذاته.
- في ١٨٧٩ دعوت الجنرال ودفعت ٢٠٠٠٠ من أجل دعم التسليح.
- عرج عليّ الأمير الألمانى ودفعت: ١٢٤٠٠.
- ٢٥٠٠٠ من أجل ضرورات في ١٨٨٩.
- ١٢٠٠٠٠ في الفترة بين ١٨٥٩-١٨٨٠ داخل نطاق: سنرى لاحقاً.
- ١٤٠٠٠٠ رواتب في الفترة الممتدة بين ١٨٦٧-١٨٨٠.
- المجموع في الفترة الممتدة من ١٨١٨ إلى ١٨٨٠:
- أوراق نقدية: ١٥٤٧٥, ٤٠
- عملات فضية: ١١٦٧٤٦, ٧٧

النهاية

صاح جلوموف مبتهجًا:

- هذه سيرة حياتك يا أخي. اتضح أنك على مدار ٦٢ عامًا دفعت تكاليف حياتك مليونًا ومائة وواحدًا وسبعين ألفًا، وثمانمائة وسبعة وثمانين روبلًا، وواحدًا وثلاثين كوبيكًا، لا أكثر ولا أقل. الحياة كلها في لمح البصر. حسنًا، برافو! تكلفة رخيصة.

أجاب بارامانوف بتواضع:

- هكذا أحيأ يا سيدي.

- بالضبط. في مملكة أخرى كان من الممكن أن يسلبوك خمسة ملايين مثلاً، بل وكان من الممكن أن يأخذوك إلى الأسواق في قفص. ولكن القادة عندنا يجلبون معهم الخير. برافو! عسى أن يهب الله الجميع مثلك! ولكن ماذا فعلت في الفواصل؟

لم يفهم بارامانوف.

- دفعت مثلاً ١٥ كوبيكًا في ١٨٧٢ من أجل نصب تذكاري لبوشكين، وفي العام التالي دفعت ١٦ ألف روبل من أجل دعم التسليح، ولكن ماذا حدث في الفترة الفاصلة بينهما؟

- عشت يا سيدي.

- رائع. عِش قدمًا! الآن حان دورك أيها المراسل!

- قصتي غير جاهزة بعد، ولكن إذا شئتُم يمكنني أن أقرأ عليكم مقالة مسلية نشرتها في «كراسا ديميدروفنا».

- هذا أفضل. سنستمع معًا، وربما نسدي النصح أيضًا. رائع! اقرأ

يا أخي.

بدأ المراسل في القراءة.

سيد الفكر (١٥٤)

«الوغد» هو سيد الفكر المعاصر. وُلد من رحم الوحل الأخلاقي والعقلي المعاصر، وهذَّبته ودعَّمته وألهمته اللامبالاة الأنانية المعاصرة. لا أريد أن أقول إنه ظهر لتوّه في عالمنا، ولكنني أؤكد أن بالأمس وحسب ارتدى هذه الثياب المبهجة التي تسمح بأن يُشار إليه وسط الحشود بلا أدنى شك: «ها هو الوغد!». ظهر الوغد دائماً قديماً وحديثاً، وإلا من أين أتينا بمفهومنا عن فكرة العار؟ لكنه أخفى في الظلام ثنايا حرفة كراهية البشر متبعاً نموذج الأصيلي الإيليسي.

من هو إبليس؟ إنه الوغد الأعظم والأكثر مدعاة للازدراء والأكثر محدودية الذي لا يمكنه أن يُميّز بين الخير والشر، ولا بين الحقيقة والكذب، ولا بين الخاص والعام، ولا شيء واضح لديه إلا مصالحه الشخصية، وبالتالي تكون هي الأقرب له. لهذا يسمونه عدو البشر، المشتكي والمفتري، ولهذا السبب يُصوّر مكان عمله في الظلام، في الجحيم.

بالمثل ظل كاتم سر إبليس «الوغد» يعمل حتى الآن. عرفوا عن أمره لكنهم لم يروه. شعروا به لكنهم لم يلمسوه.

لم يعد الأمر كذلك الآن. وعى الوغد نفسه وعرف إجابة سؤال:

(١٥٤) تعبير مستوحى من إحدى قصائد بوشكين ويعني شخصاً له تأثير قوي على معاصريه.

«من هو الوغد؟»، ومن ثم بدأ يجيب بشجاعة: «الوغد هو أنا!». مثله مثل أبيه إبليس لا يشعر بالحاجة إلى أن يوضح لنفسه جوهر وظيفة الوغد، بل يرتكب أفعاله الخسيسة أمام أعين الناس مباشرة ويتحدث أحاديثه الحقيرة على مسمع من أذانهم.

انظروا كيف يسير بثبات في طريق الأوغاد وبأي نظرات وقحة وقاحة لا يُعبر عنها ينظر إلى الأحياء من حوله! اسمعوا الثقة التي يشع بها صوته عندما يقول: «نعم، أنا وغدا!». محدودية الفكر ولدت فيه وقاحة، والوقاحة أمتته من أي صدمات. عند النظر إليه لن ترتبكوا وسط التعريفات؛ ستقولون «هذا وغد» وسيبدو كل شيء واضحًا أمامكم. لم يكن هناك أبدًا ما هو أبسط وأوضح وأكمل من ذلك. يبدو كما لو أنه برز من الظلام فجأة وشهد عن نفسه.

لقد تسلل إلى كل مكان. تجدونه في كل شرائح ما ندعوه «المجتمع» وفي كل الوظائف وفي كل مكان. يظهر في كل مكان بوجه مكشوف، ويعلن عن نفسه في كل مكان قائلاً: «هل تعرفوني؟ أنا الوغد! أنا نير مدعو لسحق الحياة. أنا عار مدعو لإبطال القناعة والشرف والحقيقة ونكران الذات. أنا فسق حملت على عاتقي مهمة ملء الكون كله بقيق الخيانة والرشوة والغدر».

يمكنكم أن تلتقوا به في صالون مجتمع راقٍ وفي احتفالية تاجر بعيد شفيعه وخلف مأدبة موظف متواضعة وفي المسرح والحانة والعربة، وفي كل مكان يعظ قائلاً: «لا مفر من النذالات. سأرتكبها جميعًا. سأفعل كل شيء للأوغاد. سأرتكبها جميعًا! جميعًا!». يفعل ذلك

لأنه لا يسعى لإغراق نفسه وحده في العار، بل لإغراق كل الأحياء،
الحاضرين والمستقبلين أيضاً.

كل شيء يهدأ عند ظهوره، والجميع ينتظرون أي عار جديد سوف
تلفظه شفتاه المخزيتان. لا يكتفي بالتلميح مثل أسلافه الأوغاد بل
يتدفق منه الكذب والوشاية بشكل مباشر. يؤكد مباشرة أنه وغد، فهذه
هي الأرضية الوحيدة التي يمكن للإنسان أن يقف عليها برسوخ، وعليها
يمكنه ألا يرتكب أفعالاً خيالية، بل حقيقة.

فلتسألوه عما يعنيه بأفعال حقيقية وسيقدم لكم إجابة واضحة. سيقول
إن الفعل الحقيقي المعاصر هو الغدر والخيانة؛ إنه توقف الحياة والعودة
إلى ضباب الزمان. يمكنكم أن تعارضوه قائلين إن المجتمع الإنساني
لا يمكنه أن يحيا بالخيانة والعداء وحسب، فهو في حاجة إلى نثر بذور
المستقبل، وسيجب عليكم قائلًا إن بوسع الجميع أن يشغلوا بأحلام
خطيرة وحسب، أما الوغد فيكتفي بما يُمثّل مهمة اليوم الملحة وحسب.
سيقولها بثقة وتأثير حتى إن الجدل سيتوقف من تلقاء نفسه.

هل حدث يوماً أن حضرت أيها القارئ مثل هذه المجادلات؟ في
البداية تسمع حديثاً وضجيجاً عاماً ثم تبدأ في تمييز نغمة صاخبة وحادة
وسط هذا الحديث، وتدرجياً تعلو هذه النغمة أكثر فأكثر، وأخيراً تتردد
نغمة واحدة. توقف المتجادلون وامتلاأت الغرفة بالهمس، وبين الحين
والآخر تتردد ضحكة هادئة تبدو وكأنها منهكة.

آه من هذه الضحكة! ماذا تسمع فيها؟ أهو تشجيع وضيع أم اعتراض
خجول أم مجرد عجز؟

بالنسبة إليّ شخصياً يبدو لي أنني أتلمس عويلاً في هذه الضحكة مفاده: لا أرض تحت أقدامنا! لا مكان نتكئ عليه! لا وجود لمن يدافع عنا! حشد يندفع على مرأى من الأعين، وكل شخص فيه يشعر بالوحدة والشك والعجز والنقص، ويرى كل واحد أنه متروك لنفسه تماماً. لا عمل عادي ولا مآثرة يمكنهما أن يدافعا عن صاحبهما حيث توجد هاوية كاملة بين الفعل والغرض منه. هل يمكن في هذه الحالة لفعل عادي أو مآثرة أن يجديا؟ ألن تظهر هنا الأخطاء والخلافات؟

منذ فترة قصيرة التقيت به... التقيت بالوغد. سألته:
هل حقاً تعتقد أن بالإمكان تربية المجتمع على كراهية الحياة
والتطور والحركة؟
أجابني:

بالطبع. حان الوقت لنضع حداً للأشباح وننهي أمرها حتى لا تعاود
الظهور وتعطل مجرى الحياة الصحيح.
ولكن اسمح لي أن أساءل: ما تدعوها أشباحاً، ألا تُمثّل أهم حاجة
للفكر الإنساني؟

لقد تدنس الفكر بعد أن فقد تصوره عن الحدود. الأشباح ضرورية
لهذا النوع من الفكر وحسب. يجب ألا نشجّع مثل هذا الفكر، بل نحده.
ولكن كيف تحده؟ أي حدود ستحدّه بها؟ ألن يتضح سريعاً أن مثل
هذه الحدود معادية له في واقع الأمر؟

سنجد الحدود.

بالقوة والعنف؟

نعم، بالرغم من أن علينا الاعتراف بأن هذه الوسائل لا تكفي في بعض الأحيان.

بالرشوة والغدر والخيانة إذن؟

آخ يا سيدي العزيز! يا للكلمات الرهيبة التي تطلقها مرة واحدة! إذا استخدمت بدلاً منها تعبيراً مثل: «حاجة اليوم الضرورية والملحة» فسيكون الأمر مفهوماً وسيكفي هذا التعبير تماماً.

وهل أنت متيقن من وجود ترادف بينهما؟

المعنى واحد تماماً.

مد لي يده وأراد أن يكمل طريقه، لكنني لاحظت فجأة شيئاً غريباً في وجهه. أمعنت النظر وإذا بآثار يد. سألته:

ما الذي على وجهك؟

يد. هذا ما تبقى من آثار البذاءة الليبرالية السابقة. ستزول ولن تجدها مستقبلاً. أضمن لك ذلك.

رفع رأسه بفخر ومضى. عدت إلى المنزل شاعراً بالخزي.

في المنزل قرأت الاقتراحات ذاتها عن كيفية طرد الأشباح بطريقة منهجية في افتتاحية إحدى الصحف. وجدت المقالة مكتوبة بسلاسة وقوة. أكدت المقالة بكل ثقة أن قضية الفكر الإنساني قد ضاعت إلى الأبد، وأن الإنسان من الآن وصاعداً يجب ألا يسترشد بمتطلبات العقل

والضمير الاعتبارية التي تجذبه إلى طريق مطاردة هذه المُثل الشبحية، بل بالغرائز الوقائية المتواضعة التي تُثبِّته على أرض الواقع الصحيحة. تخبر هذه الغرائز الإنسان عن حاجته إلى الطعام والحركة والطمأنينة، ولا بد لها بالطبع أن تعرض عليه وسائل الإشباع كافة وحتى أوسع سُبل الحرية. في هذه الحرية الواسعة هناك مكان لعمل الفكر لأنه لا يمكن لأبسط مطالب الإنسان تدبر أمرها من دونه. لذلك لا يتعلق الأمر بتدمير الفكر على الإطلاق؛ بل بكيفية ومكان تطبيقه. في واقع الأمر الحرية أمر مرغوب فيه. عسى أن تسود في كل مكان؛ عدا عالم أحلام اليقظة.

بعد قراءة ذلك تذكرت أنني لم أتناول العشاء بعد، ونظرًا لأنه لم يكن لدي في جيبي أكثر من عملتين من فئة العشرين كويكًا، لم أجد سوى أمر واحد يلائم قدرتي الفكرية؛ أن أتناول الغداء والشاي بهاتين العملتين بالإضافة إلى بعض السجق للعشاء. عندما استطعت تدبر أموري فعلاً، شعرت في أثناء استلقائي على الفراش بأنني ابن للوطن ومواطن حقيقي.

المراسل

أثار فينا هذا المقال الهزلي انطباعات مختلفة للغاية. لم يفهم الصراف شيئاً على الإطلاق، ولم تفهم فائينوشكا سوى الموضع المتعلق بعملتي العشرين كويكًا (آخ! يا لها من بائسة!). بالنسبة إلى أوتشيشيوني، وبوصفه محرراً طوعياً في «كراسا ديميدروفنا»، فاستغرق

في التفكير فيما إذا كان مثل هذا المقال سيمر أم لا. بالنسبة إليّ بالرغم من أنه بدا لي غريباً بعض الشيء أن يخطر على بال مراسلنا الخاص أن يتحدث عن الوغد فقد ملت إلى مدح المقال، أما جلوموف فقد رفض المقال تماماً. قال:

- كل هذا مجرد غنائية شعرية يا إخوة، واليوم لا يمكن لمثل هذه الغنائية أن تخترق قلب أحد. سيقراً القارئ، وربما حتى يقول: «هنا إيماءة خطابية جميلة^(١٥٥)»، ثم يعود لأموره مجدداً. يبقى الوغد وغداً وأجبن الجبناء وأنذل الأنذل. لو كنت مكانك لما فعلت شيئاً على الإطلاق، لم أكن لأمس هذا الوغد، ففي كل الأحوال ليس هناك ما يمكن أن يؤخذ منه.

وافق مراسلنا على ذلك قائلاً:

- هذا ممكن أيضاً.

- ها أنت توافقني. أعلم أنك إنسان متفهم ولطيف. أنصحك بأن تبدأ مقالك الهزلي القادم بالآتي: «في المرة السابقة عرّفكم على وغد، واسمحوا لي هذه المرة بأن أعرفكم بهذا الإنسان المتوسط الذي يسبح كالسمكة. ششش! هل نتم؟ أجنتم من الخوف؟ أثمة طرق على رؤوسكم؟ ماذا يحدث في الواقع؟ يطلبون منكم الاستيقاظ ولا تردون بسوى شخير».

أكد المراسل مجدداً:

- ممكن يا سيدي!

(١٥٥) بالفرنسية في الأصل.

- ستقوم بعمل رائع. الآن دعونا نكمل. من عليه الدور؟
تبين أن الدور على فائينوشكا، ولكن بدلاً من أن تحكي لنا شيئاً
أخرجت ورقة من جيبها واحمرت خجلاً وقدمتها إلى جلوموف.
قرأ جلوموف:

أولينكا

أو

حياة امرأة بأكملها في بضع ساعات

في أحد الشوارع عاشت فتاة تُدعى أولينكا مع والديها، وفي المنزل
المقابل عاش شاب يُدعى بيتر. ما إن التقيا ذات مرة في الجادة حتى
بدأ بيتر ينادي أولينكا: «تعال يا أولينكا بعد الغداء إلى الغابة لنتنزه
معاً». في البداية رفضت أولينكا وبعد ذلك ذهبت. بعدما تنزهوا وعادت
إلى المنزل أدركت أنها تعلمت الكثير مما لم تعرفه قبل أن تمضي إلى
الغابة. حينها قالت: «إذا أردت أن أعرف المزيد فسأعاود التنزه مع بيتر
في الغابة غداً. تعال يا بيتينكا^(١٥٦)!». بهذه الطريقة تنزهها كثيراً ثم جندوا
بيتينكا في الجيش.

النهاية

فاق نجاح هذه القصة التوقعات. دعا الجميع فائينوشكا بالفتاة
الذكية وهنأوا الأدب على موهبة أدبية جديدة يانعة. لم يحتمل جلوموف
وصاح: «آخ أيتها الرائعة!»، ولكن الأمر المهم هو أنهم أعجبوا بفكرة

(١٥٦) تدليل بيتر.

أنه إذا كتب الجميع بهذه الطريقة فلن تجد الرقابة شيئاً لتعترض عليه،
ومن ثم يمكن إلغاء الرقابة. سيكون ممكناً إذن إلغاء الرقابة مجدداً!

حان دوري، ولكن ما إن أقبلت على قراءة «تخمين تاريخي»
بعنوان «من هما والدا الفلاح الكاماريني؟»، حتى سمعنا طرقاتاً على
الباب الخارجي. في البداية كان الطرق خفيفاً ثم أخذ يزداد قوة حتى
إنني فتحت النافذة بقلق شديد لأعرف ما الأمر. ولكن في اللحظة التي
استندت فيها إلى حافة النافذة أمسك شخص بالخارج بيدي وظل
يعتصرهما كما لو بين كلابين. في الوقت الذي كادت فيه قدماي أن
تنهارا قفز من النافذة رجل يرتدي قبعة ويحمل سيفاً.
لقد كان الشرطي.



هنا أيضًا بانت فتنة ليبرالية تفير الأصيلة. عبّرت جميع الأوامر عن شعور بالتناسب والإحسان. أدوا الواجب من دون تساهل، ولكن نظرًا لأننا لم نُدنْ بعد فربما تتضح براءتنا إذن. فتشونا ولكن عندما لم يجدوا شيئًا معنا سوى ثياب بالية لم يصيحوا فينا: «أنت تكذب! استسلم!» كما لو أننا نستطيع بحسب الرغبة أن نلد رزمًا كاملة من الإعلانات! لم يطاردونا في الليل البهيم ولكن تركونا نستريح ونستجمع شتات أنفسنا ونشرب الشاي، بل وسمحوا لنا برحلة صيد في كورتشيفا بأزياء النبلاء التي نرتديها لأن الثياب التي ركضنا بها إلى بروبليفا ناي لم تجف بعد كما يجب. بشكل عام لم يسمحوا لأنفسهم بممارسة أي أعمال وحشية غير مجدية معنا وخففوا من قدر القسوة النافعة بقدر الإمكان.

لكن ما إن نثر الفجر الذهبي حزم لهبه الأولى في الشرق البعيد حتى بدأ الشرطي يؤدي واجبه.

عندما خرجنا من المنزل وجدنا حشدًا كثيفًا من الناس في الفناء. بدا لي أن الجميع يحدقون إليّ باهتمام كما لو أنهم يحاولون تخمين: «هل هذا سيدنا فعلاً أم لا؟». من الواضح أن الطريقة التي وصلت بها إلى بروبليفا ناي دفعتهم للتساؤل: «هل السيد الحقيقي هو هذا الهارب أم أنه شخص آخر؟»، وقد لعب هذا السؤال دورًا كبيرًا في مغامرتنا.

تملكنا شعور مزدوج، فمن ناحية شعرنا بالفرح لأن الدولة تخلصت بأسرنا من تهديد يُشكّل خطرًا عليها، ومن ناحية أخرى شعرنا بتعاطف الإنسان الروسي الأصيل مع السجين الذي يُفترض دائماً -لسبب ما- أنه يعاني عبثاً.

وجدنا شرطياً آخر في انتظارنا، وقد تعرفت فيه على الشخص الذي أمسك الخنزير الطليق في الليلة الماضية، وقد ارتدى زيه الرسمي ومعه اثنان من السوتسكي وستة من الديسياتكي^(١٥٧). توجب على هذا الموكب أن يرافقنا إلى كورتشيفا. أمسك الديسياتكي بالحبال لكنهم لم يوثقونا كما يحدث في مقاطعات أخرى مثل أورلوفسكايا أو كورسكايا مثلاً، بل اكتفوا فقط بتحذيرنا أنه في حالة محاولة الهروب، حتى لو من جانب واحد منا فقط، سيطبّقون قاعدة الإمساك بنا من القفا فوراً. مع ذلك عليّ أن أقول الحقيقة، وهي أن الشرطي وجّه لنا هذا التحذير وهو مضطرب، بل وبكى أيضاً بعض الديسياتكي. جاء الكاهن أيضاً وقال بضع كلمات تعزّيد عن موضوع: «ما جذر الشر؟»، واختتم كلمته بتوجيه سؤال إليّ: «وحق الله أيها السيد الغريب أجّبي: هل أنت سليل السادة الملاك أم لا؟»، ولكن عندما أردت أن أتوجه إلى الناس، بدلاً من الإجابة عن السؤال، وأوضح براءتي، أصدر أفراد السوتسكي والديسياتكي أصوات قرقرة عالية ابتلعت صوتي. بالرغم من ذلك هرعت إلينا نساء كثيرات متعاطفات وقدمن لنا بيضة ساخنة أو قطعة كعك بالجبن، ومنهن اللاتي قدمن لنا بطاطس مشوية، ومن الواضح

(١٥٧) أسماء رتب دنيا في الشرطة الريفية تُنتخب من مجلس القرية.

أن الشرطي لم يطلق عليهن أوغاده ورعاعه إلا حفاظًا على الإجراءات
الشكلية وحسب.

أخيرًا انطلقنا وكان الصباح مشرقًا ومشمسًا يعدّ بيوم حار. لمع
العشب المندى بالأمطار تحت أشعة الشمس المنكسرة كما لو أنها
طبقة جليدية طفيفة. امتدت على طول الطريق برك وفيرة من المياه.

أعطى الضابط إشارة الانطلاق:

- توكلنا على الله! لتتحرك!

وتعالت الصيحات من الحشد المجتمع:

- رحلة سعيدة!

لو كنا في مقاطعة أخرى لقيّدونا غالبًا أو على الأقل كانوا سيقيدونا
بالجihad، ولكن من الواضح أن فكرة أدوات التعذيب هذه اختفت في
تفير تمامًا. لو كنا في مقاطعة أخرى لتعرضنا قطعًا بين الحين والآخر
لضربات، ولكن في مقاطعة تفير لم يجد أحدٌ هنا حاجةً حقيقية إلى
توجيه أي ضربات. يا لها من مقاطعة! الواجب وحسب! من دون
تساهل ولكن من دون إضافات أيضًا. هكذا كان شعار مقاطعة تفير حتى
في الوقت الذي تصارعت فيه تفير مع موسكو الغادرة، ولهذا ابتلعتها
موسكو. ظلت تفير كما هي منذ ذلك الوقت. أضاف الشرطي إلى ذلك:
«سيفسرون لكم الأمر»، وهو قول يشهد على الالتزام بالقانون، بينما في
مقاطعات أخرى يقول الشرطيون: «سِيرُونكم النجوم في عز الظهر».

سرنا بخطوات حرة وتناقشنا عما هو الأفضل: شرعية طيبة من دون

تنازلات ولا إضافات أم تعسف طيب من دون تنازلات أيضًا؟ ووجدنا جميعًا أن الأمر سيان.

لكن في الواقع لم يكن الأمر سيان على الإطلاق، ولاحظ جلوموف عن حق تمامًا أن الشرعية من دون تساهل شكّلت فجر نظامنا القانوني، وعندما فحصنا المسألة من جميع الجوانب وجدنا أنفسنا مجبرين على الاتفاق مع جلوموف، وقد بعث فينا هذا عزاءً.

هكذا هي مقاطعة تفير، تصبح منذ زمن بعيد: «عاقب! اسحق حتى تخرج منه عصارته! لكن افعل ذلك بحسب القانون!» وعوقب فعلاً هكذا.

انضم الشرطي أيضًا إلى المناقشة ودعّم فينا إيماننا بعدالة كورتشيفا. لقد اتسم بالذكاء كما أنه ينحدر من أصل نبيل، وبالنسبة إلى قناعاته فهو يؤيد الجانب الليبرالي. خدم في الشرطة من أجل تحقيق سيادة القانون وأُثقل بالعمل، وإذا كان يحمل هذا النير من دون تدمير فالسبب -وفقًا لتعبيره- أنه لم يكن لديه ما يأكله في منزله بالرغم من ولعه بالطعام. لذلك عندما أعطيته بيضتين طازجتين من التقديمات التي نلناها ربت على يدي بتأثر وطلب مني قطعة من كعك الجبن. قال:

- وبالنسبة إلى كورتشيفا فلا تقلق، فكل شيء لدينا يجري وفقًا للقانون. ما دام القانون موجودًا فلا شيء يهم، ولكن إذا غاب القانون فمرحبًا بك في السجن.

- أهذا يعني أنه سواء وُجد القانون أم غاب ف...؟

- نعم، هكذا هو الأمر على أي حال. (ثم أضاف بعد برهة) عندما يسود القانون سوف أعمل بمزيد من السرور. الآن يصدر الأمر: اقبض عليه! لماذا؟ ما السبب؟ اقبض عليهم من فضلك وهناك سيفسرون الأمر!

- ألم تقل اليوم بنفسك إنهم سوف يفسرون الأمر؟

- نعم ولكن ليس بهذه الصورة. اليوم يفسرون الأمر وغداً يتخذون القرار. اليوم يعاملونكم معاملة من لا حقوق له، وبعد ذلك يسجلون حقوقكم، بلا زيادة أو نقصان؛ أي باعتدال.

توجب علينا أن نسير أكثر من ثلاثين فرستًا. سرنا جزءًا كبيرًا من الطريق على أرض رملية، ولكن بفضل المطر لانت الرمال وكانت خطواتنا خفيفة. من وقت لآخر وجدنا في طريقنا أراضي منخفضة تقطع الطريق بمساحات كبيرة وتمتلئ بالمياه. حينها وجدنا أنفسنا مجبرين على خلع أحذيتنا والسير حفاة من مكان لآخر. بعد ساعتين من السير صارت أشعة الشمس حارقة وشعرنا بإنهاك لا يوصف في جميع أجزاء الجسم. لذلك شعرنا بفرحة كبيرة عندما رأينا قرية صغيرة يقع على أطرافها كوخ واسع.

بدت هذه القرية مألوفة لي. في وقت ما في طفولتي اعتدت أن أطعم خيولي فيها في أثناء مروري بها في بداية العطلة ونهايتها. بعدت هذه القرية الصغيرة عن ضيعتنا مسافة ١٢ أو ١٣ فرستًا، ولكن هنا عاش الفلاح كوزما الذي أطلق عليه ملاك الأراضي حينها «الوزير»، وقد أحب والداي التحدث معه والأخذ بنصيحته.

لذلك توجب عليّ أن أتوقف هنا بغض النظر عن قرب مسافة الوصول. في ذلك الوقت كان كوزما قد بلغ بالفعل خمسين عامًا، وهذا يعني أنه اقترب الآن من المائة. آخر مرة عرجت فيها على المكان وجدته لا يزال حيًّا، لكنه توقف عن إدارة شؤون الأسرة تقريبًا، واقتصَرَ أمره على حماية خزانة الأسرة والتسكع حول الضيعة للتأكد من عدم وجود أي تلفيات. فاجأه إلغاء قانون القناة ولم يعرف ما إذا كان عليه أن يفرح أم لا. في الماضي، واطب المُلّاك على التجول ذهابًا وإيابًا وفحص الشكاوى ومراقبة جز الأراضي وما إلى ذلك، واعتاد كوزما أن ينال إبان ذلك شيئًا من الشوفان ليدفئ به نفسه وقدّرًا من البيض ليأكله. كانت هذه أيام السعد، ولكن بمرور عام والثاني هدأت حركة البندول، وخلا الطريق، وهُجرت غرفة كوزما النظيفة، وتذمر العجوز.

مع ذلك حافظ كوزما على رخائه حتى إن منزله الآن يبدو جيدًا وقويًا مثلما كان منذ عشرين عامًا. تبين أنه لا يزال حيًّا، بل ويتسكع بجهد كبير في كوخه، لكنه صار ضعيف النظر ولم يعد بوسعه أن يصيح «صقليين!»؛ الصيحة التي اكتسبت في القرية مكانة راسخة وتكررت بأكثر المعاني اختلافًا. تبين أيضًا أنهم عرفوا خبر القبض علينا هنا من رسول جاء إلى كورثيفا بخبر عن ظهور أناس في بروبليفانايا يسلكون بـ«غربة» بعض الشيء (سَلَم الكاهن هذا التقرير للشرطي). لذلك ما إن وصلنا حتى وجدنا القرية كلها قد احتشدت من كبيرها إلى صغيرها. هذه هي فتنة التفكير الخبيث المزعوم (ربما بسبب الخلط بين هذا المفهوم ومفهوم السلطة)، ففور ظهور من يرتدون قبعات رسمية اختبأ

الحشد تلقائيًا. أسرع بالطبع إلى كوزما أولاً، آملاً أن تتاح الفرصة لتذكر الماضي وإبداء التأثير. لكن العجوز استقبلني بجفاف. هاجمني فجأة، فاعرًا فمه على آخره، قائلاً: «إلى من مددت يدك؟»، ولم تظهر في فمه سنة واحدة؛ الأمر الذي جعله يبدو وكأنه تجويف مظلم أكثر مما يبدو كفم.

صاح بهذه العبارة عاليًا وبتسلط حتى إن أفراد الأسرة المجتمعين في الكوخ نظروا إليّ بخوف، ورشموا علامة الصليب وهمسوا: «الرحمة يا رب! فلتحفظينا يا والدة الإله!»، وجلب لنا حفيد كوزما، وهو رجل في الأربعين من العمر تقريبًا، إناء الشاي من الخزانة، وعزز الانطباع السابق بعد أن أضاف بصوت مبحوح:

- لا تلمسه يا جدي. يبدو أنه بديل للسيد.

كرّر الجد سؤاله:

- إلى من مددت يدك؟ لقد نعمت بوالدين رائعين وأنت... وأنت... آخ! لو كانا هنا لخرجلت منهما. آخ!

أخيرًا وضع الشرطي حدًا لهذا المشهد وقال:

- لا تمس السجين! لن تستطيع تحمل مسؤوليته إذا فعل شيئًا.

مع ذلك تركت كلمات العجوز تأثيرًا، ولا بد أن كلمة «السجين» تركت فيّ تأثيرًا مريعًا. بينما كنا نستريح في الكوخ دخل جيران كثيرون. يدخلون وينظرون إلينا ويُصلّبون وينصتون ثم يرحلون. وصلت إلينا من الشارع أيضًا أصوات غامضة أكدت أن الحس الشعبي السليم بدأ

في الغليان. ظل الضابط يدخل الكوخ ويخرج إلى الشارع لأنهم بدأوا يتهمونهم بإيواء مجرمين ووصفوه بالمتساهل. طرح عجوز حسن النية سؤالاً مباشراً: «إذا كانوا متهمين قُبِضَ عليهم فلماذا هم ليسوا موثقين بالأغلال؟». توقف كوزما عن الصياح لكنه واصل حك أنفه قائلاً:

- ماذا عليّ أن أفعل الآن بكوخي؟ من يقيم فيه الآن؟ أي أناس؟ إلى من مدوا أيديهم؟ إذا كان الأمر هكذا فعلاً فعليّ أن أحرقه وحسب! (لكنه أضاف بعد ذلك بشكل غير متوقع) هل لديك شاي خاص بك أم ستشرب من شايانا؟ لدينا شاي جيد! شاي خانات^(١٥٨)!

باختصار تعقد الوضع تدريجيّاً وصار في النهاية خطيراً إلى درجة أن الشرطي لم يعد ملائماً لهذه الدرجة من الخطورة، وعندما حان الوقت للمضي قدماً اقترح عليّ مرتبّاً:

- اسمحوا لي سعادتكُم أن أقيد أيديكم حتى لا يحدث لكم شيء! وافقت بالطبع بسرور.

عندما خرجنا إلى الشارع سأل الشرطي الحشد وهو يشير إلينا وقد وُثِّقت أيدينا: «جيد هكذا أيها الرفاق؟»، وصاح الحشد بسرور: «جيد! جيد! الشابة التي تتقدمهم ارتكبت فاحشة!»، ولكن أكثر من تهللوا هم الصبية. ظلوا يقفزون ويتشقلبون أمامهم، بالقسوة المفطورون عليها في هذه المرحلة العمرية، ويصيحون فينا بلا انقطاع: «صقليون! خونة!»، وأطلقوا عليّ أنا تحديداً «السيد البديل». رافقونا مسافة فرست تقريباً

(١٥٨) جمع خان.

بصيحاتهم المسعورة حتى انتزع الشرطي أخيراً واحداً من الحشد وضربه بقضيب، وهنا ظهرت السلطة الليبرالية كمُدافع عنا ضد آلهة الانتقام الشعبية الهائجة بدرجة مثيرة للذهول.

سرنا بقية الطريق بأكمله موثقي الأيدي فقد صارت حشود السكان أكثر كثافة باقترابنا من المدينة، وعندما رأى الشرطي هذا الهياج الشعبي لم يجرؤ على أي تساهلات. توافد الناس من كل حذب وصوب لإلقاء نظرة علينا، وفي كل مكان صاحوا فور أن رأونا: «إنهم يقتادون الصقليين!»، بل إنهم في إحدى القرى أرادوا أن يجروا محاكمة شعبية لنا؛ أي يغرقونا في بركة...

باختصار، بدا الأمر تصفية لطبقة المثقفين من أجل الفكر الشعبي السليم، وهي تصفية واضحة ولا جدال فيها، حتى إن أفراد السوتسكي أنفسهم فهموا أن خطوة واحدة أخرى في هذا الاتجاه وسيستحيل فهم أين تنتهي الخيانة وأين يبدأ الحس الشعبي السليم.

وصلنا إلى كورثشيفا في الثامنة مساءً حيث بدأ إشعال المصابيح بالفعل. اقتادونا إلى مركز الشرطة مباشرة، ولكن نظراً لأن اليوم وافق ٢٥ أغسطس، وهو تذكار تيطس الرسول، شفيح التاجر فزدوشنيكوف، وقد صنع وليمة بهذه المناسبة، لم نجد أحداً في القسم سوى بانتيلي يجوريتش، كما حدث في المرة الأولى. التقانا قائلاً:

- آخ أيها السادة! آخ أيها السادة! لقد حذرتكم! أنذرتكم وسألتكم! ما هذا؟ أيدي موثقة؟ ماذا فعلتم بأنفسكم؟
صاح جلوموف أخيراً:

- أوامرهم أن يفكوا وثاق أيدينا!

- يفكونكم؟ لا أعرف ما القانون في هذا الأمر. أي موقف وضعتم أنفسكم فيه! اليوم قائد الشرطة في حفل الشفيع، وكذلك مساعده. حتى الكاتب ذهب إلى الحفل ومعه مفاتيح الخزائن، وملفكم فيها. آخ أيها السادة!

أصر جلوموف:

- أرسل إذن في طلب قائد الشرطة ولنضع حدًا للأمر!

- كيف يمكنك التحدث بهذا الطيش؟! أنقول: أرسل في طلب قائد الشرطة؟! ماذا تظن؛ هل قائد الشرطة إنسان أم لا؟ ألا يمكنه أن يقضي أمسية جميلة تسعده؟

- نحن لا نظن شيئًا، بل نعرف أمرًا واحدًا؛ أن أيادينا موثقة بالحبال، وأنه يلزم أن يأمر أحد بفكها.

- ومن المذنب في هذا؟ من الذي وصل إلى كورثشيفا من دون سبب؟ كان عليكم أن تذهبوا إلى كاليازين أو أوجلين أو حتى ريبي، ولكن ما الذي أتى بكم إلى هنا؟ تعرفون طبيعة الظروف هنا الآن ومع ذلك تأتون!

ربما لم يكن لهذا الحوار الليبرالي أن ينتهي لو لم يبحث الشرطي المرافق لنا بنفسه عن قائد الشرطة. بعد نصف ساعة وقف أمامنا شاب لطيف أنيق وليبرالي، وفي غضون عشر دقائق اتضح كل شيء. تبين أنهم أخذونا من دون أي داعٍ وأن السلطات ضلّلت، وهذا كل ما في

الأمر. لذلك اعتذر لنا على الإزعاج وويخ الشرطي على توثيقنا؛ الأمر الذي لم يحدث من قبل في مقاطعة كورثيفا، واختتم حديثه بمزحة لطيفة قائلاً: «في الوقت الراهن، كما تعلمون، لا نسترشد بالقانون بقدر ما نسترشد بالضلالات». بعد ذلك طقطق مهاميزه متمنياً أن يبارك الله مهماتنا، وأمر أحد الديسياتكي أن يصحبنا إلى النزل.

نظراً لأن موعد وصول الباخرة كان في اليوم التالي، قررنا أن نكرّس أمسينا هذه لتنفيذ هذا الجزء من برنامجنا المتعلق بتحرير الكمبيالات المزيفة. أعاد أوتشيشيوني بسهولة كتابة عشر كمبيالات باسمه بتاريخ سابق، كل منها يساوي ٢٥ ألف روبل بالنيابة عن السيدة (فلانة) زوجة التاجر من الدرجة الثانية في نقابة تجار بطرسبرج: ماتريونا إيفانوفنا أوتشيشيونايا. ضحى العجوز بقيمة إحدى هذه الكمبيالات لجامعة زارافشان.

لكن في هذه الأمسية ذاتها وجدنا خبراً محزناً في انتظارنا. أرسل بالالايكين برقية نصت على الآتي:

«سُرقت الأموال التي خُصّصت للجامعة. فر السارق وأُخذت الإجراءات اللازمة. استعدنا مائة روبل».

أرسلنا برقية من جانبنا نرد بها على برقيته، ونصت على الآتي:

«لنرفع كؤوسنا نخب الازدهار! بصحتك!».

في اليوم التالي عندما توجهنا إلى رصيف الميناء لنستقل الباخرة اقترب مني بريزيتوف وقال:

- اسمح لي سعادتك أن أسألك: ألا تنصحني بأن أبدأ في صنع طائر؟

- أي طائر؟

- طائر يطير. يُقال إن شماسًا في كاشين صنع طائرًا.

- وهل يطير فعلاً؟

- يطير ارتفاع فيرشوك عن الأرض. يقفز ويحط مرة أخرى. آمل أن يطير طائري طيرًا كاملاً.

- آخ يا عزيزي! بالطبع! ما الذي يؤخرك؟ اصنع بساطًا طائرًا، وطر به كما تشاء!



قالوا لنا في كورتشيفا إننا سنجد في كاشين اليهودي الذي نحتاج إليه بعينه. علاوة على ذلك أردنا أن نُلقِي نظرة على الكروم هناك التي توفر الثمر اللازم لصنع خمر كاشين الشهير. استنادًا إلى برقية بالالايكين من الواضح أن قضية جامعة زارافشان قد انتهت، ولا حاجة إلى الإسراع إلى سمرقند، ومن ثم توجهنا إلى كاشين.

التقينا على متن الباخرة بمجموعة متنوعة جدًا من الركاب حتى إن الخادمة نفسها بدت مندهشة. اشترى من كورتشيفا كل الخبز الأبيض وكل الدجاج وتناولوا كل العصيدة، حتى استطاع التجار المحليون في هذا اليوم ادخار روبل إضافي لشراء تراخيص عمل. ظل نادل السفينة الوحيد يصعد ويهبط بلا كلل، بوجهه المتنفخ وضمادة على وجنته، عند سماعه الرنين على آنية الخمر أو الكؤوس طلبًا لاستدعائه. جلبوا شيئًا ما حامضًا من مطبخ أرشين الذي حجبته ظهر الطاهي؛ إما أنه حساء ملفوف سيئ أو ربما هي مياه قدرة. عاد قطيع كامل من أهل الخبرة؛ إما من الذين استطاعوا قول كلمة قوية أو من الذين جاءوا لشمشمة الأخبار، وانصرفوا. جرت محادثة صاخبة في قمرة الدرجة الأولى عن السياسة الداخلية، وبدأت المعلومات التي وصلتنا من هذه المحادثة ذات طبيعة مؤسفة للغاية. بحسب تعليقات الركاب فإن ردة الفعل

تجاهها استنهضتها من جديد. ساد الضباب والقنوط والنزاع الداخلي في المجتمع، وانقسمت ما يدعونها «الطبقات الحاكمة» إلى معسكرين متناحرين؛ واحد منهم يترأسه المستشار الليبرالي السري جوبوشلييوف، وقد مد ذراعيه من دون قتال، وبدا فجأة كمن انهار. توارى المستشار جوبوشلييوف في إحدى القرى، وهو الآن يُعمّد الأطفال في منازل الشرطيين^(١٥٩). في الجهة المقابلة حزب عضو مجلس الدولة دولين، وهو يحرز انتصارًا في جميع المعارك ويتحرق لقتال الأعداء الذين سيهزمهم، ولن يكون في وسعهم سوى المعاناة من الهزيمة والندم. يسير دولين في الشوارع ينشد أنشودة عن المسيح الدجال:

وُلد المسيح الدجال

وهو يسكن الأرض كلها

ويتسلح في الأرض كلها

يعلن صراحةً النهاية الوشيكة للجنس البشري. بدلاً من أن تقتاده الشرطة إلى السجن بسبب هذه الكلمات، يُحيّونه تحية عسكرية عند مروره بهم. لكن أكثر ما آلمنا اكتشافه هو إجبار إيفان تيموفيتش على تقديم استقالته لأن مرسوم «النيات الحسنة في كل السلوكيات» الذي أُعدّ فحسب ولم يُنشر بعد، رآه صيادو موسكو بوصفه سمًا يعقويًا^(١٦٠) ذا نيات شريرة. لم يخلُ الأمر بالطبع من الخيانة التي

(١٥٩) لا يخلو الأمر من سخرية حيث إن إجراء التعميد يقتصر على الكهنة فقط.

(١٦٠) نسبة إلى اليعاقبة الذين كوّنوا النادي السياسي الأكثر نفوذًا خلال الثورة الفرنسية. وكانت نشأته على أيدي النواب المعادين للملكية.

لعب فيها بروديتوف الدور الرئيس للأسف الشديد! لقد أراد توريط إيفان تيموفيتش حتى يستولي على مكانه، ومن ثم أرسل سرًّا إلى صياد موسكوفي مجموعة من المراسلات أثبت فيها أن السمات السامة للمرسوم الذي صيغ في القسم، تعود إلى حقيقة أن السيد مأمور القسم في أثناء إعداد هذا المرسوم وقع تحت تأثير قادة حزب ثوري جهز عشه في ليتيني. أشار بروديتوف أكثر من مرة للسيد القائد إلى ذلك بل واقترح أن يدرجوا في المرسوم مقطعًا خاصًا بهذا المحتوى: «على كل راغب في إجراء محادثة أو لقاء في منزله أو في أي مكان أن يبلغ القسم بذلك عشية الموعد المحدد، مع إرفاق برنامج يتضمن الأسئلة والأجوبة، وعندما ينال الإذن لإجراء هذه المحادثة أو ذلك اللقاء يمكنه أن يستدعي الشخص المطلوب لتنفيذه». لكن إدراج هذه الفقرة قبل بالاعتراض من قبل قادة الحزب الثوري المذكورين سابقًا الذين اتفق معهم مأمور القسم بسبب ضعف شخصيته.

ماذا حدث؟ إيفان تيموفيتش يعاني وبروديتوف لم ينجُ لأن كشيبيتسيولسكي أبلغ عنه بدوره أنه لا يخبز الفطائر يوم سبت النفوس^(١٦١) بتأثير من روح اليعاقبة سيئة النية. الآن كلاهما: إيفان تيموفيتش وبروديتوف، تصالحا ويعيشان في مكان ما عند بساتين منطقة نارفسكايا وانضمّا إلى المعارضة. أما كشيبيتسيولسكي فقد تحول إلى الأرثوذكسية وصار مريدًا في جمعية اللوبوترياسيين المتحمسين^(١٦٢).

(١٦١) يوم يُخصَّص لإحياء ذكرى الموتى خلال السنة الليتورجية للكنائس الأرثوذكسية الشرقية.

(١٦٢) جمعية سرية تكونت للدفاع عن القيصر ألكسندر الثالث.

أما ما حدث لمولودكين فلا أحد يستطيع أن يجزم به. مولودكين السعيد! لا أحد يلاحظك في عملك في الإطفاء حتى إن مرارة الوشاية لا تستطيع أن تؤلمك! أما نحن فنضطرب ونسأل أنفسنا: من هو الإنسان السعيد حقاً؟ إنه مولودكين!

أضاف الشخص المطلع الذي أخبرنا بهذه التفاصيل: «نعم، الآن هو في بطرسبرج! آه! آه!».

تحدث هذه الأمور أحياناً. تأتي إلى مكان غريب تماماً وتلتقي بأناس غرباء، ولا تنتظر شيئاً ولا ترتاب في شيء، وفجأة تسمع أصواتاً تُذكرك بأن ثمة ما يُحكك، وسيتوجب عليك أجلاً أم عاجلاً أن تشارك فيه.

اشتكى جلوموف قائلاً:

- المهم هنا هو أنه من المثير للعار أن يكذب هذا الوغد المدعو بروديتوف في كل ذلك.

لو كنت موجوداً عندما اقترح إدراج هذه الفقرة عن المحادثات لوَقَّعت بـكلتا يدي عليها! عذراً، ولكن إجراء المحادثات وفقاً لبرنامج يوافق عليه القسم، بل وحتى في وجود نائب عن القسم، هو الأمر اللائق، وحين يُسمح بذلك لا تعود هناك حاجة إلى كتابة مرسوم. يكفي المقطع الأول وحسب.

في هذه الأثناء ترددت من مختلف زوايا المقصورة شكوى واحدة وحسب. اشتكى الشخص المطلع من مدينة كراسني خولم:

- أيمكن أن نطلق على مجتمع كمجتمعنا هذا مجتمعاً؟ لا مغامرة ولا مبادرة ولا أي شيء! اقترحت على سبيل المثال أن نمد خطاً من كراسني خولم بيجيتسك لكنهم لا يفهمون، وهذا كل ما في الأمر! السؤال الأول: ما فائدته؟ أليست حماقة؟ أقول لهم عذراً ولكن سيّدوا خط السكك الحديدية هذا وستظهر الأشياء التي يمكن للقطار نقلها على هذا الخط من تلقاء نفسها. لا يفهمون! لا يفهمون أن السكك الحديدية تجعل المواد التي يجب أن تُنقل تظهر من تلقاء نفسها. أذهب إلى جيتسبرج وأقول له ولا يفهم. أعدّ صراحة: البيض ومنتجات الدجاج والفطر والتوت المجفف. كل هذا الآن على مرمى نظر الجميع، وبعد ذلك ستظهر أشياء أخرى تدريجياً. لا يفهمون! أذهب إلى روزيتال ولا يفهم شيئاً. أذهب إلى هنا وهناك ولا أجد أحداً يهتم بشيء. هكذا يعيش المرء في هذا المجتمع!

قال محامٍ من نواحي أوجلين:

- الآن يشتبهون في سوء نياتنا، نحن المحامين! نُبدي استعدادنا حتى لنزع جلد الأحياء وهم يصيحون: أصحاب نبات سيئة!

- الآن لا يقول القضاة عنا سوى أننا نهز الأسس وأن على المرء منا أن يُدوّن كل يوم ما يفكر فيه حتى يستطيع أن يُكيّفه بشكل صحيح، ويتضح في الواقع أن سبب اهتزاز الأسس لدينا هو أن القضاة أنفسهم هم من يهزونها، ويقولون إننا نهزها!

تذمر أحد مُلاك الأراضي من قرب مولوجا:

- الشيطان وحده يعلم ماذا يشبه هذا الوضع! أردت تشييد مصنع

جبن فقالوا: «اشترائي!» أنا اشتراكي؟! لقد خدمت في سلاح الفرسان،
فهل تتصوروا ذلك؟!

وضَّح تاجر حبوب من رينسك شكوكه:

- آه لو نعرف حتى كيف يمكننا فهم هذه الأسس؟! إذا لم تنتج
الأرض الآن حبوبًا فهل هذه قاعدة أم لا؟ هل فعلت الأرض ذلك مثلًا
بسبب الكسل أم لأن الله حباها هذه الطبيعة؟ كيف؟ ماذا؟ ممن ننال
التفسيرات في هذه الحالة؟ وفي هذه الأثناء تُقدَّم الهدايا لأننا لا نعرف
كسالي ولا نعرف الطبايع، بل نتذكر أمرًا واحدًا؛ أن والدينا أنجبانا وأن
علينا أن نتج نحن أيضًا! يقولون لنا: انتظروا! لم تفسد الأرض! وهل
لي أن أسأل: ماذا عن العربون؟ أليس هذا مبدأ؟ أو مرة أخرى: هذه
المنظومة هي الأكثر سيولة وقد انغمسنا بها، ونخوض الآن -ارحمنا
يا الله!- وفجأة: توقف، لا يوجد ماء! أليس هذا مبدأ؟ وبالمناسبة،
لدينا عقد مع (الإنجليزي) الأمر الذي بالنسبة إليه لا يشكل شيئًا. كيف
لي، كما يُقال، يا أرخبيل ألبرتيتش، أن أبحر بالمركب من دون الماء؟
لكنه لا يعرف قواعدنا، يمكنه ركوب ما يريد. خسرت ما يتراوح بين
ثلاثمائة وأربعمائة ألف في صيف واحد. اسمحوا لي أن أسأل: إذا كان
بمقدوركم تحمل هذه الخسارة اليوم، فهل تستطيعون تحملها مرة وغداً
مرتين وبعد غد ثلاث مرات، ولاحقًا ربما أكثر؟ وفي كل هذا يقولون:
الأسس! من بمقدوره فهم هذه الأسس؟

توقف تاجر الحبوب لبرهة لالتقاط الأنفاس ثم توجه بحديثه إليَّ
شخصيًا:

- اسمح لي يا سيد أن أسألك: ثمة سمكة الآن تسبح في الفولجا،
فهل تتوقع السمكة أنها ستصل إلى حسائنا أم لا؟

- لا شك أنها لا تنتظر ذلك لأن السمكة التي في حسائنا لا يمكنها
العودة إلى النهر، ومن ثم ليس هناك من بوسعه إخبار بقية السمك
بعواقب معرفته بالإنسان.

- أما نحن الذين عرفنا ما هو حساء السمك نمضي إليه بأنفسنا مرة
أخرى، فكيف يمكنك تفسير ذلك؟

- على المرء أن يتكيف! الأفضل بالطبع لو نعيش من دون حساء
سمك على الإطلاق. حاول أن تنساه يا سيدي!

- يستحيل أن ننساه يا سيدي. حتى أجدادنا تحدثوا عنه كثيرًا. ثمة
سمكة تلعب في الماء، ولكن لماذا؟ لأنها لا تتوقع أن تصير حساء!
فهل يمكنني أن أَلعب الآن وثمة سرب أسماك كامل في انتظاري في
المياه الضحلة؟ كيف يمكن أن يرأف السيد الرب بالخليقة ولا يرأف
بالإنسان؟ كيف يمنح المخلوقات هذا الطيش ولا يُنعم به على الإنسان؟
هل تستحق المخلوقات أن تنال نعمًا أكثر من الإنسان؟

حكى شخص مطلع من نواحي كوستروما:

- سأقص عليكم ماذا حدث معي! أمر هزلي! كنت بصحبة
إيفان بافليتش في مطعم فولف نتحدث عن النقل والروبل والميزانية؛
باختصار عن كل شيء. نتفق في أشياء وفي أمور أخرى لا يمكننا أن
نتفق. نظرنا وإذ برجل مجهول قد ظهر أمامنا فجأة، وكأنه برز من باطن

الأرض. وقف بالقرب منا وقد أوثق يديه إلى الخلف كما لو أنه على معرفة بنا. سأله إيفان بافليتش: «ماذا تريد؟»، وإذ بالرجل يقول إنه يريد أن يسمع عما نتحدث، وقد قالها بتلقائية كما لو أنه يمارس عمله المعتاد. قال إيفان بافليتش: لقد أدركنا الأمر بعد فوات الأوان. تحدثنا عن كل شيء بالفعل. غادرنا المطعم وهو يتبعنا. إذا سرنا إلى الأمام سار إلى الأمام، وإذا تنحنينا جانبًا تنحى هو الآخر. وصلنا إلى قسم الشرطة، وكذلك هو، وقال مشيرًا إلينا: «إنهما يتحدثان عن أشكال الحكم». دخلنا القسم: «المأمور غائب. لقد مضى في مأمورية». «اسمحوا لنا أن ننتظره!». ننتظر ساعة وأخرى، ويهرع الكتبة من حولنا بالسجائر، ويدخن الحراس في ردهة الاستقبال، ونشم رائحة كريهة من الفناء، ونرى الأوساخ على الأرض والبق يزحف على الأريكة. ننتظر. قرابة الغداء نسمع صوت حركة في الردهة، ويخبروننا: «لقد أتى سيادته». يدخل المأمور.

- الاسم؟ الكنية؟ المهنة؟

- كذا كذا.

يخبره المطلعون بأننا جئنا ليُنظر في أمرنا. يتعجب الرجل ويسأل:

- ما السبب؟

- لا نعرف.

هَبَّ الكاتب من مكانه قائلاً:

- كانا يتحدثان في المقهى عن أشكال الحكم.

قال: «آه أيها السادة!». لكنه أطلق سراحنا، بل وقال مازحًا: «ليكن هذا درسًا لكما!».

- وانتهى الأمر بهذه الصورة؟

- هذا ما حدث معنا.

- وتشكو؟

- من حيث الشكوى فنحن لا نشكو فقد اتضح أن لديهم أسبابًا. لقد سئمنا بالطبع من هؤلاء المتبطلين المتطوعين ولكن يستحيل ألا يضع المرء في اعتباره أنهم على الطريق الصحيح. ألقينا التحية وفررنا من بترسبرج سريعًا.

قال شخص مطلع من نواحي رومانوف من الزاوية الأخرى:

- في رأيي يجب جمع كل الضرائب في مكان واحد بكد وتوزيعها بالتساوي، ويتوجب على المرء حينها أن يدفع الضريبة سواء كان يشرب خمرًا أم لا، وسواء دخن أم لا.

- كيف يحدث ذلك؟ واحد يشرب والآخر لا يشرب وكلاهما يدفع ضريبة على الخمر؟

- ولماذا لا نفعل ذلك؟ إذا كان المرء يشرب فهو يشرب مجانًا تقريبًا، فما قيمة الفودكا من دون ضريبة؟ لا تساوي شيئًا! وهنا نجد أهمية المنافسة. حينئذ، سيضرب أصحاب المصانع وأصحاب الحانات بعضهم بعضًا لأنهم سوف يرون أن الفودكا ستضيع عبثًا! لو احتسى المرء قدحًا أو قدين فلن يحس بنقص في كيس نقوده، وهذا بطبيعة

الحال أسهل بالنسبة إلى الحكومة. لن تكون هناك حاجة إلى المشرفين ولا إلى الأرباح ولا إلى المحاكم، لن تكون هناك حاجة إلى أي شيء. بل بكل بساطة، خذ المال، وانهب كما تشاء!

- وماذا عن المتأخرات؟

- لدينا وسيلة لعلاج مسألة المتأخرات. على المرء أن يفتش جيدًا! في السابق عندما كانوا يستخدمون القوة في الوقت المناسب لم تكن هناك متأخرات، أما الآن، ومنذ أن بدأوا يستخدمون الرقة والإحسان، ظهرت المتأخرات.

- ربما هذا صحيح.

بالنسبة إليّ شخصيًا نفرت بدرجة مريعة من هذه المحادثات لأسباب عديدة؛ أولاً: اعتقدت أن الناس يشكون من أنهم لا يعطونهم فرصة للالتقاط الأنفاس، وفي الوقت نفسه انظروا كيف يتحدثون بحرية! الأمر شيء من الاثنين: إما أنهم يكذبون أو أنهم جميعهم جواسيس مبعوثون من الشرطة لمراقبة المسافرين، ولا يصلون إلى أهدافهم ولا يخيفون أحدًا. سيؤبّخون ويطلقون ويعودون مرة أخرى إلى مواضعهم، فهل يمكننا أن نعتبرها نتيجة مُرضية؟ ثانيًا، وهذا هو مبعث الخوف: يتحدثون ويتحدثون وفجأة تجدهم يتحدثون في الواقع عن الميزانيات! إلى أين يمكن للمرء أن يتوارى حينها؟ يمكن للمرء أن يذهب إلى سطح الباخرة، وهناك يجدهم يتحدثون عن الميزانيات أيضًا. يهبط إلى الدرجة الثانية ويجد تجار الطبقة الثالثة ملتفين حول زجاجة فودكا ربع لتر ينتظرون المسيح الدجال! يذهب إلى الدرجة الثالثة فيجد الفلاحين يناقشون المسائل الزراعية.

لحسن الحظ ذكر أحدهم أنا إيفانوفنا وانتقل انتباه الحاضرين إليها على الفور. ثمة مجموعة كبيرة من المطلعين يعرفون أنا إيفانوفنا، وثمة مجموعات أخرى بالرغم من أنها لا تعرف أنا إيفانوفنا تحديدًا، فإنها تعرف كليوباترا إيفانوفنا وداريا إيفانوفنا وناتاليا إيفانوفنا ومن شابههن من نساء مثلن طبعات لا نهائية من أصل واحد هو أنا إيفانوفنا. على سبيل المثال اتضح أن كليوباترا إيفانوفنا هي أنا إيفانوفنا من أوجلييتسك، وأنا إيفانوفنا هي كليوباترا إيفانوفنا من كاليازين... إلخ. بشكل عام جميعهن أنا إيفانوفنا، يتسمن بالذكاء والثروة، وأحيانًا بالقبح، لكنهن دائمًا مغويات ومفعمات بالحياة. جميعن يحبين المجتمع الذكوري حصراً، ويتعهدن عن طيب خاطر بقيادة ثلاثة جياذ مجنونة، ويرتدين سترات فخمة بلا أكمام، وقمصاناً حريرية حمراء، ويشربن كأس شامبانيا من دون عبوس في نخب الصداقة. بعضهن أرامل، وأخريات بالرغم من أن لديهن أزواجاً فإنهن يبدون دائماً صغيرات وحمقاوات (غالباً ما يجري إغواء والدي أنا إيفانوفنا بدرجة نسبية من الرضا المادي)، وفي بعض الأحيان توجد بينهن فتيات، لكن ينحصر وجودهن بين الأمهات اللاتي كن في وقت ما نسخة من أنا إيفانوفنا. بالنسبة إلى العدد القليل من الأشخاص المطلعين العالقين في عزلتهم، وبالنسبة إلى السادة الضباط المتمركزين في فوج المقاطعة وبالنسبة إلى ضباط الشرطة، تمثل هذه النماذج من أنا إيفانوفنا كنزاً حقيقياً. على الطريق، أو حتى من دون طريق، أبواب أنا إيفانوفنا مفتوحة دائماً، ويشي المكان بالدفع، ويبدو منيراً، والمقبلات على الطاولة. يجلس رجل هناك قد

دخل ليقضي ليلته. يهرع الخادم للقائه عند الشرفة الخارجية، وترتدي الخادومات فساتينهن الصيفية ويرتدي الحوزية الرداء الروسي التقليدي (بوديوفكا) ويشير الواحد منهم كل ما يستطيعه من ضجيج لأنه يطيب للخدم أن يعيشوا بمرح، فأين يمكنهم أن يمرحوا أكثر من عند آنا إيفانوفنا؟! النار موقدة طوال اليوم عندها، وطوال اليوم يجهزون طعامًا ويخبزون ويسخنون السماور ويُعدُّون القهوة. وما مصدر المال الذي يجعلها تخبز وتطبخ كل ذلك؟ هي نفسها لا تعرف إجابة هذا السؤال. يُقال إنها باعت بستانًا في العام الماضي، ولكن يا لعدد المرات التي باعت فيها هذا البستان تحديدًا! يُقال أيضًا إنها مديونة للجميع حتى إن بعض جيرانها من ملاك الأراضي ممن يدرسون الحنطة بمؤخراتهم توفيرًا للنفقات يقولون إنها مدينة لراعي الماشية! لم تدفع له أجرته لعامين! لكنها لا تدفع... لا تدفع، وفجأة تتولى الأمر بطريقة ما وتدفع للجميع. في الواقع لم يذهب أحد إليها إلا وقَدَّم لها شيئًا، وهي نفسها لا تخفي ذلك. تقول لك مباشرة عندما تلتقي بك: «ماذا جلبت معك؟»، وبعد ذلك يُجلب كل شيء لتناوله. باختصار، تعيش آنا إيفانوفنا لمتعتها، أما مسألة كيف تتحصل على كل ذلك فهذا أمر لا يهمها.

بالرغم من تخطي آنا إيفانوفنا للأربعين من العمر، تبدو في معظم الأوقات حيوية وتُمثل لبوة المنطقة، ولكن يحدث أحيانًا أن تبختر في قصرها وتظهر آنا إيفانوفنا أخرى فجأة في قصر آخر. ربما تكون أنيقة ومخدعة أيضًا، ولكن شابة ونشطة، تتحرق شوقًا لإخضاعك تمامًا لقلبها، حينها تحل على آنا إيفانوفنا القديمة أيام مؤسفة ومليئة

بالآلام المبرحة. تبدأ الحرب. تسرع أنا إيفانوفنا القديمة بعربتها الترويكاً بصحبة فرسانها صوب قصر الأخرى. ينشدون الأغاني بأعلى صوت ويصرخون ويضربون أعناق زجاجات الخمر ببعضها. تدخل أنا إيفانوفنا القديمة عشرات السجائر، أما الجديدة فتدخل في يوم واحد مائة سيجارة. تصطاد أنا إيفانوفنا القديمة من البرك والنهر كل أسماك الشبوط وتطعم بها فرسانها، بينما تقول أنا إيفانوفنا الجديدة للرائد أوجلاشيني: «أوجلاشيني! متى ستُحضّر سمك الحفش؟». بعد ثلاثة أيام من صيد سمك الشبوط تُطعم فرسانها حساء سمك الحفش. تستخدم أنا إيفانوفنا القديمة تعبيرات تُشعر الفرسان بالدفع، بينما تطلق الجديدة هذه الكلمات التي تجعل حتى السماء تشعر بالحرارة. تدريجياً يزداد الموقف حدة. أول من يفر من معسكر أنا إيفانوفنا القديمة هم أعضاء القيادة العامة وكبار الضباط ثم المطلعون من الناس، بينما يظل المحضرون القانونيون مخلصين لها لمدة أطول من غيرهم. لكن في النهاية، وعندما يسمعون عن الملذات التي تتوفر في ساحة القصر الآخر، يخنفون فجأة. تظل أنا إيفانوفنا بمفردها في مواجهة شخص تسميه «زوجها».

يصير قصر القديمة في حالة يُرثى لها. تتقلص الغابات التي أحاطت به يوماً، وتُباع الأراضي البور. الخادمة التي اعتادت الضجيج الأبدي تبدأ في الدمة وتطلب حسابها، كما يرفض راعي البقر أن ينتظر حسابها أكثر من ذلك، ويهددها البائع المتجول فوكا الذي اعتاد إمدادها طوال أعوام بالرنجة والجبن بمقاضاتها ويلمّح بعض التلميحات السخيفة.

الضيعة التي امتلأت يومًا ما بالضجيج والصخب يزحف إليها ببطء أصحاب الحانات القريبة والإكليروس و: «آنا إيفانوفنا! أقدم لك أخا الكاهن فلان»، أو: «آنا إيفانوفنا! أقدم لك رازوفايڤ»، ويثرثرون في فناء القصر ويحكون عن مغامرة السكرية القديمة في الضيعة. لكن أي ألم يعاني منه الزوج الصغير لآنا إيفانوفنا مع هذا التحول! إذا أردنا تخيل هذا الألم نحتاج إلى كتابة مقالة خاصة منفردة، كما نحتاج إلى مزيج خاص من ألوان الكتابة لا يتوفر لدي الآن للأسف الشديد.

بغض النظر عما حدث، تحول مسار الحديث في مقصورتنا إلى آنا إيفانوفنا.

سبُّوها بكثرة ومرح وصخب... الجميع فعلوا ذلك مرة واحدة. حاول كل منهم التباهي بقول شيء مميز، لكن شيئًا مميزًا لم يُقَلْ لأن الجميع حظوا بالآنا إيفانوفنا نفسها، بالإيماءات والإشارات ذاتها. سخر منها الجميع بخفة، ولكن كان من الواضح أن كلاً منهم بعد أن يصل إلى مكانه سيذهب سريعًا إلى قصرها. الجميع سيشترون لها هدايا بطرسبرجية من دون حساب، بدءًا من القبعات، وانتهاء بكعكة ستراسبورج^(١٦٣).

أخيرًا، وبعد الشعور بالإرهاق من كثرة ما استخدموا من لغة بذيئة، صمتوا لبضع دقائق كما لو أنهم تبلدوا. أنهوا أحاديثهم المزعجة وضحكوا وكرروا بعض المقاطع المختارة. في هذه الأثناء أظلم الشفق أخيرًا واقتربت الباخرة من كيما حيث كان من المقرر لها أن تتوقف

(١٦٣) كعكة روسية شهيرة من البندق ولحم الخنزير المفروم.

ليلاً. أشعلوا المصباح الوحيد في القمرة، وقد أخذ يئز بغطائه القاتم وبدأت شعلته كنقطة مضيئة خافتة وسط سحب من الدخان. صاح أحدهم: أيها السادة! لنلعب الورق! من يريد اللعب أيها السادة؟ جهزوا طاولتين، وساد الصمت في القمرة وركز اللاعبون، أما غير المشتركين في اللعب فقد تناثروا في مختلف الزوايا واستأنفوا محادثاتهم المتقطعة حول آنا إيفانوفنا وسماتها. ذهب البعض للنوم مبكرًا.

كنا قد انتوينا أن نحذو حذو هذه الجماعة الأخيرة، ولكن ما إن عزمنا على الذهاب حتى طرأ أمر. في كيما انضم إلى المقصورة راكب جديد، وهو ضابط (متقاعد بالطبع)، وسرعان ما دعا بارامانوف بـ«العمة». جلس وبدأ حديثه: «آخ يا عمة! مر مائة صيف ومائة شتاء! كيف حال الأطفال؟ كيف حال عمي؟ أما زلت تخطئين حتى الآن؟ آخ يا عمة!». في الواقع هذا الاسم المستعار ملائم تمامًا لبارامانوف، لؤلؤة الخليفة^(١٦٤) إلى درجة أن بدا لي الأمر غريبًا أنني لم أتوصل منذ زمن بعيد إلى تسمية بارامانوف بـ«العمة»، لكن الضابط أفسد الأمر برمته بعد أن لاحظ النجاح الذي أحرزته تسميته، فأخذ يتباهى به طويلاً بدرجة مضجرة. طوال نصف ساعة لم يترك بارامانوف، وظل يعذبه بأكثر الطرق حماقة، وأخذ يستخدم كنايات وشخصيات جوجول (كان الضابط مثقفًا)، مثل: التنانير القاتمة وشخصية أوبموكين... إلخ. في البداية ابتسم الصراف البائس، وبعد ذلك وجم وبدأ يُحدق إلى ما حوله خائفًا.

(١٦٤) تعبير مستوحى من الأنفس الميتة لجوجول.

جلسنا؛ أنا وجلوموف، كما لو أننا فوق إير، وأخذنا نفكر: «هل يمكن أن يصل بنا الأمر إلى الاضطرار إلى الدخول مع الضابط في معركة قاتلة؟». تلملت فائينوشكا، ويبدو أنها فهمت أن الضابط افتعل كل هذا بهدف تلميع نفسه في عينيها وحسب، أما مراسلنا فقد فكر في كتابة مقال هزلي بعنوان «مثقفون همجيون»، يطرح فيه على المجتمع سؤالاً يتعلق بالبساط الطائر: «هل سيضمن للركاب سلامتهم وأمنهم؟». وحده أوتشيشيوني من تدبر أمره. طلب زجاجة روم جامايكي وبدأ في الاستمتاع. يؤتي الروم تأثيره عمومًا بسرعة وجدية وخاصة المصنوع في كاشين. في الوضع الحالي تسبب الروم في استشارة البق حتى إن الركاب جميعهم بدأوا يشعرون جميعًا بالحكة تلقائيًا، أما الضابط، وبعد أن شرب كأسًا تلو الأخرى، وجد نفسه سريعًا مُكتنفًا بالرؤى! علاوة على كل ذلك، عندما رأى نفسه في المرأة تصور أن هذا هو عدوه الذي يدعوه إلى القتال واستل سيفه. وجد بعض الركاب الآخرين أن من واجبه أن يؤيدوه، ومن ثم حدثت جلبة قصيرة ولكن واضحة، وفي غضون عشر دقائق أغلق النوم الحميد عيني بطلنا الغاضب.

في اليوم التالي، وبعد أن نزلنا في سيرجيوفكا وصلنا كاشين في السابعة صباحًا تقريبًا.



كاشين مدينة إقليمية تابعة لمقاطعة تفير، ويبلغ عدد سكانها وفقًا للتقويم سبعة آلاف ونصف نسمة، وهي تقع على نهر كاشينكا الذي تتدفق موجاته بتواضع وسط المدينة على الضفتين الخضراوين. في وقت ما كانت كاشين عاصمة المقاطعة وناfst تفير، لكنها الآن لا تجرؤ حتى على منافسة بيزتسك. في وقت ما كانت أسماك القوبيون النهرية تسبح في النهر، أما الآن فلا توجد سوى الضفادع وأفراخها. في وقت من الأوقات انتمت كاشين إلى عدد من المدن المستقلة المزدهرة، ويشهد على ذلك الآن عدد الكنائس العظيم فيها، وبعضها لا يزيد عدد رعيته على أكثر من ثلاث أو أربع أسر، ومع ذلك استطاعت هذه الكنائس أن تستمر بفضل الهبات السخية. أتذكر جيدًا كيف حدث في أعوام الثلاثينيات، بل والأربعينيات أيضًا، أن اعتاد مَلّاك الأراضي، ليس من كاشين وحسب، بل ومن المقاطعات القريبة أيضًا، أن يذهبوا إلى كاشين لقضاء وقت ممتع ويتزودوا بالبقالة والبضائع العصرية. كان مَلّاك الأراضي في كاشين مسرورين، وكذلك كانت حال ضيعاتهم، واعتادوا استقبال ضيوف مرحين، لكنني لا أستطيع أن أقول إن العبيد هم أيضًا عاشوا في سرور ومرح هناك. عاش بعض أبناء عمومتي

في كاشين، ولأنني كنت طفلاً حينها، اعتدت أن أستمع بفضول إلى حكاياتهم عن كافيار كاشين الذي لا يُضاهى وسراقاتها الصيفية الرائعة ومعجناتها الحلوة أو الحامضة بحسب الرغبة، وكيف يعيش مَلَّاك الأراضي هناك في سرور ويتقلون من منزل إلى الآخر، يقضون النهار في تناول الطعام؛ المربي والمارشميلو، ويلعبون الفانت^(١٦٥) ولعبة «اجلس، سأجلس» ويرقصون الكادريل، وفي الليل ينام الضيوف جنباً إلى جنب لقلة الأماكن. بدت لي كاشين حينها شيئاً يشبه جنة مالك الأرض المشرقة، واعتدت التذمر بمرارة على قدرتي لأنني لم أولد في كاشين بل في كاليازين البعيدة حيث لا ينام مُلَّاك الأراضي جنباً إلى جنب ولا يلعبون «اجلس! سأجلس!» ولا يرقصون، بل يعيشون في كآبة، يفترسهم البق والغيرة من أهل كاشين السعداء. عشت أنا أيضاً حياة مالك أرض سعيدة، وأتذكرها بوضوح. صحيح أنني لم أعش في كاشين، ولكن حتى في مدينتنا كاليازين الكثيرة نسبياً كانت هناك بعض مراكز السرور؛ على سبيل المثال في خوتشي، وخاصة في قرية فوركريسينسكي حيث عاشت سبع أسر من مُلَّاك الأراضي، وبغض النظر عن شح الأموال لديها، لكنها لم تشغل بشيء سوى الضيافة. (أمل يوماً ما أن أستأنف ذكرياتي تفصيلاً عن هذا العصر القديم الذي تلاشى من أمام أعيننا ولم يترك أي أثر^(١٦٦)).

في الوقت الحاضر تبدو كاشين كمدينة هجرها مالكيها وأكثر كآبة

(١٦٥) لعبة هزلية يؤدي فيها المهزوم الطلبات التي يفرضها عليه المنتصر.

(١٦٦) الملاحظة الأخيرة من الكاتب.

من كورتشيفا. لم تتسم كورتشيفا بالأناقة من قبل، ولم تُفَح منها سوى رائحة الذبائح، أما في كاشين فقد فاحت منها يوماً ما رائحة البقالة والحلوى وأعطية رؤوس النساء. لذلك تزيد كاشين على الخراب الحالي في كورتشيفا بشبكة الزمن التي تنفث كما نعرف رائحة عفن حادة، وهي سمة أي مكان يُنبذ.

عرفنا في النزول أن اليهودي الذي نبحت عنه يعيش في ضيعة يهودية ثرية على بُعد عشرة فرسات من المدينة وقد عُهد إليه بإدارة شؤون الضيعة. في الواقع هو لا يديرها، بل يؤجرها ويقطع الغابة ويثقل على الفلاحين بالغرامات، ويبيع تدريجياً الأثاث والماشية والمنقولات. فكر في أن يُعمد لينال حق الإقامة الدائمة، وتولى عملية توجيهه وتأكيد إيمانه شماس قديم حُرِم من رتبته بسبب الشُّكر، وصحيح أنه لا يستطيع اصطياد الذباب في شيخوخته لكن لا يزال بوسعه شرب الفودكا.

قررنا أن نذهب إلى هناك في اليوم التالي، وحتى يحين الغد قررنا القيام بجولة لزيارة معالم كاشين.

لا شك أن أول شيء أثار انتباهنا في كاشين كان كرومها. منذ زمن بعيد وهي مصدر ملايين الصفقات، وأوقدت وطنية الملاك في القطاع الشرقي من مقاطعة تفير. أتذكر جيداً الوقت الذي صاحت فيه كاليازين بكل ثقة: «لا نريد شيئاً من الأجانب. لدينا مصلحو العربات والنجارون والطهاة ولحم الخنزير والأسماك والدجاج والخضراوات». لم يكن لديهم حينها نبذ، والآن تعلموا في كاشين كيف يصنعونه. العلوم هي الشيء الوحيد الذي لم تذكره لأنه إبان حق القنانة عاش الناس بصورة أفضل من دون علوم!

شربت كاليازين مشروب الشيري من كاشين المقدّر سعره بروبيل وامتدحته. في البداية شعرت بالمرض من هذا المشروب، ثم لعبت العادة والوطنية دورهما.

الآن اهتزت أركان صناعة النبيذ في كاشين بعض الشيء، وبالرغم من ذلك من المحتمل أن يكون الأمر مؤقتًا لعدة أسباب؛ أولاً: فارق مؤسسو هذا العمل وقادته الأصليون خشبة المسرح. ثانيًا: ظهر منافس قوي لهذه الصناعة في ياروسلاف. لكن حتى الآن يثق الناس بخمر كاشين أكبر من ثقتهم بخمر ياروسلاف وكذلك يثقون بنبيذ كاشين الأبيض؛ خاصة إذا كانت المصنقات الذهبية على الزجاجات، وفي الوقت الراهن صار هذا النبيذ زينة لما يطلقون عليها: مآدب المحافظين.

تبين عدم وجود أي كروم في كاشين، وأنهم يصنعون النبيذ في أقيية وسراديب تابعة لصانعيه. العملية بسيطة بدرجة مدهشة. يضعون برميل نبيذ أصليًا في قاعدة كل نوع من أنواع النبيذ المراد صنعه. يسكبون في هذا البرميل الأصلي بنسب محددة مشروب تشيخير^(١٦٧) من أستراخان وماء. يأتون بالمياه المطلوبة من نهر كاشينكا، ولكن في الآونة الأخيرة اكتشفوا مياه نهر كوتوروسل في ياروسلاف ووجدوا أنها تحتوي أيضًا على خصائص الشيري واللافيت بوفرة. عندما يتن الشيخير ويطلق الرائحة المطلوبة من البرميل يبدأون في إضافة النكهة المناسبة. يسكبون في البرميل دلوًا من الكحول، وبعد ذلك، وبحسب نوعية النبيذ المطلوب، يضيفون دبس السكر لصنع نبيذ الماديرا، أو

(١٦٧) نوع من أنواع الشاي المرتبط بشرب الخمر.

القطران لنبيذ مالقا، أو رصاص السكر إذا أرادوا صنع نبيذ راين... إلخ. يُقَلَّبون هذا الخليط حتى يتجانس ثم يغلقون عليه. عندما يصفو النبيذ يأتي المالك أو كبير الموظفين ويصنّفه. إذا بصق مرة واحدة فهذا نبيذ ماديرا (٤٠ كوبيكًا)، وإذا بصق مرتين فهذا نبيذ شاي ماديرا (يتراوح سعره بين ٤٠ كوبيكًا وروبل) وإذا بصق ثلاث مرات فهذا نبيذ ماديرا جاف (سعره روبل ونصف فيما أعلى). الأمر ذاته مع نبيذ مالقا، فهناك نبيذ مالقا عادي ونبيذ مالقا معتّق ونبيذ مالقا معتّق جدًّا، والأمر كذلك مع نبيذ راين، فهناك أنواع **Liebfrauenmilch - Hochheimer-** **Johannisberger**. هكذا هو الأمر مع نبيذ كاشين (أنا هنا بالطبع أصف عملية صنعه على أساس ما سمعته من حكايات، ولا أستطيع التيقن من صحتها، ولكن بوسعي أن أؤكد أمرًا واحدًا، لا توجد كروم في كاشين أو ياروسلاف، وفي الآن نفسه يصنعون النبيذ بكميات كبيرة وبأنواع مختلفة^(١٦٨)).

عندما ينتهي تجهيز النبيذ يسكبونه في زجاجات ويلصقون عليها الملصقات، ويشرب منها أعضاء المجلس الطبي قبل أي جماعة أخرى. عندما يشهدون أنهم لم يشربوا ما هو أفضل من ذلك ينقلون الحمولة بأكملها إلى سوق نيجني جورود، ومن هناك يبيعونه بكميات ضخمة إلى جميع أنحاء روسيا. يشربه قادة أقسام الشرطة والقضاة وملّاك الأراضي والتجار ولا يعرف أحد ماذا يكمن خلف هذه النكهة.

بالطبع قدم لنا موظفو النضد عينة منه. شرب بعضنا ولم نستطيعوا

(١٦٨) الملاحظة من الكاتب.

احتماله، ولكن مراسلنا الخاص وأوتشيشيوني طلبا المزيد بعد أن قالوا: «حبذا لو كان أرطب حتى لا يحز الحلق!»، ولم يكتفِ الموظفون بقبول تقديم كأس أخرى لهما، بل أعطوهما أيضًا زجاجة من أفضل الأنواع لأجل الطريق.

أدى هذا الأمر إلى أن فكرت في اعتبارات نظام اقتصادي وسياسي أرقى. بدأت النقاشات التي شارك فيها الموظفون أيضًا بحيوية. كانت وجهة النظر الاقتصادية في الأمر واضحة تمامًا. أولاً: بإزاحة الأنواع الأجنبية الغالية من الأسواق الداخلية واستبدال منتجات محلية جيدة بها، بالإضافة إلى أن صنعها لا يكلف المرء عناءً، فإن صانعي نبيذ كاشين يزدون بذلك القوة الإنتاجية للبلاد. ثانيًا: عندما يمنح صانعو النبيذ دخلًا لائقًا للعاملين لديهم فإنهم بذلك ينشرون الرضا في أنحاء البلاد ويوفرون سبل العيش المريح لأسر كثيرة، كان من الممكن في غياب هذا العون أن تلجأ إلى أعمال مخزية. ثالثًا وأخيرًا: القضاء على تداول منتج أجنبي يجعل صانعي النبيذ في البلاد يحققون أرباحًا كبيرة، وعندما يضعون هذه الأرباح في جيوبهم سترجح كفة الميزان التجاري لصالح روسيا.

مع وضع كل ما سبق في الاعتبار رأى الموظفون بإجماع أنه يجب حظر دخول الخمر الأجنبية إلى روسيا إلى الأبد، وتناقشوا حول مسألة إرسال برقيات إلى موسكو فسكي أوخوتني لنشر الفكرة على نطاق واسع. أوقفنهم قائلًا:

- انتظروا! لكن إذا فعلنا ذلك فكيف سندبر دخول الجمارك؟ لا

بد أنكم تعرفون جيداً أن دخول الخمر الأجنبيّة إلى البلاد يوفر دخلاً بعمّلات ذهبية.

أجابوا في سر:

- الدخل الجمركي أمر مهم في حد ذاته، فكيف يُعقل ألا نسمح بتوفيره؟ لا قدر الله حدوث ذلك! دعنا نخبرك أن الدخل الجمركي سيُحفظ دائماً، ونحن نفهم أهمية ذلك جيداً.

وهنا أثبتوا وجهة نظرهم بصور حية ومرئية.

- لنفحص الأمر. دعونا نقول مثلاً إن ثقباً في هذا المكان، وهذا يعني أنه لن يحتفظ بالماء. لنقل مثلاً إن أرضاً في هذا المكان، وهذا يعني أن الماء موجود فيه دائماً. هكذا هو الأمر بالضبط حيث يتدفق الماء دائماً من مكان ويتراكم في مكان آخر.

- ولكن ماذا لو كان الثقب في كل مكان؟

- آخ سعادتك! هذا غير ممكن.

هدأت شكوكي بالطبع، وقضينا على أي صعوبات مالية في هذا التصور بيسر شديد.

بالنسبة إلى وجهة النظر السياسية فقد كانت أوضح. أولاً يُطلق نبيذ كاشين أيدي الدبلوماسية الروسية. إذا غاب فستتأثر قرارات الدبلوماسيين بأسئلة من قبيل: ماذا لو لم يعطنا الفرنسيون نبيذ لافيت والألمانيون نبيذ راين والإسبان نبيذ ماديرا؟ ماذا سوف نشرب؟ ماذا سنقدم للضيوف؟ الآن تنهاوى هذه الأسئلة من تلقاء نفسها، فلدينا كل

هذا من صنع أيدينا؛ اللافيت والراين والشيري. بل إن الأمر أفضل هكذا لأن نبيذهم مضر أما نبيذنا فمفيد. أحدهم أفرط في تناول الطعام، وإذا شرب من نبيذهم فسيؤلمه رأسه، أما إذا شرب من نبيذ كاشين فسيتوقف الأمر على الشعور بالغثيان. امنح نبيذ كاشين الفرصة وستجد الأمور قد صارت أفضل من تلقاء نفسها. الألماني فظ ومتعجرف. قل له: «لسنا بحاجة إلى نبيذ راين. اشربه أنت!».

يجب أن تساهم صناعة النبيذ بشكل أساسي في استيضاح المسألة الشرقية. ماذا يشربون الآن في آسيا الوسطى؟ الجميع هناك يشربون خمرًا أجنبيًا، وكل أنواعه غالية. يسكرون ويتشاجرون معنا. دعونا نمح نبيذ كاشين فرصة حقيقية. لتوغل في أفغانستان وبلوشستان وكابول، ونملأهم جميعًا هناك بما صنعته أيدينا.

قالوا جميعًا في صوت واحد:

- نفعل ذلك لأن خمرنا أفضل وأرخص ونستطيع صنعه في أي مكان. يتقاضى الإنجليز روبلاً تقريبًا مقابل زجاجة خمر، أما نحن فنطلب نصف روبل فقط. يطلب ٧ جريفن^(١٦٩)، بينما نطلب أربعين كوبيكًا فقط. نحن يا سيد نفضل أن نلقي عشرة كوبيكات إضافية في المنزل ما دمنا سنضايق بها إنجليزيًا. سيعود حينها إلى بلاده مع خمره وسنخفض له أنفه المتعالي في الصباح. يمكننا حتى أن نتخلى عن بضائعنا مجانًا حتى نضايقه.

(١٦٩) عملة قديمة تُقدر بعشرة كوبيكات تقريبًا.

بعد ذلك أخذت حدة الحديث تتصاعد واكتسبت الطابع الوطني الذي غرقت معه كل الاعتبارات السياسية والاقتصادية. صاح كبير موظفي النضد بحماسة:

- نعم يا سيدي، نحن نجهز فوجًا كاملاً، وسوف نرسله إلى الصرب أو البلغار. اهمس فقط لمكسيم ليباتيتش: مكسيم ليباتيتش! افعلها الآن! وستجد الرفاق كلهم يتقدمون! ردد موظف نضد:

- حتى الآن، ومن دون أن نرى أي شيء بعد، كم من الأعمال الصالحة أسداها مكسيم ليباتيتش للمدينة! من الذي تولى أمر جرس كنيسة القديس مكسيموس المعترف الجديد؟ من تبرع بجرس جديد لكنيسة القديس ثيودور ستراتيلايس؟ جرس واحد وثريات وشموع ومصابيح تُعد ولا تحصى.

وشهد موظف نضد ثالث:

- كل يوم أحد يقف شاب عند كل كنيسة يحمل كيسًا من النقود النحاسية، ويوزع على الإخوة المساكين.

تعجب بقية الموظفين وتساءلوا:

- في رأيك ما السبب سعادتك؟ يمكن لفريق من الشعوب أن يخترع ما يخترع، ويمكن لفريق آخر أن يدير أعماله، ولكن يبدو أن الروس ليسوا هؤلاء ولا أولئك. نحن سعادتك نفعل كل شيء إذا سُمح لنا! إذا لم نفعل ذلك نموت.

باختصار إذا كان خمر كاشين مثيرًا للغثيان كما اعترف موظفو
النضد بأنفسهم، فإن تصاعد المشاعر في كاشين أمر محمود ويستحق
الثناء. عندما ألقينا نظرة بالفعل على صناعة النبيذ توجهت بالحديث
إلى جلوموف قائلاً:

- اسمع! ألسنا أحرارًا فيما يتعلق بكميات الشيري والماديرا؟

- بالطبع.

- لماذا لم يستطع صانعو النبيذ في كاشين أن يخترقوا حتى الآن
أفغانستان وبلوشستان، ولا يزالون ينتظرون جميعًا أن تنتشر خمرهم
انتشارًا كاملاً؟

- ربما السبب يعود إلى أنهم لا يزالون حتى الآن يتسولون من
حولهم، وسيأتي وقت سيُتنزع فيه ما في جيوبهم وبعد ذلك يُحمّلون في
عربات إلى بلوشستان.

في النهاية أبلغنا أوتشيشيوني خبرًا سارًا. ثمة معلومات موثوقة
في مكتب تحرير «كراسا ديميدروفنا» عن أن نموذج صانعي النبيذ في
كاشين قد وجد من يحاكيه. علاوة على ياروسلاف التي يمكن لخمرها
اللافيت بنكهة التوت والصندل أن ينافس بجرأة خمر Oldekopp
Marillac، وضعت مدن إقليمية كثيرة مثل كرايفنا وسرانسك
ولوكوينوف وغيرها حيث اقتصر الإنتاج على السماد الطبيعي، أسسًا
متينة لصناعة النبيذ يمكنها أن تنافس خمر كاشين وياروسلاف. لا
شك أن مدناً أخرى ستحذو حذو هذه المدن مثل شاتسك ولايشيف
وأرداتوف وسباسكي وغيرها. بعد ذلك ستتخلص فرصة «الاختيار مما

حولك»، وعندما لا يعود هناك ما تختاره من حولك فسيتوجب عليك أن تستأجر بعض العربات إلى بلوشستان. ما إن يُحتل سوق بلوشستان بشيري كاشين حتى يرر صانعو النبذ ثقة السلطة، ويتمكن بقيتنا من رفع راية روسيا عاليًا. اختتم أوتشيشيوني حديثه قائلاً: «سيكون الأمر سهلاً جداً» ووافقناه جميعاً.

بعد الاطلاع على صناعة الخمر أردنا أن نلقي نظرة على بنايات الكنائس الرائعة في كاشين، لكننا تذكرنا أن هناك محكمة محلية في كاشين، وتوجهنا إلى هناك. علاوة على ذلك أخبرنا صاحب النزل أن قضية سياسية رائعة ستُنظر فيها المحكمة في هذا الصباح، وقد انتظر كل مثقفي كاشين سبر أغوارها بنفاد صبر (لا حاجة بالطبع إلى القول إن وصف المحكمة التالي لا علاقة له بمحكمة كاشين الحقيقية، بل هو وصف يتضمن السمات التقليدية لمحاكم الدرجة الثالثة التي أُغلق على بعضها وهي في حالة لا بأس بها، بينما تنتظر بقيتها دورها^(١٧٠)).

كما ذكرت سابقاً، منذ زمن قديم وهم يصطادون سمك القويون من نهر كاشينكا بكثرة، ولكن مؤخراً بدأ عدد هذه الأسماك في الانخفاض تدريجياً، وكما هي الحال دائماً أهملت الشرطة هذه الظاهرة المهمة. لم يتذكروا الأمر إلا حينما سخرت عصابة واحدة صغيرة من كل جهود المواطنين لصنع حساء سمك من هذا النوع. اندفعوا إلى الصيد، لكنهم لم يجدوا شيئاً. هزت أسماك القويون ذيلها وتوارت عن أنظار الجميع. كان من الصعب بالطبع تبرير موقف الشرطة،

(١٧٠) الملاحظة من الكاتب.

ولكن من ناحية أخرى كان من الظلم أيضًا إلقاء اللوم عليهم. في كل الأحوال استطاعوا صيد سمكة قوبيون واحدة مريضة وصف لها الأطباء علاجًا بالمكوث في الوحل، ومن هذا المكان التقطتها الشرطة. ارتدوا ثياب التحقيق ولم يفارق المحققون والمُدَّعون نهر كاشينكا لعامين متواصلين، محاولين فك خيوط اللغز وتقصي جذوره، مستجوبين الضفادع وأفراخها الصغيرة، وبعد بذل جهود لا تُصدق توصلوا إلى النتيجة الآتية: صيدت سمكة قوبيون مريضة، واختفت بقية الأسماك، ولا أحد يعرف مكانها. بهذه الصورة عُرِضَت القضية على المحكمة التي توجب عليها أن تجازي كل واحد بحسب أعماله. كان من المقرر إدانة أسماك القوبيون المتوارية غيابيًا بتهمة مفارقة الوطن، وإدانة سمكة القوبيون التي اصطادوها بتهمة معرفة الأمر وعدم إبلاغ السلطات به. بدت القضية ضخمة من النوع الذي يجذب جمهورًا كبيرًا إلى متابعتها.

وصلنا إلى المحكمة مع نهاية الساعة الحادية عشرة، ولكن نظرًا لأن الجلسة لم يكن من المقرر لها أن تبدأ قبل ساعة، لم نجد أحدًا هناك سوى الحراس وصغار الموظفين. بناء المحكمة حجرية ذات حجم مثير للإعجاب، لكنهم أصلحوه بصورة سيئة. تفوح من داخلها رائحة الكآبة والبطالة، كما هي الحال في كل بقاع كاشين. الحاجب عجوز عفن يجلس مرتديًا سترة قطنية، ينظف عصاه ببطء، وزوجته تعد حساء الملفوف في الحجرة الصغيرة لتضفي على المحكمة طابع بناء سكنية. من الواضح أن العجوز قد توحش من فرط تبطله لأنه التقى بنا بغضب وتمتم من بين أسنانه: «ما الذي أتى بهم مبكرًا هكذا؟»، لكن

عندما تحررنا من معاطفنا وأعطيناه عشرة كويكات، ابتسم لبرهة ثم أخفاها وأشار لنا إلى الدكة قائلاً: «تفضلوا!».

- هل لديكم قضايا كثيرة في المحكمة أيها العجوز؟

هكذا حاول أوتشيشيوني أن ينخرط معه في حوار لطيف. أجاب العجوز بغضب:

- ليست لدينا أي قضايا. كل شيء يمر من بعيد. قديمًا عندما كان هناك سادة ملاك أراضٍ، بدا الأمر كما لو أنهم يتنافسون بالقدوم إلى هنا، أم الآن فلا شيء!

- وما السبب؟

- السبب أن أمرهم انتهى. باعوا الممتلكات ورحلوا بأنفسهم إلى المناطق الدافئة، أما الذين بقوا هنا فيمزقون بعضهم بعضًا من دون حاجة إلى محكمة.

- إنها حقًا أوقات عصيبة.

تنهد أوتشيشيوني وفكر بتأثر: «لو تسلك ماتريونا إيفانوفنا بالطريقة ذاتها، من دون الوصول إلى المحكمة، ستخرج المال وتدفع كل الفواتير، بلطف ونبل». في هذه الأثناء تفلسف الحاجب قائلاً:

- الحمقى الآن كثيرون. الأذكاء هم من يمزقونهم، فأى حقيقة سيجدها الأحمق إذا ذهب إلى المحكمة؟ أي حقيقة حمقاء يمكن أن يجدها هنا؟ سيُحصّلون منه المزيد من الغرامات. إذا كنت أحمق فلا تَلُم إلا نفسك!

وبعد أن حسم الأمور المدنية بهذه الطريقة أضاف:

- لدينا اليوم جريمة، وقد أصدرت المحكمة حكمًا. هل لدينا لص طموح يلجأ إلى المحكمة، بينما يقرر بقية اللصوص الأمر فيما بينهم؟ ظل المدَّعون عندنا يطلون من النوافذ في انتظار أن يأتي أحد ليشكو بلا جدوى. محكمتنا فقيرة. يشبه أمرنا كاهنًا يصل عدد رعيته إلى ألف نفس، وجميعهم من التجار والأثرياء، وكاهنًا آخر لا يصل عدد رعيته إلى مائة نفس، وحتى هذا العدد القليل لا يملك أكثر من بقرة لكل عشرة أشخاص. هل يمكن لمثل هذا الكاهن أن يكسب رزقه؟

باختصار بدا العجوز ساخطًا للغاية، بل واعتبر نفسه مهانًا بظلم بسبب فراغ المحكمة من القضايا؛ المحكمة التي أُجبر على الوقوف عند أبوابها بلا أي داع، مرتديًا شرائط الزينة والأربطة، يُحرك عصاه عند مرور الأعضاء والمدَّعين الذين لا يأتون إلى المحكمة إلا بسبب عدم وجود مكان آخر يمكنهم أن يذهبوا إليه. واصل العجوز تدمره:

- لقد جندوا قطيعًا كاملاً من الكتبة، وهم لا يفعلون شيئًا سوى تدخين السجائر ومص الأقلام. الآن تتراكم أنسجة العناكب على الأسقف. كيف بوسعك أن تزيلها؟ يمكنك أن تزعجها، لكن أشلاءها ستظل معلقة. ظلت بقعة واحدة من السقف بيضاء، وتلطخت البقية بالسخام. محكمتنا هي أفقر المحاكم.

لكن بالنسبة إليّ شخصيًا بدت لي هذه المحكمة مثالية، فهذا تحديدًا هو نوع المحاكم الذي نحتاج إليه؛ المحكمة التي لا يُقاضى فيها أحد ولا يطاء شخص درجاتها وتملاً خيوط العناكب أسقفها ولا

يهذب حاجبها لحيته وتُعد زوجته حساء الملفوف. هكذا يدرك الجميع عند مرأى هذه المحكمة التي لا تطأها قدم أن إرادة الله قد أزفت. إنها المحكمة التي ينظر المدعون فيها من النوافذ ويرون أحدهم قادمًا مقيدًا فلا يهرعون إلى الشارع ويسألون: «سطو أم شيء آخر؟». لن أستاذ إذا ظل الموظفون القضاة في هذا الوضع، يتلقون رواتبهم التي تخصصها لهم الحكومة، وذلك لأسباب عديدة؛ أولاً: ما دامت المحاكم لم تُلغَ يستحيل أن نلغي عمل العاملين فيها (سيقولون: كيف نلام على عدم وجود عمل لدينا؟). ثانيًا: بعد كل شيء من الضروري تقسيم دخول الدولة على البعض، والأفضل أن نمنح المال لمن لا يعمل شيئًا لكنه لا يتهرب من العمل عن أن نمنحه لمن يجولون في كل مكان، يزأرون كالأسود ويلتهمون بعضهم بعضًا.

ربما يمكننا تدريجيًا أن نصل إلى مرحلة الإلغاء الكامل. يمكننا تحقيق المراد من دون أن نسيء إلى أي شخص أو نُبطل عمله، وذلك بالتوقف تدريجيًا عن تعيين موظفين جدد بدلًا من الذين أنهوا عملهم. عدم الاعتياد هو الذي يجعل المرء يشعر أن الحياة مستحيلة من دون محاكم، لكني، على النقيض من ذلك، أسمح لنفسي بتصور أن الناس إذا توقفوا عن المقاضاة فلن يجعلهم هذا تعساء. أعرف أن هذه الفكرة قد لا تبدو عملية وأن الاتكال عليها يماثل انتظار وصول الجهول^(١٧١) سريعًا (يقول المثل: سيظهر الجهول... يومًا ما سيفعلها!)، ولكن بالرغم من هذا لا أزال أتمنى حدوثه. لكن إذا قالوا لي بالطبع: اختر

(١٧١) نوع من الطيور.

بين محكمة مقاطعة كاشين القديمة ومحكمة مقاطعة كاشين الحالية، سأصبح من دون تردد: الحالية! دعوها تعيش وتزدهر وتنمو! معذرة ولكن الأمر يستحق، فالحاجب يقف عند الأبواب الحالية ومعه عصاه، بينما اعتاد صانعو الأحذية في قاعات المحكمة القديمة أن يطرقوا، ويقف جندي بقميص كتاني وعظام وجنتين تالفيتين من التدريب! لكن كما ذكرت سابقاً، كان هذا اليوم استثنائياً لمحكمة كاشين المحلية.

قاضوا أسماك القوييون التي هي من سكان كاشين الأصليين، وقد أثارت هذه القضية لحداتها انتباه كل المحافظين في كاشين (صانعو النبذ في كاشين محافظون في غالب الأمر لأنهم يعرفون جيداً من هو الملموم). في الحادية عشرة والنصف بدأت الحركة في محيط المحكمة. وقف الحاجب في كامل زيتته، ووشاح أصفر على كتفه، والعصا في يده اليمنى، عند الأبواب، مستعداً لتأدية كل المهام المطلوبة منه. في البداية دخل أصحاب الرتب المتواضعة، وقد رشموا علامة الصليب عند دخولهم بورع، كما لو أنهم قادمون من السجن، ومع حلول الساعة الواحدة بدأ بقية أعضاء المحكمة في الظهور. في البداية وصل المدعون الرسميون. ما إن رأونا حتى توقفوا وطرحوا سؤالاً بصوت عالٍ: «إذا كسر لص صندوق قفل وسرق ثلاثة كوبيكات، فهذه سرقة بالإكراه لا شك فيها، ولكن لو حدث أن أخذ الصندوق بالكامل بدلاً من أن يكسر القفل، فكيف يجب أن ننظر إلى هذه الفعلة؟»، (سمعت أنهم قد حلوا هذه الإشكالية. الآن يمكنك أن تكسر قفل الصندوق وتأخذ الصندوق

نفسه بعد ذلك، ولتصرف كما يحلو لك^(١٧٢). لكنهم لم يصلوا إلى شيء، وبدأوا يصعدون السلالم. بعد وصول المدعين وصل أعضاء هيئة المحكمة. صعدوا درجات السلم بثبات وأجروا حوارًا جديدًا يبدأ دائمًا بـ: «إنها سابقة في تاريخ محكمة كاشين المحلية أن...». في البداية يقول أحدهم هذه الكلمات ثم يكررها شخص آخر فثالث، وينظر الحاجب إليهم ولا يتهيج. من الواضح بشكل عام أن هؤلاء الناس فهموا تمامًا أن يوم ٢٠ من كل شهر لن يعوقهم أبدًا عن تناول رواتبهم من خزانة كاشين العامة. يمكن أن تفيض مياه كاشينكا عن ضفتيها وتغرق الخزانة، كما يمكن للنار أن تدمرها، لكن أموالهم لن تحترق في النار ولن تغرق في الماء. أخيرًا وصل ما يقرب من عشرين محامياً، وقد بدوا كما يشي ظاهريهم بالعصبية وداخلهم بالذنب، وعندما رأونا ابتهجوا للغاية، فقد ظنوا أننا جئنا لمنافستهم. لم تطل فرحتهم كثيراً، وعندما وضعنا الهدف من مجيئنا عبرت وجوههم عن حزن أليم، حتى إن جلوموف عرض عليهم سريعاً أن يلف لهم بعض السجائر. اندفعوا جميعاً إلى الطابق العلوي، كما لو أنهم يخشون فقدان الآثار الساخنة التي خلفها أعضاء هيئة المحكمة والمدعين.

بدا لنا أن هؤلاء البائسين يستحقون التساهل الكامل. لديهم شهية جيدة وقد ظلوا لبعض الوقت يُعَوِّلون على إشباعها، وفجأة أقرروا بسابقة في محكمة كاشين المحلية: لن يُحكم في أي قضايا، بل سيجتمعون فقط لقراءة القوانين!

(١٧٢) الملاحظة من الكاتب.

في الثانية عشرة والنصف بدأ وصول الجمهور. في البداية وصل مأمور القسم، وهو شاب أنيق تتوسط رأسه فرقة شعر، وأخرج فرشاة صغيرة ومراة، ونظر فيها ثم خرج إلى الشرفة في انتظار وصول السيدات. انضم إليه عشرة من ضباط الفوج المقيم في المدينة. لم تتأخر السيدات. أول من وصلت كانت لبوة محلية أنيقة، بدت كما لو أنها آتية من نزهة في الضيعات المتاخمة، وبصحبتها مجموعة كاملة من السيدات. تبعت هذا الخط مجموعة كاملة من العربات؛ الأمر الذي جلب المزيد والمزيد من الأفراخ الصغيرة. تعالى صوت الحديث والضحك، وبدأ أن شيئاً من الفوضى يسود مظهر كل السيدات، فواحدة لديها ما لم يُربط جيداً، وأخرى لم تزرر كل أزرارها. قهقهن جميعاً وصحن: «آخ! يا للمرح!». لم يحظَ مأمور القسم، بوصفه فارس المكان الأول بعد المدعي العام، بالوقت الكافي للربط وفحص الأزرار، لكن السادة الضباط قدموا المساعدة.

صعدنا نحن أيضاً إلى الطابق العلوي.

امتلأت القاعة عن آخرها. في الصف الأمامي جلست السيدات العاملات في الإدارات المدنية والعسكرية على السواء، وتبادلن أطراف الحديث بمرح بالفرنسية. تزاхمت خلفهن مجموعة من أهل الخبرة المحليين وأعضاء لجان الزيمستفو بالإضافة إلى الضباط. في قاع المكان تزاхم الإخوة الصغار. قال الشرطيون القضائيون بسلاسلهم اللامعة التي نظفوها لتوهم وثيابهم الرسمية الجديدة، وقد أحنوا أعناقهم بشكل جميل للسيدات: بونجور! وسحبوا لهن المقاعد. كثيرون منهم

كانوا في عداد الخاطبين، ممن يعرفون جيدًا كيف يرقصون المازوركا. ظهرت سمكة القوبيون المتهمة، في حالة بين الحياة والموت، في طبق مسطح موضوع على مقعد المتهمين، تتنفس بصعوبة عبر خياشيمها. وقف حارسان خلفها بسيفين معقوفين. بالقرب منهم اتخذت هيئة الدفاع مكانها، وقد تكونت من محامين: شيسلاكوف (والاسم مشتق من ^(١٧٣)Chaix d'Estange) وبيريف (والاسم مشتق من ^(١٧٤)Berryer). شغل المدعي العام جروموبوي كرسي الادعاء، وقد دخل قاعة المحكمة منخرطاً في حك منطقة العانة وأمال رأسه إلى اليمين. لمعت نظارته الذهبية في يده الممدودة بحيوية، وارتعشت قليلاً شفتاه الغضتان المخلوقتان للتقيل، ونظرت عيناه المضببتان بكآبة. نظر بحزن إلى حديقة الزهور النسائية، كما لو أنه يطلب الصفح مقدماً على تعطشه للدماء الذي سوف يبيده في مطالبته بحكم الإعدام على سمكة القوبيون المتهمة، والإجراءات الصحية العامة التي سيطالب بها للمجتمع بأسره. عندما رأت السيدات هذه النظرة عدلن تلقائياً من فساتينهن لأن جروموبوي أدى دور رئيس الوزراء «العاشق الأول» في فرقة كاشين القضائية، مثل بيرتون وفورمس في مسرح ميخايلوفسكي في بطرسبرج. كان أبرز الشهود ضفدعاً عجوزاً حضر بناء على دعوة الاتهام، وهو الضفدع الذي يوماً ما: «رأى ثوراً في المرج وفكر في مقارنة نفسه به من حيث الامتلاء» ^(١٧٥).

^(١٧٣) محام وسياسي فرنسي شهير.

^(١٧٤) محام وخطيب فرنسي شهير.

^(١٧٥) من حكايات إيفان كريلوف الشهيرة.

لكن بعكس شهادة الجد كريلوف لم ينفجر الضفدع، فالضفادع مرنة بدرجة مدهشة، بل كان في حالتنا الواشي الرئيس. من خلفه ظهرت عدة عشرات من الضفادع الصغيرة، والقطاع الغالب منها استدعي في الأساس للدفاع، لكنها أخيراً أخذت تقرقر بعصبية في أحواضها الخاصة، وقد فتحت أفواهها على مصراعيها، بسبب أن جروموبوي لم يتحلّ بالحسم اللازم لمدة طويلة ليتخذ قراراً بما إذا كان سيستدعيها للشهادة أم سيزعمها في قفص الاتهام بوصفها تسترت على مجرمين، لأنها ابتلعت معظم سمك القويون الذي فارق أراضي الوطن. وضعوا على طاولة الأدلة المادية عدة أشياء؛ أولاً: سمكة كاراسيوس كان من المفترض أن تكون في قفص الاتهام لكنهم قلوها في القشدة الحامضة عن طريق الخطأ. ثانياً: صورة فوتوغرافية دقيقة للتيار الذي شكلته أسماك القريون في أثناء هروبها في الماء. لم يوجد أحد في المكان المخصص لهيئة المحلفين لأن القضية سياسية ولا يُفترض أن يتمتع أعضاء هيئة المحلفين بحس سياسي.

بحلول الواحدة بالضبط أعلن أكثر ضباط المحكمة حيوية: «محكمة!». وبعد هذه الصيحة دخل القاعة كل من إيفان إيفانيتش وبيوتر إيفانيتش وسيميون إيفانيتش، وقد ارتدوا الزي القضائي الموحد والسلاسل، ومن ثم لم يُطلقوا عليهم الإيفانات الإيفانيتشية، بل أطلقوا عليهم: حضرات القضاة.

تمثلت لائحة الاتهام في التالي: منذ العصور القديمة ونهر كاشينكا يشتهر بأسماك القويون. اعتاد سكان المدينة أن يصطادوه طوال الوقت

بكل الطرق الشرعية، وإعداد حساء السمك منه؛ الأمر الذي شهد عليه مؤرخ كاشين في القرن الرابع عشر. ما إن تأسست الأمور على أساس متين حتى سارت على النهج المعتاد من دون أن تثير أي آمال مبالغ فيها، ولا أي مخاوف في الآن ذاته. في عام ١٧٢٣ فرغ نهر كاشينكا تقريباً حيث طولب بكل ما فيه من أسماك قوبيون للقصر في بطرسبرج كنوع من إجراءات الترويس لنهر مي (الآن يُدعى نهر مويكا). التقطت الشباك حينها معظم أسماك القوبيون، وبمرور عامين أو ثلاثة عُوِّضت الخسارة بسهولة. باستثناء هذه الحادثة قصيرة الأمد لم يحدث قط أن لوحظ أي نقص في أعداد أسماك القوبيون في النهر، وكانت أعدادها بين العام والآخر تزيد أو تنقص قليلاً. مع بداية أعوام الستينيات وحلول عصر الإصلاح^(١٧٦) بدأت أسماك القوبيون تثير الاضطرابات. بدلاً من أن تشعر بالامتنان للحرية التي نعمت بها توصلت إلى مختلف أنواع الحيل من أجل تجنب شباك الصيد، وفي الآن نفسه هاجرت بأعداد ضخمة من مياه نهريها الأم. لا أحد يعرف بالضبط إلى أين هاجرت، ولكن حقيقة هجرتها في حد ذاتها لاحظها مواطنون كثيرون من أصحاب النيات الحسنة. خوفاً من أن يتراجع حساء السمك اللذيذ والمغذي الذي اعتادوا عليه لتعزيز قوتهم إلى عالم التقاليد القديمة في برهة قصيرة، أشاروا بإصرار إلى الخطر الوشيك على السلطة، ولكن نظراً لأن الحكومة بوجه عام كانت في هذه الفترة على وفاق مع أسماك

(١٧٦) الإشارة إلى إلغاء حق القنانة وإصلاحات أخرى جرت على يد القيصر الروسي ألكسندر الثاني.

القوبيون، فمن المفهوم إذن أن الشرطة المحلية لم تعتبر نفسها مخوَّلة لاستخدام جهودها النشطة لوأد هذا الشر في مهده. وهكذا تطور هذا الشر. على مدار العام الماضي بأكمله لم يستطع أحد اصطياد سمكة قوبيون واحدة، وفي العام الحالي تكررت الظاهرة ذاتها مع افتتاح حركة النهر^(١٧٧). حينما حدث ذلك انزعجت الشرطة وقررت التدخل. منحت المتمردين ثلاثة تحذيرات بصوت عالٍ بشأن حضورهم اللازم إلى حساء السمك مجددًا، وألقت عدة شباك في وقت واحد، ولكن عندما جذبت الشباك بطول النهر كله داخل حدود المدينة لم تجد شيئًا فيها عدا أفراخ الضفادع وسمكة قوبيون مريضة، وهي الموجودة في الطبّق أمامكم الآن. هكذا رُفعت القضية إلى مكتب المدعي العام الذي ارتأى ضرورة إجراء تحقيق شامل في الأمر. أدى التحقيق الذي أُجري تحت إشراف شخصي من المدعي العام للمحكمة المحلية، بمشاركة جميع المدعين ومحققي كاشين القضائيين، إلى النتائج التالية:

١ - بخصوص كل أسماك القوبيون بوجه عام: لا شك في وجود مؤامرة ومقاومة متعمدة من جانبهم للسلطات. نظرًا لكونهم ملزمين بالظهور في الحساء وفقًا للقانون مع أول نداء، فهذا يعني أن الأمر لا يقتصر على عدم توجيههم الانتباه اللازم لتحذيرات الشرطة لهم، بل إنهم عصوا هذه الأوامر بشكل مباشر، وتصرفوا من دون أدنى شك وفقًا لخطة عامة مدروسة موضوعة سابقًا. لدينا أدلة كافية على وجود هذه

(١٧٧) الإشارة إلى عملية تدمير الطبقة الجليدية التي تتكون نتيجة الدفء والقوى الحركية الناتجة عن تدفق المياه الكثيف.

الخطّة العامّة؛ أوّلاً: اختفت أسماك القوبيون من النهر في الوقت الذي أعدت فيه السلطات الشّبّاك لاصطيادها. من الواضح أن تحذيرات قد وصلتها. في الواقع ثمة شواهد تشير إلى أن تحذيرات قد وصلتها بشأن الاستعدادات التي تجريها سمكة الكاراسيوس التي عاشت لدى مأمور القسم في البركة المتصلة بنهر كاشينكا عبر قناة صغيرة. اعترفت سمكة الكاراسيوس بنفسها بهذه الجريمة، وقد بررت موقفها بأنها قد فعلت ذلك باعتبار أن الخبر قد أذيع في النشرة الدورية. لكنها لم تستطع أن تحدد أي هيئة بالضبط قد أصدرت هذه النشرة الدورية. لسوء الحظ تعرضت سمكة الكاراسيوس هذه إلى القلي في القشدة الحامضة بطريق الخطأ بالشكل الذي ترونها عليه الآن على طاولة الأدلة المادية (يقترّب السكرتير من الطاولة ويرفع المقلاة التي تحوي سمكة الكاراسيوس، والذباب يغطيها، ويقول) ها هي! لو كانت على قيد الحياة لألقت الضوء بلا أدنى شك على الأمر، كمحاولة للتخفيف من حدة ذنبها، ومع ذلك فالأمر واضح بالفعل. اتضح إذن أن أسماك القوبيون عرفت الأمر، وما دامت عرفت فلا بد أنها كانت ستسبح بهدوء وتنتظر في ثقة. لكنها بدلاً من ذلك وضعت خطة عامة نفذتها في اللحظة الحاسمة. ثانيًا: تشهد عملية الهروب ذاتها على تفكيرها السابق في الأمر. جرت العملية بسرعة لا تلائم بتاتاً سرعة أسماك القوبيون العادية، ويشهد على ذلك التيار الذي شكّلتها عملية الهروب والتقطته الصور الفوتوغرافية. يجدر بنا النظر إلى هذه الصورة (يلتقط السكرتير صورة من على الطاولة ويقول) ها هي! انظروا إليها لتقتنعوا بأنه لا يمكن ترك مثل هذه

المسارات المتقاطعة إلا من جانب كائنات تعرف عن ثقة ما ينتظرها مستقبلاً، ومن ثم لديها كل الأسباب التي تدعوها إلى الإسراع. يُقال إن أسماك القوبيون قفزت سريعاً في اتجاهات مختلفة؛ الأمر الذي أخاف أسماك الكراكي التي كانت في هذا الوقت تسبح متجهة من نهر الفولجا إلى كاشينكا، لكن بعدما استُجوبت أسماك الكراكي بخصوص هذا الأمر قدمت شهادة للشرطة يتضح منها أنها ظهرت مراراً وتكراراً في نهر كاشينكا، وفعلت ذلك دائماً بنية حسنة. لكن علاوة على ذلك، حتى أفراخ الضفدع الصغيرة التي استُدعيت للدفاع، تشهد أنه قبل فترة طويلة من اختفاء أسماك القوبيون صنعت تجمعات كثيرة صاحبة هزّت فيها الأسس الراسخة وأطلقت الدعايات والتفسيرات الفاسدة، أما الضفدع الذي رأى ثوراً في المرج فيشير صراحة لا إلى معرفته بأمر هذه التجمعات وحسب، بل إلى أنه حضرها شخصياً أكثر من مرة، مستلقياً في الوحل، وقد قالوا فيها: لن نمضي إلى حساء السمك مجدداً! هكذا تم الاختفاء بسرعة من جانب، ومن جانب آخر ببطء وتمعن في التفكير. بالرغم من أن التحقيق لم يذكر إلى أين ذهبت أسماك القوبيون المتمردة، وما إذا كانت قد غادرت أرض الوطن أم أنها لا تزال تتوارى حتى الآن في موجات ما، فإن هذا أمر لا يهم القضاة في شيء. إنها لم تظهر مع نداء السلطة، وهذا جرم أكبر من مفارقة الوطن.

٢- فيما يتعلق بسمكة القوبيون المريضة الموجودة في قفص الاتهام، وبالرغم من أنها تؤكد أنها لم تعرف شيئاً عن هذه القصة ولا تعرف عنها شيئاً حتى الآن بسبب مرضها، لأنها استلقت في الوحل

بناء على نصائح الأطباء، فلا يمكن للمرء أن يصدق إنكارها هذا لأن الخبرة التي تشكلت على مدار قرون تؤكد أن المجرمين المرضى غالباً ما يكونون أكثر ضرراً من ذويهم الأصحاء.

بناء على كل ذلك، ومع الوضع في الاعتبار كل ما سبق، أُصدرت لائحة الاتهام وقُدِّمت الأسماء الآتية إلى محكمة الجنايات غيابياً: كل أسماك القوبيون الهاربة بالتهم الآتية:

١ - مفارقة الوطن بطريقة غير قانونية أو جريمة أخرى مماثلة لها.

٢ - المقاومة المتعمدة للسلطات، والمُعبَّر عنها في عدم الحضور حين دعتها السلطة للظهور في حساء السمك.

٣ - التآمر بهدف عدم تنفيذ مطالبات قانونية من جانب السلطة، وإن كان ذلك قد تم من دون نية الانقلاب عليها، علاوة على الجرائم المنصوص عليها في صفحة ٦٦٦ في جميع مجلدات (زاك. روس) لسمكة قوبيون معروفة باسم إيفان خفوروف، والتهمة هي معرفة الأفعال المذكورة سابقاً وعدم إبلاغ السلطات بها، وبالرغم من عدم وجود مشاركة فاعلة من جانب إيفان خفوروف في المؤامرة فإن عدم مشاركته لم تحدث بإرادته، بل بسبب إعاقة المرض له بحسب وصفة الأطباء، وهي الجريمة المنصوص عليها في قانون العقوبات في طبعة الجيب.

* * *

بعثت قراءة لائحة الاتهام انطباعًا مشوشًا. قدّر الجميع يقظة المدعي العام، لكنهم في الآن ذاته شعروا بالتعاطف تلقائيًا مع سمكة القوبيون المريضة البائسة التي تعذبت طوال عامين في الطبق (لم يلتزموا حتى بتجديد الماء لها) في الوقت الذي كان أصحاب النيات السيئة الرئيسيون من أسماك القوبيون يسبحون بحرية، مستهزئين بكل جهود القضاء. شعر الحارس تارا را بشفقة خاصة على السمكة المتهمة وقد صار صديقًا مقربًا لها خلال فترة التحقيقات التي امتدت إلى عامين، وأحبها كابنة له. على أي حال شعر الجميع بالراحة من فكرة أن سمكة القوبيون لن تُحاكم وفقًا لكتاب القوانين الكبير، بل وفقًا لكتاب الجيب. وحدثن السيدات من بقين غير مباليات بمصير المتهم، وقد قارنَ جسمانه الهزيل والمنهك بتورد وصحة المطلّعين من الناس في كاشين، وأعطين الأفضلية بالطبع للفريق الثاني.

عندما هدأت الإثارة في المكان تدريجيًا قرع إيفان إيفانيتش الجرس وبدأ البيان بعنوان:

سمكة القويون البائسة

دراما في محكمة كاشين المحلية

لوحتان مسرحيتان

يدور المشهد في قاعة محكمة كاشين المميزة: قاعة بيلوزيرسك
أوستيوجينسك. الشخصيات المشاركة ومواضعها كالموصوف أعلاه.

اللوحة الأولى

إيفان إيفانيتش: أيها المتهم إيفان خفوروف! احكِ لنا ما تعرفه عن
قضيتنا!

يبدل المتهم جهودًا مضنية للإجابة، لكن لا يمكنه بأي طريقة أن
يُعبّر عن استعدادة بسوى حركة طفيفة بذيله.

إيفان إيفانيتش (لم يفهم معنى الحركة): عليّ أن أنبهك أنه كلما
ازداد إصرارك عليّ... (يميل بيوتر إيفانيتش إلى الأمام) هل تريد أن
تستجوبه يا بيوتر إيفانيتش؟ (للجمهور) أيها السادة! يود بيوتر إيفانيتش
أن يطرح سؤالاً!

بيوتر إيفانيتش (يتحدث بثقل، والكلمات تخرج من أنفه تقريباً)
مرت محكمة كاشين المحلية بسابقة في هذا المجال. (يصمت وينصت
كما لو أن هذه الكلمات لم تصدر منه بل من سيميون إيفانيتش).

إيفان إيفانيتش: هل سمعت أيها المتهم؟ (تظل سمكة القويون
صامتة) أكرر لك يا سمكة أن...

الحارس تارارا (بحركة توحى بالشفقة): المتهم مريض، بل إنه مريض للغاية سعادتكم.

إيفان إيفانيتش (يتهامس مع الإيفانيتشين: بيوتر وسيميون): الأمر هكذا إذن أيها المدّعي العام! هل تود أن تقدم بيانك الأخير؟

المدّعي العام (يُقَلِّب سريعا في أوراق دفتر قانون الجيب لكنه لا يجد شيئا مناسباً): إم! إم! كنت أود أن أقترح... أقترح أنه في ضوء حالة المتهم يمكننا الاكتفاء بطرح أسئلة قصيرة وغير معقدة يمكنه أن يجيب عنها بحركات جسدية غير مرهقة. لا شك أن السادة محامي الدفاع يمكنهم أن يفهموا حركات سمكة القوبيون، ومن ثم لن يرفضوا أن يفسروا لأعضاء هيئة المحكمة معنى هذه الحركات.

المحاميان شيسيتاكوف وبيريف (يشعران برغبة طائشة في إيذاء المدّعي العام، وفي الآن ذاته يستعدان للعثور على مبرر لطلب الاستئناف): من جانبنا نعتقد أن لغة سمكة القوبيون معروفة بدرجة أكبر لجهة الاتهام لأنهم عاشوا طوال عامين في النهر يتقصون جذور القضية وخيوطها.

إيفان إيفانيتش: ما العمل الآن؟

صوت أحد الحاضرين: أفضل شيء نفعله الآن أن ننعّم بمشروب وبعض المقبلات.

تتعالى الضحكات من المكان.

إيفان إيفانيتش (يبحث بعينه بغضب عن قائل العبارة، ولكن في

الآن ذاته يفرك بيده تلقائيًا الملعة): أعدكم بأنني لن أتسامح مجددًا مع أي انتهاكات لنظام المحكمة، وحتى لو شعر الجميع بحاجة إلى تناول بعض المقبلات فلا يوجد ما هو مستهجن في هذه الرغبة، ولكن كل شيء في وقته. السادة ضباط المحكمة، لا تترددوا في مراقبة الجمهور. (ينفجر الجمهور في نوبة ضحك جديدة) لا يوجد ما يُضحك! يا للخزي! أكرر سؤالي السابق: ما العمل الآن؟ (يميل سيميون إيفانيتش إلى الأمام). أتود أن تقول رأيك يا سيميون إيفانيتش؟ (للجمهور) أيها السادة! يود سيميون إيفانيتش أن يُدلي بكلمة قصيرة.

سيميون إيفانيتش (ينهض ويصطنع ملامح معينة كما لو أنه يريد أن يقول إنه لم يمر من قبل بمثل هذه الظروف): ثمة سابقة لهذا الأمر في محكمة كاشين المحلية (يحمر وجهه خجلًا ويجلس).

إيفان إيفانيتش (متذكرًا لعب الورق بالأمس، والرغبة تراوده في الإساءة إلى سيميون إيفانيتش): بالضبط... بالضبط... سابقة. أيها السيد المدعي العام! أريدك أن تقدم بيانك الختامي!

يمسك المدعي العام بكتاب قوانين الجيب بيد مرتعشة، ولكن الحارس تارارا يتدخل فجأة قائلاً:

تارارا: اسمحوا لي سعادتكم. أريد أن أقول كلمة. أنا أفهم كل شيء.

إيفان إيفانيتش: رائع! يمكننا إذن أن نواصل التحقيق القضائي. أجب أيها المتهم! هل تعترف بذنبك؟

تارارا: أي ذنب سعادتك؟

إيفان إيفانيتش (باهتياج): أنقول أي ذنب؟! كل الذنوب!

تارارا: مذنّب سعادتك.

إيفان إيفانيتش: حسنًا أيها المتهم، أسمع؟

تارارا: تمام سعادتك.

إيفان إيفانيتش: حسنًا، لقد اعترف المتهم. يمكننا الآن أن نسمع

شهادة الشهود. السيد السكرتير! هل كل الشهود حاضرون؟

المحامي شيستاكوف: لدي كلمة. لم يعترف المتهم بشيء، بل شخص لا علاقة له بالقضية هو من اعترف نيابة عنه. من فضلك سجّل هذا في محضر الجلسة!

إيفان إيفانيتش (هازًا رأسه): آخ! آخ! آخ! هكذا أنت دائمًا أيها

السيد شيستاكوف! يمضي العدل في طريقه وتحاول عرقلته. كيف

نتعامل مع الأمر؟ السيد المدعي العام! أدلّ ببيانك الختامي!

المدعي العام (يبحث عن الكتاب في جيبه ويتظاهر بأنه وجدته):

أعتقد أننا لا يجب أن نجيب عن محاولة الدفاع هذه بشيء، على أساس

المادة ١٦٧٩.

المحامي بيريف (ساخرًا): المواد التي يتحدث عنها المدعي

العام تتعلق بالمشقين الذين لا يقبلون كهتنا، ولا علاقة لها بالجانب

الإجرائي للشؤون السياسية.

إيفان إيفانيتش: آخ! آخ! آخ! كيف حالك الآن يا فيودور بافليتش؟

أحفظتها؟ (تضحك أفراخ الضفادع) علام تضحكون؟ انتظروا دوركم وسترون! فيودور بافليتش! الكلمة معك الآن!

المدعي العام (من دون أن تلوح عليه أدنى أمارات الإحراج، محدقاً إلى بيريف): هذا صحيح في إحدى الطبعات، ولكن رقم المادة المقصودة في طبعة أخرى هو ١٦٧٩.

إيفان إيفانيتش: هذا ما عرفته. آه منكم جميعاً أيها السيد بيريف! العدل يمضي في طريقه وتحاولون عرقلته. أحذرك؛ إذا تكرر هذا الأمر مجدداً فسأحرمك من الكلمة! أنا طيب ولكني لن أحتمل أن تصطدم العدالة بالعقبات في طريقها.

المحامي بيريف: اسمح لي يا إيفان إيفانيتش!

إيفان إيفانيتش: ليس هنا من يُدعى إيفان إيفانيتش، بل السيد القاضي.

بيريف (من دون أن يوجّه انتباهه لما قيل): آخ يا إيفان إيفانيتش! إيفان إيفانيتش (بصرامة): أتصر على ذلك يا سيد بيريف؟ أحرمك إذن من الكلمة. يُرجى ترك مقعد هيئة الدفاع فوراً!

بيوتر إيفانيتش وسيميون إيفانيتش معاً: ثمة سابقة لهذا في محكمة كاشين المحلية.

إيفان إيفانيتش: نعم، سابقة. السيد شيسيتاكوف! أنت وحدك المخوّل الآن بالدفاع عن عميلك. الآن سوف نستمع إلى الشهود.

يلتقط بيريف الأوراق من على المكتب وينضم بسعادة إلى

الجمهور. في هذا الوقت يظهر من خلف القضاة رأس براسكوفيا إيفانوفنا. يقطع ضابط المحكمة الردهة ويهمس بالقرب من الباب، ويبلغ إيفان إيفانيتش بصوت خافت أن براسكوفيا إيفانوفنا قد أحضرت أربعة أنواع من الكعك.

إيفان إيفانيتش (ينهض من مكانه): ستتوقف الجلسة الآن لمدة عشرين دقيقة. (إلى المدعي العام) أرجو معذرتك يا فيودور بافليتش. (إلى الدفاع) أما أنتم فلن أطلب معذرتكم فأنتم تبطئون سير العدالة.

يغادرون. تنتعش القاعة ويندفع الفرسان على الفور إلى السيدات بصناديق مملوءة بالحلوى، وتنخرط السيدات من دون سبب واضح في الضحك. يتجه ثلاثة من ضباط المحكمة إلى غرفة المداولة، حاملين طبق الكعك الذي أعدته براسكوفيا إيفانوفنا، وسرعان ما يُلْتَقَط الكعك من الطبق. يتناول المحامي شيستاكوف كعكة ويأكل. بعد أن ترى الضفدعة الشاهدة سيدة بأغطية رأس بالغة الأناقة تبدأ في العبوس بنية واضحة أن «تصير نَدًّا لها»، ولكن ضابط المحكمة يصيح فيها: «ششش يا خبيثة!». تُخرج الأفراخ الصغيرة من جيوبها سمكة روش مجففة، ولكن ضابط المحكمة يصيح فيهم: «أيها السادة! غير مسموح هنا بالروائح الكريهة! من يريد أن يتناول سمك روش فليذهب إلى الشرفة الخارجية وسأرن الجرس في الوقت المحدد».

اللوحة الثانية

إيفان إيفانيتش (يخرج من غرفة المداولة منهياً كلمات صلاته): ولا تحرمنا من ملكوتك السماوي... بيوتر إيفانيتش، سيميون إيفانيتش، اجلسا رجاء. فيودور بافليتش، تفضل رجاء. حسناً، أين توقفنا؟ عند استجواب الشهود. رائع. السادة أفراخ الضفادع، رجاء احكوا لنا ما تعرفونه عن هذه القضية. لا تخجلوا، حتى لو كان الدفاع هو من استدعاكم لكن يمكنكم أن تشهدوا ضد المتهم.

المحامي شيسباكوف: أتجراً على إبلاغ هيئة المحكمة أنه وفقاً للقانون يُستجوب الشهود كلٌّ على حدة.

إيفان إيفانيتش: ها أنت تعرقل سير العدالة مجدداً! أقول كلمة ويقول كلمتين! أقول كلمتين ويقول عشراً. آآخ! إذا تحدثت ثانية فلن أعطيك الكلمة (مهدداً بأصابعه).

صوت من الجمهور: لا يمكنك إلقاء اللوم هكذا على كل شيء صغير!

إيفان إيفانيتش: من لا يزال يتحدث هناك؟ من يسمح لنفسه بذلك؟ السادة ضباط المحكمة، إلى من تنظرون؟ (إلى المأمور) لذلك طردت الجمهور سابقاً يا ميخال ميخاليتش... كم دُلُّوا! (إلى أفراخ الضفادع) حسناً أيها السادة أفراخ الضفادع، ماذا تنتظرون؟ أجيئوا! (يضع يده خفية تحت سترته ويفك بضعة أزرار من صديريته) هكذا الوضع أفضل.

أفراخ الضفادع (بصوت صبياني واحد): مذنبون سعادتكم.

تارارا (متذكرًا كيف أجاب بالكلمة ذاتها منذ ساعة واحدة):
مذنبون بماذا؟ تكلموا!

إيفان إيفانيتش: ليس لديك يا ممثل المتهم الحق في إعاقه سير العدالة! (إلى أفراخ الضفادع) أخبرونا إذن بماذا تعترفون أنكم مذنبون أيها السادة؟ لا يوجد من يتهمكم بشيء، فأنتم تعيشون بخضوع ولا تنحرفون، ولا تمسون أحدًا ولا أحد يمسكم. تعيشون في سلام، أليس كذلك؟ (يلتفت جانبًا) يبدو أن هذا الكعك... (يفك برفق بضعة أزرار أخرى) ولكن أيها السادة فلتحكوا لنا ما تعرفونه عن القضية.

أفراخ الضفادع (بصوت واحد): لا نعرف شيئًا ولا نفعل شيئًا.

إيفان إيفانيتش: ألا تعرفون؟ كنت أعرف هذا! عبثًا أزعجوكم إذن! لست المسؤول عن ذلك بل هو (يشير إلى شيستاكوف) يحب مقاطعة الآخرين، وهو نفسه الذي كدركم! (إلى أفراخ الضفادع) أنتم أحرار أيها السادة! (ينظر إلى المدعي العام) في مقدوري إطلاق سراحهم، أليس كذلك؟

المدعي العام: لا تمانع هيئة الادعاء ذلك.

المحامي شيستاكوف: ولكن سيؤدي ذلك إلى...

إيفان إيفانيتش (بلهجة آمرة): أنتم أحرار أيها السادة أفراخ الضفادع! المحكمة تطلق سراحكم. نعم! ولا يمكن لأحد أن يحرمها من هذا الحق. نعم! لا المحامون ولا غيرهم! لا أحد! أين تريدون أن

تستقروا؟ في بركة أم في نهر؟ بالنظر إلى صدقكم تمنحكم المحكمة حق الاختيار... نعم!

أفراخ الضفادع: لو أمكن سعادتكم ستكون البركة أفضل لنا.

إيفان إيفانيتش: ما دامت البركة أفضل لكم فلتذهبوا إليها إذن! ولكن لو تفضلون النهر قولوا! لا تخجلوا! (تصمت أفراخ الضفادع) البركة أفضل إذن؟ كنت أعرف ذلك! السيد ضابط المحكمة! التقطهم وضعهم في البركة! هذا هو أمر المحكمة، ولا يهم رأي الآخرين فيه.

ضابط المحكمة (يلتقط الأفراخ ويضعها في حقيبة ويعطيها للحارس ويقول بصوت مبحوح): ضعها في مكان قريب بعض الشيء. إيفان إيفانيتش: أيتها الضفدعة الشاهدة! احكي لنا ما تعرفينه عن القضية.

الضفدعة (لا تقول شيئاً سوى نقنقة، بل وتصدر نقيقتها بصورة أدبية أيضاً وتنفخ بصورة مثيرة للشفقة وحينها تظهر على ظهرها بقع ياقوتية اللون): أنا ضفدعة عجوز وخبيرة في هذه الحياة. أعيش في النهر المحلي منذ أكثر من أربعين عاماً وأعرف كل شيء هنا. سابقاً كان الوضع جيداً ولم نعش حياة أسوأ من حياة السادة الملاك في كاشين. كان كل شيء كافياً، والأهم من ذلك أنه كان مجانياً. اعتادت أسماك القوبيون إعداد الكافيار، وبالرغم من أننا كنا نتناوله بشراهة فإننا لم نكن نستطيع حتى تناول نصفه. اعتقدنا وقتها أنه لن تكون هناك نهاية لمسراتنا، ولم تكن لتنتهي فعلاً لولا أننا أدنا أنفسنا في كل مكان. من هنا بدأت الأفكار العصرية تصلنا. بالنسبة إليّ شخصياً لم أدعها تستولي

على عقلي، ولكن تدريجيًا نظرنا وإذ بالخونة يظهرون بيننا. ساءت الأمور بعد ذلك. كنت حينها القيّم على الأمور، أفكر فيما سيحدث بعد مائة عام. قلت في هذا الوقت لشيوخنا: «علينا أن نحكم على هؤلاء المتبجحين في محكمتنا»، لكنهم لم يستمعوا إليّ. قالوا: «لا بأس، إنها فترة الشباب وسوف يستقرون ويفكرون بطريقة مثالية». حينما أدركوا حقيقة الأمر كان الأوان قد فات بالفعل. بدأت الأمور بنجاح واستمال هؤلاء المتبجحون مالك الحزين إلى صفهم. اعتاد الشيوخ الجلوس على ضفة النهر الصغيرة ومناقشة شؤونهم. ينظرون وإذ بمالك الحزين يدور فوقهم. ينقض من فوق، كسهم أُطلق من قوس، ويحمل عجزًا من أنفه. في البداية اعتقدنا أن هذا الإجراء يعني طردًا إداريًا، ثم أدركنا فيما بعد أن الأمر على ما هو عليه فعلاً. خفنا! وبالمناسبة بدأت حينها أعمال الشغب في النهر. لم تقدها فقط أسماك القوبيون، بل أسماك السالفيلينس^(١٧٨) أيضًا. هؤلاء هم من بدأوا الأمر. في البداية لم يريدوا أن يظهروا في حساء السمك، وغادرت أسماك السالفيلينس النهر. كان هذا في بداية حركة الإصلاح، ثم انطلقت أسماك القوبيون من بعدها. سمكة القوبيون من النوع الخجول سعادتهم. لم تنصرف مرة واحدة، بل انصرفوا جماعات صغيرة ولذلك استغرق الأمر فترة طويلة قبل أن يتضح تفشي حركة تمرد بينها. لكن التمرد بدأ يُلاحظ تدريجيًا: الآن سرب أسماك يسبح بعيدًا، وبمرور أسبوع يتعد سرب آخر، وبمرور أسبوع آخر يتعد سرب ثالث. في البداية كان الكافيار مجانيًا، وبعد

(١٧٨) نوع من أسماك السلمون.

ذلك، مع بداية الإصلاحات وصل سعره إلى أربعين كويكًا، وفجأة وصل إلى روبلين ونصف! لم يعد بإمكان المرء سوى تناول الطين وحسب، وحتى الطين لم يعد يكفي الجميع. حالتنا بائسة كما ترون أيها السادة. ارتجت الأسس والسلطات تتقوض ولا تعمل بفاعلية والمحاكم... من السيئ النظر إليها! أخذنا ننقنق. نقنقنا ونقنقنا وفي النهاية انتهينا من النقنقة، فقد سمع المأمور نقنقنا وأعد الشبكة.

يقاطعها المحامي شيسيتاكوف: أخبرينا أيتها الشاهدة، هل صار الكافيار إذن أرخص بسبب نقيقك؟

الضفدعة (تحدث بشكل متقطع وقد غطت البقع الياقوتية جسدها كله): الكافيار... الكافيار... لا، لم يرخص سعر الكافيار... لم يرخص! كل ذلك بسبب أنك هنا، وها هم (تريد الضفدعة أن تمسك بالأفراخ الصغار) ها أنت وها هم (تشعر بالاختناق وتفتح فمها لبرهة وتُلَوِّح لها السيدات بمناديلهن بسرور).

إيفان إيفانيتش (متذكرًا أنه مر بموقف مشابه في حياته): اهدهني يا سيدتي! استريحي! مشاعرك جديرة بالثناء حتى إن المحكمة تستطيع أن تنتظر.

الضفدعة (بعد أن نعمت ببرهة من الراحة): ذات مرة جلست على ضفة النهر، وكعادتني أخذت أنقنق: تحطم كل شيء! تداعى كل شيء! وإذ بي أسمع فجأة شيئًا يتحرك بقوة في الماء. أنظر وإذ بها سمكة كراكي. ظلت تنظر لي سعادتكم طويلًا، فبالرغم من أنني حسنة النية فإن الأمر عندما يتعلق بالطعام لا تبالي أسماك الكراكي بذلك. اقتربت

مني وقالت: «اقفزي أيتها الضفدعة في الماء. أريد أن أقول لك شيئاً». حدقت إليها كما لو أنني مسحورة، وأخذت أفكر طوال الوقت: هل أففز أم لا؟ وخلصني الله! قلت لها: «الأفضل أن تحدثيني وأنت في الماء بينما أستمع إليك هنا على الضفة». ارتأت أن تساليني وقالت: «تجلسين في مكانك طوال اليوم تنقنين ولا ترين ماذا يحدث تحت أنفك. أسماك القوبيون سوف ترحل بعيداً عنك». «كيف هذا؟». «هكذا كما أقول لك. أنتظرهم منذ أسبوع، حينما يسبحون صوب الفولجا سيجدونني هناك في انتظارهم». قالتها وهزت ذيلها وابتعدت، أما أنا فزحفت حتى قاع النهر. زحفت حتى سمكة القوبيون التي تجلس أمامكم الآن ووجدتها هناك مستلقية في الوحل. أستلقي إلى جانبها ساعة والثانية ثم أسمع أصوات اجتماع. أحاطوا بخفوف وبدأوا يصيحون. قالوا إن كل شيء لدينا مثير للاشمئزاز ومخزٍ ويحتاج إلى إعادة تشييد. قالوا إننا في حاجة إلى تقسيم النهر بالتساوي بحيث تتاح اليرقانات للجميع؛ سواء كانوا فقراء أم أغنياء، أما الآن فليس هناك سوى الفقراء، وقالوا إنه يجب إبطال السلطات وليعيش الجميع كما يحلو لهم؛ من يريد أن يعيش في النهر فليعيش، ومن يريد أن يذهب إلى حساء السمك فليذهب. قالوا أيضاً -ولتمسكوا أنفسكم من الضحك يا أصدقائي^(١٧٩)- إنه يجب إبعاد الضفادع عن النهر لأن النهر كان لنا دائماً، وقد عاش فيه أسلافنا ونريد أن نعيش فيه.

قاطعها المدعي العام: ولكن هل يمكنك أيتها الشاهدة أن تخبرينا

(١٧٩) باللاتينية في الأصل.

تحديدًا ما هو الدور الذي لعبه المتهم خفوفوف في هذا الاجتماع؟
الضفدعة (بمرارة): الدور الذي لعبه؟ لقد كان أول المحرضين.
لولا ما فعله لما كنا هنا الآن ولما اندلعت أي اضطرابات. هو أكثر
أسماك القوبيون إضرارًا. أي شخص يقول أي شيء، حتى لو كان هراء
تأمًا، يرد عليه ويعارضه بضعف ما قاله! يمكنكم أن تسألوا أي شخص؛
اسألوا أيًا من أفراخ الضفادع: هل تعرف إيفان خفوفوف؟ سيجيبكم
الجميع ويقولون لكم أي سمكة قوبيون هو! يهمس بمراده: وكأنه يطلق
سمًا يهيج الجميع بينما يختبئ هو في الوحل! إنه من النوع الذي... لو
لم تمسكوا به لما كنا أحياء الآن. أنا أعرف ذلك جيدًا.

أرادت الضفدعة أن تحكي طرفة من حياة خفوفوف ولكن إيفان
إيفانيتش قاطعها خوفًا من أن تتضمن القصة أي شيء غير لائق.

إيفان إيفانيتش: أعتقد أن السؤال الذي طرحه السيد المدعي العام
قد أجيب بوضوح. أكملني حكايتك أيتها الشاهدة، ولا تنجذبي إلى
أمور ليست في صلب الموضوع.

الضفدعة: أثاروا ضجيجًا... أثاروا ضجيجًا ضخمًا، وإذ بي أسمع
صوت أحدهم قد وصل؛ إنها سمكة الكاراسيوس. وجدتها تصيح:
«أنقذوا أنفسكم أيها السادة! سوف يصطادونكم الآن! أخبرني طاهي
المأمور أن الشباك جاهزة». لم تكذ السمكة تقول ذلك حتى وجدت
فجأة كل أسماك القوبيون قد ظهرت فجأة وبدأت تهرب ونسيت أمر
خفوفوف. ركضت خلفها صائحة: «إلى أين تذهبون؟». اعتقدت أنها
لن تذهب بعيدًا. ها هي سمكة الكراكي، ثم سمعت...

إيفان إيفانيتش: اجلسي أيتها الضفدعة. هذا كل ما تحتاج المحكمة إلى أن تعرفه منك. في المستقبل سوف تشهدين بما سمعته، وقد مرت محكمة كاشين المحلية بسابقة مفادها: «لا تصدق كل شائعة»، أليس كذلك أيها السادة؟ (يهز سيميون إيفانيتش وبيتر إيفانيتش رأسيهما بالإيجاب). لقد أدبتِ واجبك يا ضفدعة، وهو أمر أهنتك عليه. عيشي بوداعة ولا تسمي أحداً ولن يمسك أحد، وإذا لاحظتِ شيئاً مضرّاً تعالي إلينا. لقد عرفتِ الطريق، وسوف نرتب لك الأمر لأن هذا هو واجبنا. عندما يفعل أحد شيئاً يستحق الثناء نمتدحه، وعندما يفعل أحدهم ما يستحق اللوم لا نرتب على رأسه. ها هي سمكة القوبيون في قفص الاتهام، ولماذا؟ لأنها فعلت شيئاً يستحق اللوم. لو كانت قد تصرفت بشكل يستحق المديح لما جلست خلف الحرس، بل لربما نالت بعض الإعانات، لكن طالما تفكر في إثارة المتاعب والمشكلات، حسناً لا تغضبي! اجلسي هنا! سيجلس الجميع هنا. (صوت من الحضور: «هذا صحيح!»). يبحث إيفان إيفانيتش عن صاحب الصوت) وها هو إنسان وقح يقاطعني، وسيُكتشف ويؤدَّب جيداً. أكرر: إذا لاحظتِ أي شيء تعالي إلينا ولا تعالجي الأمور بنفسك لأن هذا لا يدخل ضمن نطاق اختصاصك. اليوم يقول كثيرون من هؤلاء المتأنقين ممن يفكرون: «لماذا أذهب إلى المحكمة؟ الأفضل أن أتولى الأمر بنفسي»، ولهذا لم تنعقد جلسات في محكمتنا طوال أشهر كاملة، فما فائدة المحكمة إذن؟ لا تسلكي بهذه الطريقة! اجلسي! أهنتك مرة أخرى. يا سمكة الكراكي! أكملني قصة الضفدعة! ما الدور الذي لعبته في القضية؟

تفتح سمكة الكراكي فاها لتدلي بشهادتها ولكن عندما يرى المتهم هذا المنظر يتملكه الرعب. يتخبط بجنون في الطبق، بل ويحاول القفز من فوق حافة الطبق. تفيض الدموع من عيني سمكة الكراكي تأثراً، وتفتح فمها على آخره تلقائياً ثم تغلقه بقوة. شيئاً فشيئاً يقل هياج سمكة القوبيون، ولا تعود تقفز في الطبق بل ترتجف وحسب ارتجافة والثانية فالثالثة و...

تارارا (يمسك بالمتهم من ذيله ويريه لأعضاء هيئة المحكمة، ويقول بصوت مشوب بالانتصار): ماتت!

إيفان إيفانيتش (باضطراب): ليكن ما حدث درساً لنا. ليدرك المتهربون من العدالة هذا الدرس، وليزداد يقين الباقين! أسفي على سمكة القوبيون، ولكن يستحيل ألا أقول إنها هي الملوثة في أمرها. لو لم تضل لكنت الآن معافاة، ولم تكن لتثقل كاهلنا، ولتركتنا ننشغل بأمر مفيد. ماذا يمكنني أن أقول سوى: لقد ماتت وانتهى أمرها؟ السيد المدعي العام، فلتلقِ بيانك الأخير!

المدعي العام (يتحدث بسرعة كما يفعل الشماس في نهاية القداس حينما يقول: المجد لله الأب): أعتقد أنه حُكم عليها بالموت وانتهى أمرها.

إيفان إيفانيتش: كنت أعرف هذا! بالنسبة إلى بقية المتهمين الغائبين، هل يمكننا أن نواصل؟

المدعي العام: يجب أن يُحاكموا غيابياً.

إيفان إيفانيتش: كنت أعرف هذا! سيميون إيفانيتش، بيتر إيفانيتش،
ما رأيكما؟ ما الحكم الغيايبي الذي يجب أن نصدره على المتمردين؟
المدعي العام (ينهض لِيُذَكِّرهم بوجود غرفة مداولة لاتخاذ مثل
هذه القرارات، ولكن في هذه اللحظة يسلمه ضابط المحكمة برقية،
فيقرأها): من مدعي قازان العام إلى مدعي كاشين العام: قبضنا في قازان
على عصابة أسماك القويون الكاشينية. من الواضح أنهم متمرّدات.
التفاصيل سترسل بريدًا.

إيفان إيفانيتش: كم فرسًا يبعد المكان عن هنا؟
المدعي العام: في ضوء هذه البرقية أرى أن نعلق الحكم على تهمة
مفارقة أسماك قويون كاشين الوطن بشكل غير قانوني.

إيفان إيفانيتش (موافقًا على كل شيء): ما دمت ترى تعليق الحكم
فلنعلقه. كان لدينا متهمون وبالتالي كانت لدينا أحكام، ولكن ما دام
ليس لدينا متهمون، فليس هناك إذن ما نحكم عليه. ما دام ليس هناك من
نحكم عليه يتضح إذن (يعود إلى رشده) ماذا أقول؟ (ينظر إلى الساعة
ويتفاجأ بسرور) الوقت انتهى والساعة الآن الرابعة! طار الوقت سريعًا!
سيميون إيفانيتش، بيتر إيفانيتش، أستمحكما عذرًا.

(يغادرون جميعًا، وتفرغ القاعة ببطء)

أسرعنا إلى المنزل نحن أيضًا. تركت فينا المحاكمة أفضل انطباع
ممكّن بالرغم من الموت المأساوي لسمكة القويون الذي مازج هذه

الذكريات المشرقة بقدر من الحزن. أكثر ما راق لنا كانت طريقة إيفان إيفانيتش. إنه إنسان يتحدث بصرامة ومع ذلك يروق حديثه للجميع. حتى المحامي شيساكوف، يتصنع الخوف لكنه في حقيقة الأمر يفهم تمامًا أن إيفان إيفانيتش يصفح عن كل شيء. صحيح أن سمكة القوبيون ماتت فعلاً، لكنها لم تمت بسبب إيفان إيفانيتش، بل بسبب ضلالها. لو لم تضل لظلت حية معافاة.

الأمر وما فيه أن هذه تصورات يوتوبية. يقول إيفان إيفانيتش: لا تضل! يقول سيميون إيفانيتش: لا تسرق! أما بيتر إيفانيتش فيقول: لا تزني! من هنا يسمع؟ سيبدأ الجميع في التحدث ولن ينتهي الحديث، وفجأة يظهر طاغية من إحدى الزوايا ويصيح: أي نوع من أنواع الدعايات هذا؟

في كل مجتمع منظم جيداً يوجد وفقاً للقوانين: لصوص ومستأجرون وأدنياء ووشاة وزناة ومرتكبو سفاح قربي ومناققون ومفترون ونهابون. أي شيء آخر هو يوتوبيا.

علينا أن نقول الحقيقة. منذ فترة وبعض الهواجس تعذبني أنا وجلوموف. قلنا في أنفسنا: «ربما نحاكم!»، لكن قوة غير مرئية ظلت تدفعنا إلى أقصى أعماق الهلاك. صارت قناعتنا بحتمية نهاية أمرنا مع المحلفين والقضاة واضحة تمامًا لنا الآن عندما رأينا بأمرنا مدى القسوة اللا مبالية التي يتعامل بها القضاء، حتى مع جريمة مثل عدم قبول السمكة الظهور في الحساء. إذا كان قد توجب على خفوروف أن يكفر عن ضلالاته التافهة بالموت، فماذا ينتظرنا نحن من شاركنا في

التزوير والزواج باثنتين ومحاولة تأسيس جامعة زارافشان؟

توجهت إلى جلوموف بالسؤال:

- في رأيك هل يمكن أن يصدروا حكمًا على مجموعة من الجرائم؟

- بلا شك.

- ماذا لو كانت قد ارتُكبت في أماكن متفرقة؟ هل يحاكمون في

المكان الذي ارتُكبت فيه الجريمة الأخيرة؟

- ما فاتهم سيعودون إليه مجددًا.

- آه لو كان القاضي إيفان إيفانيتش!

- نعم يا أخي سيكون إيفان إيفانيتش! هذا...

قاطعنا أوتشيشيوني بعد أن استمع إلى حوارنا:

- ومن يمكن أن يكون أفضل من إيفان إيفانيتش؟ ماتريونا إيفانوفنا

تقيم هناك.

باختصار، إذا أردنا أن يتولى إيفان إيفانيتش محاكمتنا فعلينا أن

نرتكب الآن أي دناءة حتى يقبضوا علينا ويأخذونا إلى السجن الآن

وتبدأ إجراءات المحاكمة. بعد ذلك ستُضاف تهمة أخرى إلينا تدريجيًا.

وصلنا النزل ونحن مستغرقون في التفكير، ولكن وجدنا أمرًا

مبهجًا في انتظارنا هناك. وصل خطاب باسمي. أفتحه ولا أصدق

عيني... الخطاب من جمعية اللوبوترياسيين المتحمسين! بعد أن

عرفوا عن الجهود التي بذلناها للانضمام إلى طريق النيات الحسنة،

سجلتنا الجمعية جميعًا، نحن الستة، بمبادرة ذاتية منها، ضمن أعضائها

مع فرض ضريبة ملائمة من أجل تحسيس (خطأ مطبعي، يقصدون تعزيز) الموارد؛ تحديداً يلتزم التاجر بارامانوف بدفع ٢٥ ألف روبل سنوياً، والتاجرة ستيجنوشكينا بعشرة آلاف روبل سنوياً، والبقية بعشرة روبلات لكل منهم. علاوة على ذلك سمحوا لنا بأن نعرف الآتي:

١ - جميع الجرائم التي ارتكبتها حتى الآن قد صُفح عنها إلى الأبد.

٢ - يمكننا دفع هذه المبالغ ببطاقات زائفة حيث إن اللوبوترياسيين لديهم علاقات قوية بكل شرائح المجتمع، ويتعهدون بالحصول على أغراض حقيقية مقابل هذه المبالغ المزيفة.

صحت مبتهجاً:

- جلوموف، انظر! لقد صفح اللوبوترياسيون عنا! كم نحن قليلو الإيمان لنشعر بالقنوط!

* * *

راود حلمٌ جلوموف ليلاً؛ حلم أن الخزي واقف أمامه. لحسن الحظ، في لحظة ظهوره انقلب جلوموف على الجانب الآخر بحيث لم تُتَح له الفرصة حتى ليفكر فيما حلم به. لم يتذكر شيئاً من الحلم سوى أن الخزي مثل أمامه. أخبرني عن أمر هذا الحلم صباحاً واستغرق في التفكير. بدأ حديثه قائلاً: «إذا اعتاد يا أخي على ذلك ف...»، ولم يكمل عبارته ولَوَّح بذراعه وأسرع في طريقه.

كانت الضيعة الأميرية التي أجراها اليهودي المقصود على بُعد أربعين فرسناً من المدينة شمالاً في اتجاه بيجيتسك. قبل أن نصل إلى الفرست العاشر ظهرت ممتلكات الأمير، وقد شهدت عليها الأعمدة الموضوعة على جانبي الطريق المزينة بشعارات نبالة ممحوة بعض الشيء. بعد ذلك امتدت إلى مسافة سبعة فرسات مساحة جرداء مليئة بالطحالب وجذوع الأشجار وقد اسود أقربها من الطريق وبدأ يتعفن. منذ خمسة عشر عاماً نمت هنا غابة أشجار صنوبر نموذجية، ولكن اليهودي المستأجر اقتلع جذور الأشجار بحيث لم يتبقَّ شيء سوى الطحالب. امتدت الحقول مسافة ثلاثة فرسات وبعد ذلك ظهرت قرية كبيرة وعدة قرى صغيرة على الجانبين، وبعد القرية لاحت ضيعة السيد مظلمة.

في وقت من الأوقات كان وعاء الحياة ممتلئاً هنا. عاش فلاحو الضيعة حياة لائقة، ولم يُجبروا على النزوح منها لا بسبب سخرة غير محتملة ولا جزية لا تُطاق. ازدهر اقتصاد الضيعة أيضاً في ذلك الوقت لأن مالكيها كان ذكياً، وقد أدرك ضرورة وجود خطة عامة في كل عمل، وقد استطاع وضع هذه الخطة ومتابعة تنفيذها بعد ذلك. مع ذلك لم تُدخل أي ابتكارات جديدة إلى الضيعة، وهيمن ختم العهد القديم الأشد صرامة على كل شيء فيها. قُسمت الحقول -وفقاً للطريقة القديمة- إلى ثلاثة أجزاء، ولم تكن هناك زراعة حشائش، وأوليت عناية فائقة بالغابات. لم يكن المالك جشعاً وارتضى بالدخل الذي يصله من الضيعة، إلا أنه كان دخلاً ضخماً ملك يديه بفضل قدرته على استغلال قوة الأتقان.

كان الأمير سبيريدون يوريفيتش روكوسوي من بوشيوخوني سليل عائلة قديمة جداً، وقد ظل يتذكر ذلك دائماً. عرف جيداً أن والديه كانا قائدي البوشيوخونيين الذين بدأ وجودهم التاريخي عندما تاهوا عند ثلاثة أشجار صنوبر، وبدأ يبحثان عن قفازاتهما، ثم وجدا أن القفازات معلقة في حزاميهما. كثيرون منهم أقسموا الولاء للقيصر، وكثيرون منهم قُطعت ألسنتهم، وكثيرون منهم سُجنوا في بيليم وبيريزوف وأماكن أخرى نائية بدرجة أو بأخرى. بشكل عام اتسموا بالعناد من دون أن يمتلكوا قدرة على تخمين اللحظة التاريخية المواتية، ومن ثم عانوا كثيراً إبان الفترة البطرسبرجية في التاريخ الروسي. في القرن الثامن عشر اختفى آل روكوسوي تماماً من بوشيوخوني، مفسحين المكان لمجموعة

أخرى أسعد من الحلاقين والوقادين، وتمكن واحد منهم فقط من إبقاء زاوية دافئة له، لكنها لم تكن في بوشيوخوني حيث ازدهرت قرية أمراء آل روكوسوي، بل في مدينة كاشين. هنا هداً أمراء آل روكوسوي أخيراً وتخلوا عن كل ادعاءاتهم المتعلقة بنشاط الأمراء وأهمية الرسميات، وكرّسوا أنفسهم كاملاً للأعمال الريفية.

مثل المالك الحالي للضيعة، الأمير سبيريدون يوريفيتش، في زمانه نموذجاً لمالك الأرض الأبوي الذي يراقب بغيرة كل الأسر الفلاحية، ويتدخل في أدق تفاصيل معيشة الفلاح، ويعاقب ويشجع بلطف، ويدعم فلاحيه في جميع الحالات، مدافعاً عنهم بإصرار ضد ادعاءات وهجمات السلطة المحلية. مثل الفلاح بالنسبة إليه -إذا جاز التعبير- شغله الشاغل والمفضل الذي لم يترك فرصة لأفكاره كي تتعطل، وفي الآن ذاته حدّد أهميته الشخصية على سلم التسلسل الهرمي الاجتماعي. إذا شئنا تعبيراً آخر يمكننا القول إن الأمير لم يعتبر نفسه مسؤولاً بشكل عام أمام الفلاحين وحسب، بل اعتبر نفسه مسؤولاً عنهم أيضاً، ولذلك لم يسمح لنفسه بارتكاب أي من الأعمال الوحشية التي كان بمقدوره ارتكابها، حيث شاعت مثل هذه الأعمال في عصر القنانة، بل أحب أن يُشار إلى فلاحيه بوصفهم فلاحين نموذجيين، وإلى إدارته الشخصية للضيعة بوصفها مثلاً للإدارة العقلانية، والتي بالرغم من عقلانيتها كانت «غير متساهلة». لكنه في الوقت نفسه طالب الفلاحين بتقدير هذه العناية، ولم يتحمل أي شذوذ. اعتاد إرسال المتكبرين والمتبحجين إلى التجنيد فوراً لكن لم يستغل مخالصاتهم لصالحه بل دَعَمَ الأسر

التي رأى أن وضعها تطلب دعمًا. لم يسمح حتى بأن يعيش البعض في وضع رفاهية مميز، بل عامل الجميع سواء، كما لو أنه يمسك في يده طوال الوقت ميزانًا يزن عليه جميع الفلاحين بالتناوب بهدف معادلة الفوائض وأوجه القصور. بعد ذلك، عندما اقتنع أن جميع الفلاحين قد صار لديهم مخزون كامل مما يحتاجون إليه؛ سواء من كائنات حية أو أشياء ضرورية، وعندما رأى أن كل فلاح يذهب إلى العمل الجماعي بقميص نظيف وغير مرقع، امتلأ بالبهجة. أكثر ما أبهجه هو أنه لم يحقق هذه النتيجة بالقسوة، بل بوصايته وعنايته الشخصيتين.

انطلاقًا من فكرة الوصاية، لم يحب الأمير الأنشطة التجارية، وقد وصفها بالسفاهة. لم تكن جوازات السفر تُصدر في ضيعته إلا بصعوبة بالغة^(١٨٠) ويُسأل الفلاح إلى أين يذهب ولماذا وما سبب حاجته إلى التغيب. عند عودته يُطالب الفلاح بتقديم حساب تفصيلي عما ربحه في هذه الفترة، وكم دفع لقاء عيشه ومقدار المبلغ الذي عاد به إلى منزله. كان الأمير على قناعة بأن الفلاح مخلوق للأرض، وطبّق هذه الفكرة بنوع من التسلط، وبالقدر ذاته من العناية المتحمسة اعتاد مراقبة أخلاق الفلاحين والتزامهم بواجباتهم الدينية. لم يحتمل الجدل أو العصيان، لا تجاهه وحسب، بل تجاه أي قائد عيّنه بنفسه أيضًا، ولم يسمح حتى بهذا داخل الأسر نفسها. لم ينخرط في أي أعمال ماجنة بالرغم من أنه ترمّل في عمر الشباب، وكانت مدبرة المنزل مارفوشا؛ أكثر البشر

(١٨٠) إيان القنانة لم يكن بوسع الفلاح مغادرة ضيعة سيده من دون جواز سفر يصدره له، واحتاج الفلاحون إلى هذه الجوازات للذهاب إلى الأسواق لبيع الفائض عن حاجتهم أو لشراء ما يلزمهم.

إخلاصًا وتكريسًا له، الشاهدة الوحيدة على حياته الزوجية وضعفه البشري. إلا أن المدارس والعيادات الطبية غابت تمامًا عن الضيعة. بدلًا من المدارس علّم الأمير كل الفتية والفتيات القرويين الإنشاد الديني، وعلاوة على ذلك سمحت ابنته لنفسها بالتدريس لاثنتين أو ثلاثة من الفتية ممن تصادف أن أعجبت بذكائهم. عادة ما عُيِّن هؤلاء الطلبة للعمل في منزل صاحب الضيعة، ولهذا الهدف اعتادوا إرسالهم إلى موسكو لتعلم بعض المهارات المفيدة. فيما يتعلق بالعيادات الطبية، فقد استبدلوا بها ذهاب الأميرة الطبية إلى أكواخ الفلاحين لعلاج المرضى بالإنجيل الشافي، ونظرًا لبساطتهم وبساطة أمراضهم، كان العلاج يجدي.

هل أحب الفلاحون الأمير؟ لا نعرف، ولكن نظرًا لأن أحدًا منهم لم يعرب عن سخطه قط فقد كان هذا كافيًا. بدا شارع القرية لاثقا، بل وبدت عليه أمارات الملل، لكن الأمير لم يمنع مظاهر بهجة الفلاحين، بل وفي الأعياد اعتاد الذهاب شخصيًا إلى القرية ليرى كيف ترقص الفتيات. كان من الواضح أن بهجة قلبه لم تتمثل في رقص الفتيات بل في رائحة الخبز الطازج التي تفوح من كل مكان، وأحيانًا رائحة الذبائح أيضًا. لذلك كان وضع الفلاحين الاقتصادي رائعًا (لم يظهر بينهم محتاج، فلم تكن هناك إمكانية مادية لظهور أي محتاج) بينما كانت صنوف البهجة الريفية في حالة انتقاص. ربما لهذا السبب أطلق الفلاحون من الضيعات المتاخمة، ممن لم تُمارَس عليهم هذه الوصاية من أسيادهم، على فلاحي بلاجوفيشينسكوي (هذا هو اسم ضيعة

الأمير) أوثنًا، ويستحيل القول إن فلاحى بلاجوفيشينسكوى استجابوا عن طيب خاطر لهذه التسمية.

فى اللحظة التى علت فيها أول الأصداء البعيدة لخبر تحرير الأقنان، كان الأمير قد اقترب من بلوغ الخمسين، وقد رُزق بالابنة فارفارا التى بلغت فى هذا الوقت خمسة وعشرين عامًا، وقد نسي بطريقة ما أن يُزوِّجها، والابن يورى الأصغر من شقيقته بعامين، وقد خدم فى سلاح الفرسان فى بطرسبرج. اتسمت الفتاة بالتواضع الشديد، وقد أحبت والدها بشدة وعاملت الفلاحين والفتيات الخادِمات بطيبة غير عادية. أدركت أيضًا أن أسلافها قد أقسموا الولاء للقيصر، ومن ثم حاولت فى سلوكها أن تأخذ بشهادة حبيبها ولتر سكوت^(١٨١)، وتفعل كما فعل أبطال أعماله من أصحاب القلاع فى أقصى الغرب؛ ساعدت وعالجت وأطعمت المرق واستقبلت المولودين حديثًا من جرن المعمودية^(١٨٢) ومنحت الأطفال قمصانًا... إلخ. حتى هذه اللحظة كان الابن لا يزال ضابطًا وحسب، أما ما سيحدث له لاحقًا حينما تغرقه الديون، فهذا ما لم يستطع أحد التكهن به.

من الملامح المميزة أيضًا للمكان أن الأمراء المحليين لم يحبوا الأمير. لقد عاش حياة منعزلة، وانشغل دائمًا بشؤونه، ولم يذهب لزيارة أحد ولا زَيْن التجمعات والرحلات المحلية بحضوره. علاوة على ذلك لم يستضيف أحدًا فى منزله، بالرغم من تمتعه بدخل جيد وطاهٍ

(١٨١) روائى وكاتب مسرحى وشاعر إسكتلندى.

(١٨٢) جرن ماء يُغَطَّس فيه الكاهن الطفل أو الطفلة المولودين حديثًا لبصير الطفل مسيحيًا.

ماهر. انتقامًا من سلوكه غير الاجتماعي هذا انتخبوه باستمرار أمينًا على متاجر الخبز، بغض النظر عن أنه لم يذهب قط إلى انتخابات النبلاء، وقد كلّفه التخلص من هذا المنصب المفروض عليه الكثير من المتاعب والنفقات.

في عام ١٨٦٢ غضب الأمير بالرغم من أن الفلاحين لم يغضبوه بأي شكل من الأشكال. لقد أثر عليه الإصلاح تأثيرًا ضخمًا حتى بدا أن عقله قد انقلب رأسًا على عقب. توقف عن فهم أبسط الأشياء. عندما سمع كيف صاحت القرية كلها مرة واحدة (ولم يكن من الممكن ألا تصيح وقد دعاها الكهنة وقادة الشرطة إلى ذلك) شعر أن ما في داخله يتمزق. مع ذلك لم يشتعل غضبًا مثلما فعل أغلب جيرانه، بل اعتبر الماضي كله أمرًا منتهيًا. رغبة في عدم إقامة أي علاقات مع الفلاحين أو الدخول معهم في أي اتفاقات استدعى موظفين من كاشين وعهد إليهما بالأعمال القانونية، وكسر بنفسه محراث السيد وباع ثلاثة أرباع المخزون واستغنى عن معظم الوظائف وسرّح الخدم باستثناء من رغبوا في البقاء أو من استحال تدبر الأمور من دونهم. في الختام أرسل تصريحًا إلى كل مكان مفاده أنه منذ الآن فصاعدًا لن يعود وجوده آمنًا في ظل هياج الفلاحين.

مع ذلك استمر لبعض الوقت في العيش في الضيعة. عرج عليه من سان بطرسبرج ابنه الملازم في الجيش البالغ من العمر ٢٢ عامًا ليواسي أباه العجوز، وطمأنه بأن الكونت إيفان ألكسندروفيتش يأمل في إعادة كل شيء إلى مساره القديم، ولكن الأمير استمع إلى حديث

ابنه، وارتسمت على وجهه ابتسامة لبرهة قصيرة ولم يصدق. ما يهم في الأمر هو أنه فقد إيمانه بالنبل، والذين سلكوا - في رأيه - بأكثر الطرق طيشًا، في البداية استاءوا ثم استسلموا، وأخيرًا قاضوا الوسطاء الأنذال؛ مبعوثي بوجاتشيف^(١٨٣)! لقد غرس في ذهنه الدور الذي يجب أن يلعبه النبلاء في إدارة الدولة، أما ابنته، ونظرًا لأن دورها مع الفلاحين قد انتهى، صارت الأحاديث عن ضرورة إحياء طبقة النبلاء المادة الوحيدة التي يمكنها أن تلجأ إليها لتملأ بها الفراغ اللانهائي الذي صارت فيه. حاولا إشراك الملازم الشاب في هذه الأحاديث لكنه بدا أكثر استعدادًا للتحدث عن الجياد وسماتها، ولذلك ما إن خصص الأب الذي صار عاطفيًا مبلغًا جيدًا له حتى رضي تمامًا وانطلق إلى بترسبرج. ظل الأمير العجوز بمفرده مع الأميرة ومديرة المنزل مارفوشا التي انشغلت تمامًا بطرد الفلاحين الذين جاءوا إلى الضيعة بشكاواهم.

في هذه الأثناء عمل الأوغاد بكل جهدهم؛ قطعوا الغابات والمروج، ووضعوا كمائن فيما تبقى منها للفلاحين، واضعين في اعتبارهم أن دجاج الفلاحين الطائش سيسقط حتمًا في هذه الفخاخ عدة مرات في اليوم، وبالتالي ستتزعزع الأسس.

عندما انتهى كل شيء، وتجدر الإشارة هنا إلى أن إبراء الفلاحين تطلّب أمرًا رسميًا، بدأ الصراع. قاد المحتالون هذا الصراع، لكنهم فعلوا ذلك بتصلف وخرافة بحيث لم يكن هناك بد من وصول هذه

(١٨٣) قائد ثورة القوزاق في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية، واستخدام اسمه هنا يشير إلى التحقير من جانب شخصية الأمير.

الصراعات اليومية إلى ضيعة الأمير بالرغم من كل الاحتياطات المتخذة. غضب الأمير أكثر فأكثر، وفي الوقت نفسه ازدادت قناعته قوة بعدم أمانه الشخصي في التواجد بجوار هؤلاء الجاحدين. صار ينصت بقلق إلى كل حفيف، ممسكاً بمسدسه في حالة استعداد، يطفئ النيران ليلاً، ويأكل بشكل سيئ. أخيراً نضجت في ذهنه فكرة غريبة؛ أن يؤجر الضيعة ليهودي وينتقل للعيش في المدينة. لسبب ما بدا له أن اليهودي أفضل من كل الأنذال المحتملين، وسيكون قادرًا على مراقبة شؤون الضيعة وأمهر في اصطیاد عملات الخمسة كوبيكات من الفلاحين، وامتصاص دمهم، وبشكل عام سيكون أكثر نجاحًا من غيره في تدمير رخاء الفلاحين الذي صنعه هو شخصيًا على مدار سنوات طويلة بلا كلل أو ملل. صحيح أنه في هذه الفترة لم يكن قد ظهر بعد آل كالوبايف وآل رازوفايف، ولم يعرف الأمير أن استخلاص عصارة الفلاحين لا يتطلب بالضرورة حيلًا شريرة، بل يلزم فقط أن ينشر المرء الفخاخ في الصباح ويمضي لحال سبيله، وفي المساء يجمع هذه الفخاخ وكل ما شبك فيها ويربطها في عقدة ويحفظها في مخزن مع العقد الأخرى المشابهة.

باختصار، بمرور الوقت اكتسبت قساوة الأمير التي لم يحفزها شيء أبعدًا من الهياج المحموم اللانهائي، وقد كان مؤلمًا لصاحبه بالقدر الذي آلم به من تعرضوا له.

وجد الأمير اليهودي المنشود. رشَّح عضو مجلس الدولة بوعز دافيديتش أو شميانسكي، العامل بالسكك الحديدية، أخاه لعازر للأمير

الشاب، وكان لعازر متعطشاً منذ فترة طويلة ليؤسس عملاً خاصاً به. حظي لعازر بمظهر لائق للغاية. كان يهودياً من النوع المثقف وقد تفهم أن أول ما يلزمه في الوقت الراهن هو أن يتخلص من مظهر اليهودي المعتاد. ظهر في بلاجوفيشينسكوي مرتدياً سترة أنيقة منقطة وربطة عنق ملونة ونظارة أنفية ذهبية وقد قص شعره قصيراً من دون أي سواف طويلة. قدّم نفسه بتواضع وتحدث بالروسية بحذر، واستطاع التحدث بها بشكل صحيح تقريباً، بالرغم من أنه لم يستطع أن ينطق حرف «ر» جيداً، وعلاوة على ذلك، بدلاً من «ماذا» اعتاد قول «ماسا»، وبدلاً من «من أين؟» اعتاد قول «مش أين»، وبدلاً من «قرية» اعتاد قول «قرية»، وبدلاً من «يفعل» اعتاد قول «يكحل». علاوة على كل ذلك، عندما يُحَبِّط يجلس القرفصاء وعندما يبتهج يبدأ في التلويح بذراعيه. كان شاباً وممتلئاً ذا شفتين قرمزيّتين وذراعين بدينتين وعينين جاحظتين كعيني السرطان، ولديه بعض الميل إلى استدارة البطن. لكن أكثر ما جعل الأمير يُعجب به هو أنه عندما تحدث عن الفلاحين ملأ اللعاب الذي كان يمتصه بشهية شديدة زوايا فمه.

رغبة منه في عدم تأجيل الأمور إلى أمد بعيد أبرم الأمير مع أوشميانسكي^(١٨٤) أكثر العقود تشوهاً وامتلاء بمواطن السهو، ثم رحل من بلاجوفيشينسكوي. كان يشعر بالذعر من العواصم، كما أنه يكره كاشين، وقد اعتبر أنها متاخمة للكارثة التي حلت عليه، لذلك استقر في بيجيتسك. شيد هناك منزلاً، وألحق به حديقة وعاش هناك مع ابنته،

(١٨٤) لقب عائلة لعازر.

محاطاً بمسنين يحتضرون، وقد بدأ يذوي هو الآخر، ويعود إلى حالة الطفولة. صار يخشى الغرباء وانتهى به الأمر ليصير ناسكاً. قضى أوقات الصباح حابساً نفسه في غرفة مكتبه، منهمكاً في كتابة عمل عن ضرورة تأسيس «جمعية النبلاء المشائين» التي تحمل على عاتقها الذهاب إلى الشعب بهدف نشر المفاهيم السليمة عن أهمية ودور طبقة النبلاء في البلاد. في نحو الثانية بعد الظهر يخرج من مكتبه لتناول الغداء بمعطفه الرسمي وربطة عنقه البيضاء، ويتناول صنوفاً ممتازة ذات أسماء مختارة من قبيل: **bombes de pommes de terre a la Sardanapal**, **Puree de carottes a la Jean le Terrible**, **Oeufs sur le plat orne de soukharis a la Suwaroff** ^(١٨٥)... إلخ. في المساء يدير المائدة مع ابنته ويستدعيان الأرواح. استدعى أيضاً أرواح من ساهموا في هذا الإصلاح: الكونت لانسكي والكونت روستوفتسيف والمستشارين السريين ليفشين وميليويتين وسولوفيوف... إلخ. حاول إقناعهم ونخس ضمائرهم، لكنه لم ينجح في مسعاه هذا إلا جزئياً. يبدو أن لانسكي وروستوفتسيف اعترفاً حقاً بأنهما تعجلا الأمر، لكن ليفشين لم يعترف بل قال: ما ذنبي في الأمر؟ فيما يتعلق بميليويتين وسولوفيوف فقد ترددا في الاتصال، وبعدما ظهرا اكتفيا بأن نعتا الأمير بالقلنسوة القديمة.

بدأت طريقة الحياة هذه غريبة للغاية حتى إن سلطات بيجيتسك انزعجت. في الواقع كان عليه إما أن يعيش في العاصمة أو في كاشين،

(١٨٥) كرات البطاطس لا ساردانابال - الجزر المهروس على طريقة إيفان الرهيب - بيض مقلي في فتات الخبز على طريقة سوفاروف.

لكنه عاش في بيجيتسك محبوسًا، لا يلتقي بأحد، ولا يذهب حتى إلى الكنيسة، يقضي أوقات النهار في كتابة شيء ما، وفي المساء يؤدي أفعالاً سرية. حتى الشرب لا يشرب بكثرة؛ الأمر الذي كان من شأنه أن يخفف من وقع الأمر. ظهرت بالطبع رغبة في تسليط الضوء على هذا الوجود الغامض ومعرفة مدى توافقه مع التعليمات المتوفرة حول هذا الموضوع. حمل الشرطي المحلي تيرينكين على عاتقه تنفيذ هذه المهمة التي تفاخر على الفور بأنه بالرغم من ولادته في مقر مدير محطة بريتيكين، ففي واقع الأمر، في هذا الوقت، سافر أبوه ليجلب ساعي البريد إلى كاليازين، وبقيت أمه وحدها عندما وصل الأمير فجأة إلى بريتيكين، في طريقه إلى ضيعته.

ذات صباح رائع وصل شاب في الثلاثين من العمر إلى منزل الأمير وعرف نفسه بأنه ضابط شرطة محلي، وقبل فجأة يد الأمير وسرعان ما دعا «أبي العزيز». تعجب الأمير. سأله بصرامة:

– ماذا تقول؟

– أقول «أبي العزيز» يا سيدي. اسمح لي أن أذكرك بعام ثلاثة وأربعين في بريتيكين. هذا أنا يا سيدي!

هكذا أجابه تيرينكين بوضوح نفسي رصين.

صلب الأمير وتمتم بشيء. تذكر شيئًا ما حدث فعلاً في بريتيكين لكنه لم يستطع تصور أن ما فعله يمكنه أن يُنتج ضابط الشرطة المحلي الواقف أمامه الآن. احمرت الأميرة خجلاً وقد تصادف حضورها في هذا المشهد (ومضت فكرة في ذهنها: لكن ماما كانت لا تزال حية في

هذا الوقت!) وبعد ذلك عبست في وجه أبيها ليومين متواصلين. لكنها لم تكتفِ بالصفح عنه بعد ذلك بل إنها عاملته بمزيد من اللطف (يا له من أب!).

إلا أن تيربينكين نال مراده. بدأ يزور الأمير ليهنته في أيام الآحاد والأعياد، وبالرغم من أنه لم يُسمح له في غالب الوقت بتخطي ردهة الاستقبال وشرب كأس فودكا مع قطعة كعك، فإنه نجح في كل الأحوال في التقاط مسودة ورق من على الأرض تعرض باختصار حقوق وواجبات أعضاء «جمعية النبلاء المشائين».

سارع إلى تقديم هذا الاكتشاف إلى سلطات بيجيتسك، ولكن بدلاً من التشجيع المتوقع تلقى تحذيراً منها، مفاده أنه لو كان سكان مقاطعة تفير قد انشغلوا مثل أمير بوشيوخون روكوسوي بمشروعات حول النبلاء المشائين، لازدهرت أحوال المقاطعة منذ زمن بعيد.

منذ هذا الحين فصاعداً تركوا الأمير يعيش في سلام.

في هذه الأثناء ظل حال ضيعته يزداد انحداراً من عام لآخر. لم يغفُ اليهودي لحظة واحدة؛ ظل يقطع الغابات ويبيع المنقولات، بل واصطاد من البركة كل أسماك القوبيون الكبيرة. المظهر الخارجي للضيعة هو الشيء الوحيد الذي ظل على حاله؛ أي الحديقة ومنزل السيد ومشاتل الخضر والبرتقال لأن الأمير طالبه بأن يرسل له باستمرار الخيار الطازج ليكون على مائدته في فبراير، لإعداد *salade de concombres*

^(١٨٦) Roukossouy. حتى الأمير الشاب لم يَزُر الضيعة قَطْ بالرغم من تهديده أكثر من مرة بمراجعة حسابات اليهودي. عرف أوشميانسكي دائماً بأمر هذه التهديدات في الوقت المناسب، ومن أجل أن يحول دون وقوع هذا الخطر اعتاد التوجه في هذه الأوقات إلى بطرسبرج. هناك عرف كيف يستفيد بمهارة من الصعوبات المالية التي يواجهها الشاب، وأجبر الشاب على موافقته على بيع الغابات مقابل إعطائه مبالغ تافهة. لم تُمثّل هذه الموافقات في حد ذاتها قوة قانونية، ولكن لعازر عرف جيداً أن الأمير الكبير إذا عرف بشأنها، فلن يرغب في إثارة القيل والقال عن الأمر. علاوة على ذلك منح الشاب قرضاً، بحيث وصل الأمر في النهاية إلى أن صار يمتلك كمية من الإيصالات التي كتبها ويعيد كتابتها من عام لآخر. في النهاية دُوِّلت هذه الإيصالات بتوقيع: اللواء الأمير روكوسوي من بوشيوخون. من الواضح أن الشاب (كان في الأربعين من العمر في هذا الوقت) قد حقق مراده. لكن أوشميانسكي لم ينجح في امتصاص دم الفلاحين إلا في العامين الأولين فقط، فبعد هذين العامين وصل إلى القرية ذووه اليهود بتفكير مثالي، ممثلين في شخوص: أستافيتش وفيناجيتش وبروخوريتش، وقد استطاعوا بدورهم أن يمسوا دم الغريب الوقح لأنهم عرفوا جيداً كيف يسلكون ويثرثرون مع الفلاحين بحرارة. عندما وصلنا إلى بلاجوفيشينسكوي لم نجد فيها أي آثار متبقية للازدهار السابق. رأينا الأكواخ قد اسودت والتوت وتهالكت الساحات وتهدمت الأسطح، بالإضافة إلى عيوب أخرى. من بعيد، رأينا على

(١٨٦) سلطة من خيار روكوسوي.

تلة صغيرة مجموعة واهنة وقليلة العدد من الفلاحين. سارت الديوك وحيدة في الشوارع المقفرة تحاول استقطاب الدجاجات عبثاً. تحت أشعة الشمس تلالاً خمسة أو ستة منازل وحسب جرى تجديدها ذات أسقف خشبية جديدة. من الواضح أنها لفينا جيتش وبرو خوريتش المذكورين سابقاً وشخص آخر من السلطات الريفية. احتوت القرية على ثلاث حانات؛ واحدة في مدخلها، والثانية عند مخرجها، والثالثة في وسط القرية، في ميدان السوق. كان من المستحيل على القروي أن يتوجه يميناً أو يساراً، كما كان من الصعب عليه أن يمكث في المنتصف، في أي مكان آخر يمكنه أن يشرب ويشترى الخمر كما يشاء!

توقفنا نحن أيضاً في واحدة من هذه الحانات؛ الحانة الموجودة في وسط القرية حيث يوجد ما يُعرف بـ: «قسم خاص».



تركت رفاقي في القرية وتوجهت بصحبة جلوموف إلى الضيعة. وجدنا المستأجر واقفًا في شرفة منزل السيد الخارجية (كان يسكن في الطابق السفلي)، وقد أخذ يوضح لأحد الفلاحين بعقلانية لماذا من المربح له أن يترك نفسه فريسة لليهودي عن أن يترك نفسه فريسة لأستافيتش الذي فتح فمه هو الآخر ليفترس الفلاح. حكَّ الفلاح جلده وكرر: «لا جدال في هذا. من المربح طبعًا!»، ولكن بدا من خلال أسلوبه في حكَّ جلده أنه يوافق على كلام اليهودي بدافع الأدب وحسب، ولكن في قرارة نفسه يخطط للخيانة. أما أوشميانسكي، وقد حدس تفكيره، قال: «على المرء أن يحذر من أخيه!».

عندما أخبرناه بالغرض من وصولنا لم يفهم أوشميانسكي في البداية المقصود وجلس. لكن عندما وضحنا له أننا بوصفنا نبلاء مشائين قد حملنا على عاتقنا مهمة حفظ الذات، ولهذا الغرض نعرض خدماتنا على اليهود جميعًا الراغبين في التحول إلى الطريق الحقيقي، وعندما أشار له جلوموف، بحركة تبدو كأنها تلقائية، بأوراق نقدية تحت أنفه، هبَّ من جلسته ولوَّح بذراعيه بسعادة. في هذه اللحظة تلاشت الورقة النقدية دون أثر.

تبين أن مجموعة كاملة من الإجراءات قد اتُّخذت من جانب أوשמيانسكي، إلا أنه لم يتخذها هو شخصياً بل اتخذها أحد أقاربه الفقراء، ويدعى موشكا، قد لجأ إليه بسبب معاناته. بشكل عام كان الإجراء معقداً للغاية، الأمر الذي عبّرت عنه إحدى الصحف عن حق تماماً بقولها: «هذه ثمرة مريرة جداً، ولكنها عادلة، للوضع الزائف لليهود في مقاطعات روسيا الداخلية!».

الأمر وما فيه أن لعازر، بوصفه يهودياً غير مُعمّد، لم يملك الحق في العيش مستقلاً في مقاطعة كاشين، وإذا لم يكن أحد قد أزعجه حتى الآن فلا بد أن هذا قد حدث سهواً لا أكثر. لكن يستحيل أن نظل نأمل في استمرار السهو إلى أجل غير مسمى، خاصة أن فيناجيتش وبروخوريتش شمشما عن الأمر بنجاح وبدأ في التباهي والتهديد. اندفع أوשמيانسكي إلينا وطلب مساعدتنا بكل حدة عقله، ولكن بغض النظر عن طريقة جلوسه القرفصاء، والتقلبات التي فكر فيها، بدت له الآفاق المستقبلية واحدة؛ الإخلاء الإلزامي مع أول إخطار من جانب أي من أتباع فيناجيتش. صحيح أنه ملّ تماماً، بل إنه حلم كثيراً أن يقتحم مجالاً أوسع من مجاله هذا، لكن لا تزال تبقى أمامه أرض قاحلة لم تُقطع بعد، وكان يشعر بألم مميت من التفكير فقط في أن تضع من بين يديه. ذهب إلى أوغاد كاشين، وهناك أسدوا له النصيح. اتضح أنه إذا استطاع العثور على أحد الأقرباء، ووافق قريبه هذا على التحول إلى المسيحية، فسيتمكن من تنفيذ الإجراءات المطلوبة، وحينها يحق للعازر أن يعيش في ضيافة هذا القريب من دون أي قيود وإلى أجل غير مسمى. تذكر

أوشميانسكي بالطبع موشكا، ومن دون أي تأجيل قرّر مساعدة موشكا على إتمام عمل مدنس.

وافق موشكا بسرور، لكنه طلب أن يُقدّم له، علاوة على حساء الفاصوليا الذي يتناوله بوصفه قريباً فقيراً، رأسي ثوم إضافيين.

رغبة في ألا تبرد حماسة موشكين استأجر أوشميانسكي الشماس العجوز من كاشين: مينا برازدينيكوف^(١٨٧)، الذي جرّد من شموسيته بسبب السكر. اصطحب أوشميانسكي الشماس^(١٨٨) معه بثمان بخس: روبلين ونصف مقابل التدريب كله، بالإضافة إلى نصف زجاجة خمر يومياً، فبسبب تقدمه في العمر لم يعد قادراً على المزيد. لكن نظراً لأنه جنّ تقريباً، بفعل الخمر والتقدم في العمر، حتى إنه نسي كل شيء تقريباً، بدأ الأمور بطريقة غريبة. أولاً: أجبر موشكا على تناول سجق أوجليتش. ثانياً قال: فلتصح الآن «أورا!». أكل موشكا السجق وطلب المزيد ثم صاح «أورا!» مرة والثانية وأعجبه الأمر. نتيجة لذلك، بعد أن طُرِد من مكتبه بسبب التغيير المزمع أن يحدث، قضى أياماً كاملة في التسكع مع الشماس الهائج في الحديقة، يمزق السجق بأسنانه صائحاً: أورا!

عندما امتلأ موشكا بالسجق على آخره قال له الشماس الهائج الذي أحبه كابن له:

(١٨٧) برازدينيكوف تسمية مشتقة من كلمة بمعنى: عيد أو عطلة.

(١٨٨) المقصود أنه أحضر الشماس السكير معه ليعلم موشكا مبادئ المسيحية حتى يتحول إليها رسمياً.

- موشكا! رأيت لتوّي لعازر قد ترك خمسة عشر كوبيكاً على الطاولة في الصالة. اذهب وخذه بعيداً، وعندما يتعد اركض إلى فيناجيتش واشتر منه زجاجة فودكا ربع لتر. أريد أن أعلمك شرب الفودكا الرديئة.

هكذا فعل موشكا فعلاً. شرب مينا برازدنيكوف وحده نصف الزجاجة، وصبّ النصف الآخر عنوة تقريباً في حلق موشكا. عندما عادا في وقت متأخر من الحديقة إلى المنزل، وكان موشكا يهدر طوال الطريق، قرأ مينا في وجه أوشميانسكي تعبير اللوم، ووضح له:

- هذا لا شيء... مجرد فيضان مشاعر!

عندما استفسر أوشميانسكي بعد شهر من برازدنيكوف عن النجاح الذي يحرزه تلميذه، أجاب الشماس المجرد من شموسيته، بعد أن صفع موشكا بيده على جبهته، إجابة مختصرة لكن واضحة:

- مغفل!

طلب أوشميانسكي بالطبع قبول الأمير والأميرة، لكن الأمير في هذا الوقت كان منغمساً في مشاحنة مع روح مستشار الدولة سولوفيوف بخصوص عدم ملاءمة توقيت إجراءات إصلاح أوضاع الفلاحين، حتى إنه لم يفهم تقريباً ما يطلبه لعازر منه تحديداً. فيما يتعلق بالأميرة، فقد وافقت في البداية وواصلت عملها في الحياكة، ولكن عندما عرفت أن موشكا كبير، احمر وجهها ورفضت رفضاً مباشراً. وجد لعازر نفسه في مأزق صعب، وفكر إثر هذا الفشل في أن يدعو بروخوريتش ليصير عرابه، وزوجة فيناجيتش لتصير عرابته. بهذه الخطوة الجريئة عوّل على

تحقيق المصالحة بين قطبي الريف، ومن ثم ينتهي الأمر بالتحالف معهما من أجل توجيه ضربة مشتركة إلى أستافيتش وإغراقه.

هكذا كان الوضع عندما وصلنا إلى بلاجوفيشينسكوي. كان مينا برازديكوف قد قضى بالفعل ستة أسابيع في الضيعة، وظل يقول طوال هذه المدة إن موشكا غير جاهز بعد. بدأ لعازر يشعر بالضجر من هذا التأخير. في الحقيقة لم يطلب العجوز زيادة أجره لكنه واظب على الاستيلاء على ما لا يقل عن عشرين كوبيكًا يوميًا زائدة، بالإضافة إلى ذلك ظل يشرب نصف الزجاجة المحددة له سلفًا، وهي تكلف مالا هي الأخرى. أفسد موشكا نفسه معه، فصار يسرق ويشمل ويتشاجر، وبشكل عام صار يسلك سلوكًا يشبه سلوك الصيادين الجدد حتى يصرخ فيه الناس: «أيها المتبطل الضخم!». يقول لعازر في نفسه: «آخ لو كان بوسعي أن أفرغ سريعًا من هذا الأمر. بعده سأربي موشكا هذا. سأحسب لهذا الوغد كل رأس ثوم أخذا! سوف أنتزعها منه! سوف أفعل به ال...»، ولكن فجأة خطرت على ذهنه فكرة مذهلة «ماذا لو قال موشكا: سئمت من عيشك عندي يا لعازر دافيديتش، وأريدك أن تعود إلى أوشميان». مع ورود هذه الفكرة على ذهنه لم يجلس لعازر فقط، بل أغمض عينيه أيضًا. «ماذا سوف أفعل حينها؟». أخذ يفكر وهو يعد على أصابعه كم رغيًا تناوله موشكا عنده منذ ولادته، علاوة على حساء الفاصوليا والبصل.

بشكل عام ظهرت لدى أوشميانسكي مخاوف كثيرة سممت وجوده. قبل أي شيء آخر كانت العائلة الضخمة. لسبب ما أنجبت له

زوجته فرانتسوفنا (وقد سمّاها راحيل^(١٨٩)) حزمة كاملة من الأطفال. توجب عليه أن يجهز عملاً تجارياً لكل منهم، والأعمال التجارية تتطلب مالا. عرف جيداً أنه سيجد المال اللازم لتحقيق ذلك، ولكن ها هو يُنتزع منه فجأة. لا يُنتزع منه سرقة ولا سطواً لا قدر الله، بل سيقولون له ببساطة: «لقد ربحت مالا، والآن أعده!». آخ! ماذا سيحدث معنا حينها؟! ماذا سيكون مصير إفيل وروفيم وباروخ وزيلمان وليا وإتسيك وسارة وأجار وريبيكا، وأخيراً إستير الصغيرة التي اعتادوا أن يسموها «زوجة حوريا^(١٩٠)»، بسبب خصلات شعرها الحمراء الرائعة؟ لقد أخفى بالطبع جزءاً كبيراً من رأسماله، ولكن يحدث أحياناً أن تخفي المال ثم لا تعرف طريقة للحصول عليه. على سبيل المثال؛ ماذا يفعل لو أخفى المال في أحد البنوك ثم وجد نفسه بسبب جنون اللواء أوتشاييني في أمريكا؟ سيقولون له: «من أين حصلت عليه؟ أثبت!».

عذبت هذه الفكرة بدرجة مريعة حتى إنه رأى في الليل البلية ماثلة أمامه حية، وهبّ من فراشه، مغطى بالعرق البارد، وأخذ يلعن... تذكر كيف اعتاد الجنرالات العروج على أخيه ذي الشأن المالي الرفيع لاقتراض المال قائلين: «ماذا تريد أكثر من ذلك يا بوعز دافيديتش؟ ماذا تريد حقاً؟»، ولم يكن بوعز دافيديتش يقاطعهم، بل يعارضهم باتضاع قائلاً إنه لا يمكن للمرء أن يتنبأ باحتياجاته. أيمن أن يكون قد حل أو أن هذه الاحتياجات؟ تذكر كل ذلك وأخذ يلعن ويلعن إلى ما لا نهاية.

(١٨٩) راحيل هي زوجة يعقوب وهي من أنجبت النبي يوسف بحسب سفر التكوين التوراتي.
 (١٩٠) بحسب سفر صموئيل الأول التوراتي أوريا كان قائد جيش لدى داود الملك وله زوجة فائقة الجمال تدعى بيثشبع.

كلما انخرط في السب واللعن ازدادت شراسته في الأعمال التجارية ومصّ دماء الناس وافترسهم ومزقهم.

تمثل أعز أحلامه في تشييد مسار سكك حديدية. في البداية على نطاق ضيق. منذ فترة ووطنيو كاشين يتدمرون بسبب ضيق المجال، فما الأفضل من هذا الحلم إذن؟ يمكن أيضًا إمداد خط من أوجليتش. المال متوفر لديه، وصحيح أنه ليس بالمبلغ الضخم، ولكن القوة لا تكمن في رأس المال بقدر ما تتمثل في توفر مخزون من الحمقى. في هذا المجال سيساعده بوعز. لن يعطيه المال لكنه سيشير له إلى الطريق ويجد له الحمقى. وماذا لو احتفظ بفكرة المشروع لنفسه بعد أن يخبره به لعازر؟ حينها سيبقى لعازر وسط الحمقى. آخ يا أخي! هل يمكنك أن تفعل ذلك؟ ألم تشبع بعد؟

إنه يعرف جيدًا ما يتعلق بأمور السكك الحديدية. في فترة المراهقة عمل لعدة سنوات في إحدى السكك الحديدية، في البداية كصبي مهمات، ثم عمل كاتبًا، وأخيرًا رئيس عمال. في هذا الوقت تولى تشييد السكك الحديدية مهندس شاب ظل يضربه على رأسه طوال الوقت. سيجعل هذا المهندس مديرًا للسكك التي سيشيدها. لقد تعلم من هذا المهندس وصار ذكيًا، والآن يمكنه أن يتولى تشييد أي شيء بنفسه. سيستأجر العمال بسعر رخيص، وإذا قدره حق تقديره فسوف يدفع لهم جيدًا. لا... الأفضل أن يستأجر عمالًا بسعر رخيص! مع ذلك ربما يعود تثمينه لجهودهم بربح أكبر، ولن يفعل ذلك مع كلٍّ منهم على حدة، بل مع جميعهم مرة واحدة. ربما سيطلبون المال، كلٌّ على حدة، ولكن إذا

طلبوا جميعهم زيادات مرة واحدة، فسيندلع تمرد، وحينها سيبدو الأمر عصيانياً للسلطات. حينها سيسأل: «أين السيد مأمور القسم؟».

هكذا شيد مسار سكك حديدية في ذهنه، ثم شيد مساراً آخر، وأخيراً شيد واحداً في بطرسبرج. اشترى منزلاً في شارع بولشايا مورسكايا قبالة منزل بوعز مباشرة، وكلاهما بمدبرة منزل فرنسية، وكلاهما يتبرع للملاجئ. يزور الواحد منهما الآخر: «أعرج عليه ويعرج عليّ». في الصيف سيزور نهر إيمس^(١٩١) حيث تسهل زيارته في هذا الوقت، وفي سبتمبر يمضي إلى تروفيل^(١٩٢) ويستمتع بالمياه هناك، ومنها إلى باريس ونيس. سيشعر بالملل في كل مكان. سيطارده في كل المكان التفكير في الطعام الرائع الذي يلائمه ولا يستطيع تسميته، وامرأة ذات سر غريب يدفع من أجلها غالباً، لم تفكر الطبيعة بعد في صنعها! في هذه الأثناء يُشيد المهندس السكك الحديدية له. سيلقي نظرة بين الحين والآخر على الأعمال في بطرسبرج ويراجع الحسابات، ثم يولم القادة غداء خفيفاً، وبعد الغداء ينظفون ما علق بأسنانهم. ثم يذهب مجدداً إلى نيس ومنها إلى باريس، وفجأة تخطر فكرة مريعة! يأكل القادة عنده ويمتدحون المضيف الكريم والخمر الجيد والسجائر الرائعة، ولكن واحداً منهم يتعد قليلاً ويضربه على ركبته بود قائلاً: «وماذا تريد أكثر من ذلك يا لعازر دافيديتش؟ ها؟»، وحينها يحمر وجهه غضباً، لكنه لا يستطيع أن يجد إجابة مناسبة، ولا حتى في أحلامه. إنه على قناعة بأنه حتى في أكثر أوقاته رخاء لن يكون أمامه سوى أن يلعن.

(١٩١) نهر في ألمانيا.

(١٩٢) مدينة فرنسية سياحية.

لم يحلم باستعادة مملكة إسرائيل، فقد كان واقعياً على التفكير بهذه الطريقة. لم يتخيل حتى ما يمكن أن يفعله هناك. لن يعيدوا إليهم أورشليم، ولا حتى شيخيم. الأفضل له أن يعيش في مقاطعة كاشين، حتى لو كضيف. بالطبع يمكنه في شيخيم أن يرسل الأنسة جوديك^(١٩٣)... لم يسبق له قط أن رأى جوديك، ولكن لكونه شهوانياً آمن بإمكانية رؤيتها. فهم منذ فترة طويلة أن راحيل لا تلائمه، وعلاوة على ذلك تنجب كثيراً. لذلك خصص لنفسه شقة في أحلامه المستمرة عن الحياة المستقبلية في بطرسبرج. ستقيم راحيل ومعها الأطفال والمربون والمربيات في الطابق الأوسط، وستجد ثلاثة من مستشاري الدولة الحقيقيين تلعب معهم الورق، أما هو فسيقوم في الطابق السفلي، وهناك سيستقبل جوديك. ستغمغم جوديك بالفرنسية، بينما يجلس مع الجنرالات ويضحك، ولن يعرف ما الذي يضحكه تحديداً.

من وقت لآخر اعتاد استعادة طفولته البعيدة. آخ! يا لها من فترة! ولد في أوشميان في كوخ متداعٍ تقريباً تطل نوافذه الأربع على شارع مليء بالروث. كان أبوه يهودياً عجوزاً صالحاً يعمل لحاماً متجولاً، يموت من الجوع بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فقد كثر اللحامون المتجولون في المدينة من دون أن يوجد ما يلحمونه. لكن العجوز تحامل على نفسه. لم يخزن وصية الأسلاف، ولم يخلع اليرمولكا من على رأسه^(١٩٤) ولا العباءة الطويلة البالية من على كتفيه، يذرف الدموع

(١٩٣) ممثلة فرنسية كوميدية.

(١٩٤) غطاء الرأس اليهودي الصغير.

طوال ليالٍ كاملة، وينشد المزامير عن مجد أورشليم وسقوطها. كان واحدًا من فقراء اليهود المتحمسين القادرين وسط نثانة وقذارة المدينة المحلية الصغيرة على تكوين سراب لامع مُعَدَّب يستنفدهم وفي الآن ذاته يمنحهم القوة. حتى الآن لا يزال لعازر يتخيل هذا العجوز الجاف أمامه، كما لو أنه لا يزال حيًّا؛ العجوز الذي لم يتوقف حتى وفاته عن الطرق بمكواة اللحام ليوفر لقمة عيش لأسرته التي أذلته.

لكنه تعامل مع ذكرياته عن والده بطريقة غريبة بعض الشيء، كما لو أنه يقول: «ومن أمره أن يصير كذلك؟». كان بوعز في صباه لحامًا هو الآخر، وكذلك لعازر. الآن لا يزال لديه قريان في أوشميان يعملان لحامين، وقد نوى أن يرسل لهما خمسين روبلاً فضيًّا ونسي. لكن بوعز عدَّل أوضاعه سريعًا، وكذلك فعل لعازر بعده ببضعة أعوام. دخل بوعز مجال التجارة وسرعان ما أثبت نفسه وأظهر قدرات استثنائية وسرَّح شعره على طريقة la Capoul وأعجب به أحد المصرفيين. هناك أتم عملاً تجاريًّا ناجحًا، وغطس ثم ظهر، ثم غطس وظهر مجددًا. الآن لديه عشرة منازل فخمة في كل المدن الأوروبية البارزة تقريبًا. لم يستطع لعازر أن يفوقه نجاحًا، لكنه على الأقل نجح في تدمير هذا المظهر الخارجي الذي يمنع اليهودي من ولوج الحياة. يتجول مرتديًا سترة قصيرة، ويسرَّح شعره على طريقة la mal content، ولو شاء يمكنه أن يترك شعره ويفرقه من المنتصف. بشكل عام لا يمكنه أن يشكو من القدر. بالرغم من أنه لا يزال بعيدًا عن أخيه ولكن...

بينما تتكشف حياة أوشميانسكي بهذه الطريقة أمامنا دعانا إلى

منزله. لم يستقبلنا في الطابق السفلي حيث تقيم أسرته، وحيث تعالت صيحات الشباب اليهود، بل استقبلنا في الطابق العلوي، في غرف يخصصها للأمير في حالة مجيئه. دخلنا غرفة فسيحة ورائعة، وبالرغم من ذلك لم يكن فيها من الأثاث سوى القليل. تطل الغرف الأمامية الرائعة على الجانب المشمس. كان الهواء جافاً ونظيفاً ومريحاً، بالرغم من أن أحداً لم يعيش هنا منذ سنوات طويلة. طاف بنا لعازر في كل مكان ولم يتوقف طوال هذا الوقت عن الشكوى:

- تتطلب هذه السقائف وحدها مائة ساجن من الحطب للتدفئة كل عام، فما بالكم بالمطلوب لمشاتل الخضر والبرتقال! يتعين عليّ أن أوفر كل هذه الكمية من حطبي الخاص. أبلغت الأمير الشاب بأنه سيكون مربحاً كثيراً لو يسمح بتأجير الطابق العلوي، وعرضت عليه مبلغاً جيداً لكنه خاف من أبيه العجوز. يظن أنه يريد أن يموت هنا، ولكن أين يمكنه أن يموت هنا؟ سيكون الطابق السفلي أكثر راحة له، وكنت سأقطع الحديقة من أجل أن تصير حياته فيها أمتع، على الأقل إلى هذه المسافة (وأشار بإصبعه إلى مكان ما بعيد). لكم أن تتصوروا أي أشجار موجودة هنا: بلوط وصنوبر وأرز! كم الأمر جيد هنا! كل هذا يضيع عبثاً، لا سيما مشاتل البرتقال. هذا هو المكان الذي وضعوني فيه! البستانيون مدللون حتى الفساد، ويتقاضون رواتبهم على ذلك! من يدفع؟ أنا الذي يدفع كل شيء. يجدر بنا التخلص من كل هذه المصروفات غير الضرورية، ولكن العجوز لا يولي انتباهاً لكل هذا، وأنا المسؤول.

أخبرنا متذمرًا بالتفاصيل السالفة عن الأمير العجوز وعبر عن أمله في إمكانية تحسن الأمور بعد موته حيث سيكون التعامل أسهل مع وريثه. يحب لعازر ابنة العجوز الشابة ويقول: يا لحيويتها ورقتها! لا حساسيات: المال على الطاولة بينما يدور الحوار كله هنا. أضاف:

- وبقدر ما أعرف سيمنح العجوز الجزء الغالب من ثروته لابنته، وستمنحها بدورها للدير. أقول لكم أيضًا (وهز رأسه بحزن) لو كنت ممثل الحكومة ل...

- ولكن نظرًا لأنك لن تصير أبدًا ممثلًا للحكومة...

هكذا قاطعه جلوموف بحدة ولكنه لم يكمل لأن لعازر انكمش في مكانه مع أولى كلمات جلوموف لدرجة أننا ظنناه قد تلاشى. لكن بعد دقيقة عاد للوجود ثانية. واصل حديثه:

- وستنتقل الضيعة إلى ابنه. حينها س...

ولوح بذراعه علامة تشي بالفرحة.

في هذه الأثناء وصلت إلينا عبر النوافذ المفتوحة روائح طعام قادمة من الموقد بالأسفل. فاحت روائح بصل مقلي وسيقان ملفوف وشيء يشبه كتانًا مغسولًا. انبعثت الرائحة الأخيرة من إوزة مشوية لم يكن لديها أكثر من أربع وعشرين ساعة لتعيشها بسبب عمرها المتقدم وأمراضها، وقد أمر أوشميانسكي بذبحها على مضض. ربما لذلك هدر اليهود الصغار في الأسفل، من دون أن يخطر على بالهم أن لعازر ربما لم يقرر مكافأة الجميع بهذه الإوزة، بل الجديرين بها وحسب. اعتقدنا

لدقيقة أن السيد المضيف سوف يدعونا لتناول الخبز والملح^(١٩٥)، وقال: «أتمنى أن تشرفوني و...»، لكنه خاف، ورغبة منه في عدم العودة إلى هذا الموضوع نهائياً هرع إلى الشرفة وظل يهوي بمنديله حتى يستعيد شتات نفسه. أخيراً نادى على أحد عماله ليستدعي موشكا وبرازديكوف، واشتعل غضباً عندما عرف أن كليهما توجه منذ عشية اليوم السابق إلى الطاحونة على مسافة عشرين فرساً للصيد، ولن يعودا قبل الغد.

توجب علينا الانتظار في القرية. مع ذلك، بدا لنا الأمر لطيفاً. لا أعمال ولا مشاغل، ولا تنعقد المحاكم هنا، وبذلك سنكون في المكان المطلوب دائماً في الوقت المناسب. في هذه الأثناء حلت الأيام المشرقة والجافة التي يجود بها سبتمبر أحياناً على شمال بلادنا. بالرغم من أن الشمس كانت لا تزال مشرقة، فإننا في الظل شعرنا برطوبة الخريف القادم. بدا الهواء صافياً بدرجة غير عادية وممتلئاً بروائح الخضر الناضجة وأعشاب الحداثق العطرية. لا تزال الجنادب تصر في العشب الذي نما صيفاً، وبالقرب من الأجمات والأشجار ترتعش خيوط العنكبوت. لا تزال الأوراق تمسك بقوة بالفروع، وكل ما في الأمر أنها بدأت تسمر قليلاً. الأضاليا والخطمي والبليحاء والبازلاء الفواحة... كل هذا شحب قليلاً بتأثير صقيع الصباح، لكنه لا يزال في كامل ازدهاره، وفي كل مكان يطن عدد لا يُحصى من النحل كموظفي فترة ما قبل الإصلاح يتحركون بأقصى سرعة لينالوا الرشاوى الأخيرة.

(١٩٥) دلالة الترحيب.

من حولنا الفضاء والصمت، ولا نفس واحد يصدر. كل طائر في السماء مرئي بوضوح، وكل ضربة لمدراس القمح مسموعة، والكنيسة البيضاء على التل الصغير تتلألأ، والمياه في البركة تبدو كالكريستال. فتنة... فتنة... فتنة. أما في بطرسبرج فربما في هذا التوقيت تحديداً يحمل الهواء الصقيع، وقد امتلأت الشوارع بهذا الوحل الكريه الذي يُحوّل المشاة في لحظة واحدة إلى ما يشبه القوالب. عاد الموظفون من منازلهم الصيفية، ويمكن للمرء أن يرى في كل نافذة امرأة تمسح الزجاج، وقد بدأت في إشعال المواعيد وإعداد إطارات الشتاء. سعل مستشار الدولة ديبا بالفعل، وسيظل جسده يرتج هكذا طوال الشتاء، أما جاره المستشار أوداف فسيستسأل مندهشاً طوال الشتاء كيف لم يتهدم جسد ديبا بسبب هذا السعال، وفي الوقت نفسه سيصيح بألفاظ نابية: آخ من البواسير!

بعد أن اقتنع بأننا لن نطالب بأي شكل بهذه الإوزة المشوية ابتهج أوشميانسكي ووافق بكل سرور على مرافقتنا إلى الحديقة. وجدنا الحديقة كبيرة وفاخرة؛ إنها بالضبط الحديقة التي يحلم بها الناس أحياناً، ويقولون عنها في يقظتهم: آه لو أعيش هنا حتى أموت! يستحيل القول إن أوشميانسكي قد حافظ عليها بشكل صحيح، ولكن نظراً لأن الأشجار الضخمة هي ما شكّلت جمالها الأساسي، شقت النباتات أحياناً مسارات تحت ظلها من دون تطهير. احتوت الحديقة على سقيفة واحدة تقع على ضفة بركة كبيرة، لكن من دون أروقة بأعمدة ولا نقوش. خلا المكان من أي تلال أو منحدرات مصنوعة، كما خلا

من الجسور والتمائيل ذات الأنوف أو الأيدي المكسورة. بشكل عام لوحظ غياب كامل لكل ما هو معقد أو عاطفي، واقتصر الأمر على نحت الأحرف الفرنسية القديمة D. S. على خشب أشجار البتولا. شهادة أوشميانسكي، الأميرة هي من حفرت هذه الأحرف، وهي اختصار لـ: ديميتي سافوسكين: اسم مسّاح الأرض الذي وصل إلى بلاجوفيشينسكوي للتحقق من المساحات. تميز سافوسكين بخصلات شعر سوداء اعتنى بها عناية كبيرة بالرغم من أن السلطات احتجزته أكثر من مرة بسببها وقصتها له باستخدام المشط. لم ترَ الأميرة مساح الأرض إلا من بعيد، ولم يحدث أن تبادلت معه كلمة، لكن خصلات شعره تركت فيها انطباعاً قوياً. مع ذلك عبّر الهياج القلبي الذي أحدثه سافوسكين في قلب الأميرة عن نفسه في أمر واحد وحسب؛ تعرفت الأميرة بعناية شديدة على اسم ولقب المساح، وقبّلت أباها العجوز في هذا اليوم بشكل أرق من المعتاد. مضت إلى زقاق بعيد ونحتت الحرفين العزيزين وشعرت بالحزن.

قضينا اليوم التالي بأكمله في ممارسة العمليات الإحصائية^(١٩٦). ذهبنا إلى منازل الفلاحين وأحصينا ماشيتهم وطيورهم المنزلية، وعرفنا ماذا يأكلون وتعرفنا على مهنتهم وعاداتهم وتقاليدهم، لكن أكثر ما حاولنا التحقق منه كان الآتي: أيمكننا التعويل على الوثائق السياسية للسكان واستعدادهم لدعم الأسس الراسخة؟ بعد البحث توصلنا إلى النتيجة التالية:

(١٩٦) المقصود هنا المعنى المجازي الذي تردد طوال الرواية عن جمع المعلومات.

يبلغ عدد سكان بلاجوفيشينسكوي من الذكور ٥٤٦ نفساً، نصفهم قد شاخ. لم يُحصَ أحد عدد النساء، وباختصار يمكن وصف أعدادهن بأنها كافية.

بالنسبة إلى المنازل فتُقدَّر أعدادها بـ ١٢٣ ولا أمل في تحسينها. ثمة سبعة منازل هنا تبدو صالحة للمعيشة ومزودة بساحات جيدة، أما بقية أكواخ الفلاحين فقد خربت: الساحات مكشوفة والبوابات مهدمة والأسيجة مفككة. فيما يتعلق بحالة الإيمان فيمكن وصفها بالعادية.

بالنسبة إلى تربية الخيول والمواشي في القرية: ٥٧ جواداً في القرية، منها ٢٣ جواداً لآل فيناجيتش، وتوزع بقية الـ ٣٤ جواداً على ١١٦ منزلاً! عدد الأبقار: ١٢٤، منها ٢٦ لآل فيناجيتش. الدجاج والديوك: ٢٠٥.

المهن: يرحل نصف السكان إلى موسكو وبريفلوجسك حيث يكسبون رزقهم من العمل في الحانات ويدفعون الضرائب الحكومية المقررة على القرية كلها. عدد اللصوص في القرية: ٢٤ لصاً.

يتاجر الفلاحون في المسامير التي يقتلعونها من جذران أكواخهم والألواح التي يكسرونها من أقفاصهم وبواباتهم وشفرات محاريثهم الخاصة، وحدوات الجياد التي يلتقطونها من الطريق. يبيعون كل هذه البضائع إلى آل فيناجيتش مقابل الفودكا.

الغذاء: السكان هنا منكبون على الطعام. يحبون تناول لحم البقر والخنزير والعصيدة بالزبد والفطائر، لكن مواردهم لا تكفي لتناول هذا الطعام الذي يحبونه، ومن ثم يرتضون بالخبز، ويستعوضون به عن كل

ما فات. لكن يلزم هنا أن نشير إلى أن آل فيناجيتش يمتلكون الموارد الكافية، ويعتمدون بشكل أساسي على نوعية صلبة وقليلة من الطعام يملأون بها معدتهم. عدد السماورات في القرية: ٨.

لا توجد هنا عادات وتقاليد خاصة، فقد تم القضاء عليها في ظل القنانة، وبعد إلغاء القنانة لم تستطع الظهور من جديد. يمكن عزو العادات والتقاليد التي أمكن ملاحظة بعض آثارها إلى حد ما إلى الآتي، أولاً: السعي إلى زيادة الدخل القومي عبر زيادة أعداد مرتادي الحانات^(١٩٧). ثانياً: القاعدة التي بموجبها يُعيد السكان الذين أخذوا نصف بود دقيق من فيناجيتش ربيعاً بوداً كاملاً، وعلاوة على ذلك ينظفون في الحفلات نصف ديسياتين من مرجه.

من المؤكد أن الموثوقية السياسية للسكان في حالة جيدة، ومما يساعد على ذلك عدم وجود مدارس في القرية. لا يُسمع هنا شيء عن أشكال الحكم، ولا يعرفون عن الثورات سوى أمر واحد: تقدم الثورات ميثاقاً بأن يُضرب كل شخص خامس على جسده. أسس الدفاع متوفرة إذن.

إحصاءاتنا مختصرة وقليلة في بياناتها العددية، وربما تكون غير صحيحة، وإذا تحرّيت الأمانة يمكن لأي شخص أن يكتب مثلها وهو جالس في مكان ما في طريق رازيجايا من دون أن يزور بلاجوفيشينسكوي. ربما تكون هذه هي الطريقة التي تُسجّل بها غالبية

(١٩٧) احتكرت الدولة تجارة الخمر، وتسببت ظاهرة سُكر الفلاحين الدائم في إفساد الكيان الاجتماعي هناك بدرجة مخيفة. من أشهر من هاجموا القيصرة على هذه التجارة: ليف تولستوي.

الإحصاءات، ويتوصل عن طريقها الخبراء إلى استنتاجات خاطئة ويكتبون على أساسها مقالاتهم التقديمية. لهذا تحذر هيئة الرقابة دائماً: «لا تكتبوا عن شيء واصمتموا حيال شيء آخر وانسوا شيئاً ثالثاً تماماً!»، فلا بد من الكتابة بطريقة صحيحة.

مع ذلك عندما قرأت إحصاءاتنا لبروخوريتش (الذي توقفنا عنده) شعر بالرضا إلى درجة أن صاح: «صحيح! هكذا الأمر بالضبط! يجب ضرب أخينا هذا بقسوة!»، لكني لا أستطيع أن أقول تحديداً ما الذي أفضى به إلى قول هذا تحديداً.

في أثناء جمع هذه البيانات الإحصائية قدّم لنا أوشميانسكي مساعدة كبيرة أرى من واجبي هنا أن أشير إليها، حيث أقدم للمبجل لعازر دافيديتش، نيابة عني وعن رفاقي، أقصى درجات الامتنان على تقديم يد العون التي أنارت أذهاننا.

حلم جلوموف ليلًا بالخزي مجدداً، بل وحكى لي جلوموف: «قال الخزي لي شيئاً لا أتذكره بوضوح». حدث أمر ما معي أيضاً: شعرت أنني أحترق فجأة. من الواضح أنه نذير. استعجلني جلوموف قائلاً: - علينا أن نسرع يا أخي.

لكن إلى أين نسرع؟ بصراحة نحن أنفسنا لا ندري. بعد أن شرعنا في مآثرة حفظ الذات، ولم يعد لنا قائد سوى الخوف، وجدنا أنفسنا سريعاً في دوامة من تجليات الأنانية حتى لم نعد نفهم أين نحن. اعتدنا أن نقول لأنفسنا أمراً واحداً: علينا أن ننقذ أنفسنا! فلنسرع! ومن دون أن نرى إلى أين نتجه هبطنا إلى القاع ولم نستطع بأي شكل أن نجد

القاع... كان القاع موجودًا تحت أقدامنا بالضبط، مُعبَّدًا بمواد قانون العقوبات الجنائية.

استيقظنا مبكرًا جدًا. رأينا الراعي يسوق قطيعه، والفلاحات يركضن بشعور شعناء، ناعسات، يمسكن أغصانًا في أيديهن، خلف الأبقار التي تتوقف في كل مكان تلاحظ فيه علامة على نمو أي نبات. علق الغبار في سحابة كثيفة فوق القرية، متلألئًا كقوس قزح تحت أشعة الشمس التي أشرقت لتوَّها. توجهنا إلى الحديقة. اتضح أن أوشميانسكي لا يزال نائمًا لكننا لمحنا شخصًا بعيدة تومض عند البركة. لدهشتنا العظيمة تبين أنهما برازديكوف وموشكا. شمر كلاهما سرواله وتسكعا عند أنحاء البركة وانهمكا في صيد أسماك القوبيون الصغيرة بشباكهم. برازديكوف رجل طويل وممتلئ الجسد، ذو رأس ضخم، لا يحتوي على شعر رمادي إلا في الجزء السفلي من مؤخرته. عاش ثمانين عامًا، لكنه من حيث المظهر يبدو كمن لا يتجاوز الستين، بالرغم من الكميات اللانهائية التي يشربها. ارتسم على وجهه تعبير مجنون تقريبًا، وما ساعد على رسم هذا التعبير العينان المعتمتان، وقد أعتمت فعلاً عدسة إحداهما تمامًا، والأخرى أعتم نصفها. اعتاد التحدث بصوت جهير (باس) منخفض، ولكن بفيضانات مزعجة تنتج عادة عن النغمات الممتدة. اتسم بوجنتين حمراوين وأنف بدين يبدو كما لو أنه منحوت من الرخام، ويدين عملاقتين يغطيهما الشعر وعقد زرقاء من الأوردة. ارتدى ثوبًا طويل الحواف يشبه رداء قارئ الإنجيل في الكنيسة، بالرغم من أن ارتداء مثل هذا الثوب حُرِّم عليه.

مثل موشكا التباين الكامل مع برازديكوف. كان رجلاً شديد الضالة وصغيراً ونحيفاً، ذا كتفين ضيقتين، وعينين واخزتين ووجه شاحب وعجوز ومتجعد. بدا من حيث المظهر ككتكوت صغير تنقره أمه البديلة الحاضنة. بدا صوته طفولياً، يشبه صوت الطيور إلى حد ما. من أول نظرة يلقيها المرء عليه يقتنع أنه جائع، ولكن مهما أطمعته فلن يتغير الوضع. أكد برازديكوف أن عشاءاً في داخله. قال: «الناس لديهم معدة، لكنه لديه عش، ومهما ألقيت طعاماً في داخله لا يجدي».

بالفعل، حتى في هذه اللحظة القاسية التي مرّق فيها السمكة العالقة في شباكه بدت مدهشة. سحب السمكة من الشبكة وسحقها ولوى خياشيمها، وإذا كان لم يأكلها حية فهذا بسبب أنه كان في عجلة من أمره لصيد المزيد خوفاً من أن يقبض عليه لعازر ويبعده عن البركة. عند رؤيتنا تخبط موشكا وكاد يغرق. سألته حتى أبدأ حواراً معه:

- هل تصطادان السمك؟

أجاب برازديكوف:

- نعم. سأغذي هذا المتحول الجديد إلى المسيحية. بصراحة لا أريد أن أكل. ليست لدي شهية. لقد اختفت منذ فترة طويلة، أما فهو فلديه عش في الداخل، بل هاوية... سنصطاد القليل ثم نذهب إلى الغابة ونطهوه.

وضعنا بسهولة الغرض من زيارتنا لبلاجوفيشينسكوي، ولكن عندما عرفنا مدى الغرابة التي تصرف بها برازديكوف في هذا الأمر شهقنا من فرط الدهشة.

صحت فيه:

- هل تعرف ما الذي تُعرض نفسك إليه بهذه الفعلة؟ ما الذي فعلته؟ أهذه هي القاعدة التي يتوجب السلوك بموجبها في هذه الحالة؟ لكن من الواضح أن برازديكوف لم يفهم ما الأمر بالضبط. سأل متعجبًا:

- أي قواعد ما دام... ما دام يهوديًا؟ ويا له من يهودي! إنه حشرة! موشكا! اخلع ثيابك!

في البداية اضطرب موشكا، لكن من الواضح أن القرار الغاشم ربض فوقه وأثقله فخلع ثيابه فعلاً. صاح برازديكوف مشيرًا إليه بإصبعه:

- انظر إليه كيف يبدو! وأنت تتحدث عن القواعد! أي قواعد؟

قال هذه العبارة وحرك يده اليمنى وقرص موشكا بين الضلوع وحمله على راحة يده بين الإصبع الأولى والوسطى.

كانت حركة قاتلة. سواء بسبب وهن يد العجوز أو بسبب عدم تمكن موشكا من الوقوف ساكنًا على راحة يد العجوز بين الإصبعين، انزلق جسده من راحة الشماس وسقط بعنف في الماء. قبل أن نتمالك أنفسنا وجدنا موشكا البائس قد أطلق صرخة تفطر القلب، ثم قام بحركتين أو ثلاث بتشنج في الماء... وصمت.

كانت جريمة حقًا.

نظرت إلى جلوموف وإذ بنظراته مثبتة عليّ. فهم أحدنا الآخر.

فارقنا البركة معاً، ولكننا لم نعد إلى المنزل بل مضينا إلى ما هو أبعد.
ظل برازديكوف يتمتم بشيء لكن شكاً لم يراوده تجاه الحقيقة المريعة.
عندما وصلنا إلى نهاية الحديقة وجدنا أنفسنا في حقل. يا للحسرة! في
هذه اللحظة نسينا حتى أننا تركنا خلفنا أربعة رفاق مخلصين...
امتدت أمامنا ثلاثة طرق رهيبة: إلى الأمام وإلى اليمين وإلى اليسار!



من المدهش أن المرء ما إن تلج أقدامه طريق النيات الحسنة حتى يصير نشطاً كالشيطان. يركض بأقصى سرعة، ولا تعطله أي مكائد ليبرالية مهما كانت مأكرة. قدّم أمامه جزعاً وسيقفز فوقه، ضع أمامه حاجزاً وسيتمسك به، اسكب أمامه نهراً وسيسبح فيه، شيد أمامه جداراً منيعاً وسيخترقه بجبينه.

قراءة الظهيرة وصلنا إلى بيجيتسك...

نحن أنفسنا ذُهلنا. هذه ثالث مدينة في مقاطعة تفير يلقي بنا القدر فيها. لماذا؟ أريد أن يجعلنا نشعر أننا أرسلنا إلى هذا العالم كي ننشر وصفاً إحصائياً عن مدن مقاطعة تفير؟ يوجد رأي مفاده أن كل إنسان يولد من أجل تنفيذ مهمة محددة؛ واحد من أجل التدمير بالسيف والنار، وآخر من أجل استعادة ما خُرب، وأخيراً ثالث من أجل إصدار وصف إحصائي لمدينة تشيريبوفيتس. شخصياً عرفت إنساناً أنهى دراسته في العلوم بامتياز وقضى أفضل عشرين عاماً في حياته في الأرشفة، وتغلب على جميع أنواع العقبات، واستمع إلى تهكم أمناء المحفوظات، وفي النهاية أصدر كتاباً بعنوان: «زمرة تجار جولوبياتنيكوف»، وفي اليوم الذي صدرت فيه موافقة الرقابة على إصدار الكتاب مات. بعبارة أخرى، أتم مهمته على هذه الأرض.

مهما كان الأمر تجنببت تمامًا زيارة معالم بيجيتسك وأقنعت جلوموف بالتوجه مباشرة إلى محطة السكك الحديدية من أجل الرحيل إلى بطرسبرج. لكن في هذه المرة مررنا بظرف أبقانا في المحيط الرائع السابق.

وجدنا مجموعة كبيرة في ردهة المحطة منخرطة في تناول الطعام والشراب والتحدث بصخب. بحسب النادل مثلت هذه المجموعة مثقفي فيسيجونسك وقد اجتمعوا لتوديع أحدهم. لم نكد نرتشف أول رشفة فودكا حتى بدأت الأنخاب. طرّقوا على المقاعد وعربدوا وأعلن واحد منهم بصوت رنان ولهجة احتفالية:

- في صحة صديقنا جاريبالدي^(١٩٨) الروسي.

استدرنا تلقائيًا، ولكم أن تتخيلوا الذعر الذي تملكنا! رأينا في مقدمة الطاولة الشخص الذي يُمثّل بطل هذه المناسبة إنه ريديدا!

لم تُغيّرهِ صعوبات الحملة المصرية أدنى تغيير (أذكرُ القارئ بأن ريديدا هو القائد المتجول الذي قاتل لتوّه في مصر بدعوة من باشا عربي^(١٩٩)). بدا وجهه كما كان سابقًا؛ يشبه وجهًا محشوًّا مبتسمًا، ولمع رأسه الأصلع تحت شعاع الشمس كما كان من قبل، وتمایل بطنه البضاوي، وانتفخت الشفتان من العض المتواصل كما كانتا من قبل، ولا تزال العينان ترتعشان باستغراق مع أول ذكر للطعام. باختصار، بدا كل شيء فيه كما كان سابقًا بطريقة لا يسع معها لأحد أن يتصور أن هذا

(١٩٨) سياسي وقائد إيطالي ثوري.

(١٩٩) الملاحظة من الكاتب.

الرجل قد دمّر ممالك عديدة، وقضى نهائياً على ممالك أخرى...

انضممنا بالطبع إلى المجموعة التي تطلق الأنخاب.

حكى لنا ريديدا باختصار عن مغامراته. لم تنطفئ قضية الباشا العربي. هذا ما تنبأ به ريديدا نفسه عندما عرف الأمر في المرة الأولى. قال: «تصوروا أنني تفقدت جيشاً، ووجدت أفرادهم لم يأكلوا شيئاً منذ ثلاثة أيام، كما وجدت الزبي العسكري ممزقاً ونعال أحذيتهم من ورق الكرتون والبنادق من صوان. لا... لا وجود لصوان هناك، وبدلاً منه يزينون الأوتاد لتبدو كالصوان. قال لي الباشا العربي: «هل تصدق أن كل شيء كان متوفرًا: السكر والأحذية العسكرية والبنادق، ولكن موظفي التموين نهبوا كل شيء!». قلت له: عذرًا، ولكن يجب شئق واحد على الأقل ليصير عبرة. قال لي: «مستحيل. القانون لا يقضي بذلك!». نحن في وقت حرب ويقول لي: قانون؟ مع ذلك كل هذا لا شيء، فقد حدث الأسوأ: لا نظام في الجيش. تأمرهم: إلى الأمام! فيقولون لك: «ليست لدينا أحذية سعادتك!». بدأوا التقهقر بالطبع. تقهقروا وتقهقروا حتى تساءلت في النهاية: «أين الجيش؟»، وإذ لا أحد. فررت بأقصى سرعة. الآن ريديدا يعود من رحلة إلى فيسيجونسكي حيث دعاه المثقفون المحليون هناك ليُكرّم باعتباره جاريبالدي روسيا».

صاح مثقفو فيسيجونسكي في صوت واحد: «نخب جاريبالدي الروسي!».

بدوا متحمسين. نظرًا لكونهم جميعًا ذوي طبائع متقدة، ولا يوجد في فيسيجونسكي ما يروي توقدهم، نقلوا حماسهم تلقائيًا إلى مغامرات

بعيدة تكاد تكون خرافية، وبمساعدة المخيلة نجحوا في خداع أنفسهم. حتى الآن، في ضوء هزيمة ريديدا المؤكدة، لم يحرموا أنفسهم من ثقتهم به وظلوا يأملون في أن يجلب لهم الفرحة يومًا ما. هم الآن مسلوبون من كل صنوف الاهتياج ومن حتى نقيضها، ومن ثم لا يترددون في دفع آخر ما يملكون لريديدا، فربما يتمكنون على الأقل من سكب فيض المشاعر هذا على قصة هؤلاء المصريين، فلم يستطيعوا سكب فيض مشاعرهم في مسألة إعداد الملابس الكتانية المطلوبة للمستشفيات الريفية ولا في مسألة فرض ضرائب بسيطة على عبور الجسور والمعابر.

إنهم لا يصنعون أنسجة البلش ولا الأنسجة القطنية لأن اكتشاف طريق إلى الهند لا يمكن أن يفيدهم مباشرة. لكنهم يعانون من ملل جهنمي؛ الأمر الذي جعل ريديدا يثير فيهم البهجة؛ ريديدا الذي يهرول طوال عمره ولم يقنط قط. لم يُغَطَّ الطين كل شيء بعد، ولا تزال هناك فرصة للتفكير في شيء، وتبديد القوى على أمر ما، علاوة على نشر نقاط محددة للعناية بخيول مجالس الزيمستفو الريفية... ينظرون بتعطش إلى هذا الشيء الغامض ويصيحون: «فليحي صديقنا جاريبالدي الروسي!».

سأل جلوموف ريديدا باهتمام:

- وهل نلت أجر المسافات التي قطعتها؟

- دفع لي الباشا العربي تكاليف المسافة ذهابًا وإيابًا مقدمًا، علاوة على راتب نصف عام خارج الحساب، وربما سيتعين عليّ الحصول على حصة من الفحم في العام القادم.

- آخ يا بولكان شامشونيتش! آخ يا بولكان شامشونيتش! متى ستستقر!

تبين أنه لن يهدأ إلا حينما يُخضع جَوًّا إنجليزيًا ويجعله رهن إشارته. بدأ جلوموف: «ولكن ما الذي تريده منه بحق الجحيم؟»، لكن جميع الفيسيكونسكيين غضبوا منه؛ الأمر الذي جعله يرى أنه من الأحكم أن يلزم الصمت.

اتضح من الحوار اللاحق أن ريديدا يكره الإنجليزي لعدة أسباب؛ أولاً: لأنه جوال ولا يتمتع بأي مشاعر سامية. ثانياً: لأنه يعوق بيع أنسجة البلش والأنسجة القطنية الموسكوفية، وبالتالي يبطئ حل المسألة الشرقية. لكن علاوة على ذلك هناك أمر يمس ريديدا شخصياً. نظراً لأنه عسكري، اشترى ذات مرة سكيناً وختم نصله بحروف إنجليزية، وبعد مرور يومين تحطم هذا السكين «وهذا دليل واضح». بعد ذلك بدأ يشتري سكاكين مصنوعة في مقاطعة زافياالوفسكي، ولم تتحطم. «وهذا دليل آخر». منذ هذا الحين تراكمت الأدلة، فهذا وشاح إنجليزي يبهت، وهذه قطعة قماش إنجليزي تغطيها البقع. الآن لديه مشروع أن يشق طريقه مع حفنة من الشجعان إلى الهند، ويقنع السلطات المحلية هناك بالإطاحة بالنير الإنجليزي المخزي. لهذا السبب يسرع الآن إلى كاشين حيث تحدد له اجتماع مع صانعي النبذ المحليين، وسيمضي من كاشين إلى موسكو حيث كل شيء جاهز. سيشترى من هناك كتاب علم الجغرافيا لسميرنوف، وفي رحلته الأولى عبر ساراتوف وقاندهار وكاشمير سيتوجه مباشرة إلى المكان الذي تقضي فيه السرطانات سباتها الشتوي.

صاح وبطنه يتراقص:

- أي أماكن هذه: كشمير وكولستان! أي نساء هناك! صدورهن
كزوج من المعيز البيضاء. يا لها من نهود! أووف!

باختصار أهاج الجميع حتى إن الفيسيغونسيين المهتاجين أنشدوا
في صوت واحد: «ها هي عربنة الترويك الجريئة تندفع إلى الأمام!»،
وقبل جلوموف بطل المناسبة على صلعته وقال بصوت مضطرب:

- فليباركك الرب. أعترف أنني لم أتوقع أن تكون الخاتمة قريبة إلى
هذا الحد، لكنني أرى الآن...

تحدثنا بالطبع عن مصر؛ إنها أكثر البلاد إثارة للفضول. يفيض النيل
فيها سنوياً، وعندما تنحسر المياه تتشكل تربة، يكون معها كل ما عليك
أن تلقي فيها البذور وأن تعرف كيف تحصد المحصول. لدى المصريين
طبقة أرستقراطية ويدرنون عموماً بالمحمدية^(٢٠٠)، أما الخدم فهم
الفلاحون الذين ينفذون كل ما يؤمرون به. في العصور القديمة حكم
الفراعنة البلاد، والآن يحكم الخديوية الذين يدفعون جزية لسلطان
الأتراك لكنهم يتنازعون معه دائماً. تحت حكم الفراعنة بُنيت الأهرامات
وشُيِّدت المسلات، وفي أثناء حكم الخديوية لم يُشَيَّد شيء. مات أحد
الفراعنة في البحر الأحمر في أثناء مطاردة اليهود، وقد شاهد ريديدا
شخصياً هذه البقعة. يقول القدامى إنه في الأيام الخوالي كانت هناك
بركة إلى اليسار، وأخطأ الفرعون واتخذ الناحية اليمنى وهكذا غرقت

(٢٠٠) هكذا سُمِّي الإسلام لفترة طويلة في بعض الأماكن.

عربته. لكن الزينة الرئيسة ورمز آمال المصريين هي التماسيح. الأكثر قدرة من المصريين يُعَيِّنهم الخديوية حكامًا على الأقاليم البعيدة مثل دارفور والسودان... إلخ. نظرًا لأن التماسيح في مصر تتكاثر بحرية، لا يظهر أبدًا نقص في المرشحين لشغل مناصب حكام الأقاليم؛ الأمر الذي تحسدهم عليه بلدان أجنبية كثيرة.

سأل جلوموف بحب استطلاع:

- وماذا عن نوعية الطعام في مصر؟

- أقل من المتوسط. الفلاحون يأكلون السحالي، بينما يأكل رؤساء البلديات والعسكريون بأصابعهم مباشرة، حتى لو بلطف، ويجلسون القرفصاء.

- أووف!

- لكن ما يتعلق بالنساء فهن نعيم حقيقي! قبل أن تغمز لجندي المراسلة تجده -المكار- قد جلبها أمامك. أجساد سمراء كأنها مدهونة بالزيت، ونهود كعنق الحذاء، وفي أيديهن دفوف. يحرقنك كما هي الحال مع الجورجيات في موسكو! بالنسبة إلى الوجبات الخفيفة في مصر فلا يمكن تناول شيء غير السردين. الرنجة هناك ذات رائحة قوية، ولا يمكن الحصول على الكافيار والسلمون بأي مبلغ كان. لا توجد تمويلات ولم أرَ روبلات هناك، ولكن هناك أنصاف روبلات، وتبدو كأرباع الروبلات. ينبغي هناك شغل الجنود بالتمارين دائمًا حتى ينسوا روايتهم. تنحصر التجارة هناك في آباء الهول والمومياوات، ولكن كم يمكنك أن تبيع منها؟ لا وجود للمحاكم ولكن هناك قاعدة بدلًا منها:

بقدر ما تستحق مد يدك وخذ! بالمثل لا توجد علوم ولا آداب، ومن ثم ليس لديهم تفسيرات خاطئة! المصريون لا يأملون في شيء سوى أمر واحد: عندما يطرد الروس التجار الإنجليز من الهند، ستحسن أمورهم. أما لماذا يتحسنون، وبأي معنى يتحسنون، فهذا أمر غير معروف. الأمر الوحيد المعروف هو أنه في كل مرة يُطوّر فيها ريديدا افتراضاته عن الهند، وحتى عن التماسيح، يكون.

حكى لنا ريديدا الكثير مما يثير الفضول، ولكن لسبب ما بدا في بعض الأحيان أنه لا يتحدث عن مصر بل عن مقاطعة فيسيجونسك؛ مثلاً: يريد جميع الفيسيجونسكيين إخضاع الهند، وكذلك المصريون، أما سبب ذلك فلا هؤلاء ولا أولئك يعرفونه. مثال آخر: في مصر حساب صارم للديون، وفي فيسيجونسك أيضًا، وما من مال هنا أو هناك.

شيء ما رائع تقدمه هذه القصص، وقد ظللنا نستمع إليها ونأخذها بعين الاعتبار. من هو ريديدا؟ من أين أتى؟ ما الذي يجعله يتخطب هكذا؟ هل فكر حقًا في أي مهمة من مهامه أم تُسند إليه هذه المهام عبثًا؟ ربما لا تكون مهمة على الإطلاق بل الأمر كما يقولون نوع من حكمة تستثيره. ربما قرأ بعض الحكايات الخرافية في طفولته مثل حكاية كيف حصل إيفانوشكا الأحمق على الطائر الناري وركب الزلاجات وطار على البساط السحري. حسنًا، لقد تبعت الآثار، ولم يتمالك جلوموف هو الآخر نفسه عن صياغة هذه التخمينات. قال:

- أنا أسمعك يا عزيزي، ولكني مندهش للغاية. تتحدث وتتحدث ويبدو أن أحدًا في الحياة لا يستطيع متابعة هذه الكلمات... تبدو تمامًا

كما لو أنك خرجت من ظلام دامس، وفجأة صرت أعمى، ومنذ ذلك الحين لا يمكنك التوقف ولا الجلوس بهدوء.

أكد ريديدا:

- لن أتوقف أبداً ما دام بقي تاجر إنجليزي واحد في الهند... لن أتوقف!

كان الفيسيغونسيون يستمعون إلى هذه الأحاديث ويصفقون ويصيحون: «برافو يا صديقنا جاريبالدي الروسي! فلتحي! أورا!». واحد منهم أصغر من البقية أنشد لا مارسيز^(٢٠١): «إلى الأمام يا أبناء الوطن».

صفقت وكذلك جلوموف لأسباب عديدة؛ أولاً: حاول ألا تصفق وسيتهمونك بالخيانة. ثانياً: في الواقع بدا الأمر نوعاً من الأدب المتخيل، ونحن جميعاً شديداً التوق إليه. عبّر جلوموف بدقة شديدة عن المزاج العام بقوله: «تحرك يا أخي! من الواضح أن المجال أمامك، ولكن في كل الأحوال يمكنك شراء كتاب جغرافيا سميرنوف لأنك إذا لم تفعل ذلك فقد تأخذ يمينك مثلما فعل الفرعون القديم، وحينها سينتهي أمرك».

لم تدم هذه المحادثات -مع صيحات التعجب والمقاطعات- أكثر من ساعة، فكل ما يمكن قوله استُنفد بالفعل. ساد الصمت. في البداية ثئاب أحدهم ثم ثئاب الجميع. صاروا جميعاً محرجين. حتى يتغلبوا

(٢٠١) النشيد الوطني الفرنسي، وقد كُتب في أثناء الثورة الفرنسية.

على إحراجهم اقترحوا نخبًا مجددًا: في صحة جاريبالدي الروسي! ثم بدأوا يتبادلون القبلات. لكن كل هذا لم يستغرق أكثر من عشر دقائق. ثم خطرت فكرة رائعة على ذهن أحدهم: الحاجة إلى الشاي! انتقل الجميع بتفكيرهم على الفور إلى الصين.

قال واحد من الفيسيغونسكيين:

- آه لو نذهب إلى هناك!

- لقد وضعنا قدمًا هناك بالفعل، وبمرور بعض الوقت سنضع القدم الأخرى!

هكذا قال ريديدا مطمئنًا، وأعلن بخصوص هذا الأمر أن الصينيين يتاجرون في الشاي والفخار والحبر، ويتغذون على أعشاش الطيور. ساد الصمت مجددًا. فجأة بدأ واحد من الفيسيغونسكيين يحك ظهره بشراصة، وهنا ظهرت فكرة المسحوق الفارسي حتى وجدت نفسي تلقائيًا أقول في نفسي: «الآن سيدور الحديث عن فارس»، ومع ذلك احمر خجلًا ولم يقل شيئًا. ربما لم يعد يشعر بحاجة إلى حك ظهره.

استغللت هذه الهدنة وجلست على مقعد بعيد وغفوت. في البداية حلمت بـ«وادي كشمير» ثم بـ«زهرة كولستان» ثم بـ«نهدين كمعزتين بيضاوين»، ثم كأني وصلت إلى فيسيغونسك ولا أعرف إلى أين أركض؛ إلى أوستيوجين أم إلى شيريوفيتس، وفجأة نخسني أحدهم. أفتح عيني وأنظر؛ إنه الخزي! لا يجلد ولا يوبخ، ولكن كما لو أنه

مذهول. هذا الذهول وحده بدا كافياً حتى يبعث فيَّ خوفاً لا يُحتمل.

دارت فجأة في رأسي مجموعة كاملة من الأسئلة. كما لو أنني استيقظت لتوِّي بعد نوم طويل مليء بأشبع الأحلام. مثلت أمامي هذه الأحلام كأنها حقيقية بكل التفاصيل الحيوية حتى كدت ألمسها تقريباً، ونظراً لأنها تجسدت بالأمس، لم يقتصر الأمر إذن على أنني لم أستطع رفضها، بل لم أشك حتى في موثوقيتها. لكنني لم أفهم كل ذلك. أعطيت نفسي تقريراً واضحاً تماماً عن الجانب الواقعي لهذه الأحلام؛ الشكل الذي نشأت عليه، ثم كيف انتقلت عبر مجموعة كاملة من الشخصيات والمدن والمناطق (إيفان تيموفيتش - بالالاكين - أوتشيشيوني - كورتشيفا - سمرقند... إلخ). لكن الأمر الذي لم أستطع متابعته هو نوع العلاقة التي تربط هذه الأحلام بكياني الداخلي ووعيي. من الواضح أنني عشت تحت تأثير جور أخلاقي مريع يهبط بالإنسان إلى مستوى الآلة. أتذكر تعارفي ببارامانوف وبروديتوف وريديدا، وزيارتي لكورتشيفا وكاشين، لكنني لم أستطع فهم القوة التي دفعتني لإجراء هذا التعارف والقيام بهذه الرحلات. من الواضح أنني حتى الآن، في هذه اللحظة، لا أزال تحت تأثير هذا الجور. شعرت أن قلبي يدوي وأن كياني كله يغرق في قلق غامض وأن عيني تتهربان تلقائياً من النظر إلى أي غريب.

هكذا أثر فيَّ لقائي بالخزي.

«في صحة جاريبالدي الروسي! فليحي! أورا!»، ترددت في أذني مرة تلو الأخرى. طرقت على المقاعد بصوت عالٍ هذه المرة وكانت هناك حركة عامة في الردهة. أشار تلغراف المحطة إلى أن القطار غادر

المحطة المجاورة وسيصل في غضون عشرين دقيقة إلى بيجيتسك.
أسرعنا لشراء التذاكر وأكلنا وشربنا. توارى الخزي. ودّعنا - أنا
وجلوموف - ريديدا وهرعنا إلى رصيف المحطة، وفجأة وصلت إلى
أذني هذه المحادثة:

- فعلوها في أكثر الأماكن ضحالة. غمسوا مقدمة وجهه فقط ولم
يصل الماء حتى إلى مؤخرة الرأس.

- مات؟

- انفجرت الفقاعات فورًا. كما ترى، شماس أعمى، يقف ويتمتم،
وفقد كل أثر لهم.

- كيف اتخذت بكل هذه الحيل القذرة؟ هذا الأمر يحتاج إلى
توضيح.

- أخذوا رفاقهم إلى القسم. أربعة. قبضوا على امرأة معهم أيضًا.
أرسلوهم اليوم إلى كاشين، أما الاثنان المتبقيان فقد أرسلوا الرسل إلى
كل مكان للبحث عنهما.

وقفنا - أنا وجلوموف - قبالة بعضنا نستمع في صمت. قلت:

- أخيرًا بدأ الأمر!

- ويا لها من بداية يا أخي! من جانبي لم أشعر تجاه كل ما فات
بسوى الدناءة.

هكذا أجباني وقد نسي حتى أمر فائينوشكا تمامًا. اقترحت عليه:

- اسمع! علينا أن نذهب إلى كاشين.

أضاف جلوموف:

- علينا أن نذهب فورًا مع ريديدا. سوف يبحثون عنه وعن بالالايكين وبرودينتوف... سيبحثون عن الجميع.

- أظن أن كل... كل أعمالنا سوف تُكتشف الآن؟

- كلها بالطبع. أنا واثق أن إيفان تيموفيتش وبرودينتوف وبالالايكين... واثق أن جميعهم سيجتمعون فورًا في كاشين. سترى بنفسك. ما أهمية موت اليهودي في حد ذاته؟ إنه مجرد مشهد معروف من العرض ولا أكثر. هذه الحقيقة غير مهمة إلا في إشارتها إلى أن الأوان قد حان. يتبقى الآن أن نشد الكوبليه الأخير وستقبل الهتافات! استمعت إلى نبوءات جلوموف وقارنتها بظهور الخزي مؤخرًا، وكلما فكرت في الأمر وجدت المزيد من الروابط بينهما، وازدادت قناعتي بأن الأوان قد حان.

شرحنا باختصار لريديدا الشك الخطير الذي صرنا ضحية له ونحن أبرياء، لكنه استمع إلينا بطيشه المعتاد، وكان من الواضح أنه لم يفهم حتى ما الأمر. صاح:

- أغرقوا يهوديًا؟ وخافوا؟!

كانت الترويكات التي من المفترض أن تصطحبه إلى كاشين ليلتقي بصانعي النيبذ في انتظاره بالفعل في المدخل منذ ساعة. أعلنوا نخبًا آخر؛ النخب الأخير، وبمرور عشر دقائق فارقنا بالفعل جدران بيجيتسك.

هنا أناشد القارئ من أجل بعض التساهل.

عليّ أن أنهي حكايتي؛ أنهيتها حتى لو سأجدها. لم أتوقع شخصيًا أن تُكتب كلمة «النهاية» سريعًا وافترضت أنني سأقود أبطالها عبر مختلف المحن التي تُشكّل وضعًا طبيعيًا لمهنة حفظ الذات. لا أعرف ما إذا كان بوسعي التعامل مع هذه المهمة المعقدة، لكنني أعرف جيدًا أنه يتوجب عليّ أن أتخلّى عنها وأضع نهاية لحكايتي سريعًا.

طوال مسيرتي الأدبية تصورت نفسي غريقًا يمسك بقشة. ما دمت وجدت قشة، كنت أتمسك به بشكل ما، ولكن ما إن يتلاشى القش حتى تغرق لا محالة.

أمل أن يتساهل معي القارئ، ولكن إذا ذكرني بمسؤولية الكاتب أمام القارئ فسأجيبه بأنها مسؤولية متبادلة. على الأقل أنا مقتنع تمامًا بأن القارئ يلعب دورًا مهمًا للغاية في تدهور المستوى الأدبي، بدرجة أو بأخرى.

لسنا مسؤولين عن فكرة التضامن بين الأدب وجمهور القراء. يسمح القراء بطريقة ما للكاتب أن يلعب دور الحيوان حارس القطيع

المكلف بتحمل كل الأعباء غير الممكن تحملها. لكن يبدو أن القارئ سيدرك قريباً أن نصف هذه المهمة تقع على كاهله.

لكن الأمر عويص ويحتاج إلى التحدث عنه بإسهاب...

باختصار، تلخصت مغامراتنا الإضافية في الآتي:

بعد أن وصلنا إلى كاشين توجهنا مباشرة إلى إيفان إيفانيتش. لكن الأخير، بعد أن امتدحنا على عدم هروبنا من قضاء كاشين، أعلن أنهم يبحثون عنا بالفعل، والأمر لا يقتصر على ما يتعلق بإغراق اليهودي ولكن بسبب مختلف الجرائم التي ارتكبتها في أوقات مختلفة وأماكن متفرقة. قال إنهم يبحثون أيضاً عن ريديدا المتهم بإجراء علاقات بمشيري اضطرابات مصريين ونشر أحلام ضارة وسط مُصنّعي الأقمشة الموسكوفيين. للتعرف على شخصياتنا أحضروا إلى كاشين واحداً من أكثر المجرمين ضرراً (ومضت فكرة في ذهني: أليس إيفان تيموفيتش هو أكثر المجرمين ضرراً؟) عمل من قبل في قرية بلاجوفيشينسكوي مع أربعة من شركائنا ممن تم القبض عليهم، واعترفوا بكل شيء. يتبقى أن يجري الاجتماع ذاته معنا ثم يقتادونا غداً تحت الحراسة إلى محكمة سان بطرسبرج.

نظرًا لأنه في وقت ذهابنا إلى إيفان إيفانيتش وجدنا جماعة تلعب الورق، وكان المدعي العام أحد هؤلاء المجتمعين، أرسلونا إلى السجن من دون تأخير. علاوة على رفاقنا في الرحلة وجدنا هناك إيفان تيموفيتش الذي ما إن رآنا حتى صاح: «هم بعينهم!» واكمل الأمر.

أدانونا في بطرسبرج. ألقى المدعي العام خطبة لامعة لن أقبس منها إلا ما يتعلق بي وبجلوموف. أدانوا كلينا بالتهم ذاتها، وهي تحديدًا:

١- التعاطف السري مع تفسيرات فاسدة، عبّر عن نفسه في الحيل التي استخدمناها حتى لا نكشف عنه.

٢- تعاطفنا مع الإجراءات الحاملة للقائد المستأجر طوعاً ريديداً.

٣- حقيقة أننا بأفعالنا أغوينا مسؤولي الشرطة في ليتيني، وتسبب هذا الإغواء في تقاعسهم عن استخدام سلطتهم.

٤- محاولة إنشاء جامعة في سمرقند بالتآمر مع التاجر بارامانوف.

٥- بالرغم من معرفتنا بقانون عدم انحلال الزيجة شاركنا في تزويج المحامي بالالايكين -وزوجته حية- بالتجارة فائينا ستيجنوشكين.

٦- بالرغم من عدم مشاركتنا شخصياً في كتابة إيصالات مزورة باسم صاحبة صندوق القروض ماتريونا أوتشيشيونا، فإننا لم نحول دون إتمام الأمر رغم سنوح الفرصة الكاملة لتحقيق ذلك.

٧- في أثناء وجودنا في نزل عام في كورتشيفا شاركنا في محادثة مريبة، ومن ضمن أمور أخرى حرّضنا التاجر رازنوتسفيتوف على الغضب من التاجر فزدوشنيكوف.

٨- قبول حساب من التاجر بارامانوف بعنوان «سيرة ذاتية».

٩- كل التهم المتبقية.

لحسن الحظ انجذبت جهة الادعاء إلى الجانب المتباهي من مهمتها. شدد المدعي العام على التهمة التاسعة، ونظرًا لأن هذه التهمة تطلبت حرية مطلقة في إطلاق حلو الكلام، تحرر المدعي العام تدريجياً من كل قيوده عدا ثيابه الرسمية. لم يقتصر الأمر على انحسار الجانب

الواقعي من التهم في الخلفية، بل تلاشى تمامًا. تشكلت لوحة تتضمن زلزالًا علاوة على البرق والرعد، ونظرًا لأن المحكمة الإنسانية ليست مسؤولة عن الزلازل تبين أن التهمة باطلة.

دافعنا عن أنفسنا، ويمكنني أن أقول إننا فعلنا ذلك بعزة نفس وتدبرنا الأمر بمهارة شديدة.

واجهنا زلزال المدعي العام بقصة صريحة ومؤثرة عن تحولنا إلى طريق حفظ الذات. لم نكرر أننا أخطأنا، بل اعترفنا صراحة أننا نشأنا في كنف مؤسسات تعليمية حكومية، لكننا انحرفنا عن طيب خاطر إلى إغواءات العقل، ولكن في الآن ذاته أثبتنا بأكثر الطرق إقناعًا أننا فهمنا طبيعة هذه الإغواءات في الوقت الملائم وافتدينا أنفسنا كاملاً منها. لذلك لا يقتصر الأمر على أن الأفعال التي تشكل جوهر الاتهام -إذا جاز التعبير- لا تديننا، بل على النقيض؛ إنها تبرر موقفنا وتبرئه. لم نتعرف على كشييشيتسيولسكي وبروديتوف وأوتشيشيوني وغيرهم لإخفاء طريقة تفكيرنا، بل لنشهد أمام العالم كله عن نضجنا واستعدادنا. لم نغش ولم ننصب فخاخًا للشرطين، ولم نعانقهم عناقًا مزيفًا، ولكن لو كان هناك شيء مشكوك فيه وراء أفعالنا هذه فهو يعود إلى قلة الخبرة ونقص التوجيه وحسب.

قال جلوموف بصوت متقطع من فرط الانفعال:

- اندفعنا مثل زورق بائس من دون دفة أو مجداف، ولا شيء يظللنا سوى نجوم السماء. في أحد أعماله قال شكسبير الخالد إن البراءة تشبه زجاجة فارغة يمكن ملأها بأي شيء. قدمنا لأنفسنا هذه الزجاجة

الفارغة، فبالرغم من فقداننا للبراءة الفطرية، فإن تحوُّلنا صوب طريق الولادة الجديدة منحنا براءة أخرى، أقوى من الأولى. لكن عبثًا حملنا الزجاجة الفارغة الأولى لنملأها. اضطررنا إلى أن نملأها بأنفسنا، وعلى مسؤوليتنا الشخصية أكثر مما يجب. فتحنا أحضاننا ووقعنا في الشرك. اندفعنا إلى الحوض المفتوح أمامنا لكننا سقطنا... سقطنا في الوحل! هل يمكن تخيل مشهد أكثر تأثيرًا من ذلك؟ لقد رأيتم كشييشيتسيولسكي هنا أيها السادة القضاة. رأيتموه لمدة دقائق بسيطة في أثناء تقديم شهادته. أما نحن فلم نشاهده فقط، بل لعبنا معه طوال أشهر كاملة لنثبت نضجنا وحسب! لقد اعتاد توزيع أوراق اللعب بحيث يحق له أن يكون أول من يعلن اللعبة وفي أفضل الأحوال يُترك من دون ورقتين. هذه هي العناصر التي اختبرناها وأتمت ولادتنا الجديدة. لكن بالرغم من كل هذا لم يتزعزع تصميمنا، ليس هذا وحسب، بل نما أكثر فأكثر كل يوم...

من جانبي أضفت أنه بالرغم من إدانة الادعاء لنا بتحريض التاجر بارامانوف على تأسيس جامعة زارافشان، فإنه يتضح من ملابسات القضية أن بارامانوف لم يقرر القيام بهذه الخطوة تحت تأثير أي مؤامرة على الإطلاق، ولكن لأن الصيارفة بوجه عام يُبدون استعدادًا لإنشاء الجامعات.

بهذه الطريقة طهَّرنا الجانب السياسي من الاتهام. فيما يتعلق بالجانب الجنائي العام، لم يكلفنا الأمر شيئًا لنثبت أن حقيقة الزواج بائنتين لم تحدث من جانب بالالايكين، ليس ذلك وحسب، بل ولا

يمكن بأي حال من الأحوال تجريم شراء بالالايكين لثياب جديدة ولا دعوة الإخوة بيريكوسيين، ولا إقامة عشاء عند الطاهي زافيتايف. بالطريقة نفسها لم تكن هناك مشاركة في مشروع الإيصالات المزورة، وذلك لغياب هذه الإيصالات من الأساس، فقد استخدم الورق لتنفيذ تدريب كتابي وحسب ولم يُستخدم ركام الورق المخصص للإيصالات لهذا الهدف، بل لعدم وجود ورق غيره في كورثشيفا. فيما يتعلق بحادثة موت اليهودي موشكا لم نتوسع في تناولها. كان هناك يهودي ولم يعد موجودًا... هذا كل ما في الأمر، ولا نعرف حتى أين ذهبت روحه وما إذا كانت خالدة كبقية الأرواح أم لا.

باختصار، خرجنا من المحاكمة وقد نلنا تعاطف الجمهور التام. هنّا الرجال وبكت السيدات علينا وهن يشوحن بمناديلهن. علاوة على إعلان براءتنا أُعلنت براءة بقية رفاقنا عدا ريديدا والمراسل الخاص. أُدين الأول على نشر أحلام ضارة وسط مُصنّعي النسيج، وأُرسل إلى الحبس التأديبي، أما الأخير فأدين على كتابة مقالته الهزلية عن الوغد.

لكن النجاح الحقيقي كان في انتظارنا. في اليوم التالي زارنا كوبيشكين، وهو صانع خير مشهور ومستشار لأحد المصانع، وعرض علينا أفضل العروض. بعد أن لاحظ فينا ميلًا إلى الحصافة، ورغبة منه في الاستفادة من هذه الموهبة في توسيع رقعة توزيع أقمشة مصنعه الخاص، قرر أن يؤسس وكالته الأدبية السياسية الكوبيشكينية الخاصة لتتولى نشر أفكاره الكوبيشكينية. لم يكشف لنا عن جوهر هذه الأفكار، لكنه عرض علينا نموذجًا لأقمشته القطنية (وهي أقمشة مبهجة للشباب

ورزينة للشيوخ)، وفي الآن ذاته ملّس لحيته ونقر على لسانه بشكل مميز حتى فهمنا المراد من دون مزيد من التوضيحات. فُرّر أن تكون الجريدة يومية وأن تُطبع قبل موعد طباعة المجلات الأخرى بساعة. تُحدّد أجورنا بحسب الظروف، وبالطبع لن يسيء إلينا. لكن علاوة على أجورنا سُمِحَ لنا بتناول الغداء في أيام الأحاد على طاولة كوبيشكين، على قدم المساواة مع الجنرالات. نحن أحرار في كتابة المقالات وتحريرها كما يترأى لنا، وسيقتصر عمل كوبيشكين على توجيهنا وإلهامنا. تذكرت ريديدا الذي سُمِحَ له بإرسال المقالات من القسم الشرقي في الحبس التأديبي. فيما يتعلق بقسم «حياة المجتمع الراقي البطربرجي» فسيترأسه أوتشيشيوني. تحقيقاً لهذا الهدف اشترى له زوجاً جيداً من المعاطف وعدة أزواج من القفازات البيضاء واستأجروا تريبّاً استطاع أن يعلّمه بعد عدة دروس كيف يمسك صينية. وحده «مراسلنا الخاص» لم يجد مكاناً له في الجريدة، ولكن لا يمكننا فعل شيء حيال ذلك لأن المراسل فضّل أنسجة موروزوف على كوبيشكين، ولم يوافق هو أو كوبيشكين على التحرك قيد أنملة عن قناعتيهما.

قبلنا بالطبع كل هذه الشروط وابتكرنا اسماً للجريدة «الإثراء الشفهي».

بعد شهر صدر العدد الأول من «الإثراء الشفهي»، وتواصل صدور الجريدة يومياً قبل صدور بقية الجرائد بساعة؛ الأمر الذي جعل الطهارة جميعاً يشترونها وهم في طريقهم إلى السوق.

كتبنا مقالات عن أن لكل زمن قضايا المهمة، وأنه يجب تحقيق مثل

هذه المهمة حتى لو تعارض جوهرها مع المتطلبات الأخلاقية الصارمة. كتبنا أيضًا عن أننا لدينا ما يكفي من ناحية، ومن ناحية أخرى ليس لدينا شيء. كتبنا أيضًا مقالات عن كيف يجب حظر استيراد كل الأنسجة الأجنبية حظرًا تامًا، وأن تُحمل أنسجتنا على العربات ونذهب بها إلى كل مكان. كتبنا مقالات عن أن التفكير غير مُحَرَّم ولكن يجب أن نعرف كيف نفكر. أبدينا اهتمامًا غريبًا بالرفاهية والرخاء، وتشابك اهتمامنا بهما باهتمامنا بالأنسجة الوطنية بحيث صار نجاحها أو فشلها مؤشرًا على مستوى الرخاء. سأقول المزيد: نظرًا لأن أنسجتنا تمثل ذروة آمال جريدتنا وأمنياتها، لم نعارض في بعض الأحيان دخول بعض العناصر المذهلة في الجريدة ما دام سيأتي معها ذكر أنسجتنا القطنية؛ خاصة أنسجة كوبيشكين. بالسير في هذا الطريق وازدياد ضراوتنا تدريجيًا، وصلنا في النهاية إلى نوع من المشاعر النبوية الهائجة. لم نكتفِ بالدعوة إلى حظر الأنسجة الأجنبية في أسواقنا المحلية، بل طالبنا بحظر أنسجة موروزوف ثم تسينديل، وأخيرًا حظر كل المنسوجات الروسية عدا منسوجات كوبيشكين. وحده كوبيشكين هو من يستطيع أن يتولى بنفسه (كتبنا بالخطأ: يتولى بالدولة) صنع القمصان القطنية الملائمة للرعايا الروس والفرس والبخاريين والخيفانيين والهنود وغيرهم من غير المؤمنين، وكذلك البلغار والصرب الذين يعتقدون إيماننا.

هذه الدعايات القطنية ساعدت ريديدا بقوة. صار يُحْضَر كل صباح، تحت الحراسة، من حبسه التأديبي إلى هيئة التحرير، وهنا يقيس على الخريطة ببوصلة أقصر الطرق من موسكو إلى الهند، ويتضح له أن

الطريق قصير للغاية. ثم يجلس ويكتب مقالات يقارن فيها بين الرمال المتحركة والواحات الضاحكة، وبين أوقات النقص المؤقت للماء وأوقات وفرته علاوة على جودته الممتازة. اغتنم هذه الفرصة وأطلق على الإبل «سفن الصحراء»، ونصح دائماً بالحفاظ على عدد قليل من الإبل الإضافية في المحمية لأنها تساعد في الصحراء قائلًا: «من المعروف أن الإبل... إلخ»، وبفضلها لن يحدث نقص في المياه. جوز الهند مفيد أيضًا لهذا الغرض ما دام لم ينضج بعد ويمتلئ باللبن.

فيما يتعلق بأوتشيشيوني فقد اتسم سرده التاريخي بطابع مزدوج. في فترة عدم وجود صوم كتب أن حياة مجتمعنا الراقي قد انتعشت، وأقيم منذ أيام حفل زفاف الكونت فيدوروف والأميرة جريجوريفا ثم أقيم حفل راقص للشباب. غطوا درجات السلم بالسجاد الشرقي الفاخر وزينوها بالنباتات الاستوائية، وعيّنوا تحت المظلة، عند كل درجة، خادمًا يرتدي ثيابًا قديمة منذ زمن لويس الخامس عشر. وفقًا لشهادة المضيفة الفاتنة كلّفت بواريك الخدم وحدها خمسين روبلاً للقطعة، أما تكلفة الأحذية والجوارب فلم يُقدّم حساب عنها بعد. مع حلول فترة الصوم صاح أوتشيشيوني: «الآن أيتها السيدات، علينا أن نُقبل على تناول الفطر (المشروم)»، وحكى كيف اعتادت الأميرة الفاتنة زيزي بروكوفوفا أن تسلك بياثار وتأكل الفطر المخلل بينما ينظر إليها الوالدان المحترمان ويقولان: «علينا أن نحب هذا الطعام لأنه يُدكّرنا بأننا لسنا إلا مسافرين عابرين في هذه الحياة».

فاقت نتائج هذه الجهود كل التوقعات. في البداية اقتصر الأمر على

شراء الطهارة للجريدة، ولكن بعد ذلك بدأ الحوذية والبوابون وأخيرًا أصحاب الحانات يشترونها. قال رازوفاييف، مالك إحدى الحانات، مباشرة، إنه لو تمكن من العثور على أشخاص حكماء يمكنهم أن يشتروا يوميًا ضرورة حظر فودكا كولوبايف وفزدوشنيكوف، وتحويل فودكاه إلى شراب إلزامي لكل الحكماء «لما ندم أحد أبدًا على هذا». بالرغم من العروض المجاملة التي عُرضت علينا في هذا السياق فإننا قاومنا وظللنا مخلصين لكوبيشكين.

لاحقًا تطورت الأمور.

تدريجياً دلفت الجريدة إلى عالم البيروقراطية. في البداية اقتصر قراؤنا على الموظفين المكتبيين ثم بدأ مسؤولو الطاولات (٢٠٢) يقرأونها، وأخيرًا رؤساء الأقسام. هنا تلقينا عروضاً مغرية من قسم التوزيع والأرباح، وكنا قد سمحنا لأنفسنا بأن نُوجّه له بين الحين والآخر نقدًا لاذعًا. لكن في هذه المرة أيضًا قاومنا وظللنا مخلصين لكوبيشكين.

أخيرًا حل اليوم الذي طال انتظاره؛ وقعت الجريدة بين يدي الكونتيسة فيدوروف الناعمتين، المولودة باسم الأميرة جريجوريفنا (٢٠٣). تلقينا عروضاً قوية. عرج الكونت فيدوروف بنفسه علينا لإجراء بعض

(٢٠٢) موظفون في الدرجة السابعة في الهيكل الإداري الروسي القديم يتولى كل منهم قسمًا يُطلق عليه «طاولة».

(٢٠٣) اسمها الحقيقي جريجوريفنا، أما فيدوروف فهو اسمها بحسب نسبتها إلى زوجها «فيدوروف».

المفاوضات، لكننا بقينا مخلصين لكوبيشكين.

صار كوبيشكين بمثابة لافتة، وقد تمسك كثيرون بها!

أما هو، فقد ابتهج وانتفخ وهو ينظر إلينا. هو شخصيًا لم يكن يقرأ المقالات الافتتاحية حيث كان يراها مملة، لكنه أمرنا بإبلاغه عنها، وفي كل تقرير اعتاد أن يكتب في جانبه: «صحيح». أما مقالات أوتشيشيوني فقد اعتاد أن يقرأها بنفسه، من السطر الأول وحتى الأخير، وعندما يشعر بالرضا الشديد يقول في أول يوم الأحد، قبل تناول الوجبة الخفيفة التي تُقدَّم له خصوصًا مع كأس فودكاه الحلوة المعبودة: «هذه الكأس في نخبك».

لم يُعيِّن لنا أجرًا ثابتًا، لكنه بين الحين والآخر يدفع لنا مبلغًا، وفي كل مرة يقول: «لا حاجة لكم إلى تذكيري، فأنا أعرف جيدًا احتياجكم». في المجمل، حصلنا على الكثير، وكلما حصلنا على المزيد ازداد غضبنا.

أخيرًا غضبنا إلى درجة أننا صرنا نركض إلى الشارع بوجوه شاحبة، وقد غمرنا سُم الأفعى، نطلق مختلف أنواع الانتقادات والوشايات. لعنَّا العقل البشري وأشرنا إليه بوصفه أصل الشرور التي اكتفتنا. تنبأنا بكل المحن الممكنة وبذرنا القلق في القلوب وزرعنا الكراهية وروينا الشقاق والضغينة بين الناس، ودعونا إلى الإبادة التامة. أخيرًا تذرنا من عدم استماع الناس إلينا.

بعد كل ذلك كنا نعود إلى المنزل ونأكل ونشرب وننام، ونؤدي كل الوظائف البشرية.

ختام

في خضم هذا النشاط المحموم نسينا الخزي تمامًا.
لكنه لم ينسنا.

أذكر في الليلة السابقة انخرطنا بكل قوتنا في كتابة مقالة مدوية أثبتنا فيها أن المجتمع على حافة الهاوية. صحنا أن الأمر لا يتعلق على الإطلاق بالقبض على من يصفونهم بمبطلّي المجتمع، فمهما كانت خطورتهم فهم في واقع الأمر مجرد أداة عمياء في أيدي بعض الحاذقين الذين بوسعهم أن يطلّوا الفكر... الفكر... الفكر الإنساني نهائيًا. لن يُجدي شيء حتى يتحقق ذلك، ففي هذا الأمر وفي هذا الفكر المُفسد وتحريضه يكمن مصدر كل التهديدات. إذا لم تُتخذ تدابير نشطة في هذا السياق، وفي أشد الأوقات إلحاحًا، فلا بد لعواقب هذا التردد أن تنعكس في الأساس على صناعتنا. سيكون مصنع كويشكين أول مصنع يضطر إلى خفض إنتاجه من النسيج إلى النصف... هنا يتبادر السؤال: ماذا سيحدث لحشود العمال التي ستركها هذا الخفض في

الإنتاج بلا عمل؟ على من تقع مسؤولية هذه الفوضى التي قد تنتج عن ذلك؟

بدأ الخزي بحقيقة أننا في أثناء قراءة الجريدة في صباح اليوم التالي لم نصدق أعيننا. فكرة أننا كتبنا هذا المقال ونشرناه بأنفسنا بدت بعيدة جدًا لدرجة أننا بعد قراءتها صحننا بصوت واحد: «أي مقالات تُنشر في هذه الأيام!»، وشعرنا بمثل هذا الشعور الواخز كما لو أن أحدهم أساء إلينا إساءة بالغة.

باختصار، نسينا...

لكن تعين علينا أن نتذكر، وقد تذكرنا فعلاً. بدأت عملية التذكر بشكل عرضي تمامًا. جاء أوتشيشيوني وجلب مقالة هزلية حكى فيها عن البارونة ماريا كارلوف، وكيف جابت الجزر بعربة ترويكافرفقة الكونت سيرجي فيدوريتش. اعتاد أوتشيشيوني أن يأتي إلينا كل أسبوع بمقالته الهزلية المتفق عليها، ودائمًا كنا نرحب به ترحيبًا حارًا. لكن في هذه المرة بدا الأمر لنا غريبًا؛ كيف انتهى الأمر بأن يأتي إلينا هذا العجوز الخبيث؟ بدأنا نحدّق إليه. حدّقنا وحدّقنا، وفجأة لمع شيء أمام أعيننا، في البداية نقطة واحدة ثم أكثر وأكثر حتى تحولت إلى حريق كامل مرة واحدة! كل الأحلام والحقيقة ظهرت أمامنا فجأة. قال جلوموف بعصبية:

- «الإثراء الشفهي» هذا من عمل أيدينا!

ردّدت خلفه كالصدى:

- وهذه المقالة التي كنا نقرأها لتوّنا من عمل أيدينا أيضاً!

تملكنا الخوف. شعور بليد باليأس يكاد يصل إلى الذهول. من الواضح أننا حاولنا استجماع شتات أفكارنا، ولم نستطع حتى أن نسأل أنفسنا: «وماذا بعد؟». لم نطرد أوتشيشيوني من الشقة، وعندما أصر على إرسال مقالته إلى المطبعة حدّقنا إلى عينيه في صمت. أخيراً جاء منضد الحروف المطبعية من المطبعة وأخذ يحثنا على إرسال المواد المطلوبة، لكنه اضطر إلى العودة إلى منزله حينما لم يجد أي استجابة.

مع ذلك سُوّيت الأعمال الصحفية بطريقة ما. وجدنا في مكاننا في حانة «كوكتيلات» صحفيين أحضروهما إلى كويشكين وعينوهما في العمل. بعد ساعتين صارت المقالة الافتتاحية جاهزة. أُثبت فيها أنه إذا كان من المهم لشارب الخمر تحديد رقم الكأس التي ستُسكّره، فمن الضروري أيضاً تحديد الأمر ذاته في كل فروع العمل الإداري. في كل مكان يمكن للمرء أن يرى هذه الكأس المميّنة، ولكن الحكيم وحده هو من يمكنه التنبؤ بها والامتناع عنها.

لقد أُصيب الهدف مباشرة، لكن كويشكين لم يفهم الأمر إلا حينما طالبه القراء بتفسيرات. حينها لم يكن بالإمكان فعل شيء، وتطلب الأمر إرسال الصحفيين خلف ذويهما إلى فندق موسكو.

وجدوا صحفيين آخرين أصلحوا الأمر بكتابة تفسير باسم هيئة التحرير أكدا فيه أن كل ما قيل في العدد السابق عن كؤوس الخمر هو نتيجة سوء فهم، كما أكدا أن هيئة التحرير الجديدة (كان كويشكين قد طردنا، أنا وجلوموف، بالفعل) لم تقبل حكاية الكأس المميّنة هذه

إلا لهدف تعليمي وحسب. تبع ذلك مقالة افتتاحية طويلة طورا فيها فكرة أنه بمناسبة اقتراب عيد القيامة سيكون هناك طلب متزايد على البيض^(٢٠٤)؛ الأمر الذي سيعطي الصناعة الوطنية دفعة جديدة بلا شك. إذا أضفنا إلى البيض كعك عيد القيامة أيضًا فسنضيف أيضًا مليونين أو ثلاثة إضافية للتداول العام!

في أثناء ذلك كنا لا نزال نستجمع شتات أفكارنا. لم نتحدث حتى مع بعضنا كما لو أننا نخشى من أن التفسير سوف يُسرّع حلول لحظة معينة نشعر فيها بحاجة إلى الابتعاد. هنا ناورنا وتحلينا بالمكر، وأملنا أن يمر الخزي بطريقة ما ويتلاشى تدريجيًا.

لكننا فجأة شعرنا بالمعاناة. لا أقصد معاناة التبطل التي يختبرها إنسان لا يعرف كيف يقتل وقت فراغه، ولا معاناة الانبطاح التمل غير الواعي لقوى تقود الإنسان إلى حبل المشنقة أو حفرة جليدية أو مبارزة بالمسدسات. لا، لقد كانت معاناة واعية تمامًا يتطلب التخلص منها فعلًا واعيًا ومقصودًا، وليس عرضيًا. الألم الذي جلبته إلينا هذه المعاناة بدا أشد تعذيبًا، فكل ضربة توجهها لا تنتج عن القوى الكامنة فيها وحسب، بل عن قوة تضاعفت ثلاث أو عشر مرات بفعل حساسية الجسم المستقبل لها. لم تكن إعدادًا، بل ربع الساعة المتبقية قبل تنفيذ الإعدام حين يُتلى الحكم وينظر المحكوم عليه بعينين متحجرتين إلى منصة تنفيذ الحكم.

باختصار، كانت معاناة الخزي الذي استيقظ من سباته.

(٢٠٤) شاع في روسيا تبادل وتناول البيض في عيد القيامة.

لم نسأل أنفسنا عن طبيعة هذا الخزي، بل شعرنا بحضوره وحسب.
شعرنا بوجوده في أنفسنا وفي البيئة المحيطة بنا وفي الشارع وفي كل
مكان؛ خزي رُسم على وجوهنا جعل المارة ينظرون إلينا بذهول.

ماذا حدث لاحقاً؟ ما الحل الذي وصلنا إليه؟ فليخمن القراء
بأنفسهم.

يُقال إن الخزي يُطهّر الناس، وأنا أصدق ذلك، ولكن عندما يُقال
لي إن فعل الخزي ينتشر بعيداً وأنه يُهْدَب ويتتصر، أنظر من حولي
وأذكر تلك الدعوات المتباعدة للخزي التي ظهرت بين الحين والآخر
وسط حشود الوقحين ثم تلاشت وسط الأبدية... أتذكرها وأمتنع عن
الاستجابة.

* * *

تذييل المترجم

بهذا العمل نختم المرحلة الأولى من سلسلتنا: «مختارات من الأدب الروسي». ضمت المرحلة الأولى خمسة أعمال لأربعة مؤلفين: ألكسندر جيرتسن - ديمتري جريجوروفيتش - نيقولاي ليسكوف - سالتيكوف شيدرين.

تناولت هذه المرحلة الممتدة من ١٨٤٠ - ١٨٨٠ تقريباً، وقد شملت هذه الفترة أحداثاً مهمة في المجتمع الروسي.

تناولت الأعمال الخمسة حياة الفلاحين الروس في عصر القنانة، وشكل الحياة الاجتماعية في المدن الصغيرة والكبيرة، والتناقضات الطبقيّة، كما تناولت دور الكنيسة الأرثوذكسية في تشكيل الوعي الجمعي، وحياة الإكليروس. رصدت أيضاً هذه الأعمال التغيرات الاجتماعية والسياسية التي حدثت بعد إلغاء القنانة.

على المستوى الفني شملت هذه الأعمال مختلف التيارات والتقنيات الأدبية. نجد فيها الروايات السيكلوجية والواقعية والساخرة وروايات ذات أشكال فنية مبتكرة.

ترجمنا لكاتبين لم يُترجم لهما شيء إلى العربية تقريباً: «جيرتسن - جريجوروفيتش»، كما ترجمنا لكاتبين من عمالقة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، ولم تُترجم لهما إلا أعمال ضئيلة جداً: «نيقولا

ليسكوف - سالتيكوف شيدرين». حاولنا إذن أن نقدم في هذه المرحلة أعمالاً وأسماء مهمة للقارئ العربي، علاوة على قراءة مرتبة تُمكنه من فهم تطور المجتمع الروسي اجتماعيًا وسياسيًا، وتطور التقنيات الأدبية تدريجيًا في هذه الفترة.

لم تكن المهمة سهلة على المترجم ولا على دار النشر، لكننا حاولنا بقدر المستطاع تقديم الأدب الروسي بصورة جديدة. انتظرونا بإذن الله في المرحلة الثانية مع أعمال وأسماء جديدة، لنواصل رحلتنا في رحاب الأدب الروسي العظيم.

